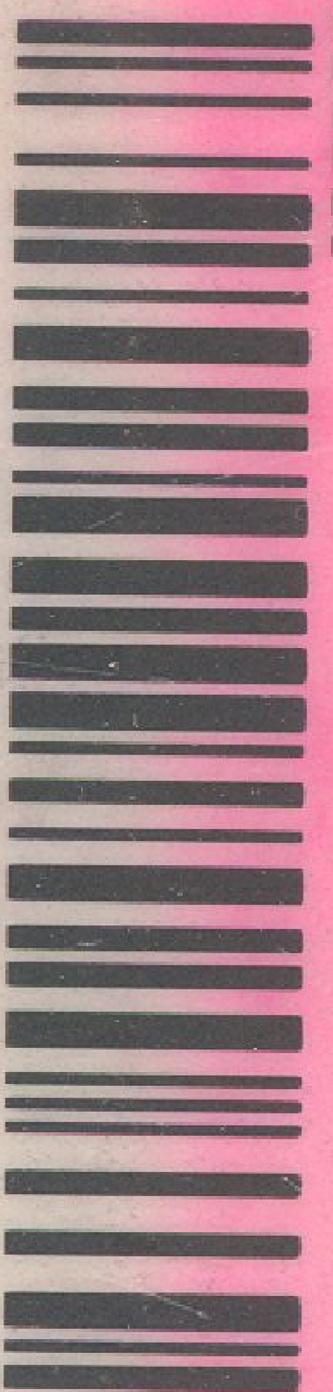



اقرأ

الدكتور نقولا فياض

من نافذة العقل

ألم وطب ، وأدب وحب

مِنْ نافذة العقل

ألم وطب ، وأدب وحُب

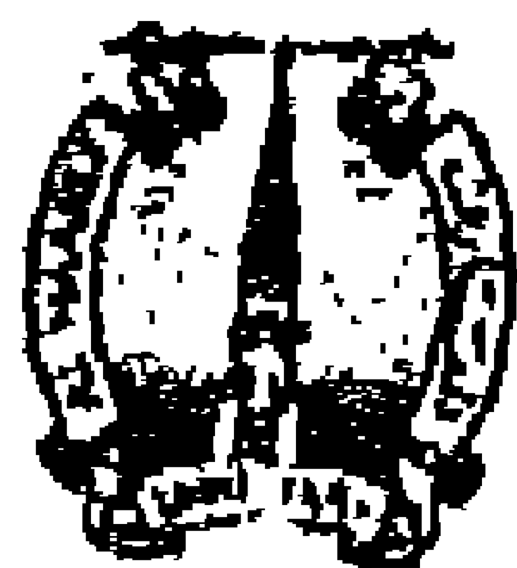
الدكتور نقولا فياض

من نافذة العقل

ألم وطن ، وأدب وحب

اقرأ ١٠١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠١ يونيه سنة ١٩٥١



أحلام الهستريا

الهذيان، المشيطنون ، ديوان التفتيش

أتى حين من الدهر كان فيه مستشفى « السالبانزيار » فى باريس قبلة أنظار أطباء وعلماء النفس وجمهور المثقفين ، للآفاق الجديدة التى كشفها الأستاذ شاركو فى دروسه عن الأمراض العقلية والعصبية ، ولكن لم يكن من السهل على الغريب عن المهنة الوصول إلى استماع هذه الدروس لأن شاركو كان يقفل أبواب ناديه دون العامة من الناس أولا لأن هذه المباحث الجديدة التى كانت تنذر بانقلاب غير يسير فى المعارف الفلسفية والتاريخية والحقوقية لم يكن من ورائها سوى التعب للعقول غير المستعدة ، وثانياً لأنه كان يضن بالإنسانية المتألمة أن تكون ملهى للناظرين كما على ملاعب التمثيل ، وثالثاً لأن مشهد النوب العصبية يعدى ، وكثير من المستعدين لهذه الأمراض تؤثر فيهم هذه الأمور إلى درجة يضطر معها الطلبة والمساعدون إلى ترك أستاذهم أثناء المحاضرة والانصراف إلى الاهتمام بمن تصيبه النوبة من السيدات الحاضرات .

إن نوبة الهستريا القائمة على حركات تشنجية فى الأعضاء وهياج متقطع تنتهى بهذيان يتخيل فيه المريض بقوة وإيمان أنه يرى ويعيش بعض حوادث هامة من حياته الماضية . فى القرون الوسطى وحتى القرن الأخير عندما كانت التربية الأوربية دينية محضة ، وعذاب النفس قائماً على العراك بين الأرواح الطيبة والخبيثة ، كان للشياطين والملائكة المدخل الأكبر فى هذا الهذيان؛ أما اليوم فكل بنات العوام تقريبا، اللوانى يعالجن فى المستشفيات ، هذيانهن عاطفى محزن أكثر مما هو روحانى يثيره هجر صديق أو جفاء حبيب ، على أن هذا الهذيان لا يحيد فى تطوره شعرة عن الهذيان القديم .

يروى أن مريضة فى مستشفى شاركو ألمت بها النوبة العصبية للمرة الأولى وهى فى السادسة عشرة على أثر حريق التهم منزل أبيها، ثم بعد زمن كانت تشهد رواية « جول ڤرن » الذى طاف حول الأرض فى ثمانين يوماً ، فهالها مشهد الأفاعى عند ظهورها على المسرح والتفافها حول اثنتين من الممثلات فأصابتها النوبة ثانية . ولما هجرها حبيبها صارت النوب تعودها كل يوم، وهذيانها يتناول الحريق والأفاعى والهجران كأنما هى تعيش وسط هذه الحوادث، فكانت تغمض عينيها وتمد يديها كأنها تدفع هذه الأفاعى الهائلة وهى تقص ما ترى مرتجفة هلعاً ،

وتصف المشاهد وصفاً دقيقاً رائعاً ، ثم تفيق من غيبوبتها وهي مثلي ومثلك كأنه لم يقع شيء.

أمثال هذا الهذيان يتطور في جهات محدودة هاك أهمها :

١ — يكون الهذيان كاملا والتخيل مطلقاً فيحمله المريض كأنه شيء واقعي ويقصه بإخلاص وصدق .

٢ — ليس الهذيان اختراعاً من عقلها بل تذكارات لأمور جرت إلا أنها تتوسع في وصفها وتخلع عليها حلة مسرحية .

٣ — ليست الرؤيا جامدة فقد تظهر إلى يمين المريضة أو يسارها ثم تتقدم وتختفي عند ما تصير قبالة وجه المريض .

هذه الخواص الثلاث تساعد على إلباس القصة التي يرويها المهسترون أو المهسترات ثوباً من الحياة يزيد في تقريبها من الواقع .

ومن المعروف أنه يمكن في حالة النوم المصطنع أن توحي إلى النائم ما تريد من الخيالات فتريه زهراً وتنشقه عطراً وتطعمه سكراً أو ملحاً ، وتجعله يسمع كلاماً أو يلمس أشـياء وهمية لأن المصاب بالهستريا محروم من الإرادة فهو كالشمع الطري ينطبع عليه ما تشاء الإرادة الغريبة عنه فيتصور حقاً أنه يرى ويسمع ويستنشق ويتذوق ويلمس ما يحدثونه عنه . وهو يقص حالة هذيانه بعبارات سيالة فيها الكثير من دقة التفاصيل حتى

يخال أنها الحقيقة بعينها .

إذن قد يكون سبب الهذيان تذكار مشهد من الحياة الماضية أو تسلط إرادة غريبة ، ولكن ثمت أموراً أكثر غرابة فقد يوحى المهستر إلى نفسه فى الليل أثناء نومه الطبيعى أو بتأثير الحلم (لأن للأحلام مدخلا كبيراً فى حياة المهسترين) أضغاثاً يبلغ مدى تأثيرها درجة تبقى أثرها فى الذاكرة بعد اليقظة كأنها شىء واقعى . ولا بأس من الإسهاب فى هذا الباب .

* * *

كثيراً ما يقع للمريضة فى المستشفى أن تعلق بحب أحد الطلبة أو أن يتولد فيها كراهة له ونفور منه ، فتحلم به فى نومها . وفى الغد عند اليقظة يكون أول ما تعمل الشكوى من التلميذ وأحياناً من الأستاذ نفسه مدعية أنه راودها عن نفسها . وقد يكون للشكوى ذيول لها أثرها لأسباب مختلفة كغياب الشهود مثلا أو الصعوبة التى يلاقيها المتهم فى تبرئة نفسه ، فتصور أيها القارئ ما يمكن الانتهاء إليه بهذه الشكوى ، ولا سيما لأنها تحمل ظاهرة الحقيقة بما فيها من التفاصيل والدقة فى الوصف مما يحير أعظم القضاة لدى الاستنطاق .

ولا يمكن الاعتراض بأن محاولة الاعتداء على طهارة فتاة لا بد أن تترك أثراً من آثار العراك كالجراح أو غير ذلك ،

فالهذيان نفسه يترك مثل هذه الآثار وإليك بعض الأمثلة :

يحكى أن فتاة عصبية المزاج شاهدت فى النهار شاباً تعرفه معرفة سطحية . لم يكن للأمر أهمية فى حد ذاته ، ولكنها حلمت به فى الليلة التالية — كما يحدث للواحد منا عندما يحلم شيئاً وقع له حديثاً — حلمت أنه لاحقها بشدة فى طريقها ، وكانت المسافة طويلة شاقة ، وعندما أعيتها الحيلة ولم يبق لها قوة لمتابعة السير ألقت بنفسها فى حفرة فكسرت ساقيها .

نهضت الفتاة فى الغد بعد هذا الحلم وهى منهوكة القوى ولا سبيل إلى تحريك رجليها ، وأخذت تقص بحرارة الواثق من نفسه ، المؤمن بما يقول أن فلاناً تبعها فى الطريق وسبب لها السقوط والكسر . وبعد الفحص ظهر أن الساقين غير مكسورتين ولكن بهما شللا . وقد بقى هذا الشلل ستة أشهر . إذاً يكفى حلم بسيط عند أمثال هؤلاء المرضى ليترك آثاراً مادية يخال معها أن القصة واقعية . وإليك ما هو أهم .

قضت إحدى المهسترات الليل فى سريرها وهى تتألم كما شهد بذلك جاراتها المريضات والممرضات اللائى لم يفارقنها لحظة ، دون أن يكون هناك فى الظاهر ما يزعجها فى نومها . ولما استيقظت صباحاً أخذت تقص حادث الليل وأنها اشتبكت بالعراك مع أحدهم — وذكرت اسمه — وقد حاول السامعون

إقناعها أنها حلمت حلماً فما أفلحوا بل كانت تشكو من ألم في بدنها هنا وهناك ، وأبدت في الموضع الذى ادعت أن المعتدى ضربها فيه بقعاً من الدم المتجمد . هذا الدم المتجمد قد يظهر بتأثير الاستيحاء بالحلم والتصور ، وإن هو سوى اضطراب موضعى فى الدورة الدموية ، والبرهان على ذلك اختبار بسيط طالما أجروه فى مستشفى «السالباتريار» : ضع على يد المريضة ورقة مصمغة أو طابع بريد مثلا واربطه برباط سميك واختمه بالشمع حتى لا تمد إليه اليد . ثم أكد للمريضة أن ما وضعوه على يدها « حراقة » فتجد بعد ساعات عند رفع الرباط أن الإيحاء قد كفى ليفعل فعل الحراقة الحقيقية فإذا بالجلد قد ارتفع وتكون تحته سائل . هذا الاضطراب الموضعى الذى يسببه تأثير الإيحاء أو الحلم يفسر بشلل موقت فى الأعصاب المحركة للأوعية والشرايين وهكذا يخلق الحلم حقيقة .

* * *

ليست هذه الأمور هامة لذاتها فقط بل لما تجره من العواقب فى القضاء فقد يحكم على برىء إذا شكاه مهستر صادق فى اعتقاده ، غير أن هـــذه الحوادث أصبحت نادرة الوجود فى حياتنا الحاضرة . على أنه بالرجوع إلى الماضى يمكننا أن نجد فيما وصلنا إليه حديثاً تفسيراً لكثير من الوقائع

التاريخية التى بقيت غامضة زمناً طويلا .

إذا قلبنا صفحات التاريخ فيما يتعلق بقديم الدعاوى التى كانت تقام على السحرة والشياطين والمشيطنين ، فإن من غريب ما يسترعى انتباهنا قوة الملاحظة وفرط الاهتمام بالحقيقة والعناية الكبرى التى كان يبديها قضاة محاكم التفتيش لذلك العهد فى سرد الوقائع بالتفصيل وتقييد كل شاردة .

ولا غرو إذا بلغ اهتمام أولئك الرجال الذى سودت فظائعهم صحائف الماضى هذا الحد من الدقة والتنظيم فى ذكر الحوادث على نزاهة المقصد وحسن النية فقد كانوا يعتقدون أنهم يحاربون الشيطان عدو البشر الأزلى .

وجميع الحوادث التى تعاقبت على مستشفى السالباتريار وكانت موضوع الدرس والاستقصاء العلمى وجدوها فيما بعد واردة فى تلك الدعاوى بحذافيرها فكأن أولئك القضاة كتبوا من غير أن يدروا تاريخاً شاملا للأمراض العصبية كما كانت ولا تزال ، دون أن يتبدل فيها شىء سوى معالجتها فناب الرفق عن التعذيب واستعيض عن اللهيب بالماء الصبيب .

ذكر « جيل دلاتورث » فى كتابه الجامع لهذه العبر التاريخية حادثة « سانت تريز » وأحلامها وغيبوبتها . وقد أجمع الأطباء على احترام هذه القديسة حتى إن شاركو نفسه وصفها بالعبقرية

للدقة التى أظهرتهـــا فى تحليل دائها حتى أدخلتنا هيكل أسراره .

ولكنهم – أى الأطباء – لم يكونوا عند هذا التحفظ فى درسهم حياة قديسة أخرى هى رئيسة دير الأرسولين فى لودون . فقد كانت العفة والخوف على العفة الشغل الشاغل لهذه المرأة المريضة ، فإذا نابها العارض العصبى رافقه أحلام غريبة كزيارة الدوق بوفور الجميل الطلعة ، فى صورة ملاك أو زيارة الشيطان فيهزها هزًّا عنيفاً ويحاول إغراءها بشتى الوسائل وأفظعها كما تقول ثم يقنعها بأنها حامل .

وقد أثارت قصصها ضجة عظيمة حتى اضطر لوباردون سكرتير رشيليو إلى التدخل فقدم عنها بياناً ضافياً إلى معلمه فحكم عليها كما حكم على الكاهن غرانديه بالنار لأنه تجلى لها فى الرؤيا .

وكم من الذين حكم عليهم على هذه الطريقة ، ولا ذنب لهم سوى أضغاث أحلام ، ولا سيما النساء فهذه ترى الشيطان آتياً إليها فى شكل إيل فيضرب برأسها الجدار ، ثم يطرحها أرضاً ويهشمها ، وتلك تظهر على بدنها بقع سوداء من جراء لطم الشيطان لها بذنب من حديد كلما بدا منها تمنع أو عصيان .

لقد أظهرت بحوث شاركو وزملائه أن هذه الحوادث من أعراض الهستريا وهذيانها . وسواء أجاء هذا الهذيان عقب حلم أم نوبة عصبية فإنه يدل على ما كان يشغل ذلك العصر بالأكثر ، وهو تدخل الشيطان فى كل كبيرة وصغيرة ، حتى إن بطلان الإحساس الجلدى فى ناحية من الجسم الذى نسميه اليوم الفلاجة أو الخدر الموضعى كان يطلق عليه اسم خاتم الشيطان . ولم تتبدل الأعراض أى تبدل ، فأضغاث الأحلام فى عهد لويس الثالث عشر ورشليو ، كما فى عهد شاركو ، هى هى لا تزال تترك فى البدن آثاراً شاهدة على ضغط أنامل الشيطان .

* * *

إن فضل العلم أنه فتح باباً جديداً ندخل منه إلى درس التاريخ على ضوء الحقائق الطبية فيخلع نوراً جديداً على بواطن النفوس ، نفوس أولئك المرضى وجلاديهم .

لقد كان الشيطان يزعج بخطاياه النساء المهسترات ولا سيما المترمتات منهن فكانت أعصابهن سريعة التأثر ، وزاد فى ذلك حياتهن المشتركة فسرعان ما كانت العدوى تسرى من الواحدة إلى الأخرى . وجاء التبجح وحب الظهور ضغثاً على إبالة فكن يتهمن أنفسهن فى حالة الهذيان بصداقة العفاريت

ويفاخرن بالجحيم ، فأنى النجاة من القصاص ، وكيف لا يعاقب بالنار هؤلاء الناس أعوان الشياطين .

وقد مر بنا أن قضاة التفتيش كانوا يقيدون بدقة كل ما يروى لهم عن تلك الحوادث فإذا كانوا قساة القلوب فقد كانوا يعملون حسبما يوحى إليهم الضمير ، مقتفين بقداسة مهمتهم فى طردهم الشيطان عدو البشر وتطهير الأرض منه .

وقد وصمهم المؤرخون والشعراء بالعار إلا أن العلم ينزع عنهم هذه الوصمة لأنه لم يكن فى مقدورهم أن يصفوا غير ما وصفوه .

ومهما يكن فإن هذه الأخطاء أصبحت نادرة اليوم وآخر ما جرى من هذا القبيل حادثتان ليس العهد بهما ببعيد . الأولى أوردها الأسقف « دى سكور » فى كتيب له أراد به تخويف الناس من الشيطان . وتحرير الخبر أن شاباً من الأتقياء الصالحين زاره إبليس ليلا فنهض صباح الغد وعلى كتفه بقع مكمدة من ملامسه الشيطان له . وادعى بعضهم أن ذلك من مخترعات الأسقف جاء به لدعم حجته على أن صحتها ممكنة لأن اختبارات شاركو تؤيد حصول مثل هذه الرضوض عند المهستريين إبان أحلامهم .

والثانية صورة طبق الأصل لما جرى مع رئيسة دير الأرسولين

والكاهن غرانديه سنة ١٦٣٤ . وذلك أن بنت الجنرال . . . كانت نائمة فاستيقظت على صوت تكسر زجاج النافذة فأزاحت الستار ورأت على ضوء القمر يداً تمتد إلى مزلاج النافذة ثم دخل شاب عرفته حالا فاحتمت بالكرسى ، ولكنه هجم عليها قائلا جئت لأنتقم ، وطرحها أرضاً ونزع عنها القميص وأخذ يضربها ضرباً مبرحاً ثم طعنها بالسكين فى فخذها فصاحت من الألم واستيقظت الخادمة فى الغرفة المجاورة ولكنها لم تر شيئاً ولم تسمع سوى تنهدات الفتاة فى حالة العارض العصبى.

والظاهر أن الضربات لم تكن شديدة إذ شوهدت الفتاة فى حفلة راقصة بعد يومين من الحادث أما الشاب فحكم عليه بالحبس عشر سنوات قضاها فى سجن كلرفو وبعد خروجه منه ظهرت براءته لأنه تبين للقضاة أنه فى تلك الليلة المشئومة كان عند عشيقة له ذات بعل ، وإنما خوف الفضيحة منعه من الإقرار وأثبت عليه التهمة .

تلك حوادث قديمة لم يبق سبيل إلى مثلها اليوم وكلها تدل على أن تعاليم شاركو فى السالباتريار لم تخدم العلم فقط بل القضاء أيضاً .

ولا شىء أحفل بالطرف من تاريخ الفكر البشرى فى علاقته مع المجهول وهو كالعسّيف يتحسس فى الظلمة ولا هادى

له سوى نور ضئيل يجود به عليه عقله المسكين . وقد طرق الأستاذ بيتر هذا الباب فى سياق حديثه عن الهستريا فذكر عند كلامه عن التنويم ما قاساه الإنسان من الشكوك وحاربه من الأوهام فى سبيل الوصول إلى الحقيقة وإماطة اللثام عن الأسرار الكونية التى تكتنف حياته القصيرة على الأرض .

التنويم المغناطيسى

« من مسمر إلى شاركو . السائل المغناطيسى . نوبة الهستريا . النيدلة . التنور . التأثير بالوساطة . رشيه . لوسيكور . فواساك . إهيدنهام . العجائب . »

قلنا فى ختام الفصل السابق إن من أغرب الطرف حكاية الإنسان فى عراكه الطويل مع هذا المجهول الذى يحيط به ، ومحاولته كشف أسرار الكون وفض مغالقه ليروى ما به من ظمأ إلى الروح وظمأ إلى المادة ويخفف ثقل ما يعانيه من جهل وألم ومرض وفناء .

أتى عليه حين من الدهر وهو يتخبط فى مجاهل الشعوذة والسحر والكيمياء ، ثم تفتقت فكرته عن وجود سائل روحانى يربط الأرض بالسماء وكان براسلس السويسرى أول من افتتح هذا الدور ثم تلاه هلمون البلجيكى وفلود الإنجليزى فإذا الكون فى نظرهم مجموعة قوى حيوية والإنسان جزء من هذا الكون يمر فيه السائل الكوكبى الذى يصرّف أسرار الكائنات فإذا استطاع أحد الناس التقاط هذا السائل وإدخاله جسم

المريض فقد ظفر بالدواء العجيب الصادر عن القوى الحيوية التى تغذيها الأفلاك .

وكان لا بد من رجل له الجرأة الكافية ليقول للناس أنا من الذين يستطيعون التقاط هذا السائل الشافى ، ومن يدى ولسانى تنبعث قوة فلكية تخفف الأوجاع وتشفى من الأمراض .

هذا الرجل هو مسمر لاهوتى قديم ذو إلمام بالطب والفلك والموسيقى . لقد بدأ عمله فى ڤيينا فتوصل إلى شفاء أحد أعيان المجر من ألم قديم فى العنق ، وإعادة البصر إلى وصيفة الإمبراطورة ماري تريز (لأن الهستريا تذهب بالبصر أحياناً) حتى إذا عزم على الشخوص إلى باريس كانت شهرته قد سبقته إليها .

وكان مسمر يستعمل بادئ ذى بدء حجر المغناطيس ، غير أن تكاثر المرضى عليه وازدحام القصاد فى بابه دفعاه إلى البحث عن طريقة تمكنه من معالجة العدد الكبير فى الوقت القصير . فاتخذ قضيباً يحمله قوى مغناطيسية ويعالج به من ٣٠ إلى ١٠٠ مريض فى آن واحد . فكان المرضى يشعرون بالسائل الشافى ينتقل من القضيب إلى أجسادهم فيخفف من آلامهم . ثم وجد أن منبع القوى الشافية ليس فى القضيب الذى يمسكه بيده بل فى اليد ذاتها فصار يكتفى بلمس المريض ، واضعاً يده بلطف ، ماراً بها من الكتف إلى

الذراع ، راسماً دائرة حول مكان الوجع ليفصله عن سائر الجسم ، وهكذا أحيا عادة الأقدمين من ڤسبازيان إمبراطور روما إلى ملوك القرون المتوسطة ولكنه خلع عليها اسما علمياً وهو المغناطيسية الحيوانية .

ثم رأى أن اللمس غير ضرورى وحسبه أن يريد لنقل السائل الشافى منه إلى العليل فيقول كما كانوا يقولون فى عصور السحر والشعوذة « إلى الوراء أيها الألم » فيزول الألم .

وكان يعتقد كالذين تقدموه أن النوم المجلوب يشفى من الألم . وأنه فى الإمكان جلب النوم بواسطة السائل الشافى ، فكان يدخل قواه الفلكية جسم المريض حتى تنتابه الرعشة والتشنج . وكان المرضى يصطفون حول القضيب الممغنط أو يضطجعون ليتلقوا لمس يده ، أو يصغون إلى كلماته السحرية إلى أن يصيبهم التشنج فيناموا ويستيقظوا بعد قليل وقد عوفوا.

وبلغت شهرة مسمر الأوَج ولا سيما بين طبقة النبلاء حتى إن مارى أنطوانيت والبرنس دى كوندى وغيرهما كانوا أسعد الناس عندما يفوزون بمقابلته . وكان « لافايت » من أعظم المعجبين به حتى إنه لدى وصوله إلى أمريكا صاح بواشنطن وهو لا يزال على ظهر الباخرة أنه جاء يحمل إلى الأمريكان هدية غير السلاح وأثمن من السلاح .

وكان عامة الشعب يتوافدون على منزله فى مونمارتر منذ الفجر وينتظرون خروجه ليستفيدوا ولو بلمس أطراف ثوبه .

ورأى مسمر أن وقته يضيق عن إرضاء منتجعيه العديدين فصنع علبة من خشب فيها صفّان من القوارير المملوءة بالسائل المغناطيسى وفى وسطها قضيب من الفولاذ له أعواد متحركة يمكن توجيه أطرافها نحو المواضع المريضة من الجسم . فكان المرضى يصطفون حول هذه العلبة فى صمت وخشوع ويمتصون القوى المغناطيسية المنبعثة منها على تلك الأعواد . وذاعت هذه الطريقة وعظم الإقبال عليها حتى كان النبلاء والأعيان يحفظون مواضعهم من حولها قبل ميعادهم بأيام ؛ وكانوا فى ولائمهم يدعون ضيوفهم إلى حضور جلسة حول هذه العلبة بدلا من الذهاب بهم إلى الأوبرا .

ثم وجد مسمر أن العلبة غير كافية لأن عدد قاصديه كان يزداد ازدياداً هائلا فترك بيته وخرج إلى الفضاء وما تقدمه له الطبيعة من شتى الأهداف ، وصار يمغنط أحواض المياه ، والعشب والأشجار والحدائق العمومية والغابات فكنت ترى الجماهير يغطسون فى مياه البرك أو يتمددون على العشب أو يتسلقون الشجر ويتأرجحون فى الأغصان منتظرين ساعة الشفاء .

وكلما تفنن مسمر فى اختراع طريقة تسهل له استعمال علاجه الواسع وجد نفسه مقصراً حتى انتهى به الأمر إلى استعمال المرآة ينقل إليها السائل الشافى فكان الناس يمرون من أمام المرائى تعكس لهم وجوههم الكالحة وتجود عليهم بالعافية .

من القضيب إلى اليد إلى الكلام إلى العلبة الشهيرة إلى الأحواض والعشب والأشجار إلى المرائى كل هذا لم يسهل لمسمر مهمته إزاء الشهرة البعيدة وإقبال الناس عليه إقبالا يفوق التصور فتفتقت له الحيلة عن وسيلة جديدة فقال إن الأصوات الخارجة من آلات الموسيقى الممغنطة تكفى لإزالة الألم فصارت الحفلات الموسيقية تقام فى كل ناحية من باريس يشهدها القاصى والدانى والكبير والصغير .

وبديهىّ بعد هذا كله أن يصبح مسمر وافر الغنى ، ومما زاد فى ثروته أن طبقة الأغنياء كانت تأنف الاختلاط بسائر الشعب فكان يبيعها علبة بأثمان باهظة نحو المئة الصفراء لكل علبة حتى إن مدام دى بارى المعجبة به كل الإعجاب كانت تشكو من طمعه وغلاء علاجه .

وهكذا كان فى وسع مسمر أن يكون فى كلَ مكان كما فى قصص الجان. ولم يكتف بما وصل إليه، بل أراد أن يحفظ السلطان لنفسه فادعى أنه لا مندوحة عن تجديد المغناطيسية

حيناً بعد حين فى العلب والأحواض والأشجار وغير ذلك مما أقلق بال مريديه وأشياعه فراحوا يتساءلون ماذا يحل بالناس عندما يقبض الله مسمر إليه . وتسرب هذا القلق إلى الحكومة نفسها فسعت إلى إقناعه بتلقين سره تلاميذه كى لا تحرم الذرية من منافعه وعرضت عليه مقابل ذلك أربعين ألفا من الذهب كل عام .

ولكن ما هى الأربعون ألف دينار إزاء ما كان يربحه هذا الساحر ؟ إن غاية مناه بعد ما أثرى أن يكون له مقام علمى وشهرة خالدة فاشترط على الحكومة أن يعترف به المجمع العلمى، وهذا ما عز الظفر به حتى اضطر لويس السادس عشر إلى التدخل والتوسط فطلب من المجمع امتحان طريقة مسمر علماً وعملا .

وعليه اجتمع أعضاء المجمع وبينهم كليوتين مخترع المقصلة التى أطاحت فيما بعد برأس لويس السادس عشر ، ولافوازيه أشهر كيماوى العصر الذى كتب له أن يلقى حتفه بها كذلك . وبنيامين فرنكلين مخترع الشارى أى قضيب الصاعقة فأسفرت بحوثهم عن أن المسمرية طريقة غير علمية ولا يمكن الاعتراف بها .

غضب مسمر عند ذلك غضباً شديداً وهدد بمغادرة باريس

فهلع لهذا النبأ قلب مارى أنطوانيت وراحت تحاول بشتى الوسائل إرضاءه على غير طائل ، غير أن بعضاً من أشياعه تطوع للاكتتاب بمبلغ عظيم لإنشاء مجمع مسمرى يقف فى وجه المجمع العلمى .

جرى كل هذا والثورة الفرنسية على الأبواب فجاء عهد الإرهاب وأقام حداً للجدل وذهب الكثير من المكبرين لمسمر إلى المشنقة واضطر هو إلى الفرار بأسرع ما يمكن فقصد إلى فيينا مطلع نجمه ولكن حكومة الإمبراطور اعتقلته خوفاً من أن يكون رسول الثورة ولم يطلق سراحه إلا بعد شهرين فتولاه اليأس وعاد إلى مسقط رأسه فى مرسبه رغ . وكانت الحوادث تتعاقب بسرعة هائلة لم تترك للناس أن يفكروا بأحد حتى ولو كان مسمر الساحر .

وهكذا هبط هذا الرجل العجيب من ذروة مجده كما صعد إليها ، وطوى العشرين الباقية من سنه فى ظلمة النسيان قبل أن تغمره ظلمة الموت ، وقديماً قال الشاعر :

ما طار طـير وارتفع إلا كما طـار وقع . .

* * *

ثم جاء المركيز « بويسكور » وكان رجلا فاضلا محبـاً للإنسانية عفيفاً فى جمع المال كريماً فى بذله فارتأى أن يمغنط

شجرة كبيرة يأوى إلى ظلها المتعبون . وخيل إليه أن النيدلة وهى ما يقال له فى الفرنسية Sommandulisne ، تفيد فى كشف الغيب وأن النيدلان قد يساعد على تشخيص المرض ووصف العــلاج .

وفى عام ١٨٢٠ طلب « فواسالك » ، من المجمع الطبى أن يبدى رأيه بعد الدرس والتحقيق فى حوادث النيدلة وما يعزى إليها من النبوءات وتشخيص الأمراض والقراءة من خلال الحجب فكانت النتيجة على عكس ما أمل، وأقرت الندوة الطبية أن المغناطيسية وهم وكل ما ينسب إليها خزعبلات .

ولم يفكر أحد برسم خطة علمية للدرس والتنقيب يمكن التوصل بها إلى إماطة اللثام عما فى هذه الحوادث الغريبة من حقيقة . وفى تلك الحقبة من الزمن كان براد(Braid) أحد الأطباء فى مانشستر قد بدأ أبحاثه العلمية التى أدت إلى اكتشاف المغناطيسية الاختبارية بعد أن أظهر الراهب « فاريا » فساد الرأى السائلى ، ووصف حالة الهذيان وسدر الإحساس

---

(١) ندل الشىء أى خطفه بسرعة . والنائم الذى يقوم ويمشى دون أن يدرى أو يشعر هو كالمخطوف بقوة غريبة من اللاوعى فكلمة نيدلان فى نظرى تنطبق عليه كل الانطباق .

وأثبت الاختبار إمكان إيحـاء Hellucuiation sensoriellcs الشعور بالشيء والحس به فى حالة النوم(١) .

وذكر براد الخدر الموضعى أو الفلاجة anhestesie والتشنجات التى تصيب المهسترين ، ولم يلبث أن تأكد أن الرأى القائل بوجود سائل مغناطيسى لا يرتكز على أساس .

ولم يمض عشرون سنة على هذا التجدد حتى بدأ الجراح أزام من بوردو يفكر فى استعمال التنويم المغناطيسى فى الجراحة ولكن كل هذا كان محاولات ضئيلة ، والحركة العلمية الكبرى لم تطغ على سدودها بعد ، والأطباء فى حذر من ولوج هذه المباحث الجديدة إشفاقاً على شهرتهم أن تتصدع . إلى أن ظهر شاركو فى فرنسا وهيلنهام فى ألمانيا .

رأى شاركو عند درسه الهستريا أن السبب فى قصور المجامع العلمية السابقة عن الوصول إلى الحقيقة الكامنة وراء حوادث التنويم هو انصرافهم إلى درس الحوادث الخفية الجذابة الغريبة قبل غيرها ، فلم تكن لهم خطة منظمة ، وكان تسرعهم فى الوصول إلى الحقيقة يعوقهم سنوات عن بلوغها . ولهذا كان يقول لنبدأ أولا بالأشياء البسيطة السهلة التحليل ولا نتقدم إلا

---

(١) سدر البعير تحير بصره لغبا . والمعرى سبق ونقل الكلمة إلى التحير العقلى . ونحن ننقلها إلى الإحساس بمعنى تحيره بالتخيلات الهسترية .

بعد أن نثبت أقدامنا ولنترك جانباً ما يسمونه حوادث المغناطيسية والتنبؤ بالمستقبل والنظر المضاعف وانتقال الأفكار . ولنكن على حذر من التمويه وخداع المهسترين الذين يهمهم أن يلفتوا إليهم الأنظار ويحملوا الناس على الاهتمام بهم والتحدث عنهم ، ويجب أن لا نندفع بالحماسة بل نتئد فى السير فلا أحد يجبرنا على الإسراع ، وما يفوتنا اليوم يصل إليه أحفادنا فى الغـــد .

أليس جديراً بالإعجاب هذا الصبر من العالم وهذا التجرد فى خدمة العلم والحقيقة المقدسة ؟

لقد عرف شاركو الخطة المثلى فى درس التنويم وما يتفرع منه فانتهجها وجاءت النتائج مؤيدة صواب فكرته .

ورأى شاركو وجهاً للشبه بين هذه الأعراض وما يروى عن السحرة والمشيطنين فعمد إلى البحث فى الأوراق والكتب بمعاونة تلاميذه ، والتفتيش فى الدعاوى القديمة التى كانت نهايتها التعذيب والحرق بالنار ، فوجد هذه الأعراض مذكورة بكاملها كأنها صورة طبق الأصل لما كانوا يعتقدونه من الأدلة القاطعة على دخول الشيطان جسم الإنسان .

وهكذا فإن الخدر الجزئى كان يسمى « طابع الشيطان » ويكفى وحده ليقود إلى المحرقة . وعدم الإحساس والصمت

لدى تعذيب الاستنطاق هو كذلك من صنع الشيطان .

وتشنج الوجه إن هو إلا تكشير اللعين عندما يأتى وينظر وجهه فيه كما فى المرآة .

والقفز فى الهواء من عمل بعلزبول الذى يرفع الجسم عن الأرض .

والأصابع الثلاثة الممدودة اعتراف من إبليس بالثالوث الأقدس .

والشعور بالكرة الصاعدة من الصدر إلى الزلعوم عمل من أعمال السحر .

والزحف على البطن يدل على موقف الشيطان عندما يتغلب عليه التعزيم لإخراجه .

وهيئة المصلوب استهزاء بالموت المقدس .

والشيطان المتذكر أو المتأنث هو ما تقص المهسترات فى السالباترياز من الأحلام عن اعتداء طبيب أو تلميذ إلى آخره .

فإذا بالمشيطنين الذين كانوا يحرقون ولا ذنب لهم غير هذه الأعراض والدلائل فئة مسكينة مصابة بهذا الداء العصبى الذى يقال له اليوم هستريا .

هذا ما وصل إليه شاركو فى دروسه عن الهستريا والتنويم ولكن ذلك لم يمنع هذه العقائد أن تظل راسخة فى بعض الأذهان

ولا سيما ما تعلق منها بالتأثير عن بعد أو بالواسطة ، وهو ما يقال له بالفرنسية Envoûtement أو الشعور عن بعد ، أى الاستشفاف télépathie .

أما التأثير بالواسطة فيكون على النحو التالى :

إذا أبغضت رجلا إلى حد أن تتمنى الموت له ولكن لا إلى حد أن تخاطر بحياتك فإنك تصنع أو تكلف من يصنع لك صورته من الشمع ، ولا بأس إذا لم تأت الصورة على ما يرام فى مشابهتها للأصل فإن الشيطان يتسامح فى ذلك ولا يتشدد فيه . ثم تضع على هذه الصوره منديلا تسرقه من عدوك فتنتقل به الإحساس من جسم العدو إلى الصورة . وبعد ذلك فكل وخزة إبرة أو ضربة أو تهشم للصورة يكون فيها العذاب والموت الشنيع للرجل الذى تكره .

هذه العملية كان عقابها فى الماضى النار ، وكم ذهب من الناس ضحية لها لأقل تهمة تسند إليهم دون دليل أو برهان ، ومن الصعب نزع هذه العقيدة المتأصلة فى النفوس ، حتى إن هويسمن نفسه ظل تحت سيطرتها فادعى أنه عرضة الضربات سائلية أى ناتجة عن سائل يغزوه به عدوه ليلا حتى ان الهر الذى كان يربيه كان يشعر فى الوقت عينه بمثل تلك الهزات .

ولا غرو إذا كان هويسمن وهو أستاذ المدرسة الواقعية من المؤمنين بهذا فإن قسماً كبيراً من الأدب فى أواخر القرن الماضى كان متجهاً نحو الصوفية والروحانية .

وقد أظهر العلم الحديث اهتمامه بهذه الحوادث قصد دحضها لا إثباتها ، وكان من مدير مدرسة البولينكتيك فى فرنسا أن أجرى تجارب فى هذا الشأن فنجح فيها على مسافات قصيرة، أى أن الرقية تفعل لا من بلد إلى بلد بل على بعد ثلاثة أمتار بالأكثر وإليك البيان :

تنوم المريضة ويخرج منها الإحساس أى يجعل جلدها لا يحس وينتقل الإحساس إلى طبقة من الهواء على بعد مترين منها ، فإذا قرص الهواء أو دغدغ على هذا البعد تصيح المنومة أو يأخذها الضحك كما لو كانت الدغدغة عليها .

وإذا حملت حساسيتها بدلا من الهواء كأساً من الماء أو دمية من الشمع فيكفى لمس الكأس لتشعر المريضة فى جسدها بهذا اللمس ويكفى الشد فى شعر الدمية لتحس المريضة بالشد فى شعر رأسها . وإذا ضربت الدمية تتألم المريضة ، ومن الألم إلى الموت عند تحطيم الدمية لا يبقى إلا خطوة يخطوها أولئك الذين يحملهم الخيال إلى أبعد ما يمكن .

وأجريت التجارب أيضاً بالعقاقير فيسمم بها العدو عن

بعد دون أن يستطيع أذكى الأطباء أن يجد أثراً للسم فى أحشائه .

تلك كانت حالة العلم فيما يختص بهذه الشؤون عندما أراد « هارث » أحد أطباء الإنكليز التحقيق فيها فأجرى سلسلة من التجارب كما سترى :

* * *

ينقل الإحساس من الجسم إلى الدمية فتصبح الدمية وحدها قادرة على العمل السحرى المنشود بالتأثير عن بعد ، أى أنك إذا قرصت الدمية أو شددت شعرها أو غير ذلك فالمرأة المنومة تنويماً خفيفاً تشعر بالقرص أو الشد كما لو كان ذلك مباشرة ولكن خذ من جرابك أو (عيبة) ثوبك دمية أخرى لا تحمل السائل المغناطيسى ولا حساسية المرأة وضعها سراً مكان الأولى دون أن تشعر المرأة بذلك التبديل ، وافعل بها ما فعلت بتلك فإن كل حركة تأتى بها على هذه الدمية الجديدة تنتقل إلى المرأة ويبقى الشعور بالألم كما هو كأن لم يكن هناك تبديل ما .

وهكذا قل بكأس الماء أو الدواء مما يدلك على أن الأشخاص الذين أجريت عليهم مثل هذا التجارب يتصورون أى يتخذون لهم صورة غير صورتهم فيخفون الحقيقة وهذا التصور(١)

---

(١) نعنى بكلمة التصور ما يقال له بالفرنسة (Simulation) .

من صفات الهستريا ، وأن التجارب السابقة لم تكن من الدقة على ما يرام أما الشعور عن بعد فعلى الرغم من كثرة أنصاره لا يزال موضع الشك عند جمهرة من كبار الأطباء . وإليك البيان عما يقصد بهذه الكلمة المأخوذة عن اليونانية Télépathie والتي يمكن أن نسميها مع الجاحظ الاستشفاف أو التنور كما قال امرؤ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلهـــا بيثرب أدنى دارها نظر عال

قد يتعاهد صاحبان مثلا فى ساعة من ساعات الهزل أن من يموت قبل الآخر يزور صاحبه الحى ، فيستيقظ أحدهما ذات ليلة ويرى أمام سريره وجه صديقه وقد علاه الاصفرار فيقص الرؤيا على أصحابه فيضحكون منه ولكن لا يمضى قليل من الوقت حتى يأتيه نعى هذا الصديق وقد قضى نحبه فى الليلة عينها التى زاره طيفه فيها . ومثل هذه أحاديث المائدة المتحركة وظهور الأشباح لبعض الناس وغير ذلك ، وقد ألف فلاماريون الفلكى المشهور كتاباً فى هذا الموضوع سماه « المجهول » ، وقام أستاذ طائر الصيت هو شارل رشيه بزعامة المذهب الجديد يخدمه بقلمه فى مجلة العلوم النفسية .

والطريقة التى يتخذها أصحاب هذا المذهب للحصول على ملاحظات ذات شأن فى نظر العلم لدعم نظريتهم واحدة ،

فهم يطلبون من الناس كافة أن يبعثوا إليهم بكل الحوادث التى تتعلق بالاستشفاف أو التنور مع التفاصيل الدقيقة والحجج المؤيدة ممهورة بتوقيع المرسل وعنوانه ، ثم يصار إلى درس هذه الحوادث والتثبت من صحتها على قدر المستطاع بواسطة لجنة مؤلفة من :

الشاعر سولى بريدوم	عضو الندوة الفرنسية — رئيساً
بالمى	أستاذ فى كلية الطب . باريس
لويس	« « « . نانسى
شارل رشيه	
الكولونيل رونشاس	مدير البولتكنيك
ماريليه	المحاضر فى مدرسة الدروس العليا

تلك أسماء معروفة تدل على أهمية هذه المباحث وتؤمن عدم التلاعب فى بيان نتائجها ، وقد قال رشيه فى مقدمة مجلته : « إنها لا تملأ صفحاتها بالآراء الباطلة والمذاهب المعوجة بل تجمع بصبر جميع الحوادث التى لا تنكر الصعوبة الكبرى فى التثبت منها على ما لها من الأهمية . ولا ريب أن من أعظم الفوائد أن نعرف إذا كان علم الغيب ليس إلا كلمة جوفاء أو إذا كان ثمة قوى عاقلة لا يدركها عقلنا الإنسانى وكان فى إمكان الفكر أن ينتقل من مكان إلى مكان دون واسطة مادية وفى

استطاعة دماغنا أن يدرك حقائق لا تراها العين ولا تسمعها الأذن ولا تنالها حاسة اللمس أو الذوق أو الشم » .

وقال رشيه أيضاً : « من المحتمل بل المؤكد أن هناك فى الآدمى بقعة واسعة لم يطأها الإنسان بعد ، وما نحسبه اليوم ملكاً للمجهول سيصير فى الغد حقيقة ملموسة ، فإن الكهربائية لم تكن معروفة لثلاثمائة سنة خلت والمغناطيسية الحيوانية هى بنت اليوم » وليس فى كلام رشيه هذا خروج عن المنطق ولكن فيه جرأة كبرى أثارت الضجة من حوله واستفزت الكثيرين لمعارضته وذلك لأن رجل العلم كلما تقدم فى درس الأمراض العصبية كان أبعد عن الخيال وأقرب إلى الواقع فيخلع عن الحوادث الغامضة حلتها السماوية ويردها إلى مكانها منه .

وقد أفرد الأستاذ « بيتر » فى دروسه عن الهستريا والتنويم فصلا للنيدلة Somnambulisme شرح فيه حوادثها المدهشة ، وأزاح عنها الحجاب الكثيف الذى أعمى الأجيال السابقة وأضلها . وأخرج ترشانوف الأستاذ فى جامعة بطرسبورج (بتروغراد) كتاباً عن قراءة الأفكار يرمى إلى الغاية عينها ، وبديهى أن تكون هذه المؤلفات على غير ما تريد تلك الفئة من الناس المولعة بالأسرار .

* * *

ولم يكن شاركو نفسه عطوفاً على الاستشفاف أو التنور (Télepathie) فكان يبتسم ابتسامة معنوية كلما ذكروا أمامه مثل هذه الحوادث وقد رفض رئاسة الجمعية السيكولوجية منذ اليوم الذى أخذ أصحاب هذا المذهب يحاضرون فيها وإليك وجهة نظره :

« قد يمكن أن يكون وراء هذا كله شىء ما ، ولكن لا يهمنى فى الوقت الحاضر ، بل أدع للأجيال الآتية أن تتكفل بحله لأن جيلنا الحاضر لم ينضج له تمام النضج ، فالتسرع مضر وقد تبينا ضرره فى الزمن الأخير لأنه عاقنا طويلا فى معرفة الحقيقة العلمية فيما يختص بالمغناطيس والنيدلة . وإذا كنت قد خطوت فى عشرين عاماً خطى واسعة فى هذه الطريق لم تعرفها عصور فلأنى اتخذت لى خطة قائمة على التأنى والصبر والتدقيق مبتدئاً بالأشياء البسيطة ، معرضاً عن التوغل فى معالجة الأسرار . إن السرعة تزعج العقل الباحث على غير طائل وتؤخر ظهور الحقيقة » .

فضلا عن ذلك فإن الطريقة التى اختطها أصحاب هذا المذهب من جمع الملاحظات من هنا ومن هناك وسرد كل ما يقدمه لهم أناس تنقصهم الخبرة وعندهم قابلية التصديق لكل شىء ، لا تعد الطريقة المثلى التى تلزمنا الحكمة باتباعها ، على الرغم مما يتخذ فيها من أسباب الحيطة .

ومن الذين كتبوا عن النيدلة وأسهبوا فيها الدكتور « مسنة » أحد أعضاء الندوة الطبية وطبيب السالباترييار. وقد ذكر النيدلة الطبيعية والمجتلبة وروى حادثة مريض حكم عليه ثم برئ بعد فحصه وتنويمه أمام قضاته.

وتختلف حالة النيدلان حسبما يكون مغمض العينين أولا، فإذا كانت العينان مفتوحتين فإن النيدلة تكون أشبه بالسحر الذى يصيب الثور عند ما يلوح له ثواره[1] باللون الأحمر بعد أن يكون الطعن والركض قد نهكاه فما دام الثور قوياً فمن الصعب الاستيلاء على بصره ولا ينى الثور يلاحقه إلى حد الإعياء فيتعلق نظره حينئذ بالخرقة الحمراء ويتبعها كيفما تحركت أمامه وقد حصر انتباهه فيها وأضاع الرشد فلم يبق من حواس دماغه ما ينبهه إلى الخطر. فهو ينظر إلى الأحمر، وكل ما هو غير الأحمر لا يصل أثره إلى دماغه، وعلى هذا الوجه يسهل الفتك به.

والرجل المسحور على هذا الوجه قد يبلغ أشد حالات السحر كما جرى لمأمور محطة السكة الحديدية وهى حادثة مشهورة، فإن هذا الرجل كان يصاب بالنيدلة وعيناه مفتوحتان فيسحره أحياناً منظر خاتم لماع فى أصبع سيدة جاءت تستفهم منه

---

(١) الثوار هو القيم على الثور أو المثير له ومثله قول لبيد :

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل

عن موعد سفر القطار ، أو صفيحة نحاسية على باب الطبيب أو الفانوس المعلق فى مؤخرة المركبة. إلى أن سحر يوما بلمعان الشمس وتكسر أشعتها على الزجاج فمشى القطار عليه ودهسه .

وإلى جانب هذه الفئة التى يأخذ بلبها نور المصباح ويفصلها عن عالم الحس ويجعلها كالأعمى لا تبصر شيئاً حتى ولا الموت الواقف لها بالمرصاد ، فئة أخرى أخف داء كمجانين الحب مثلا الذين ينسون كل شىء ويعمون عن كل خطر لأن بريقاً فتاناً من اللحاظ جذبهم ذات مساء .

ولا يسعنى أن أختم هذا التحليل للمباحث الفلسفية الانتقادية التى أثارها شاركو دون أن أقول كلمة عن العجائب ونظر الأطباء إليها . ومعاذ الله أن أريد إغضاب أحد فى معتقده ولكن التعمق فى درس الأمراض العصبية أتاح لشاركو أن يفسر عدداً كبيراً من الحوادث الغريبة التى كانت من قبل تعد من الأعاجيب . وقد كتب قبل مماته كتاباً عنوانه «الإيمان الشافى» أظهر فيه كيف أن جميع الأديان وجميع الحضارات كانت مسرحاً لعجائب متشابهة وكيف أن هيكل إسكولاب فى أثينا القديمة يشبه هياكل اليوم . وذكر كيف رأى فى سفره فى أحد الهياكل قوالب مصنوعة تشبه تمام الشبه تشنج المهسترات ، فالوقت والمكان يتبدلان والفكر البشرى هو هو

يطالب تدخل قوى مجهولة لأنه فى حاجة إلى الأمل .

وقد أوضح فى كتابه « المشيطنون إزاء الفن » الذى اشترك فى تأليفه بول رشيه أن الصور والنقوش والرسوم التى صنعت لتخليد ذكرى بعض العجائب لا ترينا إلا حالة النوبة التشنجية عند المهسترين . وكل ما يرونه قديماً وحديثاً من حوادث الشلل والتشنج وفقدان البصر التى تشفى فجأة إن هو إلا من أعراض الهستريا حتى إن بعض حوادث الإصابات فى النخاع الشوكى قد تكون مسببة من الهستريا وربما ضل فى تشخيصها أمهر الأطباء .

وعلى الجملة فإن شاركو لا يعتقد بالعجائب ولكنه لا يحرم زيارة الأماكن المقدسة والحج إليها بل يباركها لما تحييه من الأمل فى صدر الإنسان ، أما العجائب فلا تغير شيئاً فى مجرى الكواكب ولا تقدم أو تؤخر فى الشرائع الأزلية ، ولكنها تعمل عملها فى ظلمات الباثولوجيا الداخلية .

الأطباء والقضاء

التنويم والعدالة . مسئولية المجرمين . تولد فكرة العدل والظلم . قايين وهابيل . الإرادة الحرة ومسرح النفس . لومبروزو .

هذه الأبحاث عن الهستريا والتنويم التى قام بها شاركو وتلاميذه بتلك الدقة المعروفة والإخلاص فى خدمة الحقيقة هل يمكن استخدامها فى العدالة بالدخول إلى أعماق نفس المجرم أو بالأحرى المتهم لاستخراج الحقيقة منها فيما دُفع إلى القضاء من أجله ؟ .

قد تكون الفائدة من هذه المباحث ضيقة النطاق غير أنها تسهل لنا فهم الصلات التى تربط الطبيب المتوفر على درس الأمراض العصبية بعدالة الأحكام .

ولنحصر بحثنا أولا فيما يلى : إزاء متهم ينكر التهمة الموجهة إليه ، ويلح فى الإنكار ، هل يجوز لقاضى التحقيق أن يستعين بالطبيب لتنويمه ؟ وفى حالة النوم المجاوب الذى يقيد الإرادة هل يمكن تصديق المتهم واعتبار ما يدلى به من الاعترافات صادقاً بعدما كان كل مايقوله فى حالة الصحو كذباً ؟

لا ريب أنه إذا كان ثمت ذريعة أكيدة للوصول إلى الحقيقة فلا عذر للقضاء فى إهمالها ، ولا سيما لأن الشك واليقين يتنازعانهم فى أغلب الأحيان . نعم إنها ثورة على التقاليد المتبعة ولكنها نافعة فى خدمة العدل فلنسمع ما يقوله علماء القانون :

(ا) إن الذين يؤمنون بالتنويم يعتقدون أن للمنوم سلطاناً يضع النائم تحت رحمته فكيف يمكن والحالة هذه تصديق ما يقوله هذا الأخير ما دام جوابه صدًى لا اعترافاً .

(أستاذ الحق الإجرامى فى كلية باريس)

(ب) لا أظن أنه يمكن السماح لقاضى التحقيق بالاستعانة بالطبيب لتنويم المتهمين وحل عقدة لسانهم على الرغم منهم . لأنه ليس من الثابت أن الحقيقة تخرج من أفواههم بهذه الطريقة ، فكل الناس ليسوا فى حالة واحدة من الاستعداد لقبول النوم ، فضلا عما يساور النائم من التخيلات . ثم إن فريقاً من الناس يقاوم بشدة إرادة المنوم ويحاول خداعه فوق ذلك ، ولا أتصور كيف يمكن الحكم على متهم أو تبرئته بالاستناد إلى ما يقوله فى حالة نوم مصطنع أو حالة نفسية مريضة . وإنى أعتبر هذه الطريقة غير شرعية ولو كان من ورائها استجلاء الحقيقة . طريقة تختلف عن طرق

التعذيب فى القرون الوسطى لأنها لا تستعمل الآلة واسطة للاعتراف ولكنها تشبهها من جهة أخرى لأن الاعتراف قهرى لا أثر للحرية فيه .

(دجارون المدعى العام فى محكمة التمييز وعضو الأنستيتو)

(جـ) لا أظن أنه سيكون للتنويم شأن عظيم فى حياتنا القضائية لأن التأكد من صدق المتهم وإخلاصه صعب جداً . وقد يحدث لكثير من المتهمين الذين نحاول انتزاع الحقيقة من أفواههم أنهم فى حالة النوم الطبيعى يحلمون ويتكلمون بصوت مسموع ، وقد يكون هناك أسرار يفشونها فلا حق لنا أن نعتمد هذا الكلام الصادر عنهم بغير إرادتهم ونأخذهم غدراً لأن المتهم يجب أن يكون حراً فى دفاعه .

وفى حالة النوم الطبيعى أو المجلوب قد يكون كل ما يقولونه بعيداً عن الصدق فما أعظم الخطر إذا عم استعمال هذه الطريقة بين يدى أناس لا خبرة لهم أو لا ثقة بهم .

(جيلو قاضى التحقيق وعضو ندوة العلوم)

هذا ما يقوله علماء القانون ولا يختلف الأطباء عنهم من هذا القبيل وقد أجمع المشهورون منهم وعلى الأخص شاركو الذى يعد أباً للتنويم ، والأساتذة برواردل وجيل دلاتورت والأستاذ مونه الاختصاصى فى أمراض العقل والذى أتيح له

التنويم أمام القضاة ، على القول إن الالتجاء إلى التنويم للحصول على اعتراف من المتهم لا يمكن الحصول عليه بغير ذلك هو رجوع الإنسان القهقرى إلى العصور المتوسطة أيام كان ديوان التفتيش يكلف الطبيب أو الجراح بفحص من كانوا يحسبونهم مشيطنين ليرى إذا كانوا لا يحملون فى أبدانهم « طابع الشيطان » . فى ذلك الزمان كان بعض الأطباء قساة القلوب إلى حد يفوق التصور كالجراح «مانورى» الذى عذب « أوربان غرانديه » وكانوا عندما يحكمون بالموت من أجل السحر يشوهون سحنة المحكوم عليه ويقتلعون الأظافر وشعر الحاجبين ليخلعوا عليه حلة القبح والشناعة . فلما قضى على غرانديه جىء بالجراح فورنو من منزله ليقوم بهذا التشويه .

وكانوا يلتمسون إطالة التعذيب بكل الوسائل فيجبرون الجراح على الحضور بنفسه للإشراف عليه وتفننيه فلا يقضى سريعاً على المتهم .

وخلاصة القول أن تنويم الإنسان ونزع حريته لحمله على الاعتراف عمل شائن ولا أحد من قضاة اليوم يقبل به حتى ولو احتيج إلى ذلك كما فى حوادث السكك الحديدية فكثيراً ما تقام الدعوى على الشركة ويدعى مقيموها أنهم أصيبوا بضرر فى صحتهم أو عطل فى أجسامهم والشركة لاتصدق ذلك وتطلب

من الطبيب تفنيد مزاعمهم ، وعند الطبيب واسطة لا تخطئ وهي التنويم بالكلوروفورم غير أنه لا يستعمل هذه الواسطة إلا برضى من يطلب تنويمه ومن البديهي أن هذا الرضى لا يحصل عليه .

وهناك خطر آخر يجب الحذر منه فقد يكون بين مرضى الأعصاب الذين يقبلون أن يناموا مخادعون يحاولون غش الطبيب فيتفوهون بأشياء لا صحة لها ولا غاية إلا أن تثير الشبهات ضد آخرين وتزيد في تضليل المحققين .

على أن التنويم المغناطيسي قد أدى إلى العدالة خدمات لا تنكر ولكنها حوادث خاصة محدودة كما سترى :

قد يكون المتهم مصاباً ببعض الاضطرابات في الجهاز العصبي فإذا أدرك الطبيب ذلك خف عليه أن يفتش عن الصلة الممكن وجودها بين هذه الأعراض والجناية أو الجنحة التي ارتكبها حتى إذا استوثق من ذلك أمكنه بالامتحان أن يظهر للقضاء براءة المتهم كما جرى في الحادثتين التاليتين :

سرق لإحدى السيدات بعض المجوهرات فاتهمت الخادمة لأنها كانت وحدها تحمل مفاتيح الخزانة ، فأودعت في السجن دون أن يكون ثمت برهان قاطع على صحة دعوى السيدة لأن الفتاة كانت تنكر كل الإنكار ما اتهمت به ، ولكن راهبة

السجن المشرفة عليها لحظت منها أشياء غير طبيعية وأنها معرضة حيناً بعد حين لحوادث النيدلة أى القيام فى النوم والإتيان بحركات وأعمال لم تكن تشعر بها ولا تتذكرها فى اليقظة فجاء الطبيب ونومها فأقرت الفتاة ودلت على المكان الذى خبأت فيه المجوهرات ثم استيقظت فعادت إلى الإنكار بكل ما لها من قوة ويقين فلم يكن من الصعب تبيين الحقيقة ، وأن الفتاة فى حالتها « الثانية » لم تكن مسؤولة عما تعمل .

وأقيمت دعوى على رجل مشهود له بحسن الأخلاق بتهمة الاستهتار وقلة الحياء Attentat à la pendeur ولكن الطبيب الذى وكل إليه فحصه وجد عنده اضطراباً عصبياً كان يسبب له حالة ثانية Etat Second يظهر فيها بغير مظهره الطبيعى ، وكان التنويم أحسن وسيلة لإيجاد هذه الحالة الثانية التى كان يبدو فيها كأنه رجل آخر يختلف كل الاختلاف عن الرجل الأول .

وعلى الجملة فإن ما أجمع عليه علماء الشرع والطب أن التنويم المغناطيسى لا يجوز استعماله فى القضاء لحمل المتهم على الاعتراف بذنبه ، فإن فى ذلك تقييداً لحرية الإنسان فى الدفاع عن نفسه كما أن فيه تضليلا للمحققين فى كثير من الأحيان كما سبق فبينا . وأما إذا كان المقصود من التنويم

إظهار الحق لتبرئة المتهم فهو مفيد ولازم .

* * *

ليس التنويم المجال الوحيد الذى يمكن الطبيب فيه أن يساعد القضاء بل هناك حوادث الإجرام العديدة ، وكثيراً ما أقلق القضاة تدخل الطبيب فيها ، وكلما قال الطبيب الشرعى برفع المسئولية عن القاتل أو بتخفيفها قامت قيامة الكتاب على العلم الحديث الذى يريد أن يجرد العدالة من سلاحها ويزعزع نظم المجتمع الإنسانى . والعامة الذين يحكمون العاطفة بدلا من العقل يصعب عليهم إزاء بعض الحوادث التى تنفر منها النفوس وتقشعر لها الأبدان أن يرضوا بحكم الأطباء الشرعيين الرامى إلى تخفيف المسئولية ، فما تكون هذه المسئولية التى تريد إنكارها فى حين أن كل ما فينا يتمرد ويصرخ طالباً الانتقام ؟

نعم إن اعتبار المجرمين كالمرضى ونفى الإرادة الحرة عنهم معناه الإعراض عن القصاص واستعمال العلاج بدلا منه ، وفى هذا من الغرابة ما فيه إذا رأينا البون النازح والفرق الفاضح بين مقتل رجل برىء ومعالجة قاتله بالماء . . .

لا ريب أن الطب الشرعى قد بلغ درجة قصوى من الارتقاء ، وفى وسعه أن يكون مناراً للقضاء وواسطة لمعرفة الجريمة وتحديد تاريخ وقوعها وطبيعتها ومختلف أطوارها ولكن

ما شأنه للتدخل فى الجرائم الكبرى وما فضيلة هذا الانتصار الذى يحرزه عندما يكتشف أن هذا القاتل ابن لسكير مدمن على الخمر ، وأن أخاه مصاب بداء الصرع ؟ إنه بذلك يجرد المدعى العام من سلاحه ويقلم أظافر العقاب الواجب ، ويحول دون مدافعة المجتمع عن نفسه وكل ذلك من أجل عواطف إنسانية فى غير محلها كان الأولى أن نخص بها فى الأول أهل الصلاح المهددين فى سلامتهم وراحتهم ليل نهار .

هذا اعتراض وجيه يستحق أن نجيب عليه . الأطباء فى الغالب أبعد الناس عن الخيال والأحلام من الوجهة الإنسانية وهم يعرفون حق المجتمع فى الدفاع عن نفسه ضد كل معتد ومجرم ، وكلهم على اتفاق للتمييز بين المسئولية الأدبية والمسئولية الشرعية ، بين عقيدة علمية وحاجة طبيعية لحماية الناس من بعض الناس . ويعرفون أن القتل أو الانتحار لا يمكن أن ينجم عن حالة طبيعية فى النفس أو العقل ولا يمكن من الوجهة الفلسفية أن يجعل المرء مسئولا عن آفات الدماغ ووظائفه أكثر مما هو مسئول عن اختلال وظائف القلب والرئتين مع هذا الفرق أن المصاب مثلا باحتقان فى الصدر لا يخيف فى حين أن الشقى المندفع بأهوائه قد يؤذى غيره فى ماله وفى حياته .

قلما نجد اليوم بين الفلاسفة والعلماء من يقول بالإرادة الحرة كما كان يفهمها الأقدمون فالأثيم والمجرم يحسبان من المرضى لأن إرادتهم أضعف من أن تكبح جماح أهوائهم أو تعصى نفسهم الأمارة بالسوء . وأكثر المجرمين محكوم عليهم بالوراثة والبيئة أن يكونوا كذلك فهم من سلالة المصابين بالصرع والمبتلين بالزهرى والمدمنين الخمر ، يعيشون فى جهل للخير واستعداد للشر المعدى ، وليس فى هذا كله ما يسمح لهم أن يختاروا طرق الفضيلة بملء حرية الاختيار ، وقد ظهر بالإحصاء أن قسماً كبيراً من المحكوم عليهم أحكاماً قاسية يعيشون كالمرضى وكل يوم يشهد الباحث انتقال المجانين من السجون إلى المستشفيات . كل هذا يدعونا إلى الاستنتاج أن حلة الماضى فى جهازه السيكولوجى أصبحت بالية ، ولا بأس بهذا الاستنتاج ما دمنا عمليًّا نقول بحماية المجتمع .

وهنا يبدو اختلاف النظر بين الأطباء والقضاة ، فالقاضى يريد أن يحكم فيعاقب المجرم على نيته التى كانت للأذى ولأنه جار بملء حريته عن قصد السبيل . هذه مهمته اليوم كما كانت بالأمس وفى كل أزمنة التاريخ . هو يؤمن برسالته السامية ويعتقد أنه يستطيع سبر أغوار النفس وإماطة اللثام عن النيات الكامنة الغامضة دون الحاجة إلى معرفة أسرار الدماغ ووظائفه

لأن فكرة العدالة فى نظره هابطة إلينا من أعالى السماء .

والواقع أن فكرة العدالة لم تحلم يوماً بهذا النسب الرفيع وأصلها دون ذلك . عرف « لتره » العدالة بأنها حاجتنا إلى التوازن ولكن ما نعرفه اليوم من وظائف الدماغ يسمح لنا أن نتكلم عنها بأوفى ما يكون من الدقة . وللبيان أرجع بالقارئ إلى أسطورة قايين وهابيل .

فى تلك الأيام كان الجهاز العصبى سليما لم تفعل به بعد المؤثرات الخارجية ، وكان بسيطاً فى تعبيره الذى نسميه اليوم رد الفعل على أنه فى الزمن الحاضر لم نزل مثل الآلة نحوّل الإحساسات التى يستقبلها الدماغ بواسطة أعصاب الحس إلى حركة وعمل .

عندما ضرب قايين هابيل أجاب هذا بالمثل وحول شعوره إلى حركة ، ولكن قايين رد له الضربة ، وبما أنه أقوى وأشد لم يترك لهابيل وسيلة للدفاع فوقع هذا على الأرض مهشماً ولا سبيل إلى الانتقام على أنه قد شعر بألم الضربة وهى اهتزاز شديد فى الدماغ لم يستطع تحويله إلى عمل كما هى العادة فى كل شعور يعتريه . فرد الفعل الذى هو تعبير الدماغ عصبياً عن شعوره وقف عند هابيل دون الظهور وانقطع التوازن. وهذه الغصّة التى انتابته لعجزه عن الانتقام، هذا الصوت

الخفى الذى كان يقول له : مكانك أيها المسكين ، فى حين كانت كل جوانحه تدعوه إلى الحركة ، هو مبدأ فكرة الظلم التى سبقت فكرة العدالة فى الوجود . ولم تنبت فكرة العدالة إلا بعد ذلك عندما وجد مظلوم مقهور عاجز عن الدفاع أن خصمه القوى قد صرعه رجل آخر أو افترسه وحش أو أهوى عليه صخر فسحقه فقال فى نفسه لقد نال ما يستحقه فتمثلت فى رأسه فكرة العدالة متجسدة فى المنقذ المنتقم .

ثم استحكمت هذه الفكرة بمرور الزمن عندما ارتقى الإنسان فى معارج العمران ، وأصبح صاحب ملك إلا أن بدايتها كانت بطريق سلبى أى كما قلنا بظهور فكرة الظلم أولا .

هذا هو أصل العدالة على ما أظن وكم جنحنا بها عن الصورة الشعرية التى تمثلها لنا آتية على أجنحة الحمائم العلوية .

وفى الواقع أن العدالة فى المجتمع الحاضر هى دفاع وانتقام معاً وكلما شهدنا اعتداء فظيعاً تحركت بنا سورة الغضب والانتقام على الرغم من كل رقينا لأننا نخاف أن يكرر فنكون بعض ضحاياه .

فهمة القضاء هى أمان وجزاء وهذا أمر إنسانى لا يحتمل الشك ولا يبعث على العجب ، غير أنى أظن أنه من الأجدر بالعصر الذى نحن فيه أن نترك عاطفة الانتقام ونكتفى بالمحافظة على

الأمان . ولا يفقد القضاء شيئاً من جلاله بهذا الموقف بل يكون قد وفّق بينه وبين علم اليوم وفلسفته .

قد يقال أين تقودنا هذه الآراء ؟ ولكنها آراء لا تحدث ثورة شديدة فى الأخلاق . وهذه هى ميزة الحلول العلمية فهى تأتى تدريجاً دون رجة أو دوى . على أن بعض العلماء أشد صلابة من سواهم فهم لا يعرفون درجات فى المسئولية، وكل مجرم فى نظرهم عقل فاسد، وما القاتل سوى مريض، ومهما أبدى من الحيل ومظاهر الحرية الكاملة فهو غير حر لأن أعظم المجانين قد يغرون بمظاهرهم (أو حركاتهم الخارجية) وهو قد ولد مجرماً، وتركيبه التشريحى يجعل منه شيئاً محكوماً عليه بأن يؤذى ويضر ، وبما أن جرمه فظيع فالعقاب على قدر ما توحى هذه الفظاعة من الهول ولهذا يستحق الإعدام .

هذه النظرية لا تخلو من المنطق والحزم وهى تؤيد المذاهب الحديثة دون أن تهدم العادة القديمة . لقد طوت صفحة المقدور ونقش مكانها كلمة الوراثة وصاحب هذه الفكرة هو لومبروزو حكيم تورينه (إيطاليا) ولكن الفرنسيين لم يقبلوا بها ، أى أن الإنسان لا يولد مجرماً ، ولذلك لا يجعلون المسئولية واحدة لكل المجرمين .

إن كلمة إرادة حرة لا معنى لها عندهم فلسفياً ، والعمل

السيئ لا يأتيه الإنسان مختاراً بل مدفوعاً إليه بقوة لا تردها إرادته المريضة ، ولكن الحوادث يختلف بعضها عن بعض بحيث يتعذر قياسها بمقياس واحد ولهذا يحسن تقسيم المسئوليات والنيات إلى درجات حسبما يكون التعمد والاستعداد السابق فى ضمير المجرم ، وهكذا فإن عدم المسئولية الكاملة أو المخففة التى لا يقبلون بها فلسفيًّا هى ضروريات عملية كثيرة الاستعمال :

وإلى القارئ بعض الأمثلة زيادة فى الإيضاح :

هذا رجل مريض فى عصبه تصيبه النوبة فيقوم ويمشى على غير هدى ويفيق من ذهوله بعد يومين فيجد نفسه فى بلد مجهول لا يعرف كيف انتهى إليه ، وفى طريقه قد قتل أو سرق أو أحرق مزرعة ولكنه يجهل كل هذا ولا يفهم ما يقوله الشهود .

وهذا آخر سكير يصاب بنوبة الهذيان الكحولى فيذبح زوجه لأنها تتمثل لعينه فى صورة وحش يريد افتراسه ، وهذا آخر ينتابه عارض من الجنون الهائج فيقتل حارسه .

هؤلاء القتلة الثلاثة لا يمكن تشبيههم برجل يفكر طويلا فيما يريد أن يقدم عليه ويحسب حساباً للقتل ، ويقتل ليتمكن من السرقة . مثل هذا لا يشفى غليل الناس أن يروه فى المستشفى ،

والله وحده يعلم أى الثلاثة كان حرًّا أكثر من الباقين ليحسن أو يسىء .

يحكى أن حارساً نام يوماً فى حالة سكر شديد فاستيقظ عند الفجر برؤيا هائلة : رأى قطار السكة الحديدية داخلا عليه وهو يقذف شرراً ولهباً فأوجس خيفة وقبض على فأس عنده لقطع الأخشاب وضرب القطار ولم يكن القطار سوى أحد رفقائه الذى جاء يزوره فمات على الفور وقد أبى القضاء تصديق هذا الهذيان وحسبوه كذباً وخداعاً ولكن الطب استطاع أن يبرهن لهم إمكانية ذلك فى مدمنى الخمر . لا مشاحة أن هذا الحادث يستلزم القول بعدم المسئولية تماماً .

وهذه حادثة أخرى لا يتضح الحكم فيها بهذه السهولة : سيدة أنيقة الملبس جميلة الطلعة دخلت يوماً مخزن تاجر مجوهرات فى باريس ، واختارت عقداً من الماس وطلبت من البائع أن يرسل معها من يثق به لتستشير زوجها فيه فإن لم يستحسنه أعادته وإلا رجع الرجل بثمنه ، ولم ير التاجر ما يدعو إلى الرفض فذهبت مصحوبة بالرجل إلى طبيب مشهور متوفر على معالجة الأمراض العصبية هو Le grand du Saull ودخلت مكتبه بعد أن تركت الرجل فى غرفة الانتظار وقالت له ما معناه : لقد تركت فى الخارج نسيباً لى تنتابه

أعراض جنون ومن أجله جئت أستشيرك فهو يتصور نفسه مستخدماً عند بائع حلي ويطلب أبداً عقداً من الماس يدعى أن امرأة سرقته منه، وبما أن حضوري يؤثر به كثيراً فالأفضل أن أنسحب لتتمكن من فحصه فحصاً دقيقاً وسأعود بعد قليل . وخرجت المرأة من باب آخر وأدخل الشاب فلما لم يجد المرأة صاح بالطبيب أين العقد فتبسم هذا ابتسامة إشفاق وأخذ يلقى عليه الأسئلة المعتادة والمسكين لا يفهم ما يعنى ويزداد صياحاً وإلحاحاً فى طلب العقد والطبيب يحاول تهدئته ويتابع السؤال عن صحته وصحة أبيه وأمه، وبعد لأى من الجهد أدرك خطأه ولكن السارقة كانت أفلت . .

إن امرأة كهذه بارعة فى تدبير الحيل هل يجوز أن تعد غير مسئولة وتعامل كالمريض ؟ لا ريب أنها لم تكن سليمة الشعور ولكن تصرفها لايسمح لنا أن نضعها فى صف المصروع الذى حرق أو السكير الذى قتل ولو حاول الطبيب الشرعى أن يخفف عنها بعض المسئولية لتعذر عليه .

وجمله القول أن بين الإجرام والجنون علاقة متينة ، وفى كل يوم يكتشف الطبيب حالات مرضية غريبة لم تخطر على بال مما يهيب به إلى التعرض للمسئولية على غير ما يراه القاضى . والذى ساعد على حفر هذه الهوة بين القضاة والإطباء هو

لومبروزو القائل بأن الإنسان يولد مجرماً كما ذكرنا آنفاً . وقد انتشر مذهبه انتشاراً هائلاً يوم ظهوره وأصاب من الشهرة فى الأندية العلمية وغيرها قسطاً وافياً . ثم أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى إن لومبروزو نفسه اضطر فيما بعد إلى الرجوع عنه . وكان كاتب هذه السطور من الذين أثرت بهم كثيراً آراء لومبروزو فنشرت فى المقتطف بعد اطلاعى على كتابة الرجل العبقرى مقالا بعنوان «الذكاء والجنون» وسألت المرحوم الدكتور صروف رأيه فى الرجل ومذهبه فكتب إلى ما معناه أن لومبروزو شديد المبالغة فيما يدعى ولا يمكن القبول بكل ما كتب . ولم أتبين صواب هذا الحكم إلا بعد مرور الزمن فما هى اليوم آراء الاختصاصيين المشهورين فى الإجرام ؟

كان لومبروزو أول من أعلن أن السواد الأعظم من المجرمين والقتلة واللصوص والمتهتكين يحملون فى أجسامهم آثار التقهقر ، وأيد قوله بالإحصاءات العديدة التى تبين كيف أن سلالة المصروعين والمجانين ومدمنى الخمر سلالة سقيمة . مستعدة استعداداً فائقاً للجور عن قصد السبيل فى حياة الاجتماع ، واستنتج من هذا أن بعض الناس يأتون إلى الوجود حاملين جرثومة الشر والفساد ، وليس هذا فقط بل من المستحيل أن يكونوا غير مجرمين لأنه يعتقد أن تركيبهم التشريحى الخاص

يسيطر على تركيبهم الأدبى ولا مندوحة لهم عن أن يقتلوا يوماً أو يسرقوا . ذلك ما كتب لهم من قبل أن يولدوا ولا مناص من المكتوب إلا إذا قضى عليهم علوض غير طبيعى فأماتهم قبل الأجل المحتوم .

وكانت السرعة التى امتدت بها شهرته وتعاظمت نذيراً بقرب زوالها فكثر خصومه فى فرنسا وألمانيا وأنكروا عليه دعواه لأنه لا يوجد فى نظرهم مثال تشريحى للذى يولد مجرماً . فضلا عن أن المشاهدات اليومية تدل أن الإنسان مهما يكن محملا فى نشأته من أعباء الوراثة المرضية أو الفاسدة فالبيئة التى يعيش فيها والأحوال التى تكتنفه والهواء الذى يستنشقه والصور التى تلتقطها عيناه والعظات التى تنطبع فى دماغه ، كل ذلك من العوامل القوية التى لا بد لها من تبديل ذاتيته من حال إلى حال .

ولنضرب مثلا من الأمثال : رجلا يريد أن يسرق ويهم بذلك .

يقال إن فى أعماق ضمير هذا الرجل يجرى حديث طويل وأخذ ورد بين الرغبة والرهبة ، أو بالأحرى هى مأساة تمثل على مسرح النفس الخفى الذى نسميه الإرادة الحرة ، وأبطال هذه المأساة الإحساسات القديمة والحديثة والصور العالقة

بالذهن تجيء وتروح على المسرح . تجيء وفى كل منها ما فيه من حيوية وقوة وميل كثير أو قليل للتحول من شعور إلى عمل ، ثم تذهب وقد تُسدل الستار . والممثل الأول الذى يظهر على المسرح هو التجربة بارزة فى صورة السرقة ، وسهولتها تتولد بسرعة فى عقل المثقل بالوراثة المرضية أو سموم الكحول ويظهر إلى جانبها شقاء الأيام الماضية ومطل الراحة الآتية فى ظلال الكسل السعيد . ثم يظهر ممثل آخر هو صورة الشرطى ومعها صورة القاضى والسجان والسجن . وحينئذ يقوم صراع عنيف بين الفكرتين ، فكرة السرقة وفكرة العقاب فتختفى إلى حين دوافع السوء فى ظلمة الليل ثم تخرج أوضح مما كانت ، يقويها حب التقليد وتذكارات قديمة لرفقاء له فى الكسل سرقوا ولم يقبض عليهم . بل ربما ذكرت الجرائد أعمالهم مقرونة بالإعجاب ، وصاروا من الزعماء المحبوبين من النساء . هذه المرة يحمى وطيس المعركة بين الفكرتين الإقدام والإحجام وعبثاً تبدو على المسرح أشباح الخوف من الفشل أو من العدالة ، وما يحس به الإنسان من انقباض الصدر على عتبة كل جديد فإن تغيرات الجو أو استهزاء صديق لتردده ، أو تجرع كأس من الخمر يكفى لإرجاع هذه الأشباح إلى مكمنها ، ويتهيج العقل فتصبح فكرة السرقة جلية كل الجلاء وتختنق

كل أفكار الخير . وهكذا تعقد العزيمة ويقع الحادث المشئوم .

هذا مشهد من مشاهد تنازع البقاء يغلب القوى فيه الضعيف ويكون الشر أسبق من الخير لا لسبب سوى أن التربية لم تكن كافية وافية ولا شيء فيها مما يدل على أن الإنسان يولد مجرماً .

هذه التربية التى يمكنها مع البيئة إصلاح ما أفسدته الوراثة وما ذكرت ينطبق على كل فتى والله يعلم ماذا كان مصيرنا نحن المتنعمين بالرقى لولا الإرشاد والقدرة فحب التقليد من أعظم العوامل فى الحياة ، وما دماغنا فى الواقع سوى آلة لتقليد ما نرى .

والمجرمون يحملون منذ الولادة ، فضلا عن الحدة وسرعة الغضب رخاوة فى النفس وهشاشة فى الشخصية تجعلهم قابلين للتأثر بمن حولهم وتقليدهم . ولهذا كانت عشرة السوء ومطالعة أخبار القتل فى الجرائد ومجاورة السجون وغير ذلك عاملا قوياً فى تحبيب الشر إليهم ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون نفوسهم مستعدة أيضاً لعكس ذلك لو أتيح لهم معاشرة الفضلاء والاكتساب من أخلاقهم وعاداتهم .

يقولون إذا امتلأت المدارس فرغت السجون ، وهى حقيقة تؤيدها الفسيولوجيا لأن الدماغ كلما زاد غذاؤه من المعرفة

خف اندفاعه وكان له من العلم لجام لغرائز السوء. غير أن العلم وحده لا يكفي ولا بد من الأدب والشعور الديني الذي يدعم الأدب. وقد تبين من الإحصاءات التي جرت في صدر هذه المئة أن القتل والانتحار زادا في فرنسا مع أنه في إنكلترا قد أقفلت بعض السجون لعدم الحاجة إليها كما ذكر السر جون لبوك في المؤتمر الاشتراكي الذي عقد لذلك العهد .

والسبب في زيادة الشر في فرنسا ونقصانه في إنكلترا يعود في الأول إلى الإفراط في الكحول وفي الثاني إلى تأصل الفكرة الدينية في الشعب البريطاني في حين كانت فرنسا تحاربها بجعل التعليم علمانياً محضاً . لا ريب أن الخوف من اليوم الأخير . أكبر لاجم لمطامع البشر وشهواتهم . ومهما يكن مذهب الإنسان في التعليم ومناهجه فلا بد للشعب من دين ومن أدب ديني .

ولنرجع إلى لومبروزو فنقول إن الرجل لا يولد مجرماً ، لا قاتلا ولا لصا . يولد ودماغه سريع التهيج قابل التأثر وما الوراثة إلا من الأسباب المساعدة على الشر ، وبالتربية الصحيحة الكافية والقدوة الصالحة يمكن التغلب عليها ، على شرط تشخيص الداء ، باكراً . وجل ما يستطاع عمله في الحالة الحاضرة الإكثار من المستشفيات والملاجيء للأطفال المنكوبين .

الطب وعلم النفس

الدماغ ، النخاع الشوكى ، المراكز الدماغية ، النفس . الذاكرة

١

لا نحاول فى هذه الصفحات أن نبين كل ما مهر به الطب والفسيولوجيا علم النفس الحديث من الدقة والاطمئنان العلمى وإنما هى نظرة سطحية فى الموضوع على أنه لا ندحة لنا بادئ ذى بدء من كلمة وجيزة عن الجهاز العصبى على ما فى هذه الكلمة من الوعورة والجفاف .

يتلقى الطالب فى المدرسة مبادئ علم التشريح فيعرف أن الجمجمة علبة من عظم تحوى كتلة قريبة الشكل من الكرة مركبة من مادة لينة سريعة العطب عظيمة الشأن هى الدماغ ، وأن العمود الفقرى يحوى مثل هذه المادة ويسمونها الحبل الشوكى ، وأن خيوطاً كثيرة بيضاء تتمشى فى كل نواحى الجسم إلى جانب الشرايين والأوردة وهى من مادة الدماغ والنخاع ويقال لها الأعصاب .

الدماغ والنخاع الشوكى والأعصاب يتصل بعضها ببعض

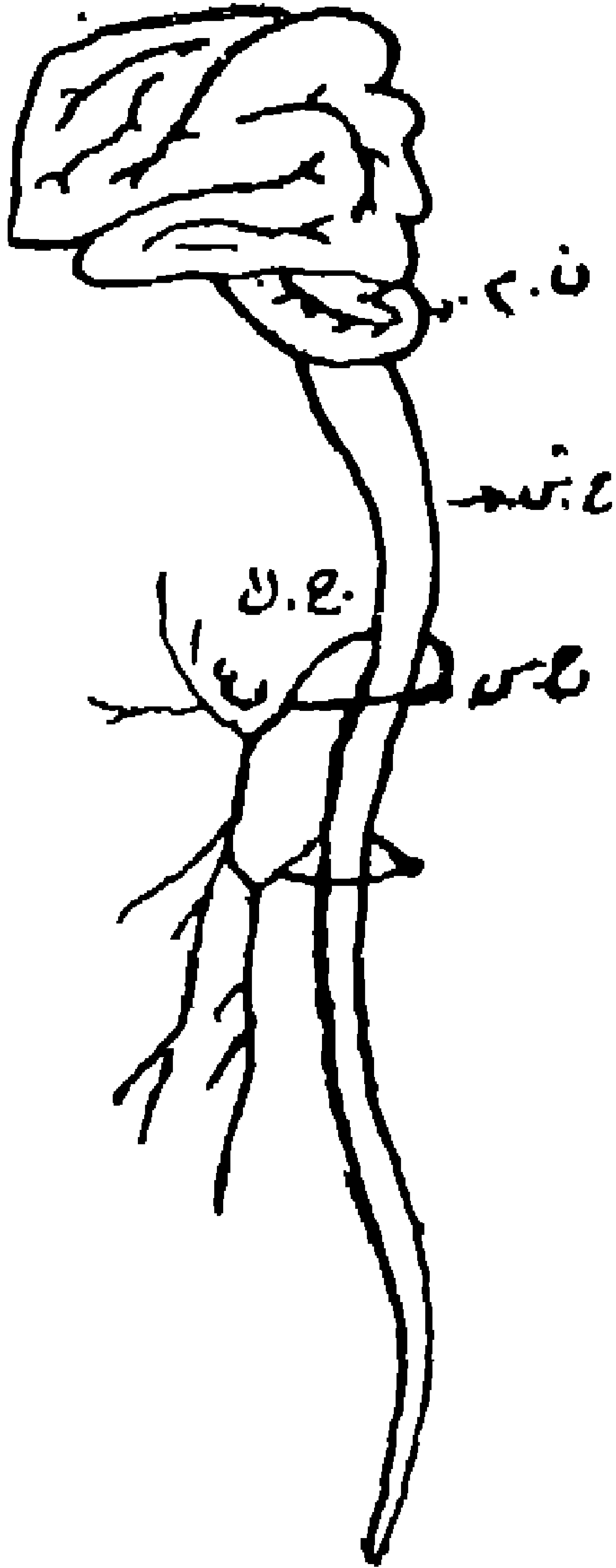
فيؤلف مجموعاً له فروع فى كل مكان من الجسم فالأعصاب الآتية من الأطراف تنتهى فى مسيرها إلى الحبل الشوكى وهذا ينتهى إلى الدماغ فإذا بالدماغ المرجع الأخير الأسمى وهو ألطف أعضاء الجسم وأهمها ولا تجد فى الكائنات من حى وجماد شيئاً يماثله أو يعادله أو يضاهيه فى وظيفته السامية . هنا منبع الحياة والقوة ومجلى الروح بل صورتها المادية إذا جاز لنا هذا التعبير .

كيف يتصل العصب بالحبل الشوكى ؟

يرى لدى التشريح أن هذا الاتصال يتم بجذرين : جذر أمامى هو جذر الحركة وخلفى هو جذر الحس ولكل من هذين الجذرين وظيفة خاصة فإذا قطعت جذر الحركة جمدت العضلات المتعلقة به وأصابها الشلل وإذا قطعت جذر الحس أضاعت المنطقة الخاضعة له إحساسها فلا تشعر بالوخز أو القرص أو الحرق .

إذن فالجذر الأمامى هو للحركة والخلفى للحس ولكن العصب نفسه وما يتفرع عنه يجمع بين الاثنين ، يعنى أن مهمته نقل التأثيرات الآتية من الخارج إلى المراكز العصبية وسوق الأمر من هذه المراكز إلى عضلاتنا الخاضعة فتتحرك . هذه هى الحياة البشرية : إحساس ثم عمل وكل ظواهر الحياة تقوم على

هذين الأمرين أخذ ورد فهى تستقى الإحساس وتحوله إلى حـــركة .

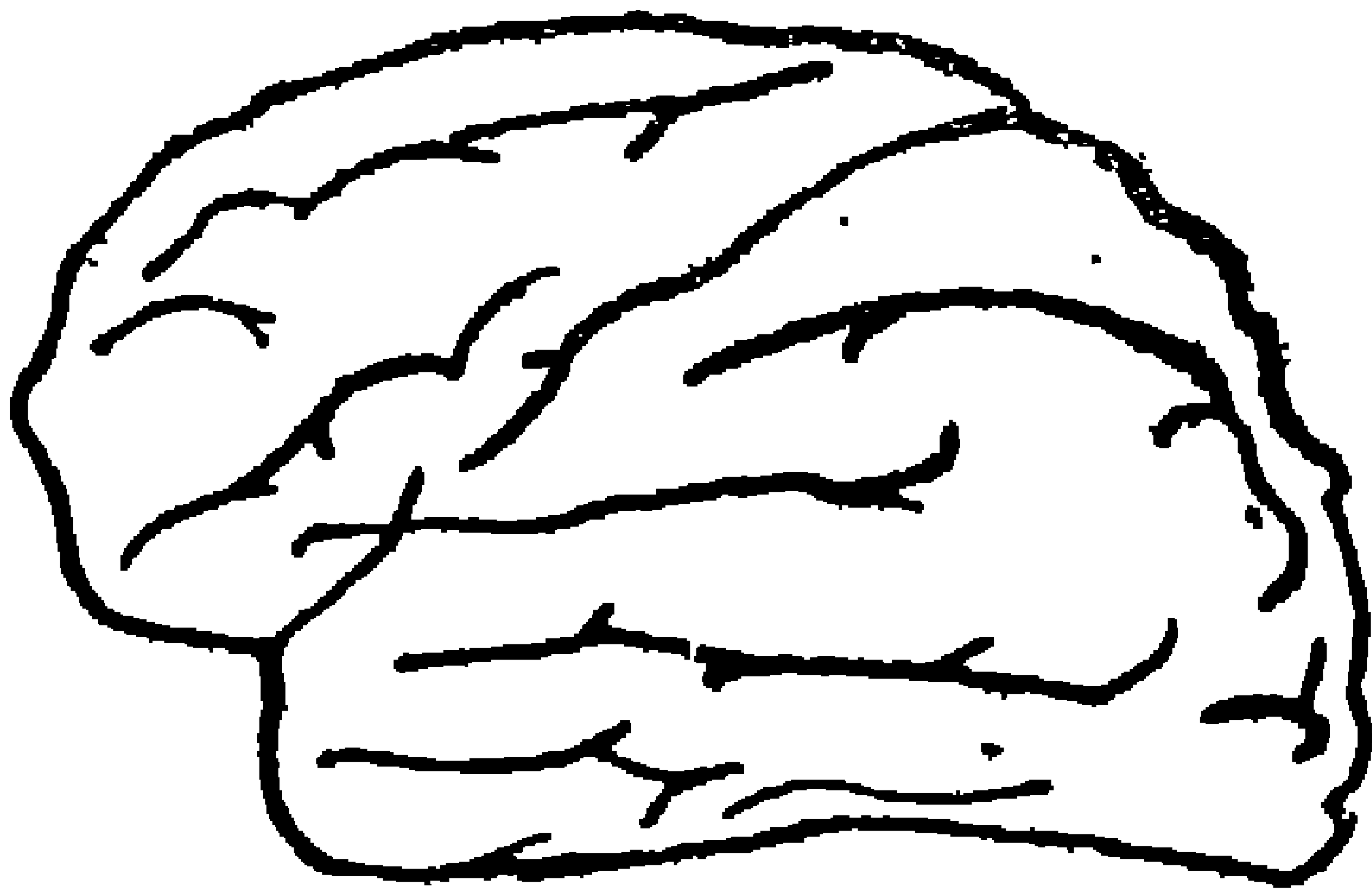


ن.م – النخاع المستطيل ح.ش – الحبل الشوكى ج.ك – الجذر الأمامى للحركة ج.س – الجذر الخلفى للحس ع – العصب .

وليس من الضرورى للتأكد من صحة هذا أن نقوم بعملية تشريح وقطع ففى وسع كل إنسان أن يجرى الاختبار فى ذاته فينجلى له عمل العصب بصورة بسيطة واضحة .

اجلس أيها القارئ وضع فخذك الأيسر على ركبتك اليمنى واقرع بحفة كفك أو شىء آخر مـــكان الرضفـــة بحيث تصيب طرف العضل أى الوتر وإذا لم تنجح فى المرة الأولى فاعدها ثانياً وثالثاً فتجد أن رجلك اليسرى قد ارتفعت فجأة دون إرادتك .

هذه الظاهرة المسماة الفعل المنعكس للركبة يحدث كما يلى :



النخاع وتلافيفه

تقع حفة الكف على أطراف العصب المنتشرة فى وتر العضل فتصعد موجة اهتزازية وتطوف العصب فى مداه حتى جذر الحس فى الحبل الشوكى وتخترقه وهناك تتبدل فتعود مجتازة جذر الحركة وتسرع إلى عضل الفخذ المتصل بالوتر وتجبره على الانقباض . تهيج خارجي يندفع نحو المركز ثم يرجع منه وقد تحول إلى حركة . هذا هو رد الفعل ، رواح ومجىء أو ورود وصدور مؤلف من اهتـــزاز فى عصب الحس فى القسم الأول من رحلته وفى عصب الحركة فى القسم الثانى .

وما الحياة لو حققت سوى سلسلة أعمال عصبية منعكسة قد تكون أكثر تعقداً ولكنها من طبيعة واحدة . وحادثة الركبة هذه كما يقول الألمان هى ألف باء البسيكولوجيا كما يفهمها

علماء اليوم وهى بسيطة الأهمية لأنه لا دخل للإرادة فيها والأفعال المنعكسة السامية هى التى تجرى فى الدماغ حيث ينتهى القسم الأكبر من ألياف الحركة والحس التى تتألف منها الجذور العصبية القائمة على مدى الحبل الشوكى .

وما مر بنا يسهل لنا بعض التسهيل درس الدماغ تشريحيا ولكننا نحتاج هنا أيضاً نظراً لوعورة الموضوع وصعوبته أن نكتفى ببعض المعلومات الضرورية مستعينين أيضا بالرسوم .

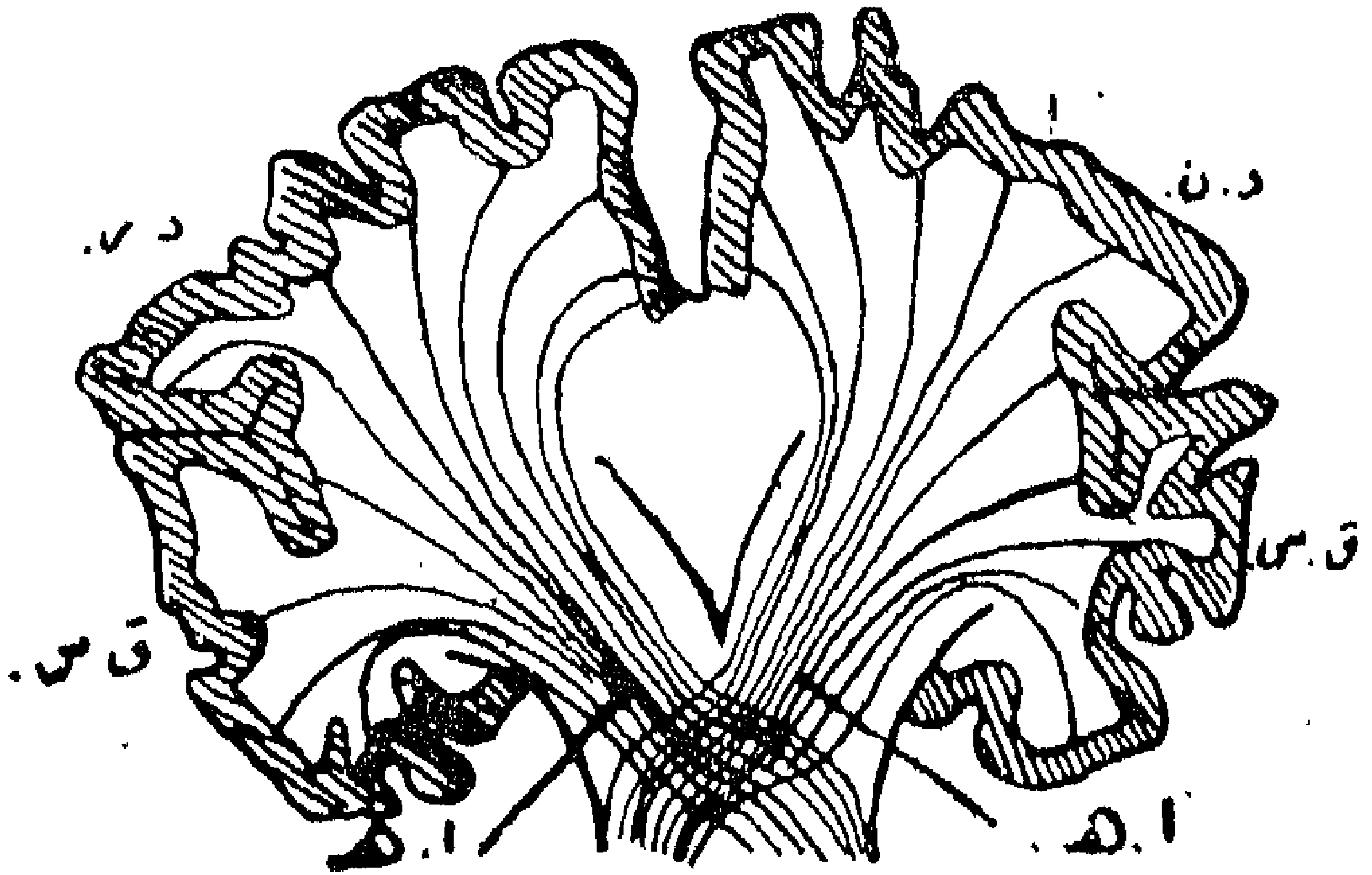
إن دماغنا كسائر جهازنا العصبى منتظم الأجزاء مضاعفها فنحن فى الواقع نحمل دماغين دماغ أيمن ودماغ أيسر يفصل بينهما حفرة ممتدة من الجبين إلى الرقبة كأنهما نصفا كرة وفى أعماق هذه الحفرة مادة بيضاء يقال لها ـ الجسم الصاب ـ تصل بين النصفين وتجعل منهما شريكين فى التأثرات .

ويرى على الرسم التالى خطوط سوداء تمثل الأخاديد المحفورة فى سطح المادة الدماغية تفصل بين التلافيف. أما قشرة الدماغ فهى سنجابية اللون، والمادة التى تحتها بيضاء تمر بها الألياف التى يتركب منها داخل الدماغ ، وهى أداة الوصل بين المادة السنجابية والحبل الشوكى ، كما أن الحبل الشوكى يصل بينها وبين أعصاب الجسم كافة .

ومن صفات هذه الألياف المميزة لها أنها لدى خروجها من

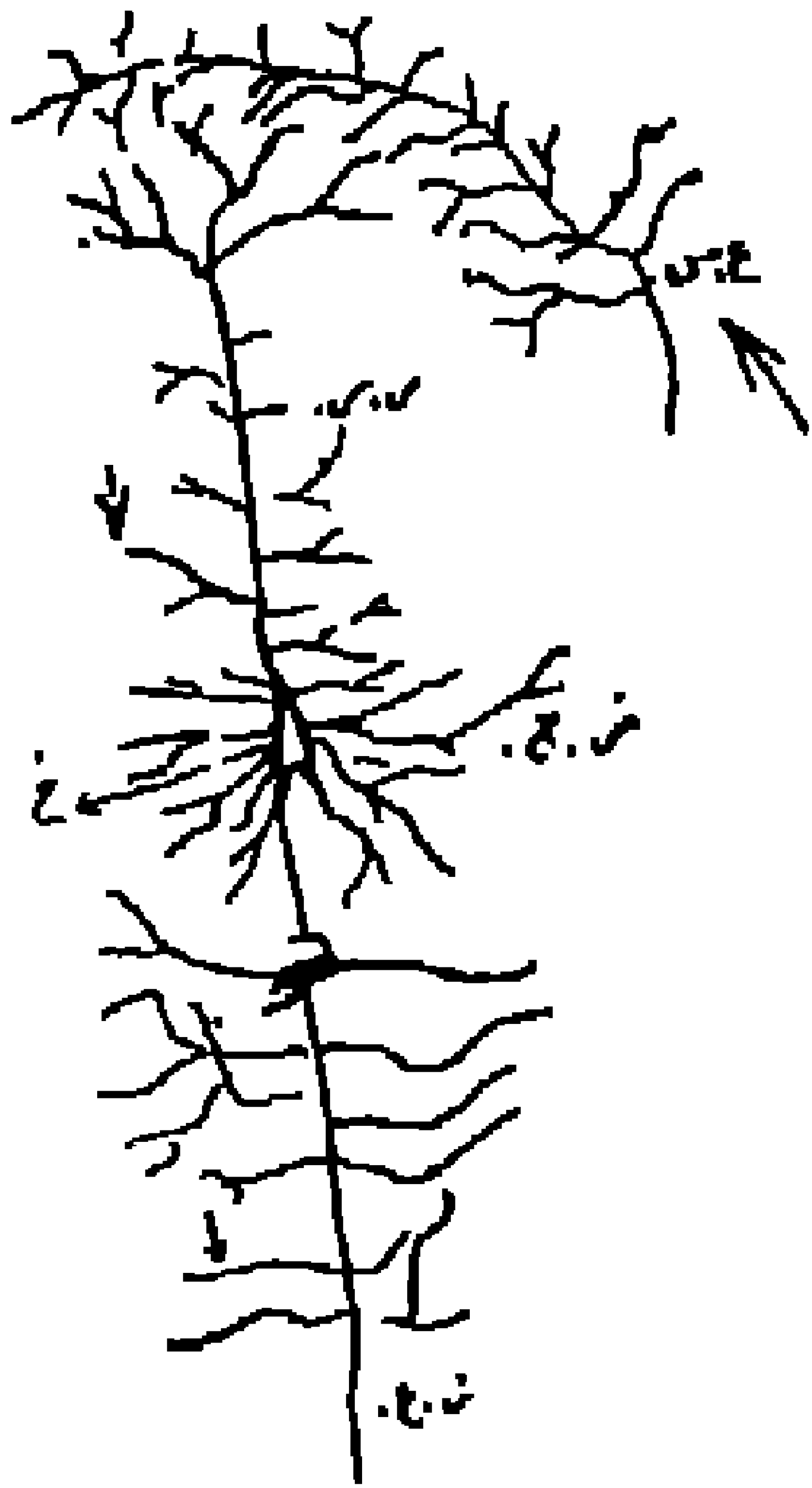
المخ ودخولها فى النخاع المستطيل تتصالب ليذهب ما كان منها فى اليمين شمالا وما كان فى الشمال يميناً فيكون الدماغ الأيسر مسيطراً على حركة القسم الأيمن من الجسم والعكس بالعكس .

والمادة السنجابية مركبة من خلايا كبيرة مثلثة الزوايا كثيرة الخيوط المشتبكة بعضها ببعض إلى حد أن تجعل منها شبة غابة كثيفة غضة . خلايا لها عظمتها وجلالها لأنها مركز الشعور والتفكير فإذا كنت أيها القارئ لا تؤمن إلا بالمادة فهذه الخلية التى هى فى ذروة الكائنات تكون لك آخر ما يكرم ويُعبد لأنها وحدها تقودك إلى هيكل الأسرار فى هذا العالم



د.ن — الدماغ الأيمن ، د.س — الدماغ الأيسر ، ق.س القشرة السنجابية ، ا.هـ — الألياف الهرمية المتصالية

المحاط بالأسرار ، وإذا كنت ممن يؤمنون بالروح الخالدة فإن احترامك لهذه البقعة الصغيرة السوداء ذات القرنين لن ينقص ولن يضيع فهى الهيكل الذى تتجلى فيه الروح والمحراب الذى يطل منه العقل . بقعة غامضة عجيبة يبدأ فيها ما يقع تحت الحواس وينتهى عندها ما وراء الطبيعة .



ع.س – عصب الاحساس ، ز.ب – زوائد الرأس ، ز.ج – زوائدالجانب ، خ – الخلية الدماغية ، ز.ع – زوائد عصبية

وتاريخ الخلايا الدماغية قريب العهد بنا يرجع الفضل فيه إلى Golgi الإيطالى ورامون إى كاجال الإسبانى ؛ وإليك خلاصة ما علّماه .

للخلية الدماغية زوائد هلباء أى كثيرة الشعر مرتبة على نظام ثابت . وهى ثلاثة أنواع : زوائد الجانب وزوائد الرأس وزوائد عصبية .

فالزائدة العصبية الآتية من المنطقة الوسطى لقاعدة الخلية تؤلف الأنبوبة العصبية وتصبح أحد تلك الألياف الواصلة التى تتركب منها المادة البيضاء كما قلنا وتتصالب عند النخاع المستطيل مع الألياف الآتية من نصف الكرة الآخر لتدخل فى الجهة الثانية من الحبل الشوكى المقابلة للجهة التى أتت منها ولا تقف إلا عند حد تنتهى فيه ملتفة كأغصان الشجر حول خلية حركية للنخاع . ومن هذه الخلية الحركية يخرج خيط جديد يتمشى فى العصب حتى العضل الذى توكل حركته إليه . تلك هى خطة الزائدة العصبية للخلية الدماغية .

أما زائدة الرأس وتسمى (البروتو بلاسمية) فهى قصيرة جداً ولكن عند أهلابها تنتهى أطراف الأنبوبة العصبية المقتربة نحو المركز الحاملة أحاسيس العالم الخارجى .

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى رأى قام به بعض علماء فرنسا وألمانيا قد يلقى نوراً ساطعاً على كثير من الظاهرات العقلية الصعبة الفهم .

لقد أطلق بعضهم على الخلية العصبية وزوائدها اسم عصبون فالعصبون يمتد من أطراف الزائدة البرتوبلاسمية إلى أطراف الأنبوب العصبى فى الحبل الشوكى . هذا العصبون كما أثبت رامون إى كاجال له ذاتية مستقلة لا اتصال لها بغيرها إلا

بالملامسة فقط فلا تنتقل الموجة العصبية من عصبون إلى آخر بسوى ذلك . ولكن هـــذه الملامسة غير ثابتة وقد لا تكون كل ساعات الحياة ، فى اليقظة والمنام ، فى الراحة والتعب .

فإذا فرضنا أن اهتزازاً عصبياً وصل إلى الدماغ بواسطة عصب الحس وكان الدماغ فى حالة التنبه فإن زوائد الرأس للخلية الدماغية تنتفخ وتنتصب وتتصل بأطراف عصب الحس فيتم الإحساس وقد ينتج عنه عمل مقابل . ولكن إذا كان الدماغ تعباً مخدراً فإن زوائده تبقى متقلصة منقبضة على نفسها فلا يمكنها الاتصال بأطراف الحس ولا يقع بينهما تعامل .

وهكذا يبدو الدماغ كالقمة لأفعالنا المنعكسة السامية لأن فيه يتحول الحس إلى عمل وهذا التحول من إحساس إلى عمل أو من ورود إلى صدور يتم فى نقطة معينة هى ملتقى أواخر عصبون الحس بأوائل عصبون الحركة أى عند « الأهلاب » التى تتوج الخلية الدماغية فى زاويتها العليا.



النقطة السوداء هى التلفيفـــة الثالثة المسماة تلفيفة بروكا

هناك تتم أعمالنا البسيطة الفجائية الخارجة عن سلطة الإرادة .

ولكن الدماغ فوق هذا أداة لتداعى الأفكار والصور (والمقصود بالتداعى هنا التنادى لا التهدم)

فإن الصور والأفكار القديمة والحديثة التى تنام وتستيقظ فى خلايانا (الذاكرة) قد تتجاور وتتمازج بفضل الزوائد الجانبية والخلايا الأفقية التى تتشابك أطرافها وتجمع بين أنحاء القشرة بحيث تضمن اشتراكاً فى الوظيفة . فنحن نتصور الحوادث والأشياء ونتأمل ونقيس ونحكم بفضل ما يجرى فى هذا الميدان الضيق الرحب .

هذه المبادئ الأولية عن الخلية الدماغية تساعدنا على فهم ما يسمونه مراكز القوى العقلية فى الدماغ . والأساس فى هذه التسمية أن الألياف العصبية الذاهبة من البنصر مثلا نحو القرن الخلفى للنخاع الشوكى تصعد من هناك إلى مكان معين فى الدماغ هو واحد لى ولك ولكل الناس .

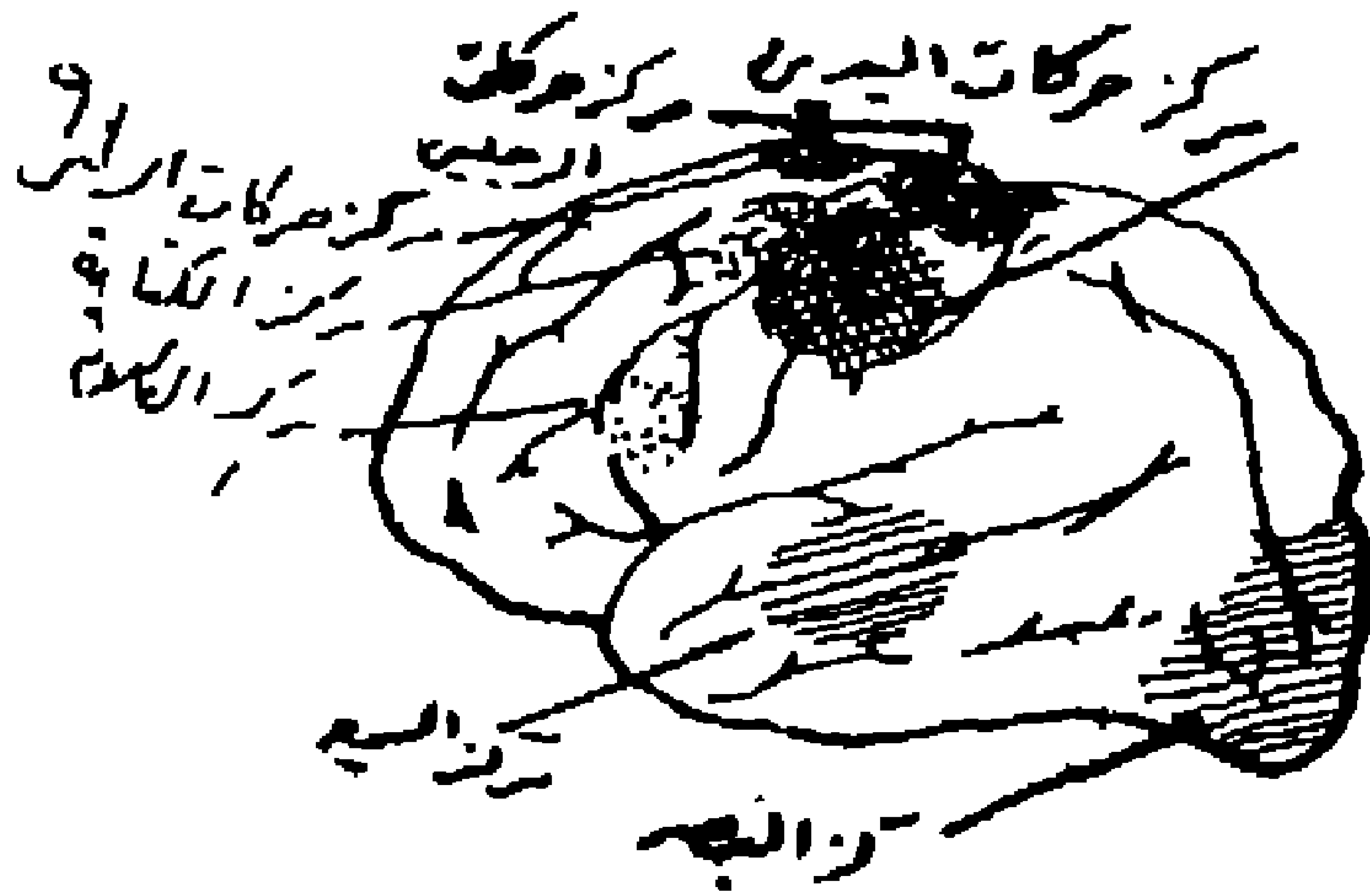
وهذا الرأى بتخصيص مركز فى الدماغ لكل من القوى العقلية نجد جرثومته فى مذاهب فيثاغور وأفلاطون وأرسطو ويمكن القول أنه منذ ذلك العهد وعلماء الحياة منصرفون إلى البحث عن المركز التشريحى لوظائف الشعور والذكاء فى حنايا هـــذه الكتلة الكروية السمراء الظاهر البيضاء الباطن .

وبناء على هذه الفكرة الأولى بوجود مبدأ سام مجرد من المادة خارج عن الجسم يشرف على وظائف العقل والشعور ، واعتقاداً بوجوب وجود صلة بين هذا المبدأ والجسم أفرغ فلاسفة القرن

السابع عشر والثامن عشر جهدهم لمعرفة هذه النقطة المختارة ، مركز الروح . فوضعها دكارت فى الغدة الصنوبرية لأنها وحيدة قائمة فى الوسط ، وجعلها الجراح لابيرونى فى الجسم الصلب لأنه وجد بالاختبار أن آفات هذا الجسم يصحبها اضطراب وخلل فى العقل وفى الإحساس .

وكان الرأى المجمع عليه فى أوائل القرن الماضى أن فى وظائف الدماغ تجانساً تاماً وأنه فى كل من نصفى هذه الكرة لا يوجد جزء يختلف عن غيره ، إلى أن طلع عليهم « كال » بمذهبه الجديد « بالمراكز الدماغية لقوى العقل » . وقد كان لهذا المذهب ضجة فى الأوساط العلمية ، ولكنه كما قال شاركو : لقد جرب « كال » تقسيم الكتلة الدماغية إلى بيوت مستقلة يتمتع كل منها بصفات خاصة فغالى كثيراً فى ذلك وكانت مغالاته وعدم التدقيق من العوامل التى أضرت بما فى هذا المذهب من الحسن وأضعفت ثقة العلماء بالمبدأ نفسه .

وجاء بعده بوليو الكبير فترك جانباً دراسة الدماغ وتقسيمه الخيالى بحسب قوى النفس وأكب على البحث عن مركز النطق بالمشاهدات السريرية والتشريح بعد الموت فانتهى به إلى جعله فى القسم الأمامى ، ثم جاء بروكا سنة ١٨٦٢ فأثبت بالبرهان أن النطق متعلق بالتلفيفة الجبهية الثالثة فسموها تلفيفة بروكا .



مركز القوى العقلية فى الدماغ

ثم حدث جمود وانقطاع فوقف البحث حيناً .

ولم تنفع اختبارات جاكسون من أن آفات المخ السطحية كالأورام والأجسام الغريبة قد تسبب بتهييجها للمادة السنجابية تشنجات جزئية حسب الجهة المصابة ، فكان أشهر علماء الفسيولوجيا يعتقدون أن الدماغ واحد فى مجموعه متجانس الوظيفة ولا دخل له فى حركات الجسم . وأيد فلورنس سكرتير ندوة العلوم (الأنستيتو) وعضو المجمع العلمى (الأكاديمى) هذا القول باختباراته على الضفدع والحمام فقد نزع المخ عنهما وبقى الضفدع يسبح والحمام يطير . فى ذلك العهد قام طالبــان ألمانيان بتجارب جديدة فى الكلاب فتوصلا إلى النتائج الآتية سنة ١٨٧٠ :

(١) يوجد فى كل من نصفى الكرة الدماغية عند الكلب

مناطق معينة إذا أهجتها بالكهربائية تولد عنها حركات محدودة في الأرجل المقابلة ، أي أن تهيج النصف الأيمن يسبب حركة في الرجل اليسرى والعكس بالعكس . (٢) أن إتلاف هذه المناطق عينها يسبب شللا حيث سبب التهييج حركة . (٣) هذه المناطق لا تتغير مراكزها وهي منحصرة في مسافة صغيرة فلو هيجت المكان القريب منها بالكهربائية أو أتلفته بالسكين لما أحدثت حركة ولا شللا .

وهكذا جاء البرهان القاطع على وجود مراكز دماغية لقوى العقل ، واندفع العلماء من كل قطر لإجراء التجارب في هذا السبيل فتوصلوا إلى اكتشاف مركز الحركة عند الحيوان الأقرب إلى الإنسان أي القرد . ولكن ما لم يستطيعوه كشفاً هو التثبت من دماغ الإنسان الذي استعصى عليهم إجراء التجارب عليه فتخلى عنه علماء المختبر وتركوا للأطباء مجال البحث فيه وبذلك أتيحت الفرصة لشاركو ليطلع عليهم في غياهب تلك الأبحاث بقبس جديد.

٢

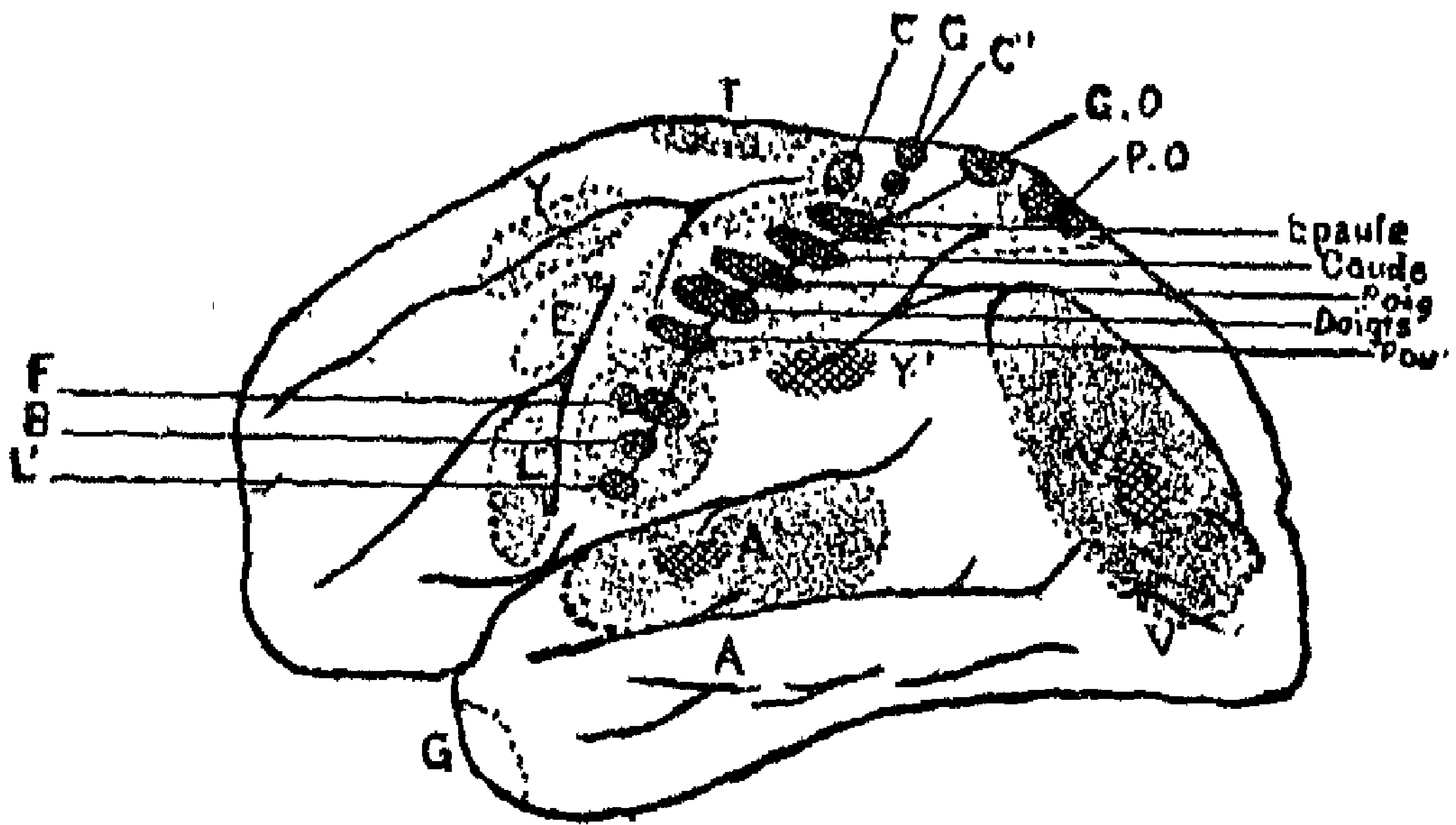
كانت معارف الناس عن الدماغ حتى أوائل القرن التاسع عشر ضيقة النطاق ، والشروح التي تنشر عنه غامضة متناقضة

وليس ثمت ما يجدر الأخذ به لولا اكتشاف بروكا مركز لغة النطق فى التلفيفة الجبهية الثالثة ، ولولا بعض الأبحاث لبعض الأساتذة مثل لبين وسواه . فلما برز شاركو إلى الميدان أنشأ أول ما أنشأ بالاشتراك مع زميله بيتر رسالة قدمها إلى جمعية علم الحياة « بيولوجيا » سنة ١٨٧٧ وضع فيها الأسس لطريقته — التشريحية السريرية — وأفاض فى بيان ما يمكن الاستفادة منه بالمقابلة بين الأعراض التى تعرو المريض فى حياته من تشنج أو شلل وما يكشف عنه تشريح جثمانه بعد الموت . وما برح الاثنان منذ ذلك العهد إلى عام ١٨٨٣ يجمعان البينات والأدلة المؤيدة لآرائهما حتى انتهى علماء العالم بالانضمام اليهما . وتعددت الأبحاث فى هذا الموضوع فأدت إلى اكتشاف نقاط فى المراكز الخفية من الدماغ يتم بها التقاط الإحساسات الآتية عن طريق السمع والبصر بحيث أمكنهم فى آخر الأمر أن يصوروا مخططاً للدماغ حسب الرسم التالى .

هذا الرسم يظهر لنا أن فى قشرة الدماغ مراكز لاستقبال أحاسيس النظر والسمع والذوق والشم ، وأخرى لاستقبال الأحاسيس الآتية من مختلف نواحى الجسم وللإشراف على حركات تلك النواحى . وفى قاعدة التلافيف الجبهية مركز صغير للغة النطق وآخر للغة الكتابة ، على أن المركز الثانى أى

المختص بالكتابة لا يزال موضع الخلف بين العلماء وأكثرهم يرى أن مركز لغة الكتابة هو فى المنطقة التى تسيطر على حركات الأيدى والأنامل .

هذا هو الحد الذى وصلوا إليه ، وهو كما نعلم لا يكفى لاتعرف



« عن كتاب دبوف إشار » : A مركز للسمع △ مركز خاص بالسمع الكلامى ▽ مركز للنظر V' مركز خاص لنظر الكلمات — G مركز للذوق — L مركز للغة النطق E مركز للكتابة T مركز لحركات القسم الأعلى من الجسم — Y مركز لحركات الرأس والعينين Y' مركز لحركات كرة العين — F مركز لحركات الوجه B — مركز لحركات الفم L — مركز لحركات اللسان — C مركز لحركات الفخذ — G لحركات الركبة C' — لحركات الرسغ . G-O لحركات الإبهام — A-O لحركات الخنصر .

إلى مراكز الإدراك والإرادة والذاكرة ولا إلى تلك البقعة الصغيرة من سماء العقل البشرى الذى يتجلى فيها كوكب الذاتية المعبر عنه بكلمة « أنا » .

ومهما يكن من هذه القشرة الدماغية فهى لا ترينا شيئاً من هذا ، لأن الإدراك والإرادة والذاكرة والشخصية كلمات خلقناها لحالات تصورناها ، أو تعلمناها ككيان قائم بنفسه وأطلقنا عليها اسم قوى النفس .

وإذا كان من سبيل للوصول اليها فبدرس فسيولوجية الدماغ أى وظيفته . فنرى أن الدماغ آلة معقدة التركيب لتعدد ما فيها من الأدوات ، ولكنها بسيطة فى مبدئها فهى تلتقط من هنا وهناك صوراً للسمع وصوراً للصوت وصوراً للشم أو الذوق ثم تحولها إلى حركة ، إلى نطق ، إلى كتابة .

وهذه الصور التى يلتقطها الدماغ فتنطبع فيه يمكنها قبل أن تتحول إلى عمل ، أن تجاور صوراً غيرها وتشترك معها وتوقظ فى طريقها صوراً أخرى نائمة .

هذا هو الدماغ ، كل الدماغ .

وصف وجيز كما ترى ، ولكنه كاف ليسهل لنا تعريف ما يسمونه قوى النفس تعريفاً علمياً وفسيولوجياً .

فالذاكرة ــ الوظيفة الأصلية الأساسية والأكثر غموضاً ــ هى

خاصة خلايا القشرة الدماغية أن تحفظ الصور فى حالة النوم لتوقظها وتبعثها من مكانها لأول سبب كتهييج خارجى ، أو احتدام الدورة الدموية فى تلك الناحية من الدماغ ، أو سريان موجة عصبية من جماعة من الخلايا إلى جماعة مجاورة لها .

ولا تحسب هذه الخاصة وقفاً على النسيج الممتاز الشريف الذى تتألف منه مراكزنا العصبية فالتاريخ الطبيعى يعلمنا أن مزية حفظ الأثر الحسى ثم بعثه وإحياؤه من الصفات المنتشرة فى المادة . وهذا الأمفيوكس Amphioxus وهو من أبسط الحيوانات البحرية تركيباً بل ربما كان الحلقة الفاصلة بين ذوات الفقر والحيوانات الرخوة يتمتع بالذاكرة على الرغم من أنه عادم الدماغ وأعمى لا يتأثر بالنور .

والجماد له ذاكرته فإن بعض شفرات الفولاذ إذا طبعت عليها آثار الأصابع مثلا ومسحتها ثم عدت بعد أيام وعرضتها للضوء الشديد فإن تلك الآثار تظهر ثانية .

ولنعد إلى الذاكرة البشرية فهى إذن مقيمة فى كل مكان من الدماغ يتصل فيه خيط عصبى للحس بخلية كبرى من المادة السنجابية . وإن هى إلا بقية أحاسيس قديمة ، بقية قادرة على الدوام أن تنبعث ثانية بتأثير تهيج جديد .

لا ريب فى أن تفهم الذاكرة على هذه الطريقة التشريحية لا

يعطينا مفتاح السر ولا نزال بعيدين عن إدراك هذه المقدرة الغريبة التى تستطيع بها أحاسيسنا أن تتوارى وتزول ردحاً من الزمن — قد يطول وقد يقصر — ثم تطلع علينا ثانية . ولكن حسبنا إلى حد ما أننا ما عدنا نفهم الذاكرة كوحدة لا تتجزأ كما كانوا يفهمون .

وتعريف الذاكرة يسوقنا حالا إلى تعريف الشخصية . فإن «أنا» يبدو بعد هذا كمجموع أميالنا الموروثة وإحساساتنا السابقة أى مجموع معارفنا . إن ضمير المتكلم عند ما نلفظه ، معناه كل ماضينا العقلى وقد استيقظ بإحساس جديد . « أنا أشعر بوخزة إبرة فى يدى » معناه فسيولوجياً هكذا : أعصاب الحس فى يدى حملت الساعة ، إلى بعض الخلايا الموجودة فى القسم الأوسط من التلافيف الجبهية والصدغية ، إحساساً حاداً ، وهذا الإحساس أيقظ فى قشرة دماغى ذاكرة إحساسات سابقة من النوع ذاته ، وهذه الإحساسات السابقة أحست بالزائر الجديد وأدركت وجوده وتعرفت إليه .

فيمكن إذن تعريف الشخصية أنها ذاكرة الإحساسات القديمة المتنبهة بالإحساسات الجديدة التى تضاف إليها على الدوام.

وللذاكرة مزية أخرى فهى الأداة الأصلية للإرادة . إن الإرادة هى المقابلة أو المقايسة إذا شئت بين إحساس جديد مندفع

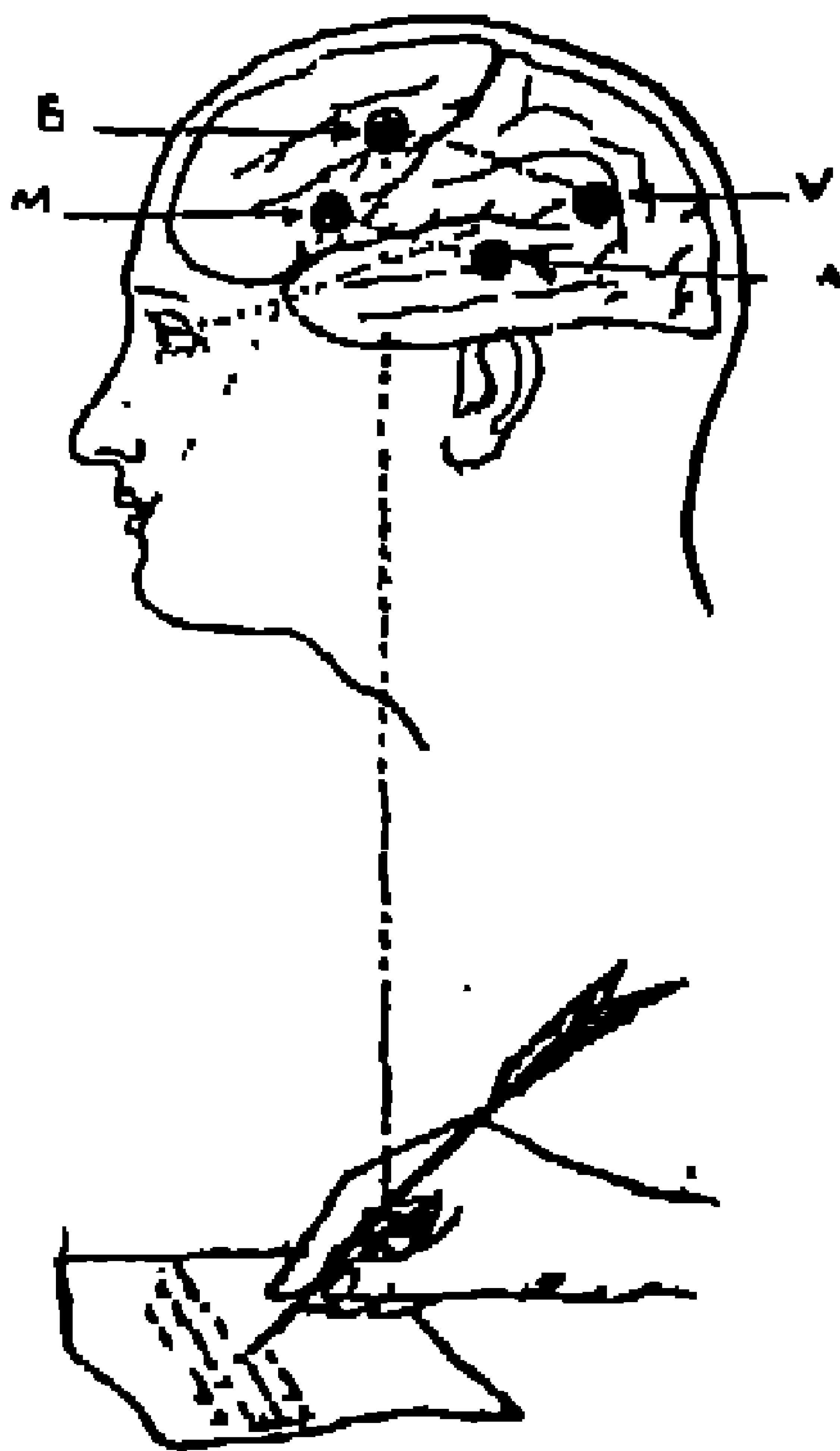
يصحبه ميل شديد إلى العمل والمعارضة القديمة المتجمعة بالوراثة في خلايانا الدماغية ، فينتج عن هذه المقايسة صراع يتغلب فيه القوى على الضعيف كما هى شرعة الطبيعة فإذا كان الرجل من الذين لم تثقلهم الوراثة الفاسدة وقد عاش فى بيئة صالحة فإن المعارف الحكيمة التى اكتسبها من خبرة أسلافه ومعلميه وخبرته نفسه تتغلب بسهولة على الدوافع الشديدة والأعمال المنعكسة البهيمية . ولكن ابن السكير مثلا الذى عاش فى خصام دائم بين الأم والأب واحتك منذ شب عن الطوق بعشراء السوء فهذا لا يستطيع الإفلات من قبضة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس. وقد أشرنا إلى شيء من هذا فى مقالنا عن الطب والقضاء.

بعد ما ذكرناه لك لا أظنك أيها القارئ تطلب منى أن أدلك على مركز الإدراك فى الدماغ وهو بلا ريب فى كل ناحية من القشرة لأن معناه الأساسى اشتراك صور وأفكار ومقابلة وحكم . وعمله مضمون بالألياف الفرعية العديدة التى تضم — بالمماسة — خلايا الحس والحركة وأيضاً الخلايا المشتركة التى تمر فى كل مكان من القشرة لتقرب بين نواحيها المتباعدة فى الظاهر وتجمع بينها بالوظيفة وعلى هذا الوجه يتم اتصالنا بالعالم الخارجى .

وزيادة فى بيان هذا الاتصال أقدم لك هذا الرسم الآتى (نقلا عن الأستاذ «كراسة» أستاذ الطب فى جامعة مونبليه سابقاً)

الذى يجلو لنا بعض الجلاء وظيفة النطق فى الإنسان .

أول ما يتبنه فى الوليد الجديد منطقة A أى سمع الكلمات فهو لا يرى بعد ولكنه يهتز للأصوات التى تكتنفه . فى هذه المنطقة يبدأ « رأسمال » دماغه بعناصر النطق الأولى وفيها تطبع الصور السمعية ، صور المقاطع التى تتركب منها الكلمات . وهذه المنطقة A مشتركة مع M أى تلفيفة بروكا التى تهيمن على حركات الحنجرة واللسان والفم المؤدية إلى لفظ الكلمات.



A مركز سمع الكلمات V مركز النظر الكلامى M لغة النطق E مركز الحركات اللازمة للكتابة .

فانظر ما يحدث عند ما يبدأ الطفل بلفظ مقطع « ما » الذى بالتكرار سيصل به إلى مناداة أمه « ماما » : يكررون على الطفل بلا انقطاع هذا المقطع ، وفى كل مرة تهز هذه الموجة الصوتية الواصلة لأذنه أطراف عصب السمع فى مداه حتى القشرة فى

المنطقة A . ولكن هذا الاهتزاز يحاول أبداً الإفلات فهو ككل قوة تدخل فينا فإنها تريد الخروج ، أى إن الإحساس يطلب التحول إلى عمل (راجع المقال السابق) . إذن لا تقف الموجة العصبية عند A إلا ما يكفى لتترك تذكارها وتكمل طريقها تابعة أسلاك الاشتراك A—M حتى M . وبعد أيام من هذا التمرين تكون الطريق قد عبدت وحركات الحنجرة واللسان والفم الضرورية للفظ المقطع « ما » قد اتسعت وتوافقت وبعد تجارب عديدة وتلمسات كثيرة يلفظ فم الولد « ماما » لفظاً ميكانيكياً ليس فيه شيء من الحنان بل بقصد التقليد وإرجاع ما أخذ وإتمام فعل منعكس .

وبعد زمن تتحد هذه الكلمة الملفوظة على هذه الوجه مع الصورة البصرية لذاك الشخص الذى يقدم الغذاء والعناية والدفء وتأخذ كلمة « ماما » معناها الحقيقى .

والمجال أضيق من أن يسمح لنا بالإسهاب فى تحليل آلة النطق الواسعة التركيب وما وصل إليه الأطباء بدرسهم أنواع الشلل الذى يصيب آلة النطق ويعطلها . ولولا هذا الدرس لما كان للإنسان فكرة عن كيفية نطقه أو إرادته أو

تفكيره أو عمله (١) .

هنا يحق للقارئ أن يتساءل : والنفس ما تصنع بها . وإلى أى حضيض من المادة نتهادى إذا كنا لا نرى فى العقل سوى آلة أفعال منعكسة معقدة التركيب ، كثيراً أو قليلا ؟ . . نعم قد يقع الطبيب تحت المشرط على مناطق مركزية وألياف اشتراك يساعدنا سير عملها على فهم حركة القوى العقلية أكثر وأوضح مما كان يفهمه آباؤنا ، ولكن أما للإنسان نفس خالدة ، أم كل شيء مقيم فى هذه الخلايا الدماغية ، في هذه العصابين التى أطلعنا العلم على شكلها وصلاتها ووظيفتها ؟ . . .

قلنا قبلا فى تعريف الشخصية إنها ذاكرة الإحساسات القديمة المتنبهة بالإحساسات الجديدة التى تضاف إليها على الدوام أى أن شخصيتنا مؤلفة من أميال ورثناها ومبادئ اكتسبناها بواسطة

---

(١) هذا الشلل قد يحدث بنزيف دماغى يعطل منطقة بروكا M . وإذا تعطلت منطقة النظر « للكلمات » لا يمكن إدراك معنى ما يقرأ . وإذا أصيبت منطقة السمع أى A فقد تعطل سمع الكلام . وقد عرف اليوم أن تعطيل منطقة نظر الكلام يكفى لمنع الكتابة وكذلك اختلال السمع الكلامى يؤثر فى كل آلة النطق . ويمكن القول أن كل مقطع من كلمة من أية لغة نتكلمها له مركزه فى إحدى الخلايا القشرية فى A أو V أو M أو E .

الحواس التى هى المنبع الوحيد للمعرفة لأنه لا يمكن أن يكون لنا علاقة بالعالم فى غير ما تقدمه شبكية العين وأطراف أعصاب السمع والشم والذوق وتلك الباقة من الأعصاب الموجودة فى جلدنا وأغشيتنا وعضلاتنا ومفاصلنا وأوتارنا . كل هذه الأعصاب الناقلة للحس المنتشرة على سطح الجسم لا يمكنها أن تحمل إلى دماغنا سوى اهتزازات عصبية نسميها إحساساً باللون أو بالشكل أو بعلو الصوت أو نبرته أو بالشم ، أو بالذوق ، أو بالثقل ، أو بالتماسك ، أو بالحر ، أو بالبرد ، أو بالحركة أو بالسكون فيبدو المرء كأنه غارقٌ فى أوقيانوس من الاهتزازات المختلفة التى لا تلبث أن تتحول عند ما تلامس أعصابنا إلى اهتزازات عصبية وتصل على هذه الصورة إلى قشرة الدماغ مركز الوعى والإدراك .

هذه الاهتزازات التى تلم بنا وتغيرنا أبداً من حال إلى حال هى كل ما نعرفه عن العالم . اهتزازات ماذا ؟ ربما اهتزازات المادة . نقول ربما ، لأننا لا نعرف عنها شيئاً فكل علمنا من الأشياء مقصور على الصفات الخارجية أى الشكل واللون والرائحة والطعم وما إلى ذلك ولا مرجع لنا سوى حواسنا وحواس أشباهنا من الناس .

إلى هنا ينتهى بنا العلم وهذا آخر ما هدانا إلى معرفته وليس

فى وسعه الجزم إذا كانت الطبيعة خلقة إله قادر لا تزال عنايته ساهرة علينا ، وإذا كانت هذه الخلايا التى تتألف منها قشرتنا السنجابية تطيف عليها نفس حرة خالدة . لا الله ولا النفس فى متناول الحواس لأنه ليس لهما صفات المادة .

يقول « غوته » فى جواب فوست على توسلات مرغريت الطافحة بالتقوى والحنان : « من يجسر أن يسمى الله ويقول إنى أؤمن به ، ومن هو الرجل العاقل الذى يمكنه أن يتحمل تبعة القول : لا أؤمن به » .

ويقول موسه فى قصيدته « الأمل بالله » .

« إذا كانت السماء قفراً فنحن لا نجدف على أحد »
« وإذا كان من يسمعنا فليشملنا برأفتـــه »

ويقول المعرى :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ألا معاد ، فقلت ذاك إليكما
إن صح قولكما فلست بنادم أو صح قولى ، فالوبال عليكما

على أن هناك علماً آخر غير العلم الطبيعى هو اللاهوت وله طرقه الخاصة التى تفسح له المجال لإثبات بعض الحقائق بالوحى أو الإيمان فإذا لم تختلط الطريقتان ولم يتعد الواحد منهما على الآخر فالعلم والدين يمكنهما أن يعيشا جنباً إلى جنب لأداء مهمتهما السامية ، وتخفيف آلام الإنسانية . تبين لنا مما مر أن

علم النفس قد تقدم بين أيدى علماء الفسيولوجيا وأطباء السرير تقدماً محسوساً واكتسب من الدقة ما لم يكن يحلم به لنصف قرن خلا .

ومذهب المركزيات الدماغية ومعرفة الخلية العصبية وصلابتها ودرس التأثيرات النفسانية وتنوعات قوة العمل الدماغى جعل من علم النفس علماً صحيحاً منظماً بل يحق أن نسميه بعدل أجمل فصل من فصول التاريخ الطبيعى .

الطب والأدب

(التدخين والأدباء – الذكاء والجنون – تولوز– مورو – لامبروزو – مكس نوردو– النقد الأدبى والطبيب – الروية والبداهة . البحترى . أبو العلاء)

وهذا باب آخر ينفتح أمام الطبيب ليفسح له مجال العمل فى ميدان الخدمة العامة . لقد تدخل فى التاريخ فخلع عليه نوراً جديداً بما كشف من أسرار السحر والشيطنة وقراءة الغيب ، وتدخل فى القضاء فغير وجهة النظر فى المسئولية ، فلم لا يتدخل فى الأدب والفن ؟

فى صدر هذه المئة قام الدكتور تولوز فى فرنسا بعمل جديد فى نوعه هو دراسة الكاتب الشهير إميل زولا دراسة طبية نفسية لإظهار الصلة الموجودة بين ما يسمونه النبوغ أو العبقرية وما يمنى به الجهاز العصبى من الاضطراب والخلل فى صحته ونظامه. وكان ذلك بدء عهد جديد للنقد العلمى لم يكن معروفاً من قبل ، فاهتمت به الصحف والمجلات ولا سيما جريدة الفيغارو والمجلة الجديدة والطب الحديث . والقصد من ذلك التدخل فى حياة

الكاتب الصحية والعناية بدماغ الاديب والمفن بحجة آن اكثر العاملين فى حقل الأدب والفن هم ملك الأطباء لأنهم من المرضى ، مرضى الإرادة والأعصاب. والذى يؤيد هذه النظرية ما يبدو من آثار التقهقر البدنى والعقلى فى السواد الأعظم منهم ، بما يشكون من سوء الهضم والصداع وتهيج الأعصاب المستمر ، إلى عدم الاستقرار الناتج عن السهر والإجهاد وقلة المبالاة والإفراط فى شرب المسكرات وفى التدخين وضيق ذات اليد أحياناً ، إلى سرعة التأثر وقلة الصبر وفقدان الثقة بالنفس ، إلى بعض الأطوار الغريبة أو الشاذة والأوهام والعادات المستحكمة فيهم .

ولا أحاول فى هذه العجالة التبسط فى شرح هذه العوامل المتعددة فقد أصبح أثرها فى الأديب حقيقة لا يختلف فيها اثنان غير أنى أستميح القارئ الوقوف حيناً عند التدخين الذى لايزال موضع الحيرة والشك عند أرباب القلم فكان له منهم أنصار وكان له منهم أعداء . هذه الذبالة التى شغلت الناس منذ القرن الخامس عشر فحرمها البابا أرسانيوس السابع وحللتها كاترين دى مدسيس ، واستعملها فريق ألهية وسلوى وفريق تجارة وموردآً للربح ، وألفت الجمعيات لمحاربتها فكان لها كالذين أبطال وشهداء ، كانت ولم تزل على الرغم من الاضطهاد الذى تعانيه فى بعض الأندية والمجتمعات قابضة على رقاب الناس وخصوصاً رجال الفن والأدب

وإذا نجا البعض منها مثل غوته وهيـــكو وإسكندر ديماس الأب ، فإن عشاقها كثيرون كالاورد بيرون ومريمه وأوجين سو وزولا وجورج ساند ، وموسه ، وبانفيل وسواهم — ولا أذكر سوى كتبة الإفرنج لأن المراجع فيما يختص بحياة أدبائنا لا تزال قليلة لدينا .

كان التدخين أبغض شيء إلى هيكو وغوته حتى إن الأول لم يكن يسمح لأحد أن يدخن فى بيته ؛ وكان يقول : التدخين يحول التفكير إلى أحلام ، ومن يبدل الحلم من الفكر كمن يخلط بين السم والغذاء . وكانت صحته وقوته الجسدية من وراء الغاية حتى روى بعضهم أنه كان يأكل ليمونة البرتقال بقشرتها . أما غوته فكان يقول ثلاثة أشياء أكرهها وأولها الدخان . . . وكان ذا إرادة جبارة وحياة يحسد على توازنها وصفائها . وإذا كان فى كتابه « آلام ورتر » عرف أن يصوّر اليأس أبدع تصوير فكشاهد نقاد يحسن الملاحظة ولكنه يظل محلقاً فى الأجواء فوق ما يخلق قلمه وفوق شقاء البشر .

ولكن لا يحق لنا أن ننسب هذه الفضائل فيهما من صحة جسد وصفاء ذهن إلى جهلهما لذة التدخين فهذا زولا وكوبه وكاتول مندس ودوده من المدمنين عليه وقد وفوا قسطهم للأدب دون أن يؤثر فى إنتاجهم العقلى أو فى صحتهم . على أن غيرهم كان يشكو

من السيكارة حتى اضطر إلى تركها ، وكان تيودور دى بانفيل وهو من أكبر المدخنين يقول : « لا يمكن أن يكون المدخن ذا طموح وعزيمة لأن الدخان أحلام مفسدة وفراغ قاتل » وكان اللورد بيرون من أشد الناس يأساً وأقلهم صبراً وأضعفهم عزماً وأسهلهم خضوعاً لتيار الحياة الجارف حتى إنه ألبس كل أبطاله حلة شقائه ويأسه . وكان موسه وجورج ساند على غير ما يريدان من راحة الحياة ، وبودلير مثال التعاسة والتناقض يغنى اليأس والعدم وأكاذيب الفردوس حتى الفردوس المصطنع الذى كان يجلبه لنفسه ، على أن هذا الأخير لم يكن يكتفى بالدخان وحده...

أما رأى الطب فى التدخين فيختلف حسب الأطباء لأن كثيراً منهم لم يستطيعوا التخلص من سلطان هذه العادة فسدل الشوق والرغبة عندهم على سيئاتها وتساهلوا كثيراً فى حكمهم عليه إلا أنهم مهما اختلفوا فى كيفية تأثيره ومدى هذا التأثير فقد اتفقوا جميعاً ، وهذا ما أردت أن ألفت إليه نظر القارئ أن الدخان مؤذ لكل كاتب يعرض نفسه للإجهاد فيسوقه إلى الوهن والضعف ولا سيما فى الذاكرة وقوى التناسل .

على أن زولا الذى اتخذه الدكتور تولوز موضوعاً لدرسه الجديد لم يكن مصاباً بداء عصبى ولا يحمل أدنى ظاهرة من خلل العقل أو الصرع أو الهستريا ، ولم يعدم الدكتور تولوز

مع ذلك وسيلة للقول إن جهازه العصبى كان على غير ما يرام من الصحة . ويعزو ذلك إلى الوراثة ثم إلى الإجهاد العقلى الطويل ، ذلك الإجهاد الذى يهدم شيئاً فشيئاً النسيج العصبى الدقيق البناء . غير أنه لم يجد علاقة بين هذه الحالة وذكاء الرجل ولا يرى أن حالته العصبية كانت ضرورية لإنتاجه الفكرى بل هى بالأحرى نتيجة لهذا الإنتاج لا سبباً له .

وقديماً عرف أرسطو أن أكثر مشاهير الرجال مصابون بالسوداء ولأيامنا هذه لا يزال الأطباء مع اعتراف بعضهم بوجود استعداد ذاتى للتهيج عند المفكرين ، يعتقدون أن الحالة العصبية المتقلقة هى نتيجة للعمل العقلى وليست من بواعث النبوغ .

وبخلاف ذلك رأى الاختصاصى « مورو » فهو يدعى أن عدم التوازن فى حالة الأديب الصحية هى أصل نبوغه . وأن العبقرية ليست سوى ظاهرة من ظواهر تهيج الدماغ إلى أقصى حد ، وأن الإلهام الشعرى والجنون صنوان .

وجاء بعده لومبروزو فقال إن العبقرية ضرب من داء الصرع وقد ذاع كتابه « الرجل العبقرى » وترجم إلى لغات كثيرة وكان له فى حينه شهرة بعيدة ، شأن كل جديد غريب النزعة . إلا أن عمر هذه الشهرة لم يطل لأن الشواهد والأدلة التى جمعها لتأييد زعمه كانت بعيدة عن الدقة ، وفى كتابه قصص وحكايات وأخبار

ليس عليها مسحة من الحقيقة العلمية بل هى قائمة على قال فلان وقيل عن فلان . وأحياناً كان يكتفى بالنظر إلى رسم الرجل ليحكم عليه ويشخص علته .

ثم جاء مكس نوردو فى كتابه « التقهقر » فادعى أن كل الفن الحديث صائر إلى الانحطاط والزوال . وقد قسم الإنتاج الفنى إلى مراتب مختلفة وضع على كل منها رقماً يحمل اسم علة عصبية ، فحشد هنا مصوراً ، وهنا كاتباً وهنا موسيقاراً ، وسمى كبرياء النفس الشرعى هذيان العظمة ، والسوداء هذيان الاضطهاد والسهو البرىء غيبوبة الصرع ، والنظم خلطاً ، والإيقاع ضرباً من الهوس ، وحدة الطبع ثورة جنون ، واليأس نوعاً من الاحتضار .

ولا يخفى ما فى هذا من المبالغة والإغراق والخروج عن جادة المنطق : نعم إن ما يسمونه نبوغاً قد يظهر فى الأسر القديمة المنهوكة التى لا تخلق سوى سلالة ضعيفة قد يأتى فيها الشاذ الغريب . ولكن الطبيعة لا تحب الشواذ كما يقول « ريشه » فى مقدمته لكتاب لومبروزو . وعلم الحيوان ينبئنا أن بعض سلالات من الحشرات تموت فوراً عقب الإنسال . أو ليست هذه شرعة الحياة الدنيا بوجه ما ؟ إن الشجرة عند ما تهرم فيجف ماؤها أو يقرب من الجفاف تطلع فى وقت واحد على الغصن الواحد ثماراً

هائلة فى الجمال وأخرى من سقط المتاع . وهكذا الإنسانية .

والدكتور تولوز فى كتابه عن العلاقة بين السمو الفكرى والاضطراب العصبى لا يؤيد لومبروزو بل يطالب بشواهد طبيعية بالدرس على الأحياء ممن يقبلون بأن يكونوا موضوعاً لهذا الدرس . وهو لم يتوخ فى كتابته عن زولا درساً انتقادياً بل نفسانياً وربما رأى أن الوقت لم يحن بعد لفتح هذا الباب أى النقد الأدبى البسيكولوجى ، ولكنه أراد وضع أسس له ، ذلك النقد الذى يقوم به الطبيب النفسانى بدرس دماغ المبدع وتحليل ما أبدع . ومن رأيه أن هذا النقد يختص برجل العلم وحده لأن الغاية من النقد تفسير الكتاب بالكاتب أو الصورة بالمصور ووضعه فى مرتبته من حيث الجمال وعلم الجمال . وعلم الجمال فرع من البسيكولوجيا يخضع مثلها للقواعد فيها . فالقصة أو الرسم أو النقش عمل أو على حد تعبير زولا نفسه « زاوية من الطبيعة ينظر إليها من خلال المزاج » ومن أحق من رجل العلم بإقامة الصلات بين هذه الزاوية ومزاج الناظر إليها ، أى بين العمل والعامل فى تركيبه جسداً وعقلاً ليحلل الأسباب الشخصية التى أوحت به ، مستعيناً بعلم وظائف الأعضاء على درس تكيفات الذهن فى طريق الخلق والإبداع .

قد يعترض أن النقد الفنى لا يكفيه ذهن متعود على أبحاث

النفس ووظائف الأعضاء بل يستلزمه أيضاً علماً واسعاً بالموضوع وهذا لا يتسنى لأى كان . نعم إن الحكم على عمل فنى كصورة أو قطعة موسيقى أو شعر أو غير ذلك يقتضى معرفة واسعة بالرسم أو الحفر أو الإنشاء وما إليه ، ولكن الطبيب الملم بهذه الفنون أو ببعضها يكون أقدر من سواه على النقد العادل المحكم الصحيح ؛ وإنى وإن لم أكن على رأى الدكتور تواوز من حصر النقد الادبى فى الأطباء فلا أنكر أن النقد فن مستحدث لم يتناوله الأقدمون ، فهو إذن ذو آفاق جديدة يستطيع الطبيب أن يبسط جناحيه لينفض جوها ويسبر مجاهلها فيرسل إلى صميم الكتاب بصره وينفذ فى معانيه كما تنفذ الأشعة المجهولة فى الأجسام ، وكما يوجد طبيب شرعى له مكانه وضرورته يحسن أن يكون هناك طبيب أدبى يحلل الأدب فى بوتقة كيميائية لأن الطبيعة والأحداث النفسانية وقوى العقل وأعمال الفن كلها تحتاج إلى أن تدرس درساً علمياً مبسوطاً .

ولا أريد الرجوع بالقارئ إلى تاريخ النقد ونشأته وتطوره وحروب الكلام التى أثيرت من حوله فى الغرب ، وانقسام النقاد وتباين طرقهم ؛ فذلك خارج عن موضوعى . ولكن فى هذه الأيام التى كثر فيها الخلط وضاعت مقاييس الأمور وتعددت مذاهب الأدب وأصبح النقد مسيراً فى كثير من الأحايين

بالعاطفة فلا يعرف القارئ من يصدق وبمن يؤمن ، أصبح من الضروري — وقد أخذنا إلى النقد سبيلا — أن نجعل عليه مسحة علمية تكفل له التماس الحقيقة من مظانها . فإذا ما تدخل الطبيب في نقد الأدب فلكي يتفحص الأذهان كما يتفحص الأبدان فلا تنحصر دراسة العمل الفني أو مطالعة كتاب ما بالشعور باللذة أو الملل . بل تتعداه إلى تشخيص حالة الكاتب والفنان الدماغية وإظهار قيمة بدعته وما فيها من نفع ينتظر أو خطر يجب تلافيه قبل أن تسمم به روح القارئ .

ولا يغرب عن بالنا أن النقد العلمي قليل في أدبنا العربي . وإذا وضع له السلف — كقدامة وابن رشيق وأبي الحسن الآمدي وغيرهم — قواعد فهي قواعد خاصة غلبت فيها على مذاهبهم الأفكار الجزئية والمباحث الضيقة من نقد المفردات والألفاظ وسرقة المعاني ، لولا ما نجد عند الجرجاني والمطرزي وأبي الفرج الأصبهاني في تضاعيف الأغاني من طلائع النقد الصحيح . وقد يجيء النقد عرضاً وفيه شيء من السخرية والدعابة كما كان يفعل الجاحظ . أما الذين ألموا به على الطرق الأوربية المستحدثة فلا أجد منهم سوى الشدياق واليازجي بالأمس القريب . وهناك طائفة من الأدباء المحدثين أخذت تستشرف هذا النقد المبني على المبادئ الجديدة ولكنها لا تزال في خطواتها الأولى .

وإنى أعتقد أن علم وظائف الدماغ كما انتهى إليه الفسيولوجيون فى أواخر القرن الماضى يعبد لنا الطريق للتعرف إلى بعض حالات الذكاء والتمييز بينها . وربما حان لنا أن نتساءل إذا كان الشاعر حقيقة — والمراد بالشاعر هنا رجل العمل ، الذى يبتكر ويبرز إلى الوجود شيئاً جديداً قد يكون غناء أورسماً أو قصة أو مأساة أو اكتشافاً فى الصناعة أو العلم — هو أسمى فى نظار الناس وإعجابهم من الذى يأخذ على عاتقه انتقاده والحكم عليه مؤثراً على الابتكار وظيفة التحليل والمقابلة بين منتوجات الفكر لتفهمها واستخلاص أفكار عامة عنها .

هذا ضرب من الموازنة بين اللاوعى والوعى أو البداهة والروية

عند ما ألقى بيار لوتى رده على خطبة استقباله فى الندوة الفرنسية « الأكاديمى » حملت الجرائد عليه حملة نكراء لأنه تجرأ فقال : إنه لا يفتح كتاباً ولا يطالع أبداً . على أنه فى اعترافه هذا وضع الحد الفاصل بين الطريقتين ، وأظهر أن شاعريته لا تخضع لغير مزاجه ، ولا تعبأ بمذاهب الأدب ومناهج الأدباء ولا تتقيد بوحى مدرسة أو معلم ، فهو يكتفى بأن يعيد إلى العالم بأجلى بيان وألطف أسلوب التأثيرات التى يتلقاها من العالم .

وليس لوتى الوحيد الذى استطاع أن يغنى نفسه بنفسه

فقد ذكر كلاريتي فى كلامه عن هيغو فى منفاه الطويل أنه لم يكن فى مكتبته شىء يذكر فقلما كان هذا الشاعر العجيب يطالع بل كان يكتفى بأحاسيس الكون وعناصر الاهتزازات القوية فيتملاها مصافحة وعناقاً ليكبرها دماغه ويخرجها بشكل هائل فيه روعة الإبداع وقوة الألوهة .

وكان زولا أيضاً قليل المطالعة أو بالأحرى لم تكن مطالعته ليحشو رأسه بالمعارف ويقدم وقوداً لآلته الدماغية بل يستمد الشواهد اللازمة لدعم آرائه .

وكذلك بلزاك لم يترك له عمله العظيم متسعاً من الوقت لقراءة ما يكتبه سواه . هؤلاء كلهم لم يكونوا يهتمون بنتاج الآخرين ، وطريقهم فى الخلق واحدة ، فهم كالمصورين يستقون مما حولهم ومن الطبيعة رؤى ليرجعوها محلاة بالفن مدموغة بطابع مزاجهم الخاص .

هؤلاء رجال البداهة تختلف طريقتهم عن النظريين المتفلسفين الحاملين فى رؤوسهم أكداساً من المعارف المختلفة مثل رنان ، وسنت بف ، وأناتول فرنس ، ولمتر ، وبارس وسواهم . ولو أردنا أن نبحث فى العربية عما يقابل هذا ، لتمثل لنا البحترى الشاعر المطبوع والمعرى المفكر الفيلسوف . وحسبنا إيضاحا الرجوع إلى بعض مبادئ فسيولوجيا الدماغ ؛ وهذا الرسم البسيط

الذى تعرف إليه القارئ فيما مضى (راجع المقال السابق) وانظر الشكل صفحة ٧٧ .

لنفترض أن أمامنا دماغ البحترى فى ساعة أتاه فيها نعى رجل خطير فأراد أن يرثيه فماذا يكون ؟

إن الاهتزازات العصبية التى أحدثها هذا النبأ تأخذ طريقها عن أداة السمع حتى نهاية العصب فى قشرة الدماغ فى A مركز السمع ، وبما أن هذه المنطقة لا تزال شبه عذراء أى قليلة الأثاث الذى يجلبه الدرس فالإحساس الوارد عليها يحتفظ بكل طراوته وقوته الأولى ويحاول أن يصير إلى عمل — كما هى العادة فى كل إحساس طارئ — ليخرج من الدماغ كما تخرج هذه الأشياء من دماغ الشاعر فى شكل إنشاد أو لغة مكتوبة .

وفى اللحظة عينها التى يصل فيها هذا الاهتزاز إلى الدماغ تشرق رؤيا جديدة تضىء نواحى تلك المنطقة فتستحضر الإشارات والرموز والإحرف والكلمات التى نستعملها عادة للتعبير عما يؤثر فى حواسنا .

وعلى هذا الوجه يتمشى الاهتزاز العصبى من A إلى E مركز الكتابة أو M مركز النطق ، فإذا بالشاعر يخط على القرطاس أو ينشد التأثير الذى تلقاه بكل جماله الأول وكل حرارة قوته المتدفقة فيطلع علينا بهذه القصيدة .

انظر إلى العلياء كيف تضام ومآتم الأحساب كيف تقام

وهى قصيدة جميلة ولكنها كسائر مراثى الشعراء تجمع بين ذم الدهر ومدح الميت ونعى المجد والشجاعة والكرم واستدرار الغيث على قبر الراحل إلى آخر ما هنالك من الصور والمعانى التى تمر فى مخيلة الشاعر فى حلة لا تخلو من الجمال الطبيعى وفيها من روعة الموسيقى الشىء الكثير .

ولنفترض الآن أن نبأ كهذا طرق مسامع المعرى فإن إحساساً شبيهاً يتمشى إلى A ولكنه لا يجد هناك منطقة عذراء أو شبه عذراء بل بقعة حافلة بالسكان لكثرة ما تجمع فيها من المبادئ الفلسفية والتذكارات والمعارف وعلوم الحياة التى كان يعنى المعرى فيعوقه هذا الزحام عن السير ولا يبلغ منطقة النطق — الوحيدة التى يمكنه الخروج منها لأن المعرى أعمى لا يكتب — إلا بعد أن توقظ الرؤيا من حولها أشياء كثيرة وتذكارات مماثلة وأحاسيس قديمة تمت إلى كل سبب من أسباب الحياة والموت فيطلع علينا الشاعر بقصيدته الخالدة :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شـــاد

والفرق واضح بين القصيدتين .

ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نكثر من الأمثال فى هذا الموضوع :-

وخلاصة القول أن لكل من الاتجاهين الإبداع البديهى والفلسفة التأملية عظمته . وإذا رجعنا إلى النقد وجدنا أن كثيراً من كتاب الغرب بدأوا به حياتهم الأدبية ثم انصرفوا إلى كتابة القصص والروايات وما شاكل كأن صوتاً خفياً كان ينذرهم أن التفلسف أدنى من التوليد .

على أن النقد فى حد ذاته عزيز المطلب جزيل الفائدة وهو فتح جديد فى الفكر البشرى بخلاف الفن فهو قديم وأعظم مثّال اليوم لا يفوق فيدياس وأعظم شاعر لا يكسف أوميروس .

نعم قد نجد حيناً بعد حين فى الصحف والمجلات نقداً لا يسمو فى جوهره إلى مرتبة الموضوع المنقود ولكن هذا لا يدل على فساد النقد بل على ندورة النقاد الحقيقيين . كما أن النقاد الخليق بهذا الاسم قد ينزل أحياناً من القمة التى هو فيها فيتبع هواء النفس إرضاء لهذا أو طعناً فى ذاك .

على كل فإن الجمع بين الطريقتين أجدى وأخصب وبما أن الوظيفة تخلق العضو فالناقد الذى يريد الخلق والإبداع لا بد أن يصل إلى غايته فينتقل من الحكم على كتابة الآخرين إلى الإنتاج وتقديم ما يكتب غذاء لغيره من النقاد إلى أن يأتى يوم يظهر فيه عبقرى جبار جهول ظلوم فيبهر الناس بقوته ويخلق من حوله جنداً من النقاد ينصرفون إلى تفهم هذه الأعجوبة التى ولدتها الأيام .

الطب والشعر

يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنه لا صلة بين الشعر والطب ، والمعروف المتداول أن من يتعاطى صناعة الطب هو أبعد الناس عن الاهتمام بالشعر أو الإجادة فيه . ذلك لأن الطب علم وضعي يعلم صاحبه أن لا يؤمن بغير اللمس ولا يرى إلا بعين الرأس ، في حين أن الشاعر لا يعرف التقيد بالحقائق الملموسة بل يظل عبداً للخيال ، هائماً في فضاء من شرود الفكر لا حد له . قال هيكو : الشاعر طائر الإنسانية ، يغادرها من حين إلى حين سابحاً في سماء التصور ، بل إن الطائر قد لا يعود من رحلته بخلاف الشاعر الذي يرجع ليصلح ، فهو بين المجنحين يعد من الملائكة لا من الطير .

فكيف يمكن التوفيق بين هذا الحاضر الغائب ، المحمول بالفطرة على أجنحة الخيال للتغلغل في أعماق الغيب فلا يرى إلا ما يمثله له التصور ولا يحس إلا بما ينزل عليه الإلهام ، والطبيب السالك مضيق الحقائق العلمية ، المقيد بروابط الحس والمادة ، الناظر إلى الأسباب ومسبباتها ، الراجع في كل ما يعمل إلى

التعليل المنطقى والفلسفى ، الخاضع لما تراه عيناه وتلمسه يداه وتسمعه أذناه ؟

لا ريب أن هذا الفرق الظاهر بين الاثنين فى طريقة التفكير والعمل هو الذى خلق هذا الاعتقاد الراسخ فى أذهان العامة وبعض الخاصة من أن الطب والشعر لا يجتمعان وإن اجتمعا فلا يكون الإنسان فيهما على مستوى واحد من حيث الإجادة والنبوغ .

ولكن إذا تعمقنا فى الحقيقة وجدنا ما يناقض هذا الزعم وينفيه وبدا لنا من شواهد التاريخ والتقاليد وتركيب الإنسان ما يدلنا على وجود نسب عريق بينهما .

وجد الشعر على الأرض منذ وجد الإنسان ، وكان له فى العصور الأول عظمة الآلهة فتناول كل مناحى الحياة فكان الشاعر بطلا ومطرباً ونبياً وطبيباً . ويقال إن الذين استخرجوا صناعة الطب من أهل موسيه وأفروجيه هم أول من استخرجوا الزمر فكانوا يشفون بالألحان والإيقاعات آلام النفس وآلام البدن . ولما تقدم الإنسان قليلا فى خبرته وتجاربه ابتعد الطب عن الشعر ليدرس فعل الحشائش والعقاقير وتأثيرها فى الأجسام والعلل ، دون أن يطلق بتاتاً مصادر الإلهام والرؤى والأحلام . ولهذا نرى فى كتب الأقدمين أنهم كانوا يعلمون الطب والشعر

معاً ، كما وقع لأخيل بطل الإغريق إذ تلقى من الساحر كيرون الموسيقى والطب قبل أن يتلقى علم السلاح .

والظاهر أنهم اتبعوا فى ذلك إلهام الفطرة لأن الإنشاد يفعل فى السامع فعل المسكر والمخدر فيبدد الغيوم عن سماء النفس ويفرج الكرب عن الصدور وينسى إلى حين هموم الفكر وعذاب الجسم . وفى التوراة أن روح الرب فارق شاول وزعجه روح شرير من لدن الرب فأرسل فى طلب داود . وكان إذا اعترى شاول الروح الشرير يأخذ داود الكنارة ويضرب بيده فيستريح شاول وينتعش وينصرف الروح الشرير عنه .

فضلا عن ذلك فإن الغاية من الطب والشعر كانت واحدة وهى خدمة الإنسانية ، فالطبيب يهتم بحفظ الصحة وإصلاح ما اختل منها ، والشاعر ابن الآلهة يغنى لإبعاد نقمتها وجلب رحمتها وله مكانه المحفوظ على موائد الملوك وفى الهياكل أيام الأعياد ، وفى أسفاره الدائمة ، كأنه موكل بفضاء الله يزرعه ، حاملا إلى الناس أسمى التعاليم من حب الواجب والعفو عند المقدرة والدعوة إلى الفضيلة .

أين هذا من حالة شعرائنا اليوم وما وصل الشعر إليه على أيديهم ؟ فما خلا القليل من الذين حافظوا على جلالة ماضيه أو عرفوا أن يجددوا فيه ، فالشعر عند فريق تسفل واستعطاء ،

وعند فريق سخافة وهراء ، وعند فريق هذيان واستهواء .

عفواً ، لقد كدت أشرد عن الموضوع . على أنه إذا تركنا هذه الاعتبارات جانباً من حيث العلائق التاريخية والتقليدية فلنا فى فسيولوجيا الدماغ شاهد أثبت على القرابة الموجودة بين الشاعر والطبيب ، أعنى بذلك قوة التصور والخيال .

ما هو الخيال ؟ جاء فى التعريفات : الخيال قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة . وفى الكليات : الخيال مرتع الأفكار كما أن المثال مرتع الأبصار. هذا الخيال يستخدم الذاكرة كآلة له فيخترع من الأمور المحسوسة أشياء معدومة . كقول الشاعر :

وكأن محمر العقيق إذا تصوب أو تصعد
أعـــلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

فإن هذه الأعلام وهذه الرماح لا وجود لها فى الواقع ولكن الشاعر تخيلها فى ذهنه فشبه بها العقيق . بالخيال يخلق الشاعر أبطاله وآلهته فيراها فى هدير الماء وغضب السماء كما يراها فى ضياء القمر وتهادى الشجر . وبه يملأ القفر عمراناً ويعطى الجماد روحاً ولساناً . فهذا الخيال ضرورى للطبيب كما للشاعر ، وبدونه لا يرتفع عن المستوى العادى . وسواء وقف أمام سرير المريض يحاول تشخيص الداء بشتى الوسائل التى لديه من قرع

باليد وفحص بالمنظار وتسمع بالأذن ، أم كان فى مختبره يسعى إلى اكتشاف خصائص المكروب ، أو خلا إلى نفسه يفكر فى تعليل الحوادث المرضية وفك طلاسمها ، فالخيال أكبر معين له على النجاح .

إن قوة التصور والخيال هى كتألق المعادن إشعاع الفكر البشرى على الإطلاق . فكما أن اندفاع ذرات النور من الراديوم لا ينحصر فيه بل هو اليوم ، كما قال كوستاف لبون ، من صفات كل جسم حتى الحجر البسيط ، على شرط أن تفعل فيه المؤثرات اللازمة لذلك ، فالخيال من صفات كل دماغ ، وقد رافق الإنسان الأول قبل أن يعرف الكتابة فكان يدفعه إلى تصوير أفكاره وترجمة شعوره على الهياكل المنقوشة والأنصاب المنحوتة وفى النغمات الصاعدة من قلبه ومن أوتاره . ولما انفتح أمامه طريق الكتابة والطباعة اندفق هذا السيل منصرفاً إلى القرطاس يرسم عليه ما يدور فى جمجمته الصغيرة من جمال وأحلام ، مبتدئاً بالجن وما يلابسه من الأوهام منتهياً بالحقائق التى أقرها العلم فى آخر الأيام .

ولولا قوة التصور والخيـــال لما اخترع أرخميدوس رافعة الأثقال ، ولا اهتدى نيوتن إلى الجاذبية بواسطة تفاحة ، ولا قدر لافوازيه على وضع دعائم الكيمياء الحديثة ، وباستور

على توهم الميكروب قبل الوصول إليه . وكثير من العلماء لضعف هذه القوة أو كمونها فيهم مروا من أمام الأسرار الكونية دون أن ينتبهوا إليها فبعدوا عن الاختراع وهو قريب منهم وكان لغيرهم حظ الوصول إلى ما قصروا عنه .

وعلى ذكر باستور والميكروب أريد التنويه بأمر فيه مفخرة للعرب وهو أن الرئيس ابن سينا الطبيب والشاعر أدرك وجود الميكروب قبل باستور بعصور ، فذكر فى تعليله عن بعض الأمراض إمكان وجود أجسام صغيرة حية لا تراها العين وهى التى تسبب الداء . فلم يبق إلا خطوة ، لو قدر لابن سينا فى تلك الأيام ما يتمتع به عصرنا من وسائل التنقيب والامتحان لمشاها وكان السابق إلى هذا الاكتشاف العظيم الذى أراه خياله الواسع بصيصاً من نوره .

فالشعر إذاً لا يتعارض والطب بل ربما كان له ظهيراً بما يستطيع الطبيب الواسع الخيال أن يصل إليه ، كما أن الشاعر يستفيد من إلمامه بالموضوعات الطبية والحقائق الفسيولوجية إذ تنفتح لديه آفاق جديدة بما يرى حوله من الآلام ويتعرف إليه من شقاء الأجسام .

ولا أدرى وايم الله لماذا يمتنع على الطبيب أن يكون شاعراً ولا يمتنع عليه أن يكون نحاتاً أو مصوراً أو عالماً بالموسيقى ؟

١٠٣

وعندى أن كثيراً من الاطباء شعراء وإن لم ينظموا لأن الشعر شيء والنظم شيء ، وكم من الذين يقولون الشعر وهو براء منهم على حد القائل :

فقل أنا وزان وما أنا شاعر .

التسمم بالحب

لا يستغرب القارئ هذا العنوان ويحمله على المجاز فالحب كالسم قد يؤثر فى الأعصاب تأثيره فيها فيزيل رونق الشباب ويطفئ شعلة الذكاء ويخمد نار الهمة ويدفع صاحبه شيئاً فشيئاً فى منحدر الضعف والخمول والشقاء .

وما كان للطبيب أن يتدخل فى شئون الحب لولا أن الطب أحق من غيره بتحليل هذه العاطفة . نعم إن كتبة العصر قد أظهروا اقتداراً نادراً وعلماً واسعاً فى درس القلب البشرى غير أنهم لم يخرجوا عن دائرة الأمانة أو الخيانة وما وراءهما من لذة وألم ومسكنة وفلسفة وشعر وعزلة وتهتك .

عجباً ، يقول الناس ، الحب أشرف شيء على الأرض ، أقدس عاطفة تختلج بين جوانح البشر ، أبعد غاية يتطلبها الإنسان ، مصدر لذاته ، علة حياته ، هو إذن سم .

عفواً أيها القارئ ما أردت التعميم وجل ما أرجوه أن تسير معى إلى آخر الطريق لتتبين الغاية مما أقول .

ليس الحب إلا قوة من القوى الطبيعية التى يستمدها جسمنا

من احتكاكه بالعالم المحيط به ، هذه القوى نوعان منها ما هو دائم العمل كالهواء والنور والحرارة وكهربائية الجو والدم السارى فى عروقنا فهى تنبه فينا التغذية الخلوية وتواصل عمل الحياة . ومنها ما هو وقتى كالحب غايته قضاء بعض حاجات الوجود وفى مقدمتها بقاء النوع .

يصادف الفتى فى طريقه فتاة يروق له منظرها فتحرك فيه عاطفة الميل وحسبه بعد ذلك أن يراها أو يسمع صوتها أو يلمس يدها لتنتقل الاهتزازات العصبية إلى المراكز السامية وتتجمع فى دماغه .

فالحب قوة من الدرجة الأولى بين القوى ولكنه سيف ذو حدين فكما أن من الخمر ما هو جيد يفرح قلب الإنسان وينير الذهن ، وما هو فاسد يخلع عن الإنسان رداء الإنسانية ، يوجد من الحب ما هو صحيح مفرح لا يعرف الألم ولا وخز الضمير ، وما هو محزن مخجل كله تنهد وشكوى ودموع .

وليس هذا التقسيم بالنسبة لطبيعة الحب بل لطبيعة البشر ، فإذا كان الإنسان قوى الدماغ صلب الإرادة منتظم الجهاز العصبى فالحب عنده يبعث على النشاط ويحفظ الصحة وصفاء الفكر ولا خوف عليه من التسمم به ، كما لا خوف على من يشرب كأساً من الخمر الجيدة أن يصير سكيراً .

وبخلاف ذلك إذا كان ضعيف الإرادة قصير الحيلة سريع التأثر قليل الصبر والاحتمال فكثيراً ما يكون الحب وبالاً عليه يجلب العذاب واليأس ويفعل فيه فعل المورفين والحشيش وما شاكل .

وهأنذا أعرض أمام القارئ صورة من أعراض هذه السموم ليرى ما بينها وبين الحب من الشبه ، وإن لم يكن مثلها خاضعاً لشرعة الكيمياء .

سواء أكان السم أفيوناً أم طباقاً أم كحولا فنتائجه السيئة لا تظهر حالا كما أن لذته تكاد لا تذكر فى بداءة الأمر . فإذا وقف المرء عند هذا الحد فقد نجا من الخطر ، ولكنه فى أغلب الأحيان لا يعدم مرغباً يدفعه إلى إعادة الكرة أولا وثانياً وثالثاً إلى أن تأخذ طلائع اللذة بالظهور فالخمر تجلب السرور والمورفين يبعث على الراحة والسكون والتدخين يفتح أبواب الأحلام ويساعد الفكر على التوليد ، فيشعر الإنسان لأول مرة بلذة الكسل والإفلات من قيود المسئولية وضعف الإرادة ، ولا تخفى عليه خالته غير أنه لا يجزع لها لاعتقاده المقدرة على الوقوف متى أراد .

ولكن بعض الناس يتدخل فيما لا يعنيه فيتعرض له من يقول ناصحاً :

حذار يا صاح فإنك لا تعلم إلى أية هوة أنت صائر .

فيجيبه بهز الكتف مستهزئاً به ، كيف يظنه سهل الانقياد إلى حد يتعذر عنده الرجوع عن مثل هذه العادة المستحدثة .

ومنذ ذلك الحين أى منذ وجد من ينبهه إلى ضلاله ، تتغير أخلاقه فيميل إلى الكذب والتكتم فيدخن فى الخفاء ويشرب فى الخفاء ويأخذ المورفين فى الخفاء ويتجافى أخاه الشقيق وصديقه النصوح ، كل ذلك واعتقاده أن إرادته لم تمس بضعف فمتى شاء حكمها بالعادة وفاز عليها .

غير أن العادة لا تلبث أن تتملكه ، وما العادة إلا آفة الإرادة ، أما هو فلا يحاول أن يدفعها عنه لأنه حتى الساعة لم يشعر بضررها بل لم يعرف سوى اللذة ومن الحماقة أن يحرم نفسه لذتها .

ومع ذلك فهو يبتدئ يحس بالميل إلى الوحدة والاستسلام للتأملات والوقوف دون العمل ، وبعد أن كانت الجرعة الواحدة تكفيه أصبح يستزيد منها لتخلع عليه رداء السكر اللطيف والنسيان العذب .

عندئذ يتجلى له خطر الموقف فيجزع ويعقد النية على ترك هذه العادة المحبوبة . . لا الساعة بل غداً أو بعد غد . وهكذا تمضى الأيام والشهور وكلما أراد الإقلاع عنها خانته الشجاعة

فيؤجل ثم يعاوده وخز الضمير فيندم على تأجيله ويعود إلى الأمل أن يكون فى غده أقوى منه فى يومه للتخلص من هذا الأسر .

وعلى هذا الوجه يصير السم من لزوميات الحياة لا يستطيع بدونه عملا ، فلا يهنأ له نوم ولا أكل ولا مجلس بل يرى أن ذلك التنبه العصبى الذى تعوده بالتدخين أو الشرب أو الشم أصبح دون ما يحتاج إليه فيضطر إلى زيادة الجرعة ليحصل على النتيجة ذاتها وتأتى النتيجة أقل مما فى السابق .

وحينئذ تظهر فيه أعراض التسمم بكل جلاء : اضطراب فى الذهن وتقاعس فى الهمة واصفرار ونحول وأرق وذهول وتسرع فى الغضب والبكاء وانحطاط فى القوى وتلاش إلى الهرم الباكر .

فى هذا الدور من التسمم إذا أراد الطبيب منع السم دفعة واحدة وقع فيما يحاذر لأن المدخن يصير عصبياً سريع الهياج ويصيب مدمن الخمر هذيان كالجنون ويتحول عاشق المورفين إلى طفل يبكى ويصيح ويتوسل .

ونهاية الأمر جنون أو انتحار أو مرض لانهوض منه ولا شفاء .

هذه هى صورة موجزة لما يصيب الإنسان إذا استعبدته إحدى هذه العادات . والآن فليتأمل القارئ فى حالة المحب إذا لم يكن من الأقوياء عقلا ومزاجاً وإرادة .

البداءة كما قال الشاعر : نظرة فابتسامة فسلام !...

ثم إذا جاء دور الكلام فكثيراً ما لا تظهر المرأة لعينيه بالجمال الذى أراد فيحادثها تأدباً ويعاشرها تفكهاً ، ولكن العشرة تخلق العادة فيغير رأيه فيها إذ يؤانس من النفس ميلا إليها ومن الخاطر حوماً عليها .

« ولكن بعض الناس يتدخل فيما لا يعنيه فيتعرض له من يقول ناصحاً : حذار يا صاح فإنك لا تعلم إلى أية هوة أنت صائر .

« فيجيبه بهز الكتف مستهزئاً ، كيف يظنه سهل الانقياد إلى حد يتعذر معه الرجوع عن هذه العادة المستحدثة .

ومنذ ذلك الحين ، أى منذ وجد من ينبهه إلى ضلاله تتغير أخلاقه فيميل إلى الكذب والتكتم فيسترق النظر ويغازل فى الخفاء متجافياً كل نصوح على اعتقاد أن إرادته لم تمس فمتى شاء حكمها بالعادة وفاز عليها .

غير أن العادة لا تلبث أن تتملكه أما هو فلا يحاول أن يدفعها عنه لأنه حتى الساعة لم يشعر بضررها بل لم يعرف سوى اللذة ، ومن الحماقة أن يحرم نفسه اللذة » .

يقولون لى احرم يرجع العقل كله
وحرم حبيب القلب أذهب للعقل

« ومع ذلك فهو يبتدئ يحس بالميل إلى الوحدة والاستسلام للتأملات والامتناع عن العمل ، وبعد أن كانت النظرة تكفيه والاجتماع الواحد يرضيه أصبح لا يستطيع الفراق ولا يتحمل الصدود »

يطول اليوم لا ألقاك فيه ويوم نلتقى فيه قصير

وصار جل همه أن يراها كل يوم وكل ساعة :

أبغي الأنيس فلا أرى لى مؤنساً إلا التردد حيث كنت أراك

عندئذ يتجلى له خطر الموقف ولكن بعد فوات الوقت :

ألا أيها القلب الذى قاده الهوى أفق لا أقر الله عينك من قلب

ولكن المحب لا يفيق فتظهر فيه أعراض التسمم من اضطراب فى الذهن وتقاعس فى الهمة واصفرار ونحول وأرق وذهول وتسرع فى الغضب والبكاء وتمش إلى الهرم الباكر .

فى هذا الدور يستفحل الداء ويستعصى فإذا صد الحبيب أو هجر أصبح المحب كالطفل يبكى ويستغيث ويصيح لا كما يصيح مدمن المورفين لأنه لم يعدم بقية حياء ولكن بالذلة ذاتها واليأس والخشوع .

فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

هذا إذا لم يطلب السلو عن طريق المخدرات فيضيف إلى سم الحب سماً آخر ويصير على حد ما قيل :

تسلى بأخرى غيرها فإذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

« ونهاية الأمر قتل أو انتحار أو جنون »

يرى القارئ مما تقدم أن من الحب ما هو قاتل كالسم فويل لمن يقع فيه وليس له من الإرادة والعقل درع تقيه . وإذا حق لنا أن ننسب إليه أشرف العواطف وأسمى الشعور ونجعله معراج المجد ومهبط الوحي ومستشرف الإبداع فإنه أيضاً سبيل الذل والغيرة والسقام والخمول وضياع الشرف والوجدان ورحم الله ابن الفارض :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

وليس ما ذكرته بالنادر الوقوع فقد كان للحب شهداء فى كل مكان وزمان بل ربما زادت أضراره فى هذه الأيام لما اتصل بنا من عادات التمدين فإن المغازلة المنتشرة بين طبقات الأمم ولا سيما الراقية منها والتى يسمونه بالفرنسية flirt إن هى إلا مفسدة وأذى ، الدخول من بابها سهل ولكن الخروج عسير .

والحب أول مايكون مجانة فإذا تمكن صار شغلا شاغلا

ولو نظرنا من الوجهة الفسيولوجية لرأينا أشقى الحب وأبعده عن الأدب هو ذاك الذى يسمونه الحب الأدبى . هذا الحب الذى يفتخر به نساء العصر إذ يساعدهن على قتل الوقت من

دون العبث بشرفهن فيبعثن الشرارة فى قلوب الرجال ويتوهمن أنهن فى مأمن من اللوم وحل من المسئولية .

برزن عفافاً واحتجبن تستراً ... وشيبَ بقول الحق منهن باطلُ
فذو الحلم مرتاب وذو الجهل طامع ... وهن عن الفحشاء حيد نواكل
كواس عوارٍ صامتات نواطق ... لبعض الكلام باذلات بواخل

يفعلن ذلك ولا يدرين أنهن يعاكسن نواميس الطبيعة وأنظمة الحياة ويمهدن السبيل إلى زعزعة أركان الاجتماع بما يتكاثر فيه من ضعفاء العقول والمجانين كما نقرأ عنهم فى القصص والروايات :

يا نظرة ساقت إلى ناظر ... أسبابَ ما يدعو إلى حتفه

ذلك لأن الحب يدخل فى دائرة الأفعال المنعكسة . والمراد بالفعل المنعكس أن ما يدخل فينا عن طريق الشعور يجب أن يخرج عن طريق الحركة . اقرع مثلا ركبتك عند الرضفة (أى الصابونة) فإنك تولد شعوراً من الألم أو اللمس البسيط . فهذا الشعور ينتقل إلى المراكز العصبية ويرجع منها حالا بصورة حركة إذ ترتفع رجلك عند القرع بغتة ومن دون تدخل الإرادة . قس عليه الحب فإنك عند ما ترى الحبيب يحدث مرآه اهتزازاً فى شبكة العين ، وتسمع صوته العذب فيحدث ارتجافاً فى عصب السمع ، وتضغط يده يدك فترتعش أعصاب أناملك تحت ذلك الضغط اللطيف ، يتولد فيك شعور ينتقل إلى

المراكز العصبية ليرجع منها بصورة حركة أيضاً . هذا الشعور لو أحس به المتوحش لكان الفعل المنعكس عنه هجوماً منه على المرأة وامتلاكاً لها ، ولكن أنت المتمدن فإنك تأبى ذلك عملا بآداب الاجتماع فتملك إحساسك وتضغط على عواطفك وتتغلب على شعورك وتعالج الأمر بالصبر فانظر ما يلزمك من الجهد لذلك وما ينجم عنه من الضرر إذا تكرر وهو بلا شك يتكرر كل حين .

هل يعجب القارئ بعد ذلك إذا قلت إن الحب « أشرف شيء على الأرض » أقوى عاطفة تختلج بين جوانح البشر ، أبعد غاية يتطلبها الإنسان ، مصدر لذاته وعلة حياته ، هو إذن سم ؟

وإذا اعتبرناه سماً فهل فى وعاء الطبيب علاج شاف منه ؟ لقد تعود الكتاب والفلاسفة أن يذكروا عاهات الاجتماع دون أن يشيروا إلى مداواتها . فما قولك فى طبيب يقول لعليله أنت مصاب بالسل أو السرطان والسرطان لا يشفى فانتظر آخرتك بصبر وشجاعة ؟ ولكن التسمم بالحب ليس عضالا بحمد الله ويمكن معالجته كما يعالج التسمم بالأفيون وغيره ، أى بالامتناع والسلوان .

لا تقل كيف يكون ذلك فالصبر والمثابرة يذللان الصعاب ،

ومعاونة الصديق من جانب وإشراف الطبيب من الجانب الآخر يكفيان فى أكثر الأحيان للحصول على نتيجة ، ووسائل التاهية قبل النصائح وقبل المقويات لأنها تحيي ميت الإرادة إلى أن يقوم من النفس زاجر لها يعين على قبول المعالجة إلى أن يتم الشفاء فيقول مع الشاعر :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله

تلك نظرة طبيب يحلل القلب الأدبى كما يحلل القلب المادى لا نظرة شاعر أو فيلسوف .

شيطان الظهيرة

هذا عنوان رمزى لا دخل للشياطين فيه . وقد رأينا فيما مر كيف أدخلوا قديماً الشياطين فى الطب ، وأسكنوها صدور المغلوبين على أعصابهم ضيوفاً غير محتشمة ، فكانوا يعتقدون أن المصابين بداء الصرع أو الهستريا مشيطنون ويحاولون شفاءهم بطرد الشياطين بغريب الوسائل والطرق (راجع كتاب كيف تغلب الإنسان على الألم . للمؤلف)

جاء فى المزمور التسعين للنبى داود : لا تخش من هول الليل ولا من سهم يطير فى النهار ، ولا من أمر يدبر تحت جنح الظلام ، ولا من شيطان الظهيرة . وقد فسر الشراح شيطان الظهيرة بالذى يغرى الإنسان بالفساد ويحمله على الفسق بعد إفراطه فى ملذات المائدة . واستعاره الروائى الشهير بول بورجيه للحب الذى يستولى على الإنسان بعد الأربعين أو الخمسين لأنه حب عنيد أعمى لا يعرف سلطة للواجب ولا حداً للعاطفة .

فى هذا الدور من العمر بعد أن يبلغ الإنسان ذروة القوة ويشرف على منحدر الهرم ، يصيب الوظائف التناسلية تغيرات

لا عهد بها ويستولى عليها انحطاط تدريجى كثيراً ما يرافقه يقظة الشهوة وهيجان الحواس .

وقد استهزأ موليير فى روايته « مدرسة النساء » بالرجل الذى يعشق فى هذا الدور على أن التاريخ يقدم لنا شواهد كثيرة عن هذا الحب الذى يصح أن نسميه بالحب الرجعى ، فقيصر الرومان بعد أن وصل إلى ما وراء الغاية من المجد وإعجاب الناس وتمتع بما شاء من الانتصار والحب قصد إلى مصر وهو فى السادسة والخمسين من العمر ليخضع العصاة فإذا بكليوباترا الملكة الشابة تسلبه الاب وتخضعه ، ولولا إلحاح قواده لما رضى الرجوع إلى بلاده ، فدخل روما بين الهتاف والتصفيق ، وأراد أن تشترك كليوباترا فى مشهد الاحتفاء بانتصاره فأرسل فى طلبها وأسكنها أفخم قصوره وأقام لها تمثالا من الذهب الإبريز فى هيكل إلهة الحب .

وهنرى الرابع فى عامه السابع والخمسين علق بحب شارلوت مونمرانسى ولم يتم لها ستة عشر ربيعاً ، وأضاع فيها رشده حتى أفضى به الأمر إلى التخفى فى زى سائس مركبة ليتمكن من رؤيتها بعد أن هجرت القصر الملكى هرباً منه .

ومثل من ذكرنا الشاعر رونسار وشاتوبريان وواكنر وألفرد دهفيني وهيكو وأوغست كونت وبوفون وغيرهم كثير .

وأغرب حب هو الذى اشتهر به برليوز الموسيقار فقد أحب فتاة فى صباه ، وبعد أن بلغ السبعين ، ونقل فؤاده حيث شاء من الهوى ، عاد إلى الحبيب الأول وأخذ يراسل الفتاة وقد صارت عجوزاً وجدة ، ويعرض عليها قلبه ، فأبت أن تجيبه إلى طلبه ، ونصحته بالكف عن ملاحقتها بعد أن بلغت من العمر عتياً .

ومن قرأ رسائله ورأى ما فيها من قوة التعبير وصدق العاطفة تولاه الدهش من هذا القلب البشرى وما يمكن أن يحمل من غرائب الأسرار ويتقلب فيه من عجائب الأطوار .

هذا الحب فى الكهولة يمتاز بأنه لا ينحصر فى اللذة الجسدية بل يتناول شعوراً آخر هو نصف الحب بل أشرف ما فيه وأنقى وأبقى ، أعنى الصداقة . وإلى جانب الصداقة عواطف كثيرة مختلفة من خوف وغيرة وفضول وشدة تأثر وغير ذلك يديرها خيال خصب يصور الحياة بألوان زاهية الإشراق ساحرة الآفاق .

ولا حاجة إلى جمال فائق ليوحى هذا الحب فلا سلطان هنا للحظ الساحر والخد الأسيل والقد الرشيق ، وحسب المرأة قليل من الجاذبية لتأخذ سبيلا إلى القلب . ثم نجد من اختلاف الميول والأذواق ما لا يقل عن اختلاف الوجوه فمنهم من يتعشق المرأة لبساطة ما فيها ومنهم رغبة بالتضحية فى سبيلها ، ومنهم من يستهويه الجمود والبرودة ويلذ له أن يحب ليبعث الحياة

فى هذا الجماد إلى آخر ما هنالك . ولا يعنى هذا تساهل الكهول فى اختيار من يحبون فقد يكونون كالنهم المترف لا يرضيه شىء من الطعام مهما تفنن الطاهى فى تحضيره ، أو بالعكس كالذى يأكل ما يصيب ويفترسه افتراساً وربما اختنق به . والغالب أن الذين يختنقون هم القلة ، وأكثر الكهول يحاولون الحصول على أفضل ما يمكن ولسان حالهم يقول :

لا يرعك المشيب يا ابنـــة عبـد الله فالشيب جلة ووقار
إنمـــا تحسن الرياض إذا ما ضحكت فى خلالها الأنوار

والمعروف أن السواد الأعظم من هؤلاء إن لم نقل كلهم يفقدون قوة الإشراف على تصرفاتهم ، وتضعف فيهم الإرادة إلى درجة ينسون معها الواجب نحو أزواجهم وأولادهم ، ولا يردهم عن غيهم نصح أو تأنيب ، ولا يشفيهم من دائهم كاهن أو طبيب فهم كما قال الشاعر :

فلما أبى إلا جماحـــاً لحبـــه ولم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها ، فإذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تســلى

أما الحب الروحانى أو الهوى العذرى المجرد عن الشوق المادى والقوة الجسدية فلا وجود له بينهم . نعم إنهم يتأثرون أكثر من سواهم بمزايا الزوج إلا أنهم لا يكتفون بها ، وكثيراً ما يتظاهرون بالحب الأدبى استدراجاً للمرأة وتوصلا إلى الحب الآخر ، وقد

عرفت المرأة فيهم هذا فأصبحت لا تؤمن ولا تصدق ، ولا غرو فإن الذى يستميل الرجل للوهلة الأولى ويحرك فيه عاطفة الهوى هو جمال الصورة قبل أن يعرف ما وراءها من الخلال والأخلاق فالحب الروحانى حديث خرافة . وحسبك أن الشعر الغزلى على سعته لا يعرف لغير الوصال ذكراً .

قال المتنبي :

زودينا من حسن وجهك مادمـ ... ـت فحسن الوجـــوه حال تحول
وصلينا نصلك فى هذه الدنـ ... ـيا فإن المقام فيهـــا قليل

وقال أبو فراس :

معللتى بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

وقال غيره :

صلى واغنمى أجرآ فما وردة الربى ... تدوم على حال ولا وردة الخد

إلى غير ذلك مما لا يحصى عده .

وبالعكس فقليل من يذكر العفة كقول الشاعر :

إنى أحبك حباً لا لفاحشة ... والحب ليس به فى الله من باس

أو قول الآخر :

أحبك يا ليلى على غير ريبة ... وماخير حب لا تعف سرائره

وإذا عدنا إلى الماضى وجدنا أن سعى الإنسان وراء ملذات الجسد لم يخل منه زمان ولا مكان . وقديماً حمل شعب الله الخاص

مصباح التهتك ، وكان الزواج المحرّم حلالا فى الطبقات العليا . وشرع سولون شرعة للبغاء وضعها تحت حماية الآلهة . وكانت بلاد الإغريق سدوما ثانية ومدارس الفلاسفة مجتمعاً للفساد حتى قلق لذلك المشترعون ورجال القانون فجعلت الشرعة الرومانية عقابه الحرق بالنار . وكانوا فى هولاندا للقرن الخامس عشر يضعون المتهم بالحب الشاذ فى كيس ويغرقونه فى البحر . وفى فرنسا قبل صدور قانون نابوليون كانت النار أيضاً جزاء المتهتكين :

وكانوا يسمون المنازل الخاصة التى يباع الحب فيها ويشترى بالهياكل ، وهى تسمية لا تنطبق على الواقع إلا من حيث أن هناك تضحية ، تلك تضحية الحب .

وشيطان الظهيرة يزور الرجال أكثر من النساء ، لأن الانحطاط أسرع إلى جسم المرأة فلا يدع لها مجالا لاستقباله . على أنه لا ينكر أن اقتراب زمن اليأس يوقظ حاسة الجنس فى المرأة ويسبب لها أعراضاً مرضية وأحلاماً مزعجة كانوا يعتقدون فيما مضى كما مر بنا أنها من فعل السحرة والأبالسة ، وقد فسر « فرود » هذه الأعراض حسب طريقته المعروفة فهو يعتقد أن الجاذب الجنسى هو المحور الذى تدور عليه كل حركاتنا وأعمالنا ، وأن الحياة البشرية جمعاء معلقة بهياج تناسلى أو رغبة

أطلق عليها اسم Libido . وهذه الرغبة التناسلية موجودة فى كل أدوار العمر من الطفل الرضيع إلى الشيخ المنحنى تحت أثقال السنين . وأن أكثر الأعراض العصبية والدماغية إن لم نقل كلها ناتجة عن تأثرات جنسية كامنة فى العقل الباطن ، مردورة أو مكبوتة أو ممنوعة من الظهور . وعلى هذا الاعتقاد أوجد طريقته فى المعالجة بالتحليل النفسانى Pscychanalyse وهى أن يستلقى المريض على ظهره ويأخذ بسرد حوادث ماضيه فيصغى الطبيب إليه وهو يحاول أن يقع منها على أثر قديم يمكن الرجوع إليه فى تعليل الداء الجديد . وهذه الطريقة قديمة فهى لا تفرق عن الاعتراف عند النصارى بل ربما كانت دونها فى النتيجة لأن فكرة الغريزة الجنسية والاعتقاد بها مقدماً تؤثر فى حكم الطبيب فتضلله وتضلل المريض معاً .

على أنه لا حاجة لسبر العقل الباطن لتعليل التغيرات التى تحدث فى زمن اليأس . فالسبب فسيولوجى أكثر مما هو سيكولوجى لأن الهرم يصيب الغدد النسائية فيقل إفرازها اللازم للتغذية العمومية وللوظائف العصبية . وقلة الإفراز تحدث اختلالا تكون هذه التغيرات من أثماره إلى أن يتعود الجسم ويعتاض عن هذه الغدد بغيرها من الغدد الصماء التى تعطى الجسم ما قصر عنه المبيض وتعيد إليه النظام .

وللحب حول الخمسين فائدته الصحية إذا انتهى بالزواج فقد دلت الإحصاءات أن الجرائم فى هذه السن أقل عند المتزوجين منها عند العزاب والأرامل . وكذلك الوفيات .

لا أقصد بذلك إلى وجوب الزواج على كل من بلغ هذه السن فالذى ينفق شبابه فى الملاهى وينهك عقله وبدنه ثم يختار فتاة فى مقتبل العمر لترافقه فى آخر الطريق مجرم فى نظرى وخير له أن يردد مع الشاعر :

سلام على الدنيا ولذة عيشها　　　سلام غدو أو رواح إلى الرمس

وإزاء هذه الفائدة الصحية المحصورة فى دائرتها الضيقة فالحب فى الكهولة له أضرار كثيرة لأن الإفراط فى هذا الدور من العمر خطر عظيم . وعندى أن الأكل بدون جوع أو الشرب بلا ظمأ أخف ضرراً من التهيج الذى لا داعى له . فالجسم كالمصباح الكهربائى الذى تحمله فى جيبك ، إذا لم تقتصد فى استعماله انطفأ قبل حينه ولم يخدمك نوره إلى آخر الطريق .

وبعض الناس أكثر تعرضا لهذا الخطر ، خطر الإفراط ، من البعض الآخر فالذى يتمتع بمركز سام سياسى أو مالى أو اجتماعى تقوده سهولة الحصول على ما يريد أن لا يكون صاحب الإرادة فى المحافظة على الفضيلة والتمنع عن الشهوات فهو أسرع من غيره للخروج عن دائرة الاعتدال فى الحب وقد قالت

الحكماء خير الأمور الوسط . الوسط فى الثروة وفى الصحة والمناخ والمزاج وفى الذكاء وفى الغذاء ، فمن ملك هذا فقد اهتدى السبب لإطالة الحياة على الأرض .

هذا ما عن لى ذكره عن شيطان الظهيرة فهو فى الغالب يحمل إلى الجسم عبء الآلام فوق عبء الأيام . وقد يكون من الملائكة الساقطين فيذكر السماء حيناً بعد حين .

الداء وحامل الداء

قيل إن طبيباً حديث العهد بصناعته دعى يوماً لعيادة نجار فوجده يشكو ألماً فى الرأس وضيقاً فى الصدر ، وقد بلغت حرارته الأربعين وجاوزت دقات قلبه المئة والخمسين . فعالجه بالتى هى أحسن بعد أن أنذر ذويه بالخطر وعاد وهو يشكو سوء الطالع الذى ساقه إلى حادثة قد تؤثر عواقبها فى شهرته الفنية ومستقبله الفنى .

وما كان أحلاها مفاجأة عند ما التقى بمريضه فى الطريق ، بعد يومين من عيادته له ، ممتلئاً صحة ونشاطاً . فدفعه الفضول إلى الاستفهام منه عما فعل فى هذه الفترة وما استعمل من وسائل العلاج ، فأخبره أنه نهض فى صباح اليوم الثانى وبه جوع شديد ، وكان طبيخ البيت أقراصاً من الكبة ، ذلك الطعام الشرقى المعروف ، فأكل منها ثلاثة أحس بعدها بالقوة ترجع إليه والألم يزول عنه . فهنأه الطبيب وسار فى طريقه معجباً بخوارق الطبيعة فى شفاء الأمراض مما لم يتلقنه على مقاعد الدرس .

وبعد أيام دعى هذا الطبيب لعيادة جاره الحداد فوجد عنده أعراضاً تشبه كل الشبه أعراض النجار. فتذكر أقراص الكبة ، وحدثته النفس أن يشير عليه بها. ولم يصعب كثيراً إقناع ذويه وتبديد مخاوفهم ولا سيما لأن المريض كان يحب هذا اللون من الطعام ويشتهيه. ثم ذهب مطمئناً بعد أن وعدهم بالرجوع فى الغد ، زيارة حبية لا يطلب عنها أجراً ولا شكورا.

وفى صباح اليوم التالى أسرع الطبيب إلى منزل مريضه وملء صدره أمل ، فما جاوز غير بعيد حتى سمع الندب والعويل ، ورأى من أخبره أن المريض قضى نحبه على أثر أكله ثلاثة أقراص من الكبة. فعاد أدراجه وتناول من محفظته دفتراً صغيراً أعده لتدوين ملاحظاته الطبية وكتب فيه: ثلاثة أقراص من الكبة تشفى النجار وتقتل الحداد....

أورد هذا على سبيل النكتة ولكن فيه مغزى كبيراً فإن اختلاف الناس فى استعدادهم للأمراض ومقاومتهم لها أمر لا ريب فيه ، وكم من الذين يحتملون الداء على شدته وطول مدته ثم يتغلبون عليه فى حين أن سواهم يرزحون تحت أثقاله فى وقت قصير ، ولا يلبث أن يفتك بهم.

بل رب جسم قوى على أشد الأمراض فتكاً فخرج

من المعركة ظافراً وجسم أودى به عارض بسيط كالزكام أو حبة فى الجلد لا تدعو إلى الاهتمام . وهذا يدلك على ما فى بعض العادات والتقاليد من الخطأ والضلال ، فترى من الناس من يتداولون الدواء الواحد ، يستعملونه بلا تمييز لهذا وذاك ، معتقدين أنه بنفعه فلانا لا بد أن ينفع سواه .

وكم نرى من المستحضرات الطبيـــة كقطرة العـــين مثلا أو مرهم للحروق أو مسكن للوجع أو غير ذلك ، فتدور وتنتقل من يد إلى يد وتستعمل على السواء للكبير والصغير لا فرق فى السن والمزاج ، وقد يكون فى تركيبها من المواد ، أو فى مقدار الجرعة ، ما لا يوافق كل الناس .

بل كم من الحوادث التى يكون فيها الداء الواحد خفيف الوطأة ويذهب بالمريض على الرغم من المداراة وفائق العناية ، وشديد الوطأة إلى درجة تبعد كل أمل بالشفاء ، وينجو المريض بأعجوبة .

وما الأعجوبة إلا استعداد الجسم ومقدرته الطبيعية على الدفاع .

أذكر حادثة قديمة من هذا القبيل : دعانى يوماً ناطور الماء فى عاليه[1] ، لعيادة ابنه ، وكان يقيم فى طرف

(١) قرية من قرى لبنان .

القرية ، بعيداً عن الناس ، فى خيمة لا يدخلها النور والهواء إلا من بابها الضيق المنخفض ، فاضطررت إلى إشعال شمعة لأتمكن من رؤية المريض ، فإذا به ملقى على فراش فى الأرض غائب الوعى ، تشويه الحمى ، وكل ما فيه من الأعراض يدل على تيفوئيد شديدة ، ولم يكن لدى من الوسائل فى تلك البقعة النائية ما يساعدنى على نقل المريض أو معالجته بما تقتضى حاله ، فاكتفيت بإعطائه مقوياً للقلب وأوصيت أهله أن يمنعوا عنه كل طعام ويكتفوا بالسوائل المبردة .

وقضت الأحوال أن أغيب عن القرية أياماً فلما عدت قصدت إلى عين الماء لأستعلم عن حالة المريض من أبيه فلما رآنى هش وبش وأقبل على يدى يقبلها . لقد شفى ابنه تماماً ولكن بعد أن أكل صحناً من العدس المطبوخ « مجدرة » ؛ والظاهر أنهم لم يحسبوا هذه الأكلة بين الأشياء الممنوعة فكان الفضل لى إذ كنت الطبيب المداوى .

لقد ظن الناطور أن « المجدرة » أبعد من أن تضر بصحة ولده ولربما ساعدت على شفائه ، ومن أين له أن يعلم أن قوة الدفاع فى جسم الولد هى التى تغلبت على الداء وعلى طعام « المجدرة » ، فوق ذلك .

هذه القوة الدفاعية لا نفهم كيف نعللها . فلكل فرد ذاتيته الخاصة، ذاتية متصلة بالصميم من خلايا أنسجته وسوائله وبها يمتاز عن غيره .

نعم هناك رئة تتنفس وقلب يخفق ومعدة تهضم على منهاج واحد فى جميع الناس ، كما أنك إذا فحصت بالتشريح والمجهر وجدت تركيب العين والجلد والأمعاء والجهاز العصبى واحداً ، ولكن ما أعظم الفرق عند التغلغل فى أعماق هذا التركيب ، وكم من الأسرار فى نظام الدورة والتنفس ، وحدة النظر ، وسرعة الأفعال المنعكسة ومفرزات الغدد ؟

ولنا فى حوادث الطب والجراحة كل يوم شواهد على الفروق العميقة فى ذاتية الإنسان . فإن عملية ڤورنوف لتجديد الشباب لا تنجح (على أن نجاحها مؤقت) إلا إذا اتخذت الغدة التى يلقح بها الإنسان من الحيوان الأقرب نسباً إليه أو شبهاً به كالغوريلا .

كذلك نقل الدم من صحيح الجسم إلى مريضه . فقد كان شديد الخطر قبل أن يتوصل لانديستنر إلى قسمة الدم إلى أربعة أقسام منها ما يتشابه بالذاتية ومنها ما يختلف .

وكما أن للإنسان ذاتية خلوية فله أيضاً ذاتية فكرية

تهيئها شروط الوراثة والتربية والبيئة ، والناس جميعاً على اختلاف فى عقولهم وأميالهم وتصوراتهم كما هم على اختلاف فى سوائلهم وأنسجتهم ، فترى الواحد عبداً للعاطفة والثانى سيدا لها . هذا سريع الانفعال يندفع بسهولة إلى العمل دون نظر فى العاقبة ، وذاك بليد يملك قياد نفسه . ورحم الله اليازجى القائل :

إنما نحن فى اختلاف عقول   مثلما نحن فى اختلاف وجوه

وجملة القول أن هذه الذاتية التى يستقل بها كل فرد منا هى التى تخلع على الجسم والعقل لباساً خاصاً وتجعل استعدادنا لقبول الأمراض مرهوناً بقوة الدفاع الطبيعى ، فتعطى لكل صحة رأس مال محدود يكفيها إلى أجل محدود .

إذا عرفت هذا أدركت مدى الفائدة من العناية بهذا الرأسمال فلا تنفقه جزافاً ، وتبينت أن الأدوية والعقاقير ليست سوى وسائل لنجدة الجسم حال التعب ، وأن الإفراط فيها يضر كالتفريط ، والأفضل أن يطبق استعمالها بإشارة الطبيب تبعاً للبيئة والسلالة والمزاج والسن فلا ينظر إلى الداء بل إلى حامل الداء .

الأحداث النفسانية

في ذلك العهد ، قبل أن تسلمني الأقدار إلى الوظيفة ، زارني يوماً مريض يشكو كآبة في النفس لا يعرف لها سبباً . وكانت هذه الكآبة ملازمة له في قيامه وقعوده فتزعجه وتزعج من حواليه ، حتى ملكت عليه كل قدرة على العمل أو ميلا إليه . وكان أقصى مناه التخلص من هذه السوداء (الملنخوليا) ليسترد قواه العقلية والبدنية ويعود إليه نشاطه المفقود وذكاؤه المعهود . فأفهمته أن ما يحسبه نتيجة للحزن العالق به هو سبب له ، فما الحزن إلا انعكاس ذهني لجور القوى وتعب الأعصاب ، وعليه أن يعالج هذه قبل معالجة ذاك ليشفى . وهكذا كان .

وكم من الناس من هم على شاكلة هذا المريض ، فإن المتعارف أن الأحداث النفسانية (كالحزن والغضب وما شاكل) تؤثر في الجسم فتولد الداء أو تشفيه ، ولكن أن تكون مسببة عن المرض لا سبباً له فهذا ما يجهله الكثيرون .

فإذا كان تأثير الأحداث النفسانية في الصحة معروفاً

حتى جرى على ألسنة الشعراء كما قال المتنبي فى رثاء جدته :

أتاها كتابى بعد يأس وترحة   فماتت سروراً بى ومت بها غما

أو فى سقوط خيمة سيف الدولة :

فلا تنكـــرن لهـــا صرعة   فمن فرح النفس ما يقتل

أو كما قال فى موضع آخر :

والهم يخترم الجسيم نحافة   ويشيب ناصية الصبى ويهرم

أو كما قال غيره :

رمى الحدثان نسوة آل سعد   بمقـــدار سمدن له سمـــودا

فرد شـــعورهن السود بيضاً   ورد وجوههن البيض سودا

فإن العكس أى تأثـــير الصحة فى الأحداث النفسانية أمر حديث العهد بالدرس لم يتعد تاريخه الربع الأخير من المائة الماضية . وقد أتيح فيه للعلماء أن يعرفوا لماذا يفرح الإنسان أو يحزن وكيف يخاف أو يغضب ومن أين يأتيه النشاط إلى العمل أو الكسل عنه والنفور منه ، وما هو سبب الكبرياء عند الواحد والتواضع عند الآخر ، إلى آخر ما هنالك .

لا يخفى أن الإنسان مجتمع للنقائض ، ففيه الشر والصلاح والكرم واللؤم والعفة والظلم ، فإذا رأيت فاضلا بكل معنى الكلمة فلا تحسب من المستحيل أن يأتى شراً ، أو شريراً

فلا تظنه غير أهل لأن يعرف الصلاح . هكذا تمر بالكريم ساعات يجد نفسه بخيلا ، وبالشجاع أوقات يرى نفسه جباناً ، وبالعفيف أحيان تتسلط عليه الشهوات ، وبالحليم هنات يستعبده الغضب . كل ذلك بتأثير العصب العاطف (السمباتوى) الذى يدير وظائف الجسم والغدد ، فإن المعدة والكبد والقلب وغشاء الكلية والغدة الدرقية وغيرها هى التى تسبب تارة الحزن والخمول وطوراً القلق والذهول وحيناً الحدة والغضب فترفع الإنسان إلى ما فوق مرتبته الطبيعية من الهيجان أو تنزله إلى ما تحتها من الخمول . فالريب والضعة والكسل والخوف والحزن والشفقة هى أعراض لتعب الدماغ فى درجاته المختلفة ، والكبرياء والادعاء والغضب وحب الذات والشجاعة والبطولة والقسوة أعراض أيضاً لتهيج الدماغ فى شتى أنواعه .

لذلك كانت معالجة هذه الأحوال النفسانية أو ما يحتاج منها إلى العلاج ، قائمة على مداواة الجسم وتقويته وإرجاع النظام إلى وظائف آلاته كما فعلت فى المريض الذى أشرت إليه فى صدر هذه الكلمة . لأن الحزن هو إحدى درجات الانحطاط الحيوى كما أن الفرح هو أول درجات التهيج العصبى ، والسبب المباشر لكليهما آت من الداخل

لا من الخارج . ألا ترى كيف أن إشراق الشمس فى يوم شتاء بارد وصفاء الجو يبعث فى النفس انتعاشاً ويجعل للجسم شبه أجنحة ، وكيف أن كأساً من الخمر الجيدة تفرح قلب الإنسان كما جاء فى الإنجيل ؟ ذلك لأن شعاع الشمس وكأس الخمر قد أهاجا المراكز العصبية فرفعت الضغط الدموى كما يفعل الدواء وسهلت لأعضاء الجسم إتمام وظائفها .

فالسر إذاً هو فى البحث عن سبب الخلل أو الاضطراب الحاصل فى هذه الوظائف من هضم وتنفس ودورة دموية وما شاكل ، حتى إذا اهتدينا إليه عالجناه بما تقدمه لنا الطبيعة والعلم من الوسائل .

وإذا كان فى نور الشمس والخمر فائدة للصحة فهذه الفائدة مقيدة بشروط لأن الإفراط كالتفريط .

ولكل دواء جرعة نافعة وجرعة قاتلة ، فكثرة التعرض لأشعة الشمس قد يؤذى كما أن الإكثار من الخمر سبيل إلى المرض .

غير أن كثيراً من الناس يجهلون ذلك فتراهم يدمنون الخمر طمعاً بالوصول إلى قمة الفرح ليفوزوا بالسلوان والنسيان ويبتعدوا عن وادى الدموع ما أمكن الابتعاد ،

ومنهم من يلجأ إلى الأفيون أو غيره من المخدرات وكلها فراديس مصطنعة كما قال بودلير ظاهرها هناء وباطنها شقاء .

لقد تعودنا أن نذم الدهر وننسب إليه الخيانة والغدر لدى كل ملمة تنزل بنا ، ونباركه فى ساعات الرضا والملذات، وما الدهر إلا نحن وما الألم واللذة إلا منا وفينا حسبما تتجاوب اهتزازات مراكزنا العصبية للأثر الخارجى . وحالات الضعف أو القوة هى التى ترينا هذا الحادث مفرحاً أو محزناً فتبعث فينا حب الحياة أو كراهتها .

والرجوع إلى المنابع الطبيعية للقوة البشرية أقوم سبيل لطرد الكآبة وجلب الفرح فالأنغام الشجية تطرب الآذان والمناظر الجميلة تبهج الأنظار ، والرياضة البدنية تقوى العضل والأعصاب . فإذا أضفنا إلى هذه الوسائل هواء نقياً لرئاتنا وغذاء معتدلا مناسباً لأبداننا فلا داء ولا دواء .

وحياة الإنسان سفر عجيب سطرته العادات والأهواء
فإذا شئت فالسطور نحيب وإذا شئت فالسطور غناء

التعب

فى قواميس اللغة : التعب نقيض الراحة والراحة نقيض التعب ، ولا تجد لهما غير هذا التعريف ، كما أنه لا يجرى ذكر التعب على قلم أو لسان إلا ذكرت الراحة معه ، قال أبو تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها   تنال إلا على جسر من التعب

وقال غيره :

وتتعبنى الحقيقة فى نهـــارى   وتمنع راحتى أحلام ليلى

وقال شوقى

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا

وقالت الشاعرة الإنجليزية مسز براونن ما معناه :

ولا تعجبن لبـــكاء الصغير   وفى الشيخ إن يبك كل العجب
فقصر الحيـــاة له راحـــة   وفى طولها للصغير التعب

وفى الإنجيل : تعالوا إلىّ أيها المتعبون وأنا أريحكم .

على أن الطبيب لا يكتفى بهذا القدر ، وهو يعرف أن التعب حالة من حالات الجسم يخف فيها نشاطه وتخور قواه بما

يصيبه من إجهاد العصب أو يتراكم فيه من السموم الآتية من الاحتراقات الباطنية ومن الخارج بالغذاء وسواه .

وإذا صدق أبو العلاء المعرى بقوله :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

فمرور ألف سنة على هذا القول لم يبدل من حقيقته ، بل أصبح التعب عدو المدنية الذى يهدد قواها ويعرقل سيرها إلى الأمام لأنه كلما زاد تفنن الإنسان فى توفير لذاته — أو بعبارة أخرى الاهتزازات العصبية التى تروق لدماغه — زادت متاعبه . والحياة العصرية بما فيها من لهو وطرب وشرب وسهر وأنوار وألحان وغير ذلك هى منبع فوار لهذه الاهتزازات التى يصيب منها كل حاسة من حواسنا عدد هائل فى كل يوم .

حسب الإنسان أن يمر من أمام بصره شىء فاقع اللون أو يرن فى أذنيه صوت ما ليتهيج جهازه العصبى وتزداد قوته حيناً ، ويمكنك أن تتحقق ذلك بتجربة بسيطة وهى أن تقبض بيدك على آلة مقياس القوة (دينامومتر) وتغمض عينيك وتشد على الآلة فترقم لك مثلا ٥٥ كيلو ، ثم تفتح عينيك على شىء أحمر اللون وتعيد الضغط على الآلة فترى الرقم ارتفع إلى ٦٥ كيلو أى أن قوتك العضلية زادت عشرة كيلوات فى لمحة عين . إلا أن هذه الزيادة

عارضة ولا تلبث أن تزول تاركة بعدها تعباً أطول مدة بحيث لا تستطيع الشد على الآلة إلى أكثر من ٤٠ كيلو .

وعلى الرغم من كل ما اخترعه الإنسان فهو لم يتوصل إلى التحرر من ربقة التعب . والعقل فى ذلك كالجسم لأن حاجتنا إلى توسيع نطاق المعرفة وفقاً لمطالب الحضارة على ازدياد مستمر ؛ ولو تأملنا فيما نراه كل يوم من مشاهد وصور ونسمعه من حديث وألحان لهالنا مقدار القوة التى نبددها فى هذه الناحية الفنية وحدها . فإذا أضفنا إليها ما يحتاج إليه كل واحد فى المهنة التى يحترفها من الاجتهاد والجهد وإعمال الفكرة أدركنا خطر هذا العدو ونتائجه فى إضعاف البنية وفتح الطريق للأمراض العصبية التى تؤثر فى النسل ، وتبينا الحاجة القصوى إلى تدارك الأمر ومعالجته بالوسائل التى بين أيدينا .

وهنا أرى تقصير كتب اللغة فى تعريف التعب لأنه لو كان نقيض الراحة فحسب لكفت هذه بإزالته . لا أنكر أن الراحة تفيد فى علاج التعب إذا بلغ حد الإجهاد Surmenage ، ولكن الإفراط فيها كالتفريط ، ومن الواجب استعمالها بمقدار ، كما تستعمل العقاقير الطبية وإلا عادت على المستسلم إليها بالضرر لما تجلبه من الكسل والخمول

فتذهب بما عند المرء من استعداد للعمل وصبر عليه .

وأما العلاج الصحيح الذى يفيد فى التعب العادى ويمنعه فهو العمل المنظم ، سواء فيه حامل القلم وحامل المعول .

والمتداول بين الناس أن الأعمال العقلية كالتأليف وغيره تنهك القوى ؛ والحقيقة على خلاف ذلك فإن التعب الحقيقى نادر عند المنتجين ولا يتألم منه فى أغلب الأحايين إلا الذين يكتفون بالتأملات ولا ينتجون ، أو ينتجون فى أوقات متقطعة يسمونها ساعات الوحى ، فتفور قريحتهم فوراناً ثم تهدأ ويضطرون بعدها إلى راحة طويلة .

ولو رجعنا إلى حياة كبار الكتاب الذين أنتجوا كثيراً مثل بلزاك ودوماس وهيكو وسواهم لوجدنا أن العمل لم يكن ليتعبهم بل بالعكس ، والسر فى ذلك تنظيم معيشتهم وتعويد أدمغتهم على العمل فى ساعات محدودة . ذلك لأن الدماغ كالمعدة ، فكما تعود المعدة على استقبال الطعام فى حين معلوم فتفرز عصارتها كلما دقت ساعته وتتألم إذا أخلفت ميعادك معها ، كذلك الدماغ فإذا عودته العمل فى ساعات معهودة لبّاك بسهولة ، وساق إليك المعانى والجمل دون أن تحتاج إلى وقت طويل لجمع أفكارك وخر قلمك .

والأعمال البدنية كالعقلية لأنها كلها من وظائف المادة السنجابية فى الدماغ ، ذلك الآمر الناهى فى جميع حركاتنا من نطق وكتابة ومشى وما شاكل . فإذا نظمت عملك ومرنت جسمك عليه استغنيت عن إشراف الدماغ وصارت الحركة فيك كالأفعال المنعكسة التى لا تتعب لأنها تجرى مستقلة عن الإرادة .

وعلى هذا الوجه يستطيع راكب الدراجة المتمرن أن يقطع مئات الأميال دون أن تتعب رجلاه .

كثير من الناس لا يعرفون كيف يكون العمل ومتى يجب الانقطاع عنه ، فحياتهم قائمة على غير نظام كبعض الأولاد الذين يأكلون كل حين وإذا جلسوا إلى المائدة أضاعوا قابليتهم ، وتراهم يهربون من النوم مساء ليلعبوا ، فإذا جاء وقت الدرس حوّم النوم على أجفانهم .

وخلاصة القول أن ترتيب أحوال المعيشة والسير على منهاج مرسوم للعمل فيها فى مختلف مقاصدها ونواحيها أفضل الوسائل لتوفير قوى الحياة وإقصاء التعب عنها ، والله أعلم .

دواء للكسل

عجباً ! وللكسل أيضاً دواء ؟

وكيف ذلك ، والناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم مجبولون على الكسل ، من مقاعد المدرسة إلى كراسى الحكم ؟

وأين تبحث عن الدواء ، وأنت تكره العقاقير وتجاربها ، وتتكل على ما فى طبيعة الإنسان من عامل الشفاء ، والميل إلى البقاء ؟

نعم للكسل دواء ، لأنه مرض كسائر الأمراض ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وللبيان أقسم حديثى إلى قسمين : الكسل فى المدرسة وبعد المدرسة :

١ — فى المدرسة :

من الأوهام الراسخة فى الأذهان ، الشائعة فى كل مكان ، أن التلميذ الكسول مذنب مسئول ، لأنه يتجافى الدرس عن كره للدرس ، وعليه أن يتحمل تبعة هذا الذنب ،

فيعاقبونه من اللوم البسيط إلى الضرب ، إلى حرمانه من أشياء كثيرة يتمتع بها رفقاؤه ، إلى الطرد من المدرسة .

وكثيراً ما يتفانى الطالب المسكين فى سبيل التخلص من اللائمة والقصاص ، مفرغاً الطوق فى التحصيل ليمشى إلى جانب رفقائه ، فلا يفيده الإجهاد غير الوقوع فى حالة من الخمول أشد من الأولى .

ذلك لأن الكسل ، لو تحققت ، دليل دفاع طبيعى ، يحامى به الجسم عن قوته الباقية فلا يذهب بها التعب ، ويدفع عنه أسباب التهيج الذى يؤذيه إذا أطاعه . فهو كالحمى التى ترافق الجسم فى الأمراض الوبيلة ، إن هى إلا ذريعة للدفاع ضد الميكروب وسمومه .

والكسول فى أكثر الأحيان هو كذلك لا لأنه لا يريد العمل ، بل لأنه لا يقدر عليه . فهو مريض أو على حدود المرض .

فأما الكسالى الذين هم على حدود المرض فإنك تجدهم أصحاء الجسم لا عاهة فيهم ، وجل ما يقال عنهم أنهم نهمون يكثرون من الأكل ، وأصناف الأكل ، ولا تخلو أخلاقهم من الشراسة أو الحدة وسرعة التأثر .

والبطنة كما قال الإمام على (ض) تذهب الفطنة .

لأن الإفراط فى التغذية يفضى إلى تكاثر الفضلات وزيادة الإفراز المهيج للعصب .

وتأتى الرياضة البدنية المفروضة على التلميذ فتضيف إلى سموم الهضم سموماً أخرى من إفراز العضلات بكثرة العمل .

فإذا حان وقت الدرس ، كان هؤلاء المساكين فى الدرجة القصوى من التعب : عيونهم ذابلة ، وأعصابهم مرتخية ، وقد ذهب عنهم ذلك الهياج الوقتى ، هياج الركض وغيره ، وعقبه الخمول والجمود . فالهضم متعب ، والعضل متعب ، والعصب متعب ، ولا سبيل للعقل أن يحفظ قوته وللذهن أن يستعيد إشراقه .

وأما الكسالى المرضى حقيقة فهم من الذين أصيبوا فى صغرهم بمرض ما (بأمراض الأطفال كالسعال الديكى والحصبة والنزلة الرثوية ، والتهاب اللوزتين) أو ورثوا عن آبائهم ما صح فيه قول الكتاب : « الآباء أكلوا الحصرم والأولاد ضرست أسنانهم » ، فترى آثار ذلك فى شحوب وجوههم ، وارتخاء عضلهم ، واضطراب حواسهم وفيما يشكون من الصداع والأرق وإمساك البطن ، وذهاب قابلية الأكل ، وكثرة الأحلام المزعجه ، وفى تقلب أخلاقهم وميلهم إلى الكذب والغضب والعدوان والتأثر السريع .

هذه حالات الكسل فى التلامذة علاجها سهل كما ترى وذلك بمعالجة أسبابها مما لا يسعنا الإسهاب فيه فى هذا المقام .

٢ — بعد المدرسة :

هناك التاجر والصانع والكاتب والحاسب وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن الحرة . ينشأ الكسل فيهم عن أسباب مختلفة تحملهم على تغيير معيشتهم والخروج على نظام العمل فيها بما يعترضهم من وسائل الإغراء ، ويستهويهم من دواعى اللهو والاستمتاع والتصابى والمقامرة وما شاكل ، ويتعودون عليه من تعاطى الخمر أو غيرها من المخدرات والسموم .

وربّ فتى كان من المجتهدين والنابغين فإذا خرج إلى حياة العالم تبدلت أحواله بسوء العشرة وحب التقليد فمال إلى الكسل وضاعت منه تلك المزايا التى كان يعلق عليها ذووه آمالا كباراً .

أما كسل الأديب فكثيراً ما يكون عن نفور وملل على حد قول الشاعر :

وزهدنى بالناس معرفتى بهم وعلمى بأن العالمين هبـــاء

فهو يكتب للناس ، ثم يعود فلا يكتب حتى لنفسه .

والناس إذا لم يلبهم الكاتب كل يوم بمقال ، والشاعر بقصيدة نسبوا ذلك إلى الكسل ، كأن المقال النفيس أو

الشعر الجيد طبخة من الفول ، يكفيها وقت محدود ، وقليل من الوقود .

لا أحاول تبرئة الكتاب والشعراء ، فقد عرفوا بالكسل ماضياً وحاضراً . منهم من يعمل ساعات معينة فى النهار ولكنه عمل يومى لا ينقطع ، ومنهم من تمضى الأيام ولا يحرك قلماً حتى يحركه الإلهام ، أو تدعوه الضرورة إليه ، ومنهم من يعمل ويستريح بعد العمل طويلا لأن حمى الإبداع كحمى الجسم تنهك وتضنى .

وعلاج هؤلاء مادى وأدبى :

أما المادى فنى ترتيب المعيشة والعفة فى الأكل لأن بطء الإرادة إن هو إلا بطء التغذية ، أى التحليل والتمثيل فى أعماق الجسم .

وأما الأدبى فبالتعود على العمل . قد تجد تناقضاً فى هذا التعبير لأن الكسول يكره العمل فكيف تداويه به . وهذا ما يحتاج إلى التفسير .

فى التاريخ رجال تغلبوا على كسلهم وأتوا بالعجائب ، فكانوا على الرغم من عملهم القليل من المكثرين إنتاجاً .

هذا روسو يقول فى « اعترافاته » إنه لم يكن يستطيع الكتابة إلا مضطجعاً وإذا جلس خانته الذاكرة وعقه البيان .

وهذا دارون كان العمل يضنيه ، فيمنع عنه الكلام وزيارة الأصحاب ، ولم يكن عمله يتجاوز ثلاث ساعات فى اليوم .

وهذا بلزاك ، على ضخامة ما كتب ، كان كثير الميل إلى الكسل ولا يعمل إلا مكرها ، لوفاء دين أو غير ذلك .

وكان غوته يشتغل فى الصباح ويقضى سائر أوقاته فى الحياة العالمية .

هؤلاء هم من النوابغ كأبطال التاريخ الذين اهتدوا بدون معلم إلى اختراع حروف الهجاء والتصوير والهندسة . فإذا كنت أيها القارئ بطلا فقد سهل عليك التغلب على كسلك لتنتج إنتاجهم وإذا كنت بشراً مثلى فاسمع ما أقصه عليك :

كنا ثلاثة ، عند نهاية دراستنا الطبية ، نجتمع للدرس معاً استعداداً للفحص الأخير . فلم تكن مدة الدرس يومياً أقل من سبع أو ثمانى ساعات دون أن نشعر بتعب أو ملل . وعند ما كانت الموانع تحول دون اجتماعنا ، كان كل منا ينصرف إلى الدرس وحده فلا يستطيع ، ويقضى نهاره فى التأملات والأحلام ، تارة يخطر فى الغرفة ذهاباً وإياباً ، وطوراً يطل من النافذة على الأفق البعيد ، وحيناً

يلهو بالتدخين أو الغناء . ولم تنجح حيلتنا فى التغلب على الكسل الذى يرافق مثل هذه الدروس إلا باجتماعنا معاً نتعاون وينشط كل منا أخاه .

وأعرف اليوم ثلاثة من الأدباء النابغين ، تعودوا المقامرة والرهان فى سباق الخيل ، وكانوا يريدون التخلص من هذه العادة ولا يقدرون ، وكلما تعاهدوا أن لا يعودوا إليها عادوا بعدها يشكون ، فلما اتفقوا على قضاء أوقات الفراغ معاً ، أمكنهم بالإرادة المتجمعة أن يخلقوا لهم من اللهو ما أنساهم الرهان والقمار .

أريد بهذا أن أقول إن الأديب الكسلان فى حاجة إلى رفيق يأنس به ويستمد منه التشجيع ، لا ببلاغة الكلام والوعظ ، بل بالاشتراك معه فى العمل « وضعيفان يغلبان قويًّا » .

وهذه المشاركة تحمله على النظام فى أمور حياته ، والأديب الذى يعيش ليكتب لا يستمد الإلهام كما قال « بورجيه » إلا بتنظيم عمله .

وعلى هذا الوجه لا يبقى من سبيل إلى العجب إذا قلنا إن الكسل عادة يمكن التغلب عليها بل مرض فى الإمكان شفاؤه .

إلا الذين أبوا أن يغيروا من عاداتهم شيئاً فصح فيهم قول الشاعر :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

الأرق

فى الأساطير أن جنية غضبت يوماً على أميرة ، لأنها لم تدعها إلى حفلة عماد فأوقعت عليها سباتاً عميقاً دام مائة عام .

ولو احتيج اليوم إلى مثل هذا العقاب لما كان نوماً بل أرقاً ، لما فى الأرق من عذاب . ولا سيما فى هذا العصر الذى كثرت فيه مشاغل الفكر ، وعم الخوف من الغد ، وأصبح شبح الحرب ماثلا فى كل مكان حتى صار النوم أكبر نعمة يتمناها الإنسان .

كثيراً ما يسمع الطبيب مريضاً يقول له : أنا لا أنام ولا يغمض لى جفن ، لا أستطيع النوم . تلك شكوى قلما ينظر إليها الطبيب العارف بعين الجد لأن الذين يشكون الأرق ينامون بوجه عام أكثر مما تظنون . وليست شكواهم ضرباً من الهستريا فهم صادقون فى نظر أنفسهم ولكن الواقع أن نومهم مضطرب تتخلله يقظات متعددة فيخيل لهم أنهم لم يناموا قط .

إن ما لا ريب فيه أن النوم العميق لا يكون فى الجسم السليم . وإذا ما سمعت أحدهم يقول أنام ملء جفونى نوماً متصلا وإذا نهضت فى الصباح أجدنى على جنبى الذى نمت عليه فلا تصدق هذا القول إذا كان القائل صحيح الجسم لا علة فيه .

وقد أخذ شريط سينمائى لمائة وخمسين شخصاً فى حالة النوم بإشراف الطبيب جونسون من منرسبورغ فلم يكن النوم العميق إلا عند واحد ، وكان هذا مصابا بالجنون . أما الآخرون فكانوا لا ينفكون عن الحركة والتقلب فى مضاجعهم من ٢٠ إلى ٦٠ مرة فى الليل . ولم يتجاوز الخمسين منهم عدد الذين كانوا يبقون بلا حراك مدة لا تزيد عن ٥ دقائق .

ربما كان السبب فى هذه الحركة أن ثقل الجسم على العضلات والمفاصل . والعروق يسبب نوعاً من الانزعاج فيضطر النائم إلى التقلب من جنب إلى جنب . وبما أن من الناس من نومهم أخف من نوم سواهم فهذا التقلب يرافقه تنبه ويقظة فيخالون أنهم لم يناموا قط .

وحكى أحدهم أنه اضطر يوماً أن يشاطر أخاه فراشه الضيق وعند الصباح شكا الأخوان أنهما لم يذوقا طعم الرقاد ،

ولكن كان ثمة من الشهود ما كذب دعواهما وهو أن فراشهما كان مغطى بحطام الجص (الجبسين) المتساقط من سقف البيت دون أن يشعرا به .

يقول الشاعر : النوم موت قصير . هذا غير صحيح فالنوم ليس موتاً لأنه لا يذهب بالوعى كله بل لا يزال قسم من هذا الوعى متنبها فينا . ويمكن القول إن العقل الباطن يبقى حارساً مدة النوم ، وهو الذى يوقظنا عند ما نريد وفى الساعة التى نختارها ، وفى وسعنا توجيه هذا العقل الباطن كما شاء فلا ندعه يهتم إلا ببعض الأصوات كأننا نلقنه ذلك تلقيناً . ألا ترى كيف يستيقظ صاحب الطاحون بالسكوت ، عند ما يقف طاحونه عن الدوران ؟ وكذلك تستيقظ الأم لأدنى أنين يأتيها من الغرفة المجاورة حيث ينام طفلها ؟ وكم من الذين يأوون إلى أسرتهم وفى نيتهم النهوض فى ساعة معينة فيحفظ العقل الباطن ذلك ويوقظهم فى الساعة المعينة .

أما المصاب بالأرق فهو يوجه عقله فى غير الطريق السوى كأنما هو يطلب منه خصيصاً أن يوقظه كلما تقلب على سريره ، ومصيبته لو تحققت ليست فى عدم النوم بل فى الخوف من أن لا ينام .

والأرق — ما خلا الحوادث النادرة التى يكون فيها ناجماً

عن آفة عضوية أو دماغية ــ لا يأتى إلا من الإجهاد والتعب العقلى فإن من الهموم والمشاغل ما لا يستطيع المرء التخلص منه عند خروجه من مكتبه فترافقه إلى البيت وتجالسه على المائدة وتسبقه إلى السرير فتظل عيناه مفتوحتين والأفكار تروح وتجيء فى رأسه دون أن يهتدى إلى دفعها أو حل ما تعسر حله منها . وإذا استولى عليه النعاس بقى الفكر فى تنبه فهو أبداً على عتبة الوعى . ومتى تكرر هذا كل يوم أفضى به إلى الاضطراب والقلق وتعب الأعصاب.

فعلى المصاب بالأرق أن يفهم أن هذا الخوف والاضطراب يمكن التخلص منهما لأن الأرق ما كان يوماً ليؤذى الصحة كما أثبتت التجارب العملية فإن حرمان المرء من النوم أربعة أو خمسة أيام متواصلة لا ينتج عنه سوى انزعاج أو تعب لا يلبث أن يتبدد ويزول ببعض ساعات من النوم ، وتعود الأمور إلى مجاريها .

ومن الخطأ أن يظن المرء أنه فى حاجة إلى التعويض عن كل الساعات التى لم ينمها .

لقد استطاعوا جلب الموت للكلاب بحرمانها النوم ستة أيام متواصلة . والصينيون يعاقبون بعض المجرمين بعذاب الأرق إلى أن يموتوا ، لأن هذا العذاب يشتد بعد اليوم

الثامن حتى يصبح فوق طاقة البشر احتماله .

ولكن الأرق الذى نحن بصدده لا علاقة له بهذا الأرق المجلوب فهو لم يكن يوما أرقا كاملا ، وربما كان السهر ليلتين متواصلتين نافعاً فى علاجه إذ يبرهن للمصاب به أن عدم النوم لا يقتل .

لا ريب فى أن النوم راحة للعقل ومع ذلك ترى أن المفكرين وأصحاب الأعمال العقلية وهم أول من يفتقر إليه ، هم الذين يحرمون منه ويأرقون ذلك لأنهم يعلقون عليه أهمية كبرى فإذا الخوف من عدم النوم يقصى عنهم النوم . حسبك أن تنظر إلى الكثيرين منهم كيف ينامون ملء جفونهم أواخر الأسبوع أى السبت والأحد لأنهم فى غنى عن العمل حينذاك فتطمئن نفوسهم وهذا الاطمئنان يساعد على النوم .

إذن خير علاج للأرق أن لا يهتم المرء به كثيراً ويتخوف عواقبه ، وقد أكثروا من النصائح فى سبيل محاربته كوضع السجف السود وعصب العينين وسد الأذنين وغير ذلك من العادات التى لا يحسن الاستهزاء بها لما فيها من الإيحاء النفسانى النافع وملاءمتها حالة الإنسان فى بعض الأحيان .

على كل فالرياضة والغذاء الخفيف والإقلال من العقاقير خير ما يوصف فى هذه الأحوال . والله أعلم .

مصل الحقيقة

قام فى الأيام الأخيرة ضجة فى الأوساط العلمية والقضائية حول استعمال بعض العقاقير المنوّمة لتحليل الأمور النفسية أو لحمل المجرم على الاعتراف بجريمته. وقد انقسم الناس فى ذلك إلى قسمين ففريق يؤمن بهذه الطريقة ويرى فيها فصل الخطاب فى حوادث كثيرة غامضة الأسرار ويعدها ترياقا سحريًا للأمراض العصبية ، ومصلا يكشف الحقن به قناع الكذب والتنكر. وفريق لا يريدها بل يعتبرها بعيدة عن الفائدة المنشودة سواء استعملت كعلاج أم واسطة اختبار.

والذى أثار الاحتجاج بوجه خاص استعمالها فى التحقيق القضائى، فقد نظروا إليها كضرب من ضروب التعذيب التى كانت تستعمل فى القرون الوسطى. ووصموها بالحيف والعار لتعدّيها على الحرية وخرقها حرمة الذاتية الإنسانية. وطلبت نقابة الأطباء فى فرنسا منع استعمالها على الشرطة والقضاة والأطباء المكلفين بفحص المتهم. ومنذ أشهر

أحيل إلى القضاء ثلاثة من أشهر أساتذة الطب في باريس لاستخدامهم هذه الطريقة في فحص أحد المتهمين توصلا إلى كشف الحقيقة التي كان يحاول كتمانها .

فما تكون هذه الطريقة ؟

هي استباحة العقل الباطن لسبر غوره والوقوف على أسراره بواسطة بعض العقاقير التي إذا حقن بها في الوريد (كالبانتوتال) ، مثلا أحدثت تخديراً في انتباه الإنسان وخففت من حذره ، وخلقت فيه حالا مبهمة هي بين النوم واليقظه تساعد الذكريات والأميال المكبوته على الانطلاق من مكمنها .

من قديم الزمان عرف الناس ما لبعض النباتات من خاصة التأثير في عقل الإنسان لتدفعه إلى الثرثرة والبوح بما لا يراد البوح به . ولنا في الخمر أسطع دليل على ذلك فهي تؤثر في الصموت فتحل عقدة لسانه ، والكتوم فتتغلب على كتمانه وفي ذلك يقول الشاعر :

ولما شربناها ودب دبيبهـــا إلى موضع الأسرار قلت لها قفي

وكلما أمعن المرء في السكر زاد اضطراب العقل وصار الكلام هذياناً وأطلق الخيال عنانه في آفاق مترامية . ولكل طريقته في الثرثرة والهذيان والتخيلات حسبما يملك عقله

الباطن من الذكريات والأميال المكبوتة .

واستعمال المواد المسكرة والمخدرة كثيراً ما أغرى الأطباء فى سبيل المعالجة والتشخيص ، كالحشيش والكوكايين والأثير وغيره قبل أن يكشف البانتوتال وأمثاله . وقد وجدوا عند استعمال البانتوتال فى التخدير الجراحى ما لفت نظرهم إلى الأخذ به فى التحليل النفسانى . ذلك أن المريض كان قبل صحوه من فعل المخدر يندفع فى الكلام ويأخذ بسرد وقائع خاصة كان الأجدر به الإمساك عنها لما فيها من الفضيحة ، مما حمل الأطباء على اتخاذ الحيطة بإبعاد ذويه عنه فى هذه المرحلة من النوم . واستفاد علماء النفس من هذه الملاحظة فاستعملوا المخدرات فى تشخيص الأمراض النفسانية ، وأطلق « هورسلى » من أوكسفورد على هذه الطريقة اسم التحليل بالتخدير nares analyces . ثم انتهت التجارب بأطباء الإنجليز أيام الحرب وبعدها إلى استعمالها فى المعالجة .

وقد وجدت كلية الطب فى باريس (قسم الأمراض العقلية) بعد تجارب أربع سنوات أن هذه الطريقة فى تشخيص ومعالجة الأمراض العقلية لا مزية لها إلا إذا روعيت شروط بدونها تخسر كل قيمتها ، بل ربما كانت خطراً

على المريض . فهناك درجات فى التخدير قبل أن تصل إلى فصل الوعي عما تحته لتتمكن من سبر العقل الباطن . والجرعة اللازمة لبلوغ الغاية المنشودة لا يمكن الاهتداء إليها للمرة الأولى ، ولا بد من الاختبار وتعدد الجلسات ليكون فعل المصل كاملا وناجعاً .

ولكن هل ينطبق هذا الاسم الرنان «مصل الحقيقة» على الواقع ؟

إن مهمة القاضى الحصول على اعتراف المتهم ، ومن حقه للتغلب على مقاومة الرجل أن يستعمل وسائل التحيل وإثارة عواطفه ، وإزعاجه بكل واسطة ما خلا الضغط والإكراه. وعليه أن لا ينسى أن للرجل هذا حق السكوت والإنكار ، وهو فى هذا الصراع الذى يدافع فيه عن حياته وحريته أضعف الفريقين ، ولهذا كان من الضرورى أن يعطى من يدافع عنه ليوجه أجوبته ويحميه من الإعياء . وبما أنه لا يلزم باليمين لا هو ولا المحامى فلهما الحق بالكذب . وما قيمة الاعتراف إذا لم يكن عن رضًى ؟ والأفضل أن لا يحصل عليه من مجرم من أن ينتزع انتزاعاً من بريء شله الألم .

ولقد مضى الزمن الذى كانوا يعذبون فيه المتهم ليحملوه على الإقرار فكان يضطر أحياناً إلى الاعتراف بذنوب لم يرتكبها.

على أن هذا التعذيب لا يزال له أثر فى أرقى البلدان بما استنبطه العلم الحديث من الماء البارد والكهربائية والاستنطاق الطويل المعيي تحت النور الساطع ، والتعريض للبرد وحرمان النوم والغذاء . أمور يخرج منها الرجل مهدم الجسم منهوك القوى .

ومثل هذا ، التنويم الذى يشل الإرادة ، وبعض العقاقير كالبانتوتال . وهى وإن نفعت فى معالجة بعض الأحوال العصبية فإنها لا تخلو من الانتقاد عند استعمالها للتشخيص ؛ أولا : لأن بعض المجرمين ممن قويت إرادتهم وعظمت مقاومتهم لا يبرحون على الرغم من النوم المجلوب يكذبون وينكرون ، كما أن الكثيرين ممن يقولون الحقيقة وهم نيام يقولونها فى حالة وعى نسبى ولا فضل للمصل فيها بدليل أنهم بعد إفاقتهم يتذكرون ما قالوا . أما فى حالة النوم العميق عندما تختلط حـــدود الواقع بحدود الخيال فالاعترافات التى تهم الطبيب لأنها تكشف أميال الشخص الحقيقية لا قيمة لها فى نظر القاضى فهو يرى فرقاً شاسعاً بين الواقع والحلم ، ولا يهمه أن يكون الرجل نوى القتل إن لم يقتل ولا تكفى النية لتحسب عليه الجريمة ما دامت لم تقع . يُحكى أن شاباً أسلم نفسه إلى الشرطة مدعياً أنه قتل أباه . وبعد التحقيق

وجدوا الأب حياً . وكان الشاب قد تناول جرعة من الحشيش دون أن يدرى فأسكرته وتراءى له فى الحلم أنه قتل أباه وبقى هذا الأثر فيه بعد يقظته . هذا القتل الخيالى يدل على نفسية الشاب ومركب السفاح الموجود فيه كما فى « أوديب الملك » لا أكثر ولا أقل. والعصبى الذى تملك طبيعته فكرة الإجرام يمكنه تحت تأثير التخدير أن يتهم نفسه بذنوب لم يرتكبها ولكنه تصورها .

من أجل هذا أنكر أكثر الناس مصل الحقيقة وحاربوه لأن العثار لا يؤمن معه لدى التحقيق ، فضلا عن أنه اعتداء على حرية الإنسان وحرمة نفسه ولا يحق للقاضى أن يدخل كالسارق نفس المتهم .

على كلٍّ فسواء أريد به التشخيص أم التحقيق فلا بد من أخذ رأى المتهم أو المريض والحصول على رضاه قبل الإقدام عليه . ولا يعتبر رفض المتهم دليلا على تهربه من الحقيقه ولا يكفى ذلك لإدانته . يقال أن رودلف هس شريك هتلر شكا فى نورمبرغ ضياع ذاكرته . ولما عرض عليه مصل الحقيقة لم يرفض ولكن اشترط أن يكون ذلك بعد الانتهاء من الدعوى .

يتبين للقارئ مما مر ما فى هذا الموضوع من دقة البحث

وما يحتمل من وجوه الجدل . ولا ريب أن منع استعماله يرضى الرأى العام فى زمن كثر فيه الكذب فجاء هذا الاكتشاف نذيراً يقلق ضمائر الناس ويظهر لهم سخافة الحجب التى يخفون وراءها أحقادهم وأطماعهم وأوزارهم .

ومهما يكن لهذه الطريقة من حسنات فمن الخير الإعراض عنها قبل أن يصار فيها إلى التمادى ، والإفراط فى العبث بالحرية .

فهرست

اقرأ

محمد عبد الغني حسن

ملامح من المجتمع العربي

دار المعارف بمصر

مَلامح مِن المجتمع العَربي

محمد عبد الغني حسن

ملامح من المجتمع العربي

اقرأ ١٠٢
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٢ — يوليه سنة ١٩٥١



استهلال

تحول فى العادات — المجتمع العربى وطبقاته
— أغنياء وفقراء — مجتمع فـكه . . .

تعال معى — أيها القارئ الكريم — نجل جولة فى بقاع من الأرض نشر الإسلام عليها رايته بعد الفتح، وانتشر العرب فيها بعد خروجهم من جزيرة مقفرة ، يقيمون فيها حضارة جديدة ، ويحملون معهم من معادن الصحراء أكرم ما فيها من عناصر ، ثم يمضون إلى بلاد الله يوسعونها فتحاً وتعميراً ، فلا تقف دون غاياتهم أسداد ، ولا يعز على هممهم مطلب . . ولا يتجردون فى غمار الفتوح تتلو الفتوح من أرواحهم العربية ولا ثيابهم العربية . . حتى إذا صهرتهم الأوطان الجديدة فى بواتقها ، وخالطوا الروم ، وامتزجوا بالفرس ، وعاشروا أخلاطاً من الناس غير هؤلاء وهؤلاء — ظلوا مع ذلك محتفظين بأكرم ما فى عناصرهم ، وبقي لهم كثير من طبائعهم الموروثة . . بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأشاعوا فى المجتمعات الجديدة التى خلقوها بحكم الفتح روحاً جديدة هى بضعة من أرواحهم .

ولن أعنف بك أيها القارئ الكريم فى السير بما يشق عليك

أو يرهقك من أمرك عسراً . . . وسأنتقل بك – رفيقاً – من أرض إلى أرض ، من تلك الإمبراطورية الإسلامية التى شرقت وغربت حتى ذهبت إلى ما وراء المياه الخضر للمحيطات ... ولا تخش أن يطول عليك وعلىّ الطريق بما يقطع الأنفاس .. فإننا لا نعدم أن نجد فى بعض الطريق محطا للرحال ، نلتمس عنده الماء والزاد والظل الظليل ، أو الملجأ الأمين . ولا تعجب إذا حدثتك أول الأمر عن هذه المحاط التى كانت لا تخلو منها طريق من الطرق التى تربط أوصال هذه المملكة العربية الواسعة الأطراف . مما يشبه اليوم تلك المواطن التى يسمونها « Rest Houses » المقامة على مسالك الصحراء .

ولا شك أنك ستخفى فى نفسك يا صديقى القارئ أمراً يبديه لسان حالك . . . فتقول : مالنا ولهذه الرحلة الشاقة الطويلة فى مطارح بعيدة ، ومالنا نطوى عصور الأمة العربية جيلا بعد جيل لنكشف القناع عن ماض قد باعدت بيننا وبينه الأيام ؟ ومالنا نتلفت فننظر إلى الوراء نظرات ما كان أولاها أن تكون إلى الأمام ؟ ؟ ولكننى أصارحك القول أن عيوننا إذا تلفتت إلى الخلف تلفّت القلب وراءها ، ليفرغ لحظات من حاضره الثقيل العنيف ، لعله يستروح نسمة فيها أرج من ذلك الماضى السحيق . . . ولعل نظرة إلى الماضى نتبلغ بها فتعيننا

بعض العون على أن نمضى فى الطريق بهمة نستمد وقدتها من حرارة ذلك الماضى العريق . ولعل لحظات قصاراً نعيشها مع أمس المدبر نجد فيها بلاغاً إلى مستقبل نتوسم فيه الخير .

ولا تظنن يا أخى القارئ أننى سأحملك على أجنحة من الخيال الشارد لأعود بك القهقرى مئات ومئات من السنين . . !
فلن أذكر لك فى هذه الصفحات إلا حقائق قرأتها لك فى عشرات من الكتب، وألفت بين موضوعاتها نسباً ، فضممت الفرع إلى أصله ، وقرنت الشبيه إلى مثله ، وكنت أقيد لك كل صيد من الحوادث بقيد من الكتابة ، حتى إذا اجتمع لى من ذلك — على فترات من الزمن — مادة صالحة لأن أقدمها إليك ، تشجعت على أن أختارك معى رفيقاً فى رحلة ممتعة كل المتاع ، على خلال العصور ، فترى معى ألواناً من المجتمع العربى بعد الفتح الإسلامى .

* * *

ولا شك أن المجتمع العربى قد تأثر فى أوطانه الجديدة بألوان من العيش لم تتح له وهو على مسارب الصحراء . . . ولا شك أن أهل الأمصار والمدن قد خرجوا من تحول العادات بأوفر نصيب . أما أهل البادية فقد ظلوا — على مدى العصور — محتفظين بتقاليدهم . وكان هذا الاحتفاظ موضع افتخار عند

أولئك القوم الذين قال شاعرهم :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا -

ومهما يكن من أمر التحول الذى حدث فى المجتمع العربى بعد الفتح الإسلامى فإنه على كل حال لم يكن طفرة إلا فى الطبقات الرفيعة التى أعانتها كثرة الأموال بين يديها والنفوذ عندها أن تحاكى أرقى طوائف المجتمع فى البلاد المفتوحة . حتى لقد كان قصر الوليد بن عبد الملك الأموى — على قرب عهده بالصحابة والتابعين — يزيد على قصور الفرس والروم روعة وحسناً ، وجمالا وجلالا ، حتى اجتلب الرخام الأخضر لأعمدته والأشجار الغريبة لبستانه . أما الطبقات الفقيرة فلم يستجيبوا لداعى الحضارة الجديدة إلا بمقدار ما سمحت به مواردهم المحدودة .

ولم يكن بد أن نتحدث هنا عن طبقات المجتمع العربى ، وإن كان الإسلام قد محا فروق الطبقات ، فلم يجعل مزية لواحد من الناس على غيره ، ولا لأبيض من الناس على أسود ، ولا لعربى من الناس على عجمى . . فهم جميعاً قد خلقوا من ذكر وأنثى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ولكن الإسلام حين أقر المساواة بين الناس وجعلها عنصراً من عناصره لم يغفل ما يختلف فيه الناس من

مواهب ، وما يفترقون فيه من استعداد . ومن هنا اختلفت حظوظهم ، وافترقت فى الرزق أنصباؤهم (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) ، ولهذا لم يكن بد من قيام الفقر بجانب الغنى فى كل مجتمع عربى إسلامى ، على أن حقوق هؤلاء على هؤلاء – مما ضمنته العدالة الاجتماعية فى الإسلام – ليس من سبيلنا فى هذا الكتاب .

وإذا كان أحد أبناء البرامكة ، وهو الفضل بن يحيى ، قد قسم فى رأيه الناس إلى أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زَبَدٌ جُفاء – فإن مؤرخاً عربيا فى القرن التاسع الهجرى قد قسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام وهم : أهل الدولة من السلاطين والأمراء ، وأهل اليسار من التجار ، والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، وأهل الفلح من ذوى الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، وأرباب الصناعات والأجراء أصحاب المهن ، وذوو الحاجة والمسكنة وهم أصحاب السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

ومهما يكن من فرق فى التقسيم بين الفضل بن يحيى البرمكى

فى القرن الثانى من الهجرة ، وبين المقريزى المؤرخ فى القرن التاسع ، فإن حقيقة واحدة تلفت النظر عند الحديث عن طبقات المجتمع العربى ، وهى إغفال المؤرخين للطبقات الفقيرة كأنها لم تكن تكوّن الكثرة الغالبة من هذه المجتمعات التى كانت تموج بها الممالك الإسلامية ، وكأن أخبارها وأوصافها لم تكن تعنى المؤرخ العربى بقدر ما تعنيه أخبار الطبقة التى كان يوجس خيفة منها ، أو يلتمس الزلفى إليها ، أو يبتغى الوسيلة عندها .

ومما يلفت النظر فى المجتمع العربى على مر العصور ذلك التفاوت العجيب بين طبقاته ، فبينما كانت الدنانير تنثر نثراً فى قصور الأمراء والتجار ، نرى من الناس من لم تقع عيونهم على الدينار طول حياتهم ، وتروى لنا كتب التاريخ قصة ذلك الصياد الفقير الذى خرج ومعه ولده إلى شاطئ النيل ليصيد سمكاً ، وعليه من خلق الثياب ما لا يكاد يوارى سوءته ، ولم يكن ابنه بأستر منه ثوباً . . . فرآه أحمد بن طولون سلطان مصر فأخذته عليه شفقة كما تأخذ كرام الملوك شفقة على رعاياهم ، ورقّ لحاله .. وقال لغلامه « نسيم » : يا نسيم ! ادفع إلى هذا الصياد عشرين ديناراً . فدفعها إليه ولحق مولاه الأمير . ورجع ابن طولون إلى الصياد فوجده ميتاً ، والصبى بجانبه يبكى

ويصيح . . . فظن أن واحداً من غلمانه السود قتله وأخذ الدنانير منه . . . فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه فأجاب قائلا : هذا – مشيراً إلى نسيم – دفع إلى أبى شيئاً ، فلم يزل أبى يقلبه حتى وقع ميتاً . . . فقال ابن طولون : فتشه يا نسيم ! ففتشه فوجد الدنانير معه كاملة لم ينقص منها واحد . . . فأغرى ابن طولون الصبى بأخذها ، فأبى أن يأخذها قائلا : هذه قتلت أبى . . وإن أخذتها قتلتنى . . . .

وقد تقف بنا القصة عند هذا النص الذى يثبت لنا الحرمان حتى من رؤية الدنانير ، والذى يثبت لنا أن فجاءة الغنى قد تقتل كما تقتل خصاصة الفقر . . . ولكنا لا ننسى فى غمرة الحزن على هذا الصياد المصرى المسكين أن كرم الأمير المصرى – ابن طولون – ونبل نفسه قد انتقل بالصبى الفقير اليتيم من طبقة المحرومين إلى طبقة المحظوظين . . . فأمر بأن تشترى له دار ، بخمسمائة دينار ، وأن تكون لها غلة تحبس عليه . .

على أن الله – وهو أرحم الراحمين – قد جعل فى كل بلد إسلامى من الأغنياء من يعطفون على الفقراء ، ولا ينسون أن يؤتوهم مما آتاهم الله من فضله ، وإذا لم يبلغ ذلك فى المجتمعات العربية مبلغ الإحسان المنظم ، كما تفعل جماعات الخير اليوم ، وكما تنهض به جمعيات البر والإحسان فى هذا الزمان فإن التراحم

الذى أوصى به الإسلام أهله كان يظهر على كل حال بصور فردية لو أنها عرفت سبيل التعاون المنظم ما عرف مجتمعنا العربى على مختلف العصور صور الشحاذة ، وحرف الاستجداء والسؤال ، التى كانت تعج بها المجامع العربية فى كل أرض وتحت كل سماء . .

وكان للشحاذين منذ القرن الأول الإسلامى وسائلهم فى اجتلاب شفقة المحسنين ، واستدرار عطفهم . . كما كان لهم عباراتهم العامية البليغة المؤثرة التى تذيب القلوب ، وتستل الدراهم من « الجيوب » . . . كما كان لهم المعانى المبتكرة فى الاستجداء . . تلك المعانى التى لم يتحرج الشاعر أبو تمام من أن يأخذ واحداً منها سمعه من سائل فنظمه شعراً ، وأكمل به بيتاً كان قد أعجزه إكماله . . .

ألم ترو لنا كتب الأدب أن أبا تمام لما بلغ فى قصيدته البائية إلى قوله « وأحسنُ من نَوْر يفتّحه الصّبا » ، وقف به النظم عند هذا الصدر من البيت يردده . . لأن إتمام المعنى أعجزه ، وإذا سائل يسأل على الباب وهو يقول : من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا . فقال أبو تمام :

وأحسنُ من نَوْر يفتّحه الصّبا بياضُ العطايا فى سواد المطالب

وهكذا أوحى الشحاذ إلى شاعرنا أبى تمام بالمعنى الذى كان

يطلبه . . . ولم يكن للشحاذين من المضايقات فى القرون الأولى فى المجتمع العربى ما أصبح لهم فى القرون المتأخرة . فهؤلاء أهل دمشق فى القرن الثانى يروى «الأبشيهى» أنهم كانوا يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم ويلحفون فى ذلك إلحافاً يوهم الرائى أنهم أصبحوا هم السائلين . ثم نراهم فى عصر الرحالة ابن جبير يظنون فى أنفسهم الظنون حين يعرض الفقراء عن تناول كسرة منهم ، ويقولون : ويحنا ! لو علم الفقير فينا خيراً لتناول من طعامنا . . .

ويلوح أن الشحاذة والاستجداء فى الطرقات وعلى أبواب المساجد قد أصبحت وضعاً مسلماً به فى المجتمع العربى ، ولكن بعض الفقهاء حاول أن يضع لها آداباً ورسوماً ، فنرى الإمام السبكى المصرى فى القرن الثامن يوجب على الشحاذ ألا يُلحَّ فى المسألة ، بل يتقى الله ويجمل فى الطلب .

وما يحدث بين الشحاذين اليوم من ربط سوقهم بالجبائر ، أو عصب رءوسهم بالعصائب إيهاما بكسر أصابهم ، كان يحدث فى مصر المملوكية ، بل روى السبكى أن منهم من يكشف عورته ويمشى عرياناً بين الناس يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته . ولم تكن القاهرة وحدها مأوى العرايا من الشحاذين . . فنى بغداد وفى سنة ٣٦٤ هـ وقف شحاذ أسود على قنطرة من

قناطر النهر يستجدى الناس وهو عريان . . ولما قامت ثورة العيارين ببغداد فى ذلك الحين أخذ ذلك الأسود سيفاً وقاد جماعة من النهابين وأخذ أموال الناس .

وإذا كنا نسمع عن بعض الشحاذين فى زماننا هذا ممن يقبلون الصدقات وعندهم بيوت للاستغلال ، أو مدخر من الأموال ، أو نقرأ أن شحاذاً مات عن ثروة ، أو هلك عن ميراث ، فإن ذلك ليس إلا استمراراً لما كان يحدث فى التاريخ العربى على مر العصور ؛ فإن « خديجة الكليباتية » المصرية كانت تقبل صدقات المتصدقين وإحسان المحسنين فى مصر قبيل الفتح العثمانى ، فلما توفيت سنة ٩١٣هـ وجد فى تركتها من خالص الذهب ما يقدر بثلاثة آلاف دينار ، ومن الأثاث ما يقوم بخمسمائة دينار ، وحسبك بذلك ثروة طائلة فى ذلك الزمان . .

* * *

وعلى الرغم من الضيق الشديد الذى كانت تعانيه الطبقات الكادحة الفقيرة فى المجتمع العربى فإن روحاً من الفكاهة أو المعابثة أو الممازحة كانت تسرى فى دخان هذه الطبقات ، لعلها بذلك تعين أكبر العون على إشاعة البسمة فيهم ، حتى يتزودوا لعبوسة الحياة بضحكة تجلو صدأ القلوب . ولقد

بلغت نوادر السائلين والشحاذين حداً صارت تروى معه فى كتب المحاضرات والمسامرات ، حتى اشتهر بعض السؤال — كأبى عون — بالنادرة الحلوة التى لا يضيق بها المسئولون ولا يتبرمون ، وإنما يتقبلونها ويعطفون على صاحبها ، ولا يحرمونه عطاءهم إذا طرق بابهم مرة أخرى . . ألم تحدثنا كتب الأدب والأخبار أن أبا عون هذا سأل رجلا عطاءه فمنعه الرجل ، فما زال أبو عون يلح على الرجل بالمسألة حتى أعطاه آخر الأمر تخلصاً من إلحاحه . . فرفع أبو عون يديه إلى السماء قائلا : اللهم آجرنا وإياهم ؛ نسألهم إلحافاً ، ويعطوننا كرهاً ، فلا يبارك الله لنا فيها ، ولا يؤجرهم عليها . . . !

ولقد ألِفَ الواجدون والمسئولون فى طبقات المجتمع العربى مضايقة السائلين ومعابثاتهم . . كما ألفوا أن يوسعوا لها صدورهم عملا بوصية القرآن الكريم (وأما السائل فلا تنهر) . ألم نقرأ أن أعرابياً وقف يسأل على باب بيت . فأجابه رجل من داخل البيت قائلا : ليس ها هنا أحد ؛ فقال السائل على الفور : إنك لأحد لو جعل الله فيك بركة . . . !

وقد يكون أقصى ما بين السائل والمسئول فى باب الاستجداء أن يطلب الأول العطاء ، فيعطيه الثانى أو يرد عليه قائلا : أعطاك الله . ولكن قد تطول المناقشة بين الاثنين ثم تنتهى

آخر الأمر بنكتة بارعة يقذف بها السائل فى وجه المسئول ، واثقاً أن الغضب لن يخرج بصاحبنا إلى حد ينسيه أدب الإسلام فى معاملة السائلين . . وإذا كان القول لا يتأكد إلا بالمثال ، فإن الحكاية التالية هى أصدق برهان : وقف سائل على باب وقال : تصدقوا علىّ فإنى جائع ، قالوا : إلى الآن لم نخبز قال : فكف سويق ، قالوا : ليس عندنا سويق ، قال : فشربة من ماء فإنى عطشان ، قالوا : ما أتانا السقّاء ، قال : فيسير من الدهن أجعله فى رأسى ، قالوا : من أين لنا دهن ؟ فقال يا أولاد ال . . . . فما قعودكم هنا فى داركم ؟ قوموا واشحتوا معى !

على أن هذه الروح المعابثة أحياناً ، المتهكمة أحياناً من جانب الشحاذين والسائلين ، كان يقابلها من ناحية أخرى بعض المعابثة والمفاكهة من جانب الموسرين والمجدودين ، وندع هنا رجلا فقيراً من رجال الحديث فى القرن الأول الهجرى ومن أهل البصرة يحدثنا بعبارته عما حدث له مع امرأة من أهل اليسار فى المجتمع العراقى ؛ «قال أبو قلابة» المحدث :

ضقت ضيقة شديدة ، فأصبحت ذات يوم والمطر يجىء كأفواه القرب ، والأولاد يتضورون جوعاً ، وما عندى حبة واحدة أتقوتها . . فبقيت متحيراً فى أمرى ، فخرجت فجلست

فى دهليزى ، وفتحت بابى ، وجعلت أفكر فى أمرى ، ونفسى تكاد تخرج غمًّا مما أنا فيه ، وليس يسلك الطريق أحد لشدة المطر ، فإذا بامرأة على حمار مارة ، وخادم أسود أخذ بلجام الحمار ، والحمار يخوض فى الوحل . . . فلما صار بحذائى سلم علىّ وقال : أين منزل أبى قلابة ؟ فقلت : هذا منزله ، وأنا هو ، فسألتنى المرأة عن مسألة فى الفقه ، فأفتيتها بها ، فصادف ذلك ما أحبت ، فأخرجت من خفها خريطة دنانير ، ودفعت إلىّ منها ثلاثين ديناراً ، ثم قالت : يا أبا قلابة سبحان خالقك ! لقد تنوق — أى تأنق — فى قبح وجهك ! وانصرفت

أليست هذه الفكاهة من جانب المعطى — وهو هنا امرأة — تقابل المعابثة من جانب السائل فيما ذكرناه قبل هذا بقليل ؟ ؟

ولو أن مؤرخاً عنى بدراسة فكاهات الطبقات الفقيرة من المجتمع العربى لاجتمع له بذلك ثروة من الطرائف تصلح أن تكون موضوعاً لبحث نفسى عميق . . لقد كانوا يجدون فى اللجوء إلى التندر والمضاحكات هروباً من مرارة واقعهم ، كما كانوا يجدون فى أغانيهم العامية أو فى أناشيد الأكرة والفعلة التى يغنونها مجتمعين راحة لأنفسهم المعذبة . . بل كانوا يتصيدون النكتة تصيداً حتى لتنفرج أفواههم عن ضحكات

طويلة عميقة يفيدون بها طُبعهم المكدود . . ألم يحدثنا المسعودي المؤرخ الرحالة أن جماعة من أهل الخراج والقضاء وعلم النحو جلسوا يتفكهون فى نهر من أنهار البصرة قرب بساتين النخل التى كانت مشحونة بالزراع والعمال ممن يعملون فى التمر ، فيجمعونه ويكبسونه فى القواصر ، وهم يمثلون أفقر طبقات المجتمع العراقى . فأخذ المتفكهون بأطراف الأحاديث بينهم ، وسألوا واحداً منهم — هو أبو خليفة بن الحباب — عن فعل الأمر فى قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وكيف يصرف للمذكر والمؤنث إفراداً وتثنية وجمعاً ؛ فأجاب أبو خليفة على عجل : ق — قيا — قوا — قى — قيا — قين . وكان بالقرب منهم جماعة من هؤلاء الأكرة الذين يعملون فى التمر ، فلما سمعوا ذلك استعظموه ، وقالوا : يا زنادقة ، أنتم تقرءون القرآن بحرف الدجاج !

حواء الخالدة

الجوارى والقيان – الحب فى هذا المجتمع – تزين النساء
بائعات الهوى – الراقصات الفاتنات – المرأة الكاملة

لقد كان غاية الرجل من الطبقة المتوسطة فى المجتمع العربى الجديد أن يسعد بزوجة واحدة ، أما الطبقات الفقيرة فكان يشيع فيها تعدد الزوجات ، على الرغم من ضيق أسباب العيش عندها ؛ حتى لقد ألفت المرأة من هذه الطبقة حياة الضرائر ، واعتادت أن تجتمع مع ضرة أو أكثر تحت سقف واحد . . أما الطبقات الموسرة وعلى رأسها الأمراء وأصحاب الدولة فكانوا يجدون فى الجوارى والإماء متاعاً يغنى عن إباحة التعدد فى الزوجات .

ولا شك أن الفقراء كانوا يَشْقَوْنَ بالزوجات الكثيرات ، شقاء الأمراء والأغنياء بالجوارى اللائى كن يلعبن بالألباب ، بل كن يلعبن بالعروش والتيجان .

فهذه « الخيزران » جارية الخليفة المهدى وزوجته ، وأم ولديه الخليفتين موسى الهادى وهارون الرشيد ، بلغت من الجاه والنفوذ ما لم يبلغه أمير من أمراء البيت العباسى ، حتى لقد

أرادت أن تتدخل فى شئون ولدها الهادي وهو خليفة ، فمنعها من ذلك ضناً بقدر النساء أن يمتهن فى أغراض الملك ، وصوناً لخفر الأنوثة أن يخرج إلى بذاذة التبذل . . . وهذه أم الخليفة المقتدر وكانت جارية من بنات الروم، جمعت السلطان فى يدها حتى خشيها الأمراء ، وارتعد لذكرها الوزراء . . وهذه الجارية الشيرازية « حسن » تولت بنفسها – وعلى يد غلامها – سمل عينى الخليفة المتقى . . . وهذه وتلك كثيرات مما ليس المقام مقام عدهن .

ولم ينس الشعراء والأدباء واجبهم فى الحض على الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، وفى التنفير من التعدد الذى لا تصفو معه للزوجية حياة . . . فنرى الحكيم أبا العلاء المعرى يقول :

متى تشرك مع امرأة سواها فقد أخطأت فى الرأى التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير لما كان الإله بلا شريك

بل نرى البديع الهمذانى قبله بعشرات من السنين يصور لنا فى مقامته الثانية والعشرين سعادة أحد تجار بغداد بزوجته الواحدة ، ويصفها على لسان التاجر مخاطباً ضيفه قائلا : (يا مولاى : لو رأيتها والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد

غبر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى . . ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته) .

ولعل أطرف وثيقة ، أو أغلى نصيحة تأتى فى معرض تعدد الزوجات هى ما جاء فى تلك الخطبة الحكيمة التى خطبها المعز لدين الله الفاطمى فى وفد من شيوخ كتامة المغربية ، فقد قال لهم بعد تزهيد فى اللهو ، وأمر بالعدل ، وحض على الخير ، حتى يتصل فى الناس الجميل : « وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة » .

* * *

كان الجوارى يعرضن على الراغب فى شرائهن قبل أن يبدو له الرأى فيهن . فلم يكن الشراء إلا عن معاينة ، وقد تتعرض الجارية لامتحان دقيق ، فتارة تختبر فى عقلها وذكائها وفطنتها وبديهتها وما إلى ذلك من محاسن الخلق . . وتارة تمتحن فى جسمها خشية أن يكون النخاس قد زور فيه شيئاً ليستر فيه

عيباً ، أو يخفى فيه قبحاً . . . ويصف لنا أديب عربى هؤلاء النخاسين المزيفين بقوله : « وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقعة ، وأعدموا الخدود شعر اللحى ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة . . . . . وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة » .

على أن أغلب ما يكون ذلك فى أسواق الرقيق التى كثيراً ما كان ينطلى فيها الخداع ، وتغير فيها المعالم ، وتفعل الأصباغ والدهون والطيوب والشعر المستعار أفعالها . . . . أما الجوارى الفاتنات فكن يجلبن إلى الخلفاء والأمراء والأغنياء جلباً ، فإذا وقعت الواحدة منهن فى نفس رائيها من هؤلاء بذل لها من الثمن ما نستعظمه اليوم ، بل كان يستعظمه الناس فى تلك الأزمان . . حتى لقد بلغ ثمن الجارية التى اشتراها ابن رائق أمير العراق فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ١٤ ألف دينار ؛ كما بلغ ثمن « بصبص » جارية المهدى العباسى — الذى اشتراها وهو ولى عهد — ١٧ ألف دينار .

ولقد اشترى المهدى هذه الجارية على الوصف لا على المعاينة



جارية يعرضها تجار الرقيق للبيع

وعلى الأخبار لا على الاختبار . . ولم يجد فى ذلك كثيراً ولا عظيما .

ولم يكن المهدى هو الوحيد بين أهل الدولة الذى تعشق جارية على السماع . . . ففى القرن الثامن الهجرى أولع السلطان الناصر قلاوون بجارية لم يرها ، ولكنها وصفت له ، فاشتراها صاحب « ماردين » بعد أن بذل لصاحبها الرغائب . . ولكنها وقعت فى قلب صاحب ماردين ، فاحتجزها لنفسه وشغف بها حباً ، وضن بها على السلطان الناصر . . فأنكر عليه السلطان ذلك ، وأمره أن يحملها إلى مصر ؛ فحمل صاحب ماردين جارية غيرها مع مملوكين من مماليكه ، فلم يخف ذلك على السلطان الناصر ، وردّ الثلاثة مع الرسول محملا إياه تهديده ووعيده بأن صاحب ماردين إذا لم يبعث الجارية المقصودة فسيخرب السلطان ماردين على رأسه . . !

وقد نفع الوعيد ، وأثمر التهديد ، فحملت الجارية المطلوبة بعد أن لم يكن من سبيل إليها إلا ركوب الأسنة ... وهو مركب وخيم !

* * *

ولقد لعب الجوارى والقيان دوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية وفى المجتمع العربى ، منذ اللحظة التى قامت فيها دولة للرقيق ،

فقد كان لهن سحر خاص يؤثر فى القلوب ، ولم ينج من أخذ سحرهن كثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء والأغنياء . أما بناة الدول من الخلفاء فقد كانوا عنهن راغبات ، لما فى المشغلة بهن من توهين دعائم الملك . كان معاوية لا يلتفت إليهن ، وكان أبو جعفر المنصور مشغولا عنهن ببناء دولته ، وكان عبد الرحمن الداخل تهدى إليه الجارية الفاتنة فيردها ، حتى لا يدع للهو سبيلا إلى قلبه . أما العاكفون على شهوات النفوس فقد وجدوا فى الجوارى والقيان سبيلا إلى إشباع رغائبهم ، فمن أراد الجمال ، أو الصوت الجميل ، أو ظرف الطباع أو لذاذة الرقص التمس كلا من أولئك عند جارية يهواها . وقد عرف هؤلاء الجوارى مكانهن فى المجتمع العربى الجديد فتدللن . . . وعبثن بالقلوب ، وخادعن فى الود ، لأن القينة منهن كما يقول الجاحظ « مكتسبة ، ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ، ليقعوا فى أنشوطتها » وقد حذق هؤلاء القيان صنعة الإغراء . ورسالة الجاحظ فيهن من أطرف ما يقرأ وألذ ما يسمع ، فليرجع إليها من شاء من حضرات القراء .

وكان الأمراء والكبراء يتهادون بالجوارى ، كما يتهادى الناس فى كل عصر بألطف الأشياء ؛ ولم لا تهدى الجارية وهى سلعة تباع ، وعرض يعرض فى الأسواق ويقوم بأغلى الأثمان؟

على أن أغرب ما فى إهداء الجوارى هو ما كان يفعله بعض سيدات البلاط العباسى من إهداء أزواجهن الخلفاء عدداً من الجوارى المغنيات وغير المغنيات لكى يشغل بهن الخليفة عن جارية معينة تغار منها امرأته وتود بجدع الأنف لو خلصت منها فلا تجد سبيلا إلى ذلك إلا شغل زوجها عنها بهذه الهدايا الجميلة! وقد صنعت ذلك زبيدة امرأة الرشيد العباسى حين وقع فى حب الجارية الفاتنة « دنانير » التى كانت فى حوزة جعفر البرمكى والتى كلف بها الرشيد كلفاً شديداً . .

وقد أخفقت السيدة زبيدة أن تحمل زوجها على الرجوع عن هذا الحب الذى أفسد عليها سعادتها ، فلم تجد من حيلة لذلك إلا أن تهدى إليه عشر جوار منهن « مارية » أم ولده المعتصم ، و « مراجل » أم ولده المأمون. وبذلك انشغل الرشيد عن الوقوع فى هوى « دنانير » .

* * *

ولقد بلغ من أثر الجوارى والقيان فى المجتمع العربى ، وخاصة فى العصر العباسى ، أن الشعراء شغلوا بهن ، وصارت الجارية شيطانة جديدة للشاعر العربى فوق الشياطين التى كنا نسمع عنها فى العصر الجاهلى ! فهذه الجارية الجميلة الشاعرة الرقيقة « عنان » لها أحاديث لذيذة مع الشاعرين مروان بن أبى حفصة ؛

وأبى نواس . وهذه الجارية الحلوة الظريفة « فضل » ، كانت تخالط شعراء زمانها من أمثال البحترى ، وابن الجهم ، وابن الرومى فذهبت فى الشعر كما يذهبون ، وكان لها من جياد المعانى فى الشعر ما لا يملك معه السامع نفسه من النشوة والهزة ، كقولها :

لأكتمن الذى بالقلب من حرق ... حتى أموت ولم يعلم به الناسُ
ولا يقال شكا من كان يعشقه ... إن الشكاة لمن تهوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنت أكتمه ... عند الجلوس إذا ما دارت الكاس

وكانت ليالى بغداد على الخصوص فى القرنين الثالث والرابع تهمس فى ظلامها أنغام مما ترسله مجالس اللهو والشراب والغناء فى قصور الخلفاء والأمراء ؛ بل كانت بيوت المقينين — أو تجار القيان — مجمعاً طيباً يلتقى فيه رواد السمر ، وعشاق السهر ، من الكبراء والوزراء والأدباء والشعراء . . فنرى « الناطفى » البغدادى — وكان من كبار المقينين — يفتح داره كل ليلة ، وعنده الجارية « عنان » فما يزال السمار يلهون ويقصفون ويسمعون ، وما تزال « عنان » تبدههم بحاضر الجواب وتبهرهم بإجازة الشعر ، وتأخذهم بحلاوة الحديث ؛ حتى ليشهد لها الشاعر الفحل مروان بن أبى حفصة بأنها أشعر الإنس والجن .

ولا ضير أن أدعوك يا قارئى العزيز إلى سهرة فى بيت « الناطفى » لنسمع شهادة الشعر التى منحها الشاعر مروان للجارية

الشاعرة « عنان » . .

لقى الناطفىُ مرة الشاعر مروان بن أبى حفصة فدعاه إلى بيته ، ولبى الشاعر الدعوة ، وانطلق مع صاحبنا إلى دار كانت من دور بغداد المعروفة بلياليها المجلوة كأنها ليالى العروس . . ودخل الناطفى إلى جاريته عنان قبل ضيفه ، فقال لها : يا عنان ! جئتك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصة ، وكانت تشكو فى تلك الليلة علة فقالت : إنى عن مروان فى شغل . . فأهوى الناطفى عليها بالسوط وأذن لمروان بالدخول ، فدخل والجارية تبكى ، والدمع ينحدر من عينها ، فلم يلبث أن نطق بهذا البيت من الشعر :

بكت عنان فجرى دمعها   كالدر إذ ينسل من خيطه

فقالت الجارية مسرعة :

فليت من يضربها ظالماً   تجف يمنـــاه على سوطه !

فقال مروان : أعتق ما أملك إن كان فى الجن والإنس أشعر منها . .

ولن أبلغ بك فى دار الناطفى وفى مجلس عنان أكثر من هذا المبلغ ، أما ما وراء ذلك مما كان يدور فى هذه المجالس فإننى أرجو أن أعفى نفسى وأعفيك من ذكره ، مخافة أن يشغلنا

حديث اللهو واللذات ، عما نحن بسبيله من حديث العصور والذكريات .

* * *

وقلَّ أن تجد فى المجتمع العربى بعد عصور المخالطة بالأعاجم وبعد انطلاق الشهوات إلى حد لم يكن للمسلمين به عهد — قل أن تجد المواقف العفيفة من فتيان الحب العفيف ؛ وقل أن تجد هؤلاء الشبان الذين لم تعلق بهم ريبة فيما يضطربون فيه من أمور العشق والهيام . وقلَّ أن تجد أيضاً هؤلاء القيان اللائى لم يحببن الفاحشة . فذلك طراز من الناس قد اختفى مع العصر الإسلامى الأول . وأين من أحاديث الحب اللاهى فى العصر العباسى حديث ذلك الفتى الأموى « عمرو » الظريف الذى كان من ولد عثمان ، والذى روى المسعودى المؤرخ خبره فيما يرويه من طرائف الأخبار ؟

كان « عمرو » الأموى هذا يختلف إلى قينة لبعض قريش ، وكان كل منهما يحب صاحبه ، ويكتم ذلك الحب فلا يعلم صاحبه من أمره شيئاً . فالجارية تحب الفتى وهو لا يعلم ، والفتى يحب الجارية وهى لا تعلم . وكل منهما يخفى فى نفسه من الحب لصاحبه ما لا يجد معه سبيلا إلى المعالنة به . ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة أو لفاحشة . فأراد الفتى أن يبلو من الجارية

مثل الذى يبلوه فى نفسه . فقال لبعض من عنده : امض بنا إليها ، فانطلقا ووافاهما وجوه أهل مدينة الرسول من قريش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيمن حضر ذلك المجلس فتى يجد بها وجده ، ولا كانت صاحبتنا تجد بواحد منهم وجدها بالأموى . . فلما أخذ الناس مواضعهم ، قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولى :

أحبكم حبًّا بكل جوارحى فهل عندكم علم بما لكم عندى
أتجزون بالود المضاعف مثله فإن كريماً من جزى الود بالود

قالت : نعم ، وأحسن منه . وقالت :

للذى ودنا المودة بالضعـ ـف وفضل البادى به لايجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأر ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها ، وجودة حفظها فازداد كلفاً بها ، وقال :

أنت عذر الفتى إذا هتك الستـ ـر وإن كان يوسف المعصوما

وبلغ خبرهما عمر بن عبد العزيز ؛ ولعله ضن بمثل هذا المثال النادر للحب العفيف مع الفطنة وذكاء القلب ، فاشترى الجارية بعشر حدائق ، ووهبها للفتى بما يصلحها ، فأقامت عنده حولا ثم أدركها الموت ، فحزن عليها أبلغ الحزن ، ورثاها ، ولم يستطع أن يعيش بعدها ، أو يطيق صبراً على فراقها ، فمات

بعد قليل ، وضم قبر واحد جسديهما معاً . . . أليست هذه التضحية فى الحب الشريف مما لم نعد نسمع به فى العصور المتأخرة ؟ ثم ألا يستحق هذا العاشق الوحيد فى طرازه أن يبكى عليه الباكون ، وأن يبلغ الوجد عليه من « أشعب » الطامع المازح مبلغ الجد فيقول فيه : هذا سيد شهداء الهوى . . ؟

* * *

وما دمنا فى معرض الحديث عن المرأة ــ حواء الخالدة ، حرة وجارية ــ أفلا نجد أنفسنا مسوقين إلى الحديث عن زينتها وحليها وكل ما تحاول أن تجمل به شكلها ، وتبدى به محاسنها ؟ وما بنا حاجة إلى أن نذكر أن التبرج كان من ظواهر المجتمع العربى فى أول ظهور الإسلام ، ولم يكن ذلك إلا امتداداً لمظاهر من الجاهلية الأولى ؛ وقد نهى الإسلام عنه نهياً قاطعاً فى قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

أما الزينة فقد أباحها الإسلام فى قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) وقوله (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . إلا أن الإسلام جعل لزينة المرأة حدوداً فى قوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن

أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وعلى هذا الأدب الإسلامى والخلق القرآنى فى الزينة وإبدائها كانت المرأة العربية فى الأيام الأولى للإسلام ، إلى أن اختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة ، وأخذوا من أسبابهم فى الحياة وطرائقهم فى الملبس وغيره ما. كانت تذهب معه نفس الخليفة أبى بكر حسرات وهو على فراش الموت يوجه الخطاب إلى من حوله من أصحاب رسول الله قائلا : (والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ، ولتألمن النوم على الصوف الأذربى ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان) . نعم لقد كان أبو بكر يشفق على المسلمين أن يصرفهم الترف عن طريق القوة ، وأن يصابوا من داء الرفاهية بما تلين به أجسامهم ، وتطرأ جنوبهم ، ويخرع كيانهم ، فيجدوا فى مس الصوف ما يجرح أديمهم كما تجرح الشوكة الجسد .

ولقد صحت نبوءة الخليفة الأول ، وما كذبت فراسته . . .

فقد غطى الترف على كل ناحية من نواحى المجتمع العربى حتى كانت الموجة عامة . وافتنت المرأة فى لباسها وزينتها افتناناً لم يألفه العرب فى يوم من الأيام ، وحمل الجوارى من الفرس أولا ، ومن الروم ثانياً موجة التجمل والتزين. وكان كل ما تحمله الجارية على جسمها مثاراً لفتنة ترتطم فيها عواطف العرب . . حتى ذلك الوشاح الذى يجول فى صدرها ، وتلك العصابة التى تأتلق على جبينها . . . فنرى « عنان » الجارية تكتب على عصابتها باللؤلؤ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! . ونرى «طرفة» جارية النطاف تكتب على عصابتها بالذهب : ليس فى الحب مشورة ! ونرى جارية الخليفة المتوكل تكتب على عصابتها هذين البيتين :

إذا خفنا من الرقباء يوما تكلمت العيون عن القلوب
وفى غمز الحواجب مغنيات لحاجات المحب إلى الحبيب

ولم يقتصر أمر هذه العبارات الغزلية الرقيقة على كتابتها على العصائب والخمر والبراقع والأطرزة ، بل جاوز الجوارى ذلك إلى الكتابة بالمسك والغالية على الجبين والخدود . ولم تكن هذه الكتابة فى شىء من الوشم البغيض الذى ساد فى الطبقات الوضيعة زماناً ، ولكنها نوع من الوشى الحبيب الذى كان يختلب الألباب اختلاباً . فهذه « مهج » الجميلة جارية إسحاق ابن إبراهيم الموصلى رآها الشاعر على بن الجهم داخلة فى بيت

مولاها وقد كتبت على أحد خديها بالغالية :

من يكن صبا وفيا فعنـــانى فى يديـــه

وعلى الخد الآخر

خـــذ مليـــكى بعنانى لا أمانعك عليـــه

* * *

وليس عندنا من النصوص ما نستطيع أن نتبين به زى المرأة العربية المقصورة فى بيتها والتى لم تتبدل كما تبدل فتيات الموالى فى حياتهن اللاهية الجديدة على المجتمع الإسلامى ، أما المرأة البدوية فأغلب الظن أنها لم تتبدل حياتها كثيراً عن حياة سابقتها قبل الفتوح العربية إلا بالقدر الذى يفرق بين الجاهلية والإسلام.

ومهما يكن من أمر فإن النقاب ظل ملازماً للمرأة العربية المسلمة على مر العصور ، ولا تزال بقية من البراقع والخمر فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية . وعجيب أن يكون للنقاب والخمار العربى فتنة عند نساء مدينة بالرمو «بصنقلية» المسيحيات. فقد رآهن الرحالة ابن جبير الأندلسى فى القرن السادس الهجرى وفى ليلة من ليالى عيد الميلاد عند الأوربيين فوصفهن قائلا : «وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الألسن ، ملتحفات منتقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ،



سيدة عربية تقدم لها خادمتها قلة الماء

وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين ، من التحلي والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر :

إن من يدخل الكنيسة يوماً   يلق فيها جآذرا وظباء »

ومن هذا النص الذى أوردناه للرحالة ابن جبير نعرف أن النقاب الذى كان نساء « صقلية » ينتقبن به تشبهاً بالمسلمات القاطنات معهن فى الجزيرة كان ذا ألوان ، فلم يكن موحد اللون ، على أن الخمر — جمع خمار — الملونة كانت طرازاً سائداً فى القرن الهجرى الأول ، وكانت بعض المدن تؤثر بعض الألوان على بعض . ويظهر أن الخمار الأسود كان يصنع ويروج فى مدينة الكوفة فى ذلك العصر البعيد ، على حين لم تقبله أذواق النساء فى مدن أخرى . . . ألم يذكروا أن تاجراً من أهل الكوفة قدم «المدينة» بخمر ، فباعها كلها وبقيت منها السود فلم تلق لها سوقاً نافقة ، وكان هذا التاجر صديقاً للشاعر الدرامى ، فشكا ذلك إليه ، فقال له الشاعر : لا يبلغ بك الهم ! فإنى سأنفقها لك ، حتى تبيعها كلها ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود   ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه   حتى وقفت له بباب المسجد

وتغنى بعض المغنين بهذا الشعر ، وشاع فى الناس ، فأغري النساء بلبس الخمار الأسود . . فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ! حتى نفد ما كان مع العراقى منها . . ! وهكذا نجح الشعر فى الترويج والدعاية لشيء من أزياء النساء على نحو ما تصنع « الإعلانات » فى أيامنا هذه . . .

* * *

ولقد وجدت الجواهر والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة سبيلها إلى قلب المرأة العربية وعقلها . . ولا عقل للمرأة أمام الجواهر . . فافتنت فى التحلى بها ، وفى ترصيع جسمها وثيابها بحبات منها ، ولقد كثرت اللآلئ والدرر والألماس فى أيدى العرب الفاتحين ، ووقعوا من نفائس ملوك الفرس والكرد والروم على ما لا يحصى كثرة ، وما لا عهد لهم به فى صحراء أجمل ما فيها من الحجر هو « الجزع » الذى يشبه به الشاعر عيون الوحش فى قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا ، الجزع الذى لم يثقب

وكأن فتح العرب لبلاد الفرس كان فتحاً عظيما لكنز مخبوء لم تقع العيون على مثله ، حتى لقد يبدو الحديث عن ذلك الكنز وجواهره ولآلئه نوعاً من أحاديث السحر وقصص الخرافة ؛ ولكنه كان حقيقة دهش العرب الفاتحون لها ، وبهتوا منها ،

ولم يدرك بعضهم قيمتها ، ولا عرفوا مقدارها ، حتى ليحدثنا مؤرخ ثقة أن عربياً أصاب فى يوم افتتاح « المدائن » بفارس حجراً كبيراً من الياقوت تصل قيمته — لو قوّم — إلى حد كبير ، فلم يعرف صاحبنا قيمته ولم يدر قدره ، وباعه لبعض الناس بألف درهم ، وعاد من الصفقة بأقوى الظن أنه حصل على ربح عظيم . . . ثم علم — بعد لأى من الزمن — أن الحجر بيع بالثمن البخس ، وأنه كان يساوى أضعاف ذلك المبلغ الذى حصل له من بيعه . فلما أخذ أصحابه يلومونه على غفلته وتفريطه كان جوابه أقبح من غفلته حيث قال : لو عرفت عدداً أكثر من الألف لطلبته . . .

ولكن الناس بعد ذلك عرفوا من الأعداد ما وراء آلاف الألوف . . . وعرفوا من الجواهر أسماءها الجديدة عليهم ، وعرفوا مكانها العزيز من تيجان السلاطين ، وخزائن الخلفاء ، وعقود النساء ، وعصائب الجوارى ، وأيدى القيان ، وأرجل الحسان . . . فأقبل الأغنياء على شرائها ، وبذلوا لها من الأموال ، ما نظنه من ضروب الخيال . . . فاشترى الرشيد فصاً من الياقوت الأحمر بأربعين ألف دينار . . . ولم يكن الرشيد فى هذا الثمن مغالياً ولا مبالغاً ولا مخدوعاً . . فإن هذا الفص كان له شهرة تاريخية وقيمة أثرية ، صانته الملوك من

الأعاجم ، وتداولته الدولات ، فاحتازه هرون الرشيد لكى يجمل به مملكته . . . ونقش عليه اسمه .

ورأينا فى العصر العباسى ، وفى عهد الرشيد بالذات ، « علية بنت المهدى » ابنة الخليفة السابق ، وأخت الخليفة القائم تبتدع فى التحلى بالجواهر بدعة لم يعرفها النساء من قبل . . . فقد كان فى جبينها عيب — وهو فضل من السعة — يسمج معه جمال وجهها وحسن خلقها ؛ فأرادت أن تستر هذا العيب ، وأن تخفى هذه السعة فى الجبين باتخاذ العصائب من الحرير ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ليرضى غريزة المرأة فى التجمل ، فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر واللآلئ . وبهذا أحدثت فى التزين النسوى شيئاً ما رئى أحسن منه فيما أحدثه النساء .

ولم تستقر الجواهر الكريمة على رءوس النساء زمناً طويلا حتى جاءت زوجة الرشيد هذه المرة — لا أخته — فأنزلت اللآلئ من عليائها مكانها على جباه النساء ، إلى الأقدام ، ورأيناها تأمر — وأمرها المطاع — أن ترصع خفافها — وهى مطية الرجلين — بالكريم من الأحجار . . . . . وشاعت البدعتان فى قصور الأمراء والوزراء والأغنياء ، وسرت هذه « المودة » فى أرفع طبقات المجتمع العربى فى ذلك الزمان . . .

وأصبحت الجواهر ونفائس الأحجار شيئاً جديداً فى المجتمع

الإسلامى الجديد ، يحتاج إلى الدراسة والخبرة والمعرفة ، حتى اشترطوا فى الكاتب — وهى صناعة كثيراً ما أدت إلى الوزارة — أن يكون عارفاً بصفات الجواهر وخواصها وأثمانها ومبلغ نفاستها . فربما جرى ذكر شيء من ذلك فى حضرة سلطانه فتكون معرفته أبعث على رفعة محله ، أو ربما احتاج إلى وصف هدية صدرت عن الملك أو وصلت إليه ، فلا يخطئ الوصف ، أو لا يحسن التعبير .

وأخذت المجتمعات العربية على مر العصور تزيد معرفتها بالأحجار الكريمة ، فيعرفون صحيحها وزيفها ، وخالصها ومغشوشها ، واختص الصناع فى قطعها وصقلها وترصيعها فى الذهب وغيره ونقشها ، وأصبح مألوفاً فى أسواق بغداد ، والقاهرة ودمشق والمغرب وخراسان وغيرها من العواصم والأقطار الإسلامية أن يسمع الناس ويروا اللؤلؤ ، والياقوت ، والبلخش ، وعين الهر ، والألماس ، والزمرد ، والزبرجد ، والفيروذج ، والدهنج ، والمرجان ، والباد زهر . . .

* * *

ولا نترك الحديث عن — حواء الخالدة — فى المجتمع العربى من غير أن نلم إلمامة قصيرة بالرقص والغناء لما للمرأة من كبير الصلة بهما ، وإن كان هذان الفنان غير مقصورين على النساء

وحدهن . . . فإننا نجد فى المغنين من الرجال أسماء طويس ، وابن سريج ، ومعبد ، والغريض ، والموصلى ، وغيرهم ممن نقلوا أصول الغناء من الفارسية إلى العربية ، كما نجد فى الراقصين من الرجال أسماء « كبيش» ، و «عبد السلام الراقص » و « إسحاق ابن إبراهيم الموصلى » وغيرهم من رجال العصر العباسى . ولا يختص العصر العباسى وحده بالراقصين من الرجال ؛ فإن صاحب كتاب الضبوء اللامع يروى لنا خبر حيدر بن أحمد الرومى الأصل وأخيه إبراهيم الشاب الظريف اللذين وفدا على مصر فى عهد السلطان المملوكى الأشرف برسباي ، ونبغا فى الموسيقى والرقص ، وانتهت إلى إبراهيم الرياسة فى الرقص فى عصره . إلا أن رقص هذين كان فيه من التواجد والهيام وشطحات التصوف ما لا نجده فى رقص إسحاق الموصلى الذى رقص طرباً فى حضرة الخليفة الواثق فشهد له بكمال الصنعة .

فإذا جدت بنا الرحلة من المشرق إلى الأندلس ، رأينا الأندلسيين يطربون للرقص ، ويعجبون برقص الفتيان ، ونسمع شاعراً من شعراء ذلك الفردوس الإسلامى الضائع يصف غلاماً راقصاً بقوله :

ومنزع الحركات يلعب بالنهى   لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه   متلاعباً كالظبى عند كناسه

بالعقل يلعب مقبلا أومدبراً كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منــه رأسه كالسيف ضم ذبابه لرياسه

ويريناالبيت الأول من هذا الشعر الأندلسى الرقيق أن الراقص كان يخلع ثيابه عند الرقص ، ويتجرد من لبس ما يعوق حركاته ولعل الراقصات كن أكثر تجرداً من ذلك ، كما نراه فى زماننا هذا .

وقد امتلأت رقاع المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً بالراقصات وكثر ذلك منذ العصر العباسى حيث أتاحت الطفرة الجديدة فى الاجتماع ألواناً من لذاذات العيش ومتاعه لم تتح من قبل . فنرى بغداد وقد غصت بالراقصات المشهورات ، ونرى أن رقصة « الكرج » أو (Chevaux de Bois) قد شاعت فى هذه العاصمة المترفة ثم انتقلت منها إلى بقية العواصم ، ونرى المؤرخ ابن خلدون يصف هذه الرقصة التى تعتمد على آلات تسمى الكرج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معلقة بأطراف أقبية ، يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكررن ، ويفررن ، ويثاقفن . ثم نرى فوق ذلك أن بعض المدن الإسلامية تشتهر بالنساء الراقصات ويكون لها فى ذلك فضل مزية على غيرها ، فيروى لنا مؤرخ أن مدينة « آبدة » الأندلسية كان فيها الرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة.



رسم راقصة على قطعة خزفية من العصر الفاطمي

ولا يرتجل المسلمون الرقص حين يجعلونه ضرباً من ضروب لهوهم ، وإنما يضعون له القواعد ، ويقيمون له الرسوم ، ويحكمون الصناعة فيه ، ويجعلون له من الشروط ما يجعله مؤثراً فى الطباع محبوباً عند الرؤية ، خفيفاً فى نظر المشاهد . فاشترطوا فى الراقصة خفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع ، وكثرة التصرف ، وثبات القدمين ؛ كما اشترطوا فى خلقتها طول العنق والسوالف ، ودقة الخصر ، وتناسب الخلق ، ولطافة الأقدام ، ولين الأصابع والمفاصل ، وسرعة الانفتال ، وحسن الدل ، وتمايل الأعطاف .

ونرى الراقصات من جهتهن يحسن — فى خلال الرقص — التعبير عن معانى الغرام بما يناسبها من الحركات والإشارات ، كتدلل الحبيب ، وتوله المحب ، وثقل الرقيب . وتشير الراقصة بأناملها إلى أعضاء جسمها ، كأنما تدل على ما أصابه كل عضو من الوجد ، أو ما لقيته كل جارحة من الضنى . . . فإن ذكرت الدمع أشارت بأناملها إلى عينها ، وإن ذكرت حرق الصبابة أشارت إلى قلبها . ويشير إلى ذلك الشاعر ابن حمديس الصقلى الأندلسى بقوله :

وراقصة بالسحر فى حركاتها تقيم به وزن الغناء على حد
منغمة ألفاظهــا بــترنم كسا «معبداً» من عزه ذلة العبد

تدوس قلوب السامعين برحمة　　بها لقطت ما للحون من العد
بقد يموت الغصن من حركاته　　سكوناً وأين الغصن من نزهة القد
وتحسبها عمــا تشير بأنمل　　إلى ما يلاقى كل عضو من الوجد
بنا لا بها ما تشتكى من جوى الهوى
وأدمع أشواق مخــددة الخـــد

على أن أكثر ما كان يستهوى الشعراء من الراقصة هو تلك الخفة التى تطأ بها قدماها الأرض ، وتلك السرعة فى الحركة ، وذلك اللين فى الأعضاء كأنما كل عضلة من جسدها طوع يديها . . . كما يقول الشاعر جمال الدين الفارقى :

لله راقصة تميـــل كأنها　　ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
تغدو وترجع كالخيال فلا ترى　　حركاتهــا إلا كطارقة الكرى
لانت معاطفها فكيف تلفتت　　وتفلتت لا يستطاع بأن ترى

ولعل راقصة لم يخف وطؤها على مكان الرقص كتلك التى وصفها الشاعر على بن أبى اليسر بقوله :

هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت
قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطرتها
فى جفن ذى رمد لم يعرف الوصبا . . .

فقد بلغ من خفة حركتها أنها لو جالت وخطرت فى جفن

رجل أرمد العينين ما اشتكى ألماً ، ولا أحس وصباً . . .

وللشعراء فى هذا الباب كثير ، لو أخذنا فيه لخرجنا عن غرضنا فى هذه الملامح . . .

* * *

وفى غمار هذا العالم المملوء بالفتنة والإغراء ، وفى خلال تلك الحياة الصاخبة الغارقة فى اللهو ، وعلى لهيب تلك الشهوات العارمة التى وجدت لها سبيلا سهلا حتى إلى قصور الخلفاء ، فلم يعد للدين ذلك الوازع القوى الذى كان يوحى إلى على بن أبى طالب أن يخاطب الدنيا فيقول : « يا دنيا غرى غيرى ! إلى تعرضت؟ أم إلىّ تشوقت ؟ . » ويوحى إلى الخليفة عمر بن الخطاب فيبكى من خشية الله حتى تخضل لحيته . . . وفى ذلك الجو الخانق الذى كانت تتنفس فيه عاصمة عربية كبغداد أيام العباسيين ، وكالقاهرة أيام الفاطميين ومن بعدهم من السلاطين. نرى أن بيوتاً للإثم تقوم ، ودوراً للدعارة تشيد بين بيوت الأحرار والحرائر . ونرى النساء الساقطات يقمن هذه البيوت باسم الدولة وفى حمايتها . . ونرى المواخير والحانات فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل تنقلب إلى دور للدعارة فى العصر البويهى وفى أيام « عضد الدولة بن بويه » بالذات . ثم يقر ذلك الوضع الشاذ الغريب فى بلد إسلامى كالعراق الفارسى ، وترسم على هذه البيوت

ضريبة تدخل حصيلتها إلى بيت المال . . . ثم تنتشر العدوى إلى مصر الفاطمية — والشر دائماً سريع الانتقال — فنرى صاحب كتاب « الخطط » يشير إلى بيوت الفواحش التى كانت تجبى عليها الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن ، تحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء ؛ وكانت تشتمل هذه الضريبة — أو يشتمل تحصيلها — على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، والهجوم على بيوت أكثر الناس ؛ وكان يختلط فى تحصيل رسوم الدعارة الشريف مع غير الشريف ، ويستوى فى شرور جبايتها الخبيث والطيب . وصدق الله وهو أحكم القائلين فى كتابه الكريم : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يدل على إقرار الفاحشة فى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية قول المؤرخ المقريزى فى موطن آخر من خططه : « ومقررا على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين » .

ولكن هذا الوضع الشاذ الغريب فى أمصار إسلامية وفى مجتمع عربى مهما قيل فى اختلاط أجناسه — هذا الوضع قد برم به جماعة من المسلمين الغُيُر على آداب الدين ، وضاقوا به ذرعاً ، وأجمعوا على أن يغيروا هذه المناكير بأيديهم ، وبهذا

قامت فتنة الحنابلة فى مدينة بغداد سنة ٣٢٣ هـ وعلى رأسهم زعيمهم أبو محمد البربهارى ، فكبسوا الدور ، وأراقوا دنان النبيذ حيث وجدوها ، وضربوا المغنيات حيث لقوهن ، وكسروا آلات الغناء حيث رأوها ، وكانوا يعترضون كل رجل يمشى مع امرأة فى الطريق فيقودونهما إلى دار الشرطة ويشهدون عليهما بالفاحشة ما لم يخبر الرجل عن المرأة التى معه، مخافة أن تكون من مشيعات الفحشاء . ولكن هذه الثورة قد أخمدها بدر الخرشنى صاحب شرطة بغداد فى سرعة وحزم مخافة أن تنقلب إلى شر كبير .

ومهما يكن من أمر تلك الثورة الحنبلية على الفحشاء والمنكر فى بغداد ، ومهما قيل فى مجافاتها لروح النظام القائم فى الدولة فإنها على كل حال كانت صوتاً قوياً من أصوات الاحتجاج على قلب الأوضاع فى المجتمع العربى فى القرن الرابع . وهى حملة تذكرنا بتلك التى حملها الإمام ابن تيمية فى مصر والشام فى القرن الثامن الهجرى لما رآه من انحلال المجتمع الإسلامى فى عصره وبعده بعداً كثيراً عن الحياة المثالية الرفيعة للإسلام والمسلمين . على ما بين الحملتين من فرق كبير فى الأسلوب .

ألوان من الناس

بعض أصحاب المهن والصناعات — القضاة — القصاصون والشعراء — الحواة والمشعوذون . . .

لقد كانت الصناعة فى البادية العربية قبل الفتوح تقوم على الضرورى من أسباب العيش ، ولم تكن الحياة عندهم معقدة إلى الحد الذى يقتضى قيام مهن كثيرة وصناعات متعددة ، ولم تزد الحرف على أكثر مما يوائم حاجاتهم البسيطة ومجتمعاتهم المبعثرة فى الصحراء . فلما فتحوا الأمصار وخططوا المدن الكبرى ، وأنشأوا العواصم والحواضر انجذب الناس نحوها وعمروها ، واقتضى العمران أن تقوم الحرف والصناعات التى تستطيع أن تستجيب بحق إلى رغبات هذا المجتمع الجديد . وأخذت قصبات الخلافة الجديدة تنمو وتزدهر ويزدحم السكان فيها وحولها . وأصبحت للمجتمع الجديد النامى مطالب من العيش فيما يتصل بالطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة . وقامت الحوانيت الكثيرة تعج بها المدن لتلبى حاجات كل محتاج . ولم يعد الخبز — مثلا — وهو قوام الحياة تصنعه المرأة العربية فى بيتها كما كانت تصنعه البدوية بيديها وعلى ملتها . .

بل وجدنا الأفران العامة تقام فى المدن ، تارة فى الدروب والأحياء ، وطوراً فى أطراف البلد ، ورأينا من عمل المحتسب فى الدولة أن يراقب هذه الأفران ، ويأمر بإصلاح مداخنها ، ويتعاهد جرف الدف — وهو لوح العجين — حتى لا يلصق عليه ، ويكلف الخباز بتمييز خبز كل واحد بعلامة — كما يصنع الفرانون فى زماننا هذا — لئلا يختلط الجميع . ويظهر أن بعض الفرانين فى مصر كانوا يشوون السمك مع الخبز على بلاطة واحدة ، ولهذا جعل المحتسب ملاحظة ذلك من واجبه حتى لا يسيل شىء من دهن السمك على الخبز فيغير رائحته وطعمه .

وقامت بجانب هذه الأفران الكبيرة أفران صغيرة لصناعة الفطائر والزلابية ، ولا ننسى تلك الصورة الطريفة التى صور لنا فيها الشاعر ابن الرومى سرعة صانع الرقاق وخفة يده فى قوله :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ولا ننسى كذلك صورة قالى الزلابية فى وقت السحر التى صورها الشاعر بقوله :

رأيته سحراً يقلى زلابية
فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً فى أنامله
فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وهنا نرى المحتسب يقوم بعمله ، فيلاحظ رجاله نوع الدقيق أو السميذ كما يلاحظون الدهن أو الزيت الذى يقلى به ، ويراقبون مقلى الزلابية الذى كان يشترط فيه أن يصنع من النحاس الأحمر الجيد .

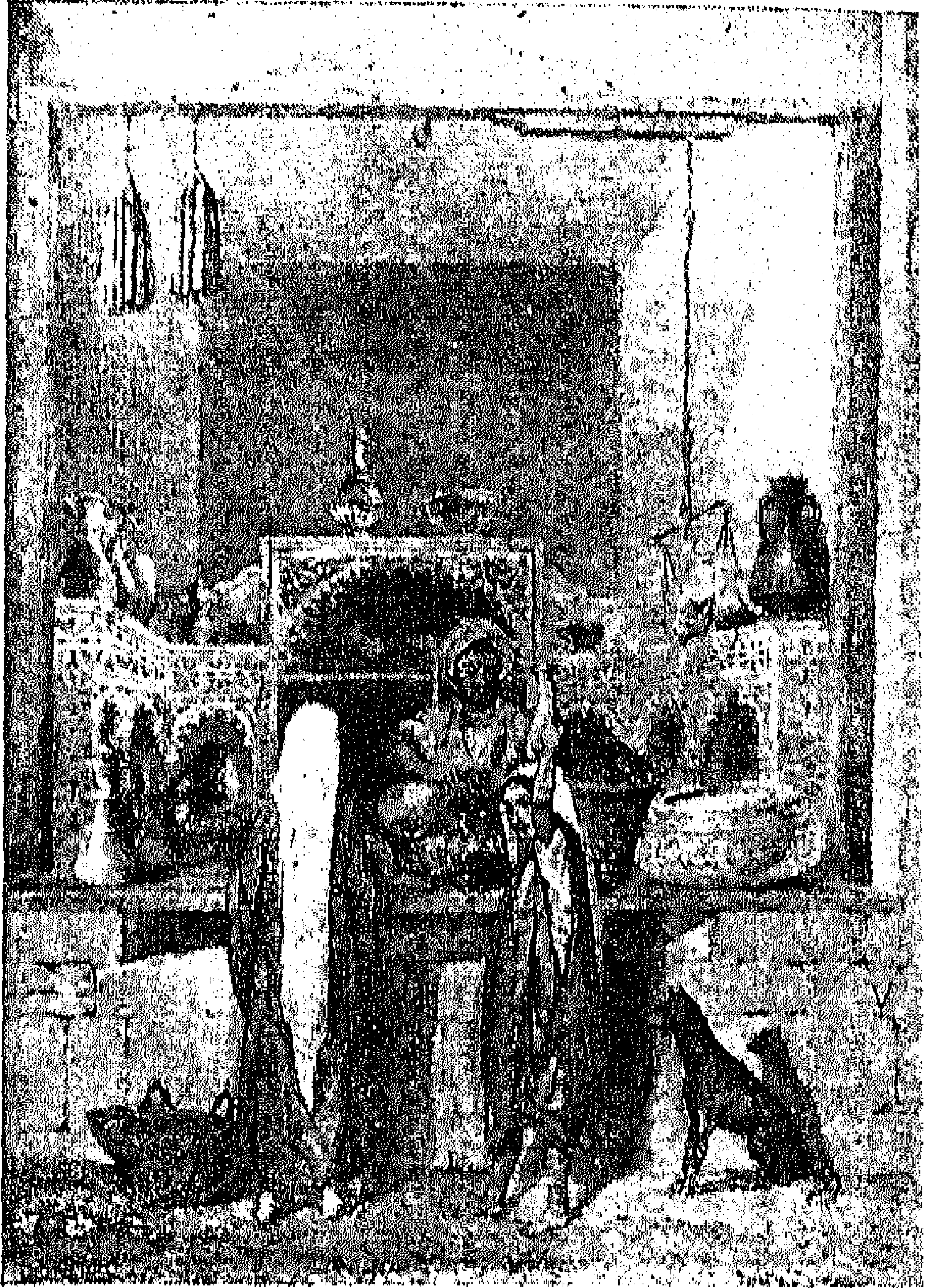
وكان لألوان الطعام المهيأ وغير المهيأ حوانيت خاصة بها ، فبائع اللحوم المشوية كان يسمى شواء ، وبائع الرءوس والأكارع كان يسمى رواساً ، وصاحب المطاعم كان يسمى طباخاً ، وبائع الأمعاء المحشوة (السجق) يسمى نقانقياً ، وبائع الهريسة يسمى هرائسياً .

ولم تسلم هذه الأطعمة من الغش الذى كان من عمل المحتسب أن يكشفه ويؤاخذ أصحابه عليه . وكانت طرقهم فى الغش مما يحير العقول ، ولكنها لم تخف على المحتسبين الذين كانوا يعرفون فنونها ويبالغون فى العقوبة عليها . ففى القرن السادس

الهجرى ، وفى مصر والشام ، كان الرواسون يخلطون رءوس المعز بالضأن ، وكان الطباخون يخلطون لحوم الإبل مع لحوم البقر ، وكان النقانقيون يغشون النقانق فيحشونها باللحوم الواقعة الهزيلة ، وكان الحلوانيون — أو بائعو الحلوى — يغشونها بطرق كثيرة ، فمنهم من يمزج عسل النحل برُبّ الكرم ، ومنهم من يمزج عسل القصب بعسل التمر .

وإذا كنا اليوم نميز أنواع اللحوم المذبوحة بعلامات مميزة تسمى الأختام ، فلكل من لحوم الضأن والأبقار والإبل سمات خاصة بها تسمها إدارات المذابح قبل تداولها فى الأسواق ، فإن ذلك التمييز ليس جديداً على مجتمعاتنا الحديثة ؛ فقد شاهد العراق والشام ومصر ذلك من بضعة قرون . . . حيث كانت لحوم المعز تنقط بالزعفران لتتميز من غيرها من اللحوم

وقد كان للمحتسب وعرفائه ، والموظفين تحت يديه ، سلطان كبير على الأطعمة ، وكان يتسع اختصاصه فى ملاحظتها والرقابة عليها إلى حد بعيد ، وكان من حقه أن يختبر الحلوى وهو واقف بباب بائعها ليعرف غشها بما اجتمع لديه ولدى عرفائه من وسائل المعرفة والخبرة ؛ فلم يكن فى تلك الأيام « معمل كيميائى » للتحليل وبيان الفساد والغش فى المأكول والمشروب ؛ وإنما كان المحتسب نفسه معملا متنقلا



دكان من دكاكين القاهرة فى أول القرن التاسع عشر

للتحليل بالوسائل المعروفة فى عصره . ويروى لنا عبد الرحمن الشيزرى كيف كان المحتسب يعرف اللحم عند الجزار أو القصاب إن كان مذبوحاً أم ميتة . فهو يلقيه فى الماء ، فإن رسب فيه فهو مذبوح ، وإن لم يرسب فهو ميتة . كما يروى لنا طريقة الكشف عن البيض المذر — أعنى الفاسد — بأن يطرح فى الماء ، فإذا كان مذراً طفا على وجه الماء ، وإذا كان صحيحاً رسب .

وكان مألوفاً جداً فى حوانيت الطعام والمآكل أن يقف الناس على أبوابها انتظاراً لتهيئتها ، فلا يجد الناس بأساً أن ينتظروا دقائق تسوى فيها الفطيرة ، أو تقلى الزلابية ، أو يشوى اللحم . ولكن منظراً كان يثير العجب فى القاهرة الفاطمية والأيوبية وهو منظر النسوة وهن جالسات على أبواب القطانين — أو المنجدين — ساعات طويلة ينتظرن أن يفرغ القطان من ندف القطن لفصل البذور عنه ، وكثيراً ما كان يتعمد الرجل من هؤلاء القطانين أن يطيل الزمن فى عملية ندف القطن حتى يتمتع بوقت أكثر مع النساء صاحبات القطن ويقضى فى التحدث إليهن وقتاً طويلا . . .

ولم تستأثر حوانيت القطانين بهذه الظاهرة التى كان يفطن المحتسب إليها للقضاء عليها ، بل كانت حوانيت الكتانين

والبزازين والصاغة مجمعاً طيباً مزدحماً للنسوة اللائى كن يقضين فى هذه الحوانيت زمناً طويلا .

وفى أوائل القرن التاسع عشر زار القاهرة مستشرق إنجليزى هو المستر إدوار وليام لاين ، وطاف بكثير من ألوان المجتمع فيها ، ولم يفته أن يجول بجولة بين حوانيت القاهرة ليشهد ما يباع فيها وطريقة المجتمع القاهرى فى البيع والشراء ؛ ولم يفته بالطبع أن يلاحظ مناداة الباعة على ما يبيعون بعبارات تغرى النفس بشرائها والإقبال عليها ؛ فينادون على الجميز بهذا النداء الجذاب : « جميز يا عنب » ؛ وينادون على الترمس بقولهم : « ترمس امبابة يغلب اللوز » ؛ وينادون على البرتقال بقولهم : « عسل يا برتقال عسل » ! وينادون على أزهار الحناء بهذه العبارة الجميلة المسجوعة : « روايح الجنة يا تمر حنة ! »

* * *

والآن وقد جلنا بجولة سريعة بين ألوان من الخلق تجمعهم حاجات العيش من مطعم ومشرب وملبس ، أفلا يجدر بنا أن ننتقل بين المجتمع لنرى كيف كان يفصل فى خصوماته ، ويحكم فى منازعاته ؟ ولنخالط بعض المخالطة هؤلاء القضاة الذين يبدأ عهدهم فى الإسلام بالنبى عليه السلام الذى يقول فيه ربه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم).

ولم يبدأ تعيين القضاة فى المجتمع العربى الجديد إلا فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين ولى بعض الصحابة قضاء المدينة والبصرة والكوفة ومصر . وعلى الرغم من بساطة مظاهر هؤلاء القضاة الأولين وعدم إحاطتهم بالرسوم والتقاليد التى دخلت نظام القضاء فى عصور متأخرة فإنهم كانوا يختارون من أعلم الناس وأفقههم وأكثرهم تديناً وأشدهم ميلا إلى الحق ومراعاة النصفة .

وعلى الرغم من هيبة القضاة الأولين واحترامهم فى مجالس قضائهم فقد كان يسمح للمتخاصمين أن يراجعوهم بتلك الصراحة والشجاعة الأدبية التى حاول الإسلام أن ينميها فى قلوب المسلمين . فلقد رووا أن « توبة الحضرمى » كان متلافاً مبذراً لماله ، لا يملك شيئاً إلا أنفقه ووصل به إخوانه ، فلما ولى قضاء مصر فى زمن هشام بن عبد الملك بدا له رأى أن يحجر على المبذر فى ماله ، وشاءت الظروف أن يرفع إليه غلام كان لا يبقى من ماله على شىء ، فقال له توبة : أرى أن أحجر عليك ؛ فقال الغلام : ومن يحجر عليك أيها القاضى ؟ والله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار من تبذيرك .

ولم يكن مجلس القضاء يعقد فى مكان خاص مستقل به كما هو الشأن اليوم ، وإنما كان القاضى يجلس فى منزله للحكم

أولا ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى القضاء فى المساجد . وفى العصر العباسى نجد القضاة يشتد نفوذهم فلا يعقدون مجالس القضاء فى حضرة الوالى ، ولكننا نرى الوالى — وهو ممثل الخليفة السياسى ونائبه — ينتقل بنفسه ليحضر مجلس القاضى . وقد بلغ من اعتداد بعض القضاة بأنفسهم ومراكزهم أنهم لم يكونوا يقومون من مجلسهم تحية للوالى أو الأمير إذا دخل .

وكانت هيئة المحكمة تنعقد بقاض واحد لا يجلس معه أحد، وأذكر أن صاحب البريد حاول أن يجلس بجوار أحد قضاة مصر فى عصر المأمون ، فأخرجه القاضى من مجلسه قائلا: هذا مجلس أمير المؤمنين ، وليس لأحد أن يجلس فيه إلا بإذنه. وكان مجلس القضاء يشهد كل يوم للقضاء ألواناً من الناس يعرضون شكاواهم ، ويتقدمون برقاع فيها أسماؤهم وأسماء خصومهم ويناولون هذه الرقاع إلى كاتب القاضى ، الذى يناولها بدوره إليه .

ولم يكن القاضى أول الأمر يتميز بزى مخصوص أو علامة خاصة ، فلباسه لا يختلف عن لباس العلماء والفقهاء فى وقته ، إلا أن الدولة الفاطمية فى مصر رسمت للقضاة أزياء وعمائم خاصة ، ومراكب من البغال النفيسة المساوية فى قيمها للعتاق من الخيل .

وكانت رتبة القاضى فى مصر الفاطمية أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، وكان يجلس يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع فى الزيادة التى أضيفت إلى جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند من الحرير ، وبين يديه خمسة من الحجاب وأربعة من الموقعين ، ويملى القلم الذى يكتب به من دواة محلاة بالفضة محمولة إليه من خزائن القصور الفاطمية وموضوعة على كرسى خاص يسمى كرسى الدواة .

وكانت بغلة القاضى الشهباء من المشاهد التى تراها القاهرة الفاطمية فى شوارعها ودروبها ، ولا يركب البغال الشهب من أرباب الدولة غير القاضى ؛ وهى مسرجة بسرج ثقيل محلى ، وراءه دفتر من الفضة مبطن بالحرير .

وقد اتخذ الفاطميون للقضاء رسوماً وتقاليد فى جلسة القاضى وزيه ونوابه وحجابه وتصرفه ومجلسه ووقفة الخصوم والشهود أمامه ؛ وكانت هذه الرسوم تراعى فى دقة وضبط ، فلا يسمح بالإخلال بها بحال من الأحوال .

وكانت عمائم القضاة فى مصر الفاطمية والأيوبية والمملوكية تتميز باتخاذها من شاشات كبار غاية الكبر ، وكان بعضهم يرسلون بين كتفيهم ذؤابة يبلغ بها الطول أن تصل إلى قربوس سرج الدابة . . . ومنهم من يتخذ الطيلسان الفائق ، ويلبس

فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها مفتوحاً . ولما صار لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض خاص به رأينا أن هيئة ملابسهم ، وشكل عمائمهم يختلف باختلاف مذاهبهم ، حتى يتميز القاضى الحنفى مثلا من قاضى الشافعية .

وفى العصر المملوكى بمصر نرى أن قاضى القضاة يجلس فى دار خاصة بالقضاء هى دار العدل ، بعد أن أصبحت المساجد مكاناً غير ملائم للفصل بين الناس فى منازعاتهم ، ومن ذلك الحين أصبحت للقضاة دور خاصة ، إلى أن وجدنا المحاكم على اختلافها من شرعية وأهلية ومختلطة تبنى لها أبنية خاصة . ورأينا فى العصر المملوكى أن السلاطين أنفسهم كانوا يجلسون فى مجالس القضاء مع القضاة باعتبارهم أولياء الأمر الشرعيين الذين يستمد القضاة منهم ولاية القضاء . . وقد كان السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يجلسون للقضاء وعن يمينهم قضاة المذاهب الأربعة ، وعن يسارهم كاتب السر وناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، فيكونون شبه دائرة .

ولم يكن جلوس سلاطين المماليك للقضاء شيئاً غريباً ولا جديداً على المجتمع العربى ، ألم يجلس المأمون العباسى يوماً للقضاء ، فتقدمت إليه امرأة عليها هيئة السفر وفى ثياب رثة ،

فأخذت تشكو إليه فى شعر مؤثر رقيق أوله :

ياخير منتصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد

فلم تكد تفرغ منه حتى رد عليها بشعر يعلنها فيه بنظر مسألتها فى جلسة مقبلة قائلا :

والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا

ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

ثم ينعقد مجلس القضاء يوم الأحد — كما تذكر تلك الرواية الأدبية الشائقة — فينتصف لها المأمون من خصمها وولده العباس . . .

وكثيراً ما كان يلجأ القاضى إلى عمل مما يشبه المباحث الجنائية اليوم وهو فى مجلسه بالقضاء ؛ ألم يختصم رجلان إلى القاضى إياس بن معاوية وهو قاض على مدينة البصرة لعمر بن عبد العزيز ؛ وكانت الخصومة على مُطرف خز ، وأنبجانى — والأنبجانى أبخس قيمة وأحط نوعاً من الخز — فادعى كل واحد منهما أن مطرف الخز له ، وأن الأنبجانى لصاحبه ، فدعا إياس بمشط وماء ، فبل رأس كل واحد منهما ، ثم قال لأحدهما : سرح رأسك ؛ فسرحه ، فخرج فى المشط عفر المطرف ، وفى مشط الآخر عفر الأنبجانى ، فقال القاضى : يا خبيث ! الأنبجانى لك ! فأقر صاحبنا بذلك ، ودفع مطرف

الخز إلى صاحبه .

ولم يكن فى القضاة الأولين — أعنى فى العصور الأولى للإسلام — تزمت ولا تنطع ، على الرغم من هيبتهم وجلالتهم وإجلال المجتمع لهم ؛ فكانوا فى الأعم الأغلب ناساً من الناس يمازحون بما لا يخرج بالمزاح إلى كثرة منه تميت القلب ، ويتندرون بما لا يسقط كرامتهم أو يخل بمروءتهم وهيبتهم ؛ بل كان فى بعضهم من بداهة الفكر ، وسرعة الخاطر ولطف الحجاج والمحاورة ما يفحم به أحد الخصوم .

فقد أتى رجل إلى صاحبنا إياس القاضى وسأله : هل ترى علىّ من بأس إن أكلت تمراً ؟ قال : لا ، قال : فهل ترى علىّ من بأس إن أكلت معه كيسوما ؟ قال : لا ، قال : فإن شربت عليهما ماء ؟ قال : جائز ، قال السائل : فلم تحرم السكر وإنما هو ما ذكرت لك ؟ . قال إياس : لو صببت عليك ماء هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فلو نثرت عليك تراباً هل كان يضرك ؟ قال : لا ، قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لبنة عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرك ؟ قال : كنت تقتلنى ! قال : فهذا مثل ذاك . . .

على أن أعجب ما أخذ به خصم فأصبح محكوماً عليه بعد

أن كان طالباً الحكم له ، هو ذلك الدرس القضائى البديع الذى أعطاه أبو حازم قاضى الخليفة المعتمد لرجل جاء أمامه ، يقاضى أباه ويطالبه بدين له عليه ، فأقر الأب بالدين ، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضى : هل لأبيك مال ؟ قال ابنه : لا أعلمه ، قال : فمذ كم داينته بهذا المال ؟ قال : منذ كذا وكذا ، قال القاضى : قد فرضت عليك نفقة أبيك من وقت المداينة . . . فحبس الابن ، وخلى سبيل الأب .

ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ اسم ذلك القاضى الظريف بمدينة البصرة ، الذي أحضر رجل امرأته أمامه لخصومة بينهما ، وكانت المرأة حسنة إذا انتقبت ، قبيحة إذا أسفرت عن وجهها — أي أن برقعها كان يخلع عليها شيئاً من الحسن ويخفى شيئاً من القبح ، فمال القاضى لها على زوجها ، وقال : يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسىء إليها ! ففطن الرجل لميل القاضى نحوها . . . فقال : أصلح الله القاضى ! قد شككت فى أنها امرأتى ؛ فمرها تسفر عن وجهها ليستبين لى ، فوقع ذلك بوفاق من القاضى الذي قال لها : أسفرى رحمك الله ؛ فسفرت عن وجه قبيح كان يستره النقاب.. فقال القاضى لما نظر إلى قبح وجهها : قومى عليك لعنة الله ! كلام مظلوم ووجه ظالم !

ولعلها نادرة من تلك النوادر التى وضعها الواضعون فى عصور من المجتمع العربى ، ليتناقلها الناس ويسمروا بها ، أو لعلها واقعة تصور لنا بعض ما كان عليه بعض قضاة تلك الأزمان . . .

* * *

وما دام القول قد بلغ بنا إلى النوادر والأسمار التى كان يسمر بها الناس فى مجتمعاتهم فلا بأس أن نعرج قليلا على جماعة من الناس كانوا قد وقفوا أنفسهم على حكاية الأخبار والنوادر والمضاحك ، ولم يخل منهم مجتمع عربى منذ القرن الرابع الهجرى ، حتى لقد كانت تزدحم بهم المساجد والطرقات والدروب . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء فيبذلون لهم من الأموال ما جعل هذه الصناعة حرفة مربحة لأصحابها . . . هؤلاء هم القصاص أو القصاصون الذين كان عملهم فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام تذكير الناس ووعظهم بقراءة القرآن لهم لما فيه من أحسن القصص ، وبحكاية قصص الأنبياء التى كان يجد الناس فى الاستماع إليها مرضاة لنفوسهم . ولهذا لم يكن هناك حرج بادئ الأمر أن يجلس القاضى فى المسجد يعظ ويذكر ويدعو ويقرأ القرآن ، ولا يتجاوز ذلك من ذكر الأخبار والأساطير الدينية والنوادر التى أصبحت فيما بعد عمل القصاص

الأول . وقد استمر القصاص بمعناه الديني والوعظى قائماً فى ديار المسلمين إلى عصور متأخرة ، فنجد الإمام السبكى – وهو من علماء مصر فى القرن الثامن – يذكر القاص ويعرفه بأنه هو الذى يجلس فى الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف . ويشترط فيه أن يقول ما يفهمه العامة ويشتركون فيه من الترغيب فى الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتعمق معهم فى أصول الدين وفنون العقائد ، وأحاديث الصفات الإلاهية فإن ذلك – عند الأمام السبكى – يجرهم إلى ما لا ينبغى .

أما القصاصون الذين سلكوا طريق الحكايات والنوادر ، فخرجوا بالقصص الدينية عن غرضها الوعظى ، فقد اتجهوا إلى تسلية العامة وبعث لذة الاستماع فيهم عن طريق اختراع الحكايات ، وخلق الأساطير ، وإضفاء الخيال على قصص الأنبياء والسالفين حتى يجد فيها المستمعون ما يثير اهتمامهم . ولما اتجهت القصص هذا الاتجاه الفنى الذى لا يساير أغراض الدين ، ولا يرضى رجاله رأينا الخلفاء يمنعون القصاص من القعود فى المساجد ، ضنا بحرمة بيوت الله أن تكون مجتمعاً للهو والتسلية .

وقد بلغ من عبث هؤلاء القصاص بعقول العوام واستخفافهم

بهم أنهم كانوا يحتالون على جمع المال منهم بأي طريق ، وقد قسموا أنفسهم إلى معسكرات تتفق في النهاية على أخذ المال من السامعين مهما اختلفت مذاهبهم ؛ فقد كانوا يقعدون فى الأسواق العراقية فى القرن الرابع ، فيذكر فريق منهم فضائل على بن أبى طالب ليرضوا المستمعين من الشيعة ، ويقص فريق منهم فضائل الصديق أبى بكر ليرضوا أهل السنة من سامعيهم ، وفى النهاية يخرجون من هذه الصفقة الماكرة والحملة المدبرة بأوفى نصيب . .

ويروى لنا صاحب « مروج الذهب » حكاية « ابن المغازلى » الذى كان ببغداد فى عصر الخليفة المعتضد العباسى ، فكان يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ، ويثنى عليه المسعودى ويصفه بنهاية الحذق فى صناعته ، فلا يستطيع من يراه ويسمع كلامه أن يمسك نفسه من الضحك . ولقد وقف ابن المغازلى يوماً على باب الخاصة بقصر الخلافة يضحك الخدم بذكر حكاياتهم . . فأعجب خادم بحكايته ، وشغف بنوادره ، وذهب إلى الخليفة المعتضد يذكر له نبأ هذا القاص البارع ، ويصف لمولاه إبداعه فى تقليد الأعرابى والمكى والتركى والنحوى والزنجى وما إليهم من ضروب الخلائق . . ويصف للخليفة نوادر القصاص بأنها تضحك الثكول ، وتصبى

الحليم . . فلم يملك المعتضد نفسه من أن يستدعى إليه ابن المغازلى ليقف بنفسه على براعة قصصه ، وجودة مضاحكه ؛ وفى الحق أنه استطاع — بعد جهد جهيد ، وبعد صفعات موجعة ، وبعد برودة من المعتضد القاسى السفاك للدماء — أن يضحك المعتضد حتى جعله يفحص الأرض برجليه من شدة الضحك .

ولم يكن المعتضد العباسى هو الخليفة الوحيد الذى استمع إلى قصاص كبير كابن المغازلى ، ففى القرن الحادي عشر الهجرى — وبعد فتح السلطان سليم العثمانى لمصر بقرن من الزمان — نرى السلطان أحمد الأول العثمانى يستمع فى قصر الخلافة بالقسطنطينية إلى الشيخ داود العطار أو المناوى القصاص المصرى الذى كتب قصة « حرب العجم » أو « لعب النار » ليصور بها الحرب الصليبية التى وقعت حوادثها فى مدينة الإسكندرية فى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ وكان داود العطار هذا من شيوخ القصاص فى مصر العثمانية ، وقد رأس فريق خيال الظل المصرى الذى سافر إلى عاصمة بنى عثمان ليشترك فى حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا من كريمة السلطان أحمد .

ولسنا اليوم بسبيل دراسة للقصص الشعبية ورجالها ، فذلك

يبعد بنا عن هدفنا من تسجيل ملامح خاطفة لصور من المجتمع العربى . ولكن أمراً لا ينبغى إهماله هنا ، وهو أن هؤلاء القصاص قد لفتوا أنظار المستشرقين الذين بدأوا يطأون بلاد الشرق العربى منذ اتصل الشرق بالغرب ، سواء أكان ذلك فى العصور الوسطى ، أم فى العصور الحديثة ، ولم يفت الدكتور جوستاف لوبون وهو يزور مصر والشام وبلاداً من الشرق العربى فى منتصف القرن التاسع عشر أن يشير إلى هؤلاء القصاص ، وأن يعد قصصهم العجيبة من أهم وسائل التسلية عند المجتمع العربى ، وخاصة عند ما سمع أحدهم فى حى من أحياء مدينة يافا الفلسطينية ، نضر الله ذكريات ماضيها الجميل . . .

ولقد وصف رائد آخر من رواد الشرق العربى فى العصور الحديثة منظر احتشاد جماعة من العرب حول قصاص بارع ، أخذ يلعب بعقولهم ، وينتقل بهم من موقعة إلى موقعة ، فيجعلهم وهم فى نشوة من تواجد السماع يخيل إليهم أنهم فى حرب حقيقية وأنهم بين صفوف الجند المقاتلين ، وأمام مشهد الأبطال المحاربين فإذا أزمت الأمور فى حرب قصصية رأيت أنفاسهم تنقطع ، فلا يستردونها إلا إذا نقلهم القاص إلى مشهد جديد . . .

* * *

على أن هؤلاء القصاصين والمحاكين لم يكونوا الوسيلة الوحيدة

للتسلية فى المجتمع العربى ، فقد ذكر لنا المؤرخ ابن خلدون براعة المصريين فى تعليم الحمر الإنسية والحيوانات العجم والطيور مفردات من الكلام والأفعال يستغرب حدوثها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها ؛ ويقول عما بلغه أهل مصر فى ذلك إنها غاية لا تدرك . وكان هؤلاء العارضون للحيوانات المعلمة المدربة يقيمون لها المشاهد فى الأسواق ، والأماكن العامة والطرق ، فيجتمع الناس حولها ليشهدوا عجائب أفعالها ويسمعوا غرائب من مفردات أقوالها . وكان هؤلاء العارضون يجمعون من هذه المشاهد أموالا تعد من وسائل كسبهم . وكانت سهولة التقليد من هذه الحيوانات ترجع إلى أصول طبائعها من ناحية ، وإلى براعة المدربين لها من ناحية أخرى ؛ فكان القرد أخف هذه المشاهد تقليداً بحكم طبعه ، وكان الحمار الأليف أعجبها وأشدها إثارة للدهشة بحكم ما تعورف من غبائه . . . ولعل صاحب المعزة والكلب والقرد اليوم هو بقية مما كان يجرى فى مصر فى العصر المملوكى وشهده ابن خلدون . . .

بعض الأمكنة فى بعض الأزمنة

البيوت - القصور - الشوارع والدروب - الحمامات -
الفنادق - السجون - المدارس - ستنابات إلخ

قل أن يقع قارئ التاريخ الإسلامى على وصف يشفى النفس للبيوت التى كان يسكنها عامة الناس وأوساطهم على مر العصور ، فلقد كان الإغفال نصيب هذه البيوت غالباً كما كان نصيب أصحابها :

وإذا نظرت إلى الديار وجدتها   تشقى كما تشقى العباد وتسعد

على حين لا تكاد تخلو كتب التاريخ والحضارة والخطط من وصف القصور التى افتنت فيها الريازة العربية الإسلامية منذ غادر العرب مضاربهم وخيامهم فى الصحراء إلى أن تأنقوا فى تشييد الدور ، وجلبوا لها من ألوان الذوق فى البناء ، والترف فى الأثاث ما يكاد يظنه المرء ضرباً من الخيال .

وتبدو لنا أول موازنة بين البيت البدوى المبسط وبين القصر المنيف من قول زوج الخليفة معاوية الأموى حين نقلها من البادية إلى عاصمة الخلافة الجديدة :

لبيت تخفق الأرياح فيه   أحب إلى من قصر منيف

ولن نطيل القول فى قصور الخلفاء بدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها من حواضر الإسلام ، غير أن أعمدة الرخام المزخرفة فى قصر الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وبرك الزئبق فى قصر الطولونيين بمصر ، وبركة الرصاص التى يجرى حولها نهر من معدن الرصاص المجلو أحسن من الفضة فى قصر الخليفة المقتدر بالله العباسى ببغداد ، وقصر الزهراء بقرطبة الذى بناه عبد الرحمن الناصر وأودع فيه من عجائب البناء والهندسة ما يحير العقول ، وقصر الحمراء فى غرناطة الذي بناه أحد ملوك بنى الأحمر وأنشأ فيه بركة السباع التى تربض فى وسطها أسود من الرخام تمج الماء من أفواهها على شكل جميل — هذه الحفنة من القصور الساحرة الموزعة فى بقاع المملكة الإسلامية على عصور مختلفة تجلو لنا كيف بلغ العرب فى حضارتهم مبلغاً يرينا فى جلاء ووضوح فرق الانتقال ، والتبدل من حال إلى حال .

ولقد بلغت قصور العباسيين فوق فخامتها وضخامتها مبلغاً من السمو والارتفاع ، الذى صوره لنا الشاعر البحترى وهو يصف قصر «الكامل» الذى بناه الخليفة المعتز بالله بن المتوكل ؛ فالبحتري يزعم لنا فى خيال شعرى جميل أن الحمام قد ذعر وهو يترنم فوق ذلك القصر الشاهق ، لأنه أطل من أعلاه فرأى



سقاءون يحملون الماء على ظهورهم وعلى ظهور المطايا

منظراً هائلا خطر المزلة ، بعيد المنحدر .

وأحمد الظن فى القارئ الكريم أنه لا يضيق بالأبيات الجميلة التى قالها البحترى فى صفة ذلك القصر ، فإن إيرادها هنا بنصها أحفظ لنا من حلها بالنثر ، وأبين فى جلاء الصورة التى نريد أن نعرض بها قصراً بغدادياً فى القرن الثالث الهجرى . قال :

لما كملت روية وعزيمة أعملت رأيك فى ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقاً منه لأيمن حلة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى تفويفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً يضىء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق متلهب العالى أنيق السافل

* * *

ويبدو أن البيوت فى بعض البلاد العربية كانت تميل إلى العلو والارتفاع لتكونها من طبقات بعضها فوق بعض ؛ فقد كانت مدينة الإسكندرية مثلا فى القرن السادس الهجرى تمتاز بعلو دورها علواً لفت نظر الرحالة ابن جبير الأندلسى ،

حتى ليقول فى وصفها : « ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى » . وقد أصدر ابن جبير حكمه على الإسكندرية وهو وافد إليها من الغرب قبل أن يدخل القاهرة التى كانت تتكون دورها من طبقات تصل إلى الثمانية ؛ وكانت كل دار تزدحم بالسكان الذين قد يبلغون فى البيت الواحد مائتين . إلا أن الفسطاط كانت تصل فيها طبقات البيوت إلى أربع عشرة طبقة كما ذكره الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى وفى العصر الفاطمى ، وأقام فيها بضعاً من السنوات مكنته أن يسجل بدقة وملاحظة كل ما رآه فى مصر الفاطمية .

ولم يفقد البيت العربى — على اختلاف الزمن بأحواله وانتقاله — تلك الروح الكريمة المضيافة التى بثها العرب الفاتحون فى أبنائهم المنتشرين فى كل أرض ، والتى كانت أعز ما ورثته البادية إياهم ، على أن هذه الضيافة كانت تختلف تبعاً لما يطرأ على الناس من ظروف الحياة والبيئة ، إلا أنها لم تعدم أن تجد لها مظهراً حتى حين أنشئت الفنادق وخصصت لنزول المسافرين فيها . ولا ندعى أن الضيافة العربية فى البيوت التى شيدتها الحضارة الإسلامية كانت تبلغ من المثالية النادرة تلك الروح التى تحدثنا بها النوادر والأخبار عن أمثال حاتم

الطائى الذين كانوا يقدمون للضيف أعز ما يملكون ، وينحرون الناقة السمينة الكوماء التى لا يملكون فى البيت غيرها خشية أن ينحرهم أعداؤهم إذا رموهم بالبخل . لا ندعى ذلك ولكننا نؤكد — مستقرئين كثيراً من الأمثلة — أن الكرم كان سائداً فى البيوت العربية من أيام الأمويين فى دمشق حتى أيام العثمانيين فى القاهرة ، بل نجد صوراً من الضيافة الكريمة فيما كتبه المستشرق «إدوار وليام لاين» عن قاهرة القرن التاسع عشر. وإذا كان العرب يكنون عن الكرم بكثرة الرماد إشارة إلى كثرة الطبخ التى تستلزم كثرة الأضياف ونزول الطراق ، فإن المؤرخ الجبرتى يصف لنا بيوت الأعيان فى مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين ، فيذكر أنه كان من سنن مكارم الأخلاق التى كانت لأهل مصر ولا توجد فى غيرها أن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين ، أحدهما أسفل رجالى ، والثانى فى الحريم ، فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى العشاء والغداء ، مستطيلا فى المكان الخارج ، مبذولا للناس ، ويجلس بصدره أمير المجلس ، وحوله الضيفان ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون فى وسطه يفرقون على الجالسين ، ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات ولا يمتنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا ، ويرون أن



غرفة الضيوف فى بيت عربى بالقاهرة

المنع من المعايب . ولهذا كان بعض أصحاب الحاجات وطلاب المسائل ينتظرون وقت الطعام ليدخلوا واثقين من أن الحجاب لا يمنعونهم ، فيدخل صاحب الحاجة حينئذ ، ويأكل وينال غرضه من مخاطبة صاحب البيت . وكان الأمراء وأصحاب البيوت يعرفون أصحاب الحاجات هؤلاء ، لأنهم لا ينصرفون بعد الطعام مباشرة ، وإنما ينتظرون حتى يطلبهم صاحب البيت من أمراء المماليك والأعيان فيسألهم عن حاجاتهم[١] ويقضيها لهم .

وبعد الجبرتى بقليل من الزمن يصف لنا المستشرق (لاين) بيوت الضيافة هذه ، بل يصف لنا بيوت الطعام ، وكيفية الجلوس حولها والانصراف منها وغسل الأيدى قبل الأكل وبعده ، ويصف لنا كذلك فى دقة ملاحظة تلك الأباريق والطسوت النحاسية التى كانت معدة لغسل الأيدى والأفواه ، كما يصف لنا صينية الطعام النحاسية المنقوشة أو المكفتة بالفضة وتحتها ذلك الكرسى من الخشب الذى يحملها ، والذى افتن فيه الصانع فحلاه بالحفر والزخارف ، ورصعه أو طعمه بالصدف والعاج وما إليهما . . .

ولدينا أكثر من دليل على أن بيوت العامة كانت متلاحمة متلاصقة على نحو ما نراه الآن فى الأحياء الوطنية التى ترتد تاريخاً إلى زمن قديم ، على العكس من قصور الخلفاء والأمراء

التى كانت تباعد ما بينها مساحات واسعة من حدائق وبساتين كما كان الشأن فى قصور الفاطميين بمصر ؛ وكانت الشوارع — على العموم — ضيقة وملتوية فى كثير من أنحاء المملكة الإسلامية ؛ فلم يراع فى تخطيطها تلك السعة التى تتطلبها الآن ضرورات صحية ، ولم يراع فيها ذلك التعامد فى التقاطع الذى تمتاز به شوارع الدنيا اليوم فى تصميم المدن الحديثة . ولكننا نستطيع أن نستثنى مدينة «سر من رأى» التى بناها المعتصم العباسى فقد وسع المتوكل شوارعها إلى حد زاد فى رقعة المدينة نفسها ، وجعل عرض الشارع الأعظم فيها مائتى ذراع ، وقدر أن يحفر قناتين على جانبى هذا الشارع ينصب فيهما الماء ، على أن المعتصم نفسه حين اختط هذه المدينة وسع فيها الشوارع والدروب — كما يذكر المسعودى المؤرخ — وأفرد أهل كل صنعة بسوق ، فبنى الناس ، وارتفع البناء ، واتصل العمران ، وتسامع الناس أن داراً جديدة للملك قد اتخذت فقصدوها وعمروا الأرض أكثر مما عمروها .

على أنه فى الوقت الذى اتسعت فيه شوارع سامرا « سر من رأى » كانت شوارع شيراز ضيقة أبلغ الضيق ، لا تتسع لسير دابتين بعضهما بجانب بعض ، وكان أهلها فى بلاء يعانونه من أجل ذلك . ولم تكن شيراز وحدها هى المنكوبة فى

شوارعها ، فقد وفد إلى مصر ابن سعيد المغربي فى القرن السابع الهجرى وشاهد بعينيه ضيق مسالك القاهرة ، ووصف ذلك بنص عبارته قائلا : « . . . ثم تسير منه إلى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة ، وبين يديه أمراء الدولة ، وهو فى موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم ! وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . . . »

ولم تكن القاهرة المملوكية وحدها هى التى سخط منها وبرم بها الرحالة ابن سعيد المغربى وضاق بها صدره ، فقد ضاق بمدينة الفسطاط أيضاً ، التى يقول إن المسرة أدبرت عنه حين دخلها . . وقد لفت نظره فيها عدم استقامة شوارعها ، وبناء



حول المائدة

بيوتها من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف . . .

وإذا كنا نلاحظ اليوم فى مدن مختلفة من القطر المصرى بعض الشوارع المسقوفة الضيقة فى الأحياء التجارية فإن ذلك ليس إلا بقية مما كان عليه الشأن منذ بضعة قرون ، فإن الرحالة الفارسى ناصر خسرو قد لاحظ ذلك فى قاهرة القرن الخامس ، ولاحظ أن بها أسواقاً وشوارع توقد فيها القناديل ، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها بسبب تلك السقوف من الخشب ونسيج القنب « الخيش » الذى يتدلى الآن من سقوف بعض الشوارع التجارية ، فيذكرنا بالقاهرة التى رآها مؤرخ مسلم فى عصر الفاطميين . . .

وقد كان لهذه الدروب والشوارع حراس يقومون عليها بالليل والنهار ، وقد وضع الإمام السبكى من علماء مصر فى القرن الثامن الهجرى دستوراً لهؤلاء الحراس ، فشرط على الواحد منهم أن ينصح أهل الدرب ، ويسهر عينه إذا ناموا ، وينبه النوام إذا اغتيلوا بحريق أو غيره ، ولا يدل على عوراتهم والياً ولا غيره . وهذا الشرط الأخير يذكرنا اليوم باصطلاح سر المهنة ، الذى فرض أن يحافظ عليه من يستودعون أسرار الناس وأمورهم الخاصة

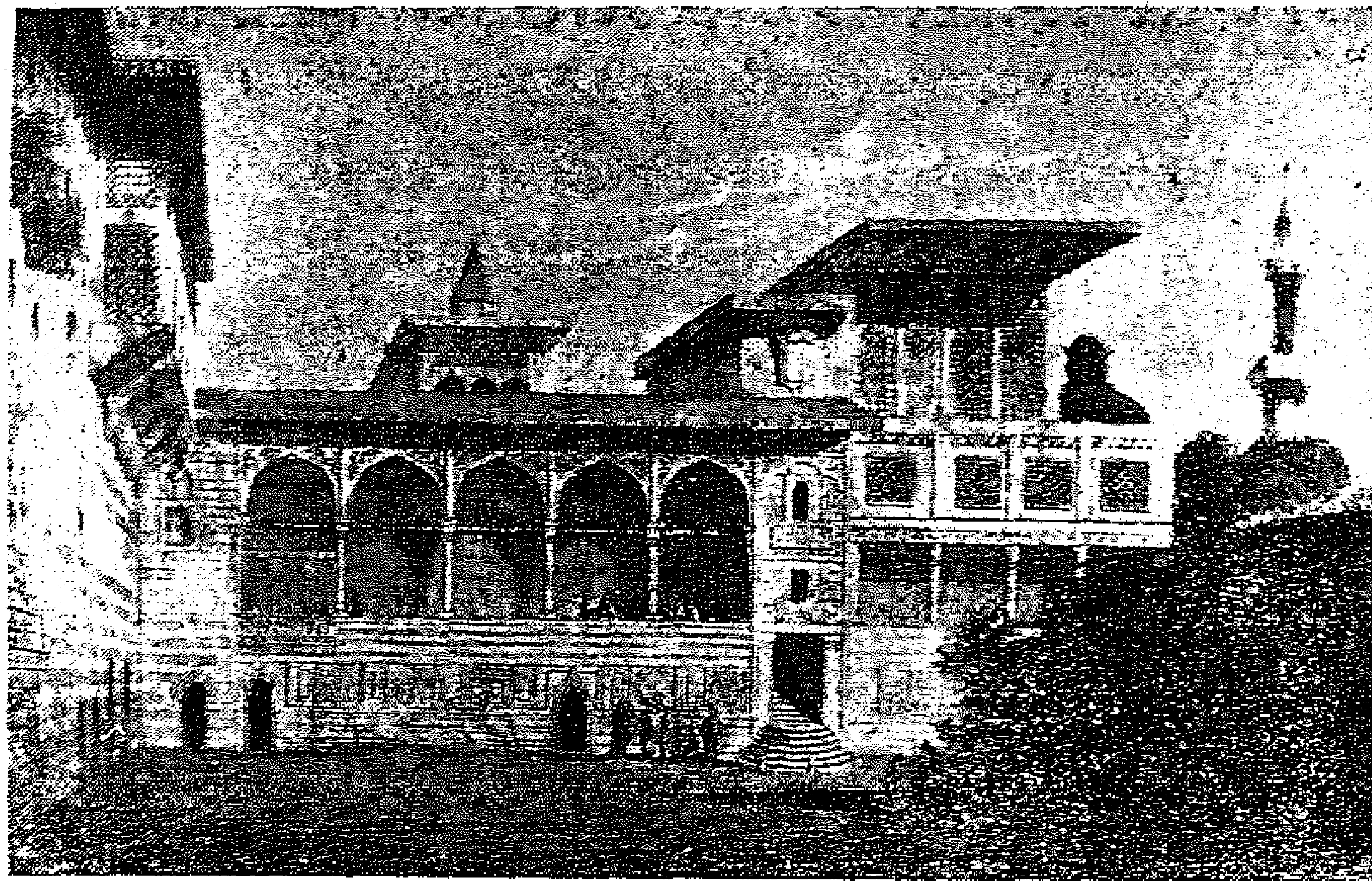
كالمحامين والأطباء .

ولم يحرمنا المستشرق « لاين » وصفه لشوارع القاهرة ودروبها فى أول القرن التاسع عشر وفى عهد محمد على باشا الكبير ؛ على أن العالم الفرنسى الدكتور « غوستاف لوبون » قد زار مصر فى منتصف القرن الماضى ، ولم يفته فى كتابه « حضارة العرب » أن يصف شوارع القاهرة بأنها — ككل مدينة شرقية — ضيقة ملتوية غير منتظمة ، فتكاد أطناف البيوت تتلاصق ، وخاصة فى الأحياء القديمة ، أما الأحياء الحديثة ، وهى التى اختطت فى عهد إسماعيل باشا فلم يجد المفكر الفرنسى فيها ما يكون موضعاً للمؤاخذة .

ولم أعثر على رحالة أو جوّاب التمس العذر لضيق شوارع المدن الشرقية أو العربية كما صنع الدكتور غوستاف لوبون.. فقد أوضح أن الحكمة فى ضيقها هى الاستكثار من الظل ، والاحتفاظ ببرودة الهواء فى مثل تلك الأجواء الحارة المشمسة ، ولعل ذلك يعلل لنا تلك الشوارع المسقوفة التى أشرنا إليها قبيل ذلك ، ولكنها كانت تحجب المطر أيضاً خشية أن يصل إلى الأرض فيعطل الحركة فى تلك الشوارع التجارية التى كانت تعد أسواقاً عظيمة القيمة .

* * *

والآن — بعد أن جلناجولة فى شوارع ومسالك ودروب من المدن العربية والإسلامية — فقد وجب أن نعرج على حمام من تلك الحمامات الكثيرة المنتشرة فى بلاد كثيرة من الشرق العربى، لعلنا ننفض غبار الرحلة ، أو ننفض ذلك الغبار الذى كانت تعج به شوارع مصر وهواؤها إلى حد يخنق الأنفاس كما ذكره ابن سعيد المغربى وغيره من الرحالين . . . والحمام جديد على المجتمع العربى الذى أخذه عن الرومان واليونان . ولهذا يقول فيه ابن عمر : « الحمام من النعيم الذى أحدثوه » . ولقد أقبل العرب على الحمامات العامة الساخنة ، وخاصة فى عصر الحضارة والترف على الرغم مما ورد فى ذمها ، فقد روي أن الإمام علياً قال : « بئس البيت الحمام ! تكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله» ولعل هذا هو السر فى تحرج المسلمين من دخول الحمامات زمناً ما ، بما أثير من نقاش حول إباحتها وكراهتها . ولعل هذا يفسر لنا قلة عدد الحمامات فى مصر الطولونية والإخشيدية . إلا أنها انتشرت بعد ذلك ، ولكنها لم تبلغ من الكثرة فى مصر مثلا ما بلغته فى بلاد الشام والعراق . فعلى حين كان فى بغداد بضعة آلاف من الحمامات العامة منذ القرن الثالث الهجرى ، وعلى حين كانت دمشق تزدحم بالحمامات الكثيرة التى ألفت فيها الكتب مثل



بيت من بيوت القاهرة فى العصر العثمانى

كتاب «عدة الملمات فى تعداد الحمامات» ليوسف بن عبد الهادى من رجال القرنين التاسع والعاشر — نرى أن عدد حمامات القاهرة فى القرن السابع الهجرى بلغ ثمانين حماماً فقط ، فى الوقت الذى كان فيه بالفسطاط أكثر من ألف حمام . . .

وأيا ما كان عدد الحمامات واختلافها فى كل قطر عربى ، فقد كان قيامها ظاهرة طريفة فى المجتمع العربى ، وكانت نيرانها ورخامها وقبَبَمها وأحواضها الساخنة وأبخرتها الحارة موضوعاً طريفاً للشعراء والكتاب ، وكان العرق المتصبب من رواد الحمام بسبب الحرارة مثاراً لقرائح الشعراء الذين يقول واحد منهم :

لم أبغ بالحمام طيب تنعم   أفنى البكاء دموع عينى أجمعا
فبكيت فيه أسى بجسمى كله   حتى كأن لكل عرق مدمعا !

والإشارة هنا إلى انبثاق العرق من كل مسام الجسم ، حتى كأن بكل عضو عيناً تبكى . . .

وإذا كانت الحمامات العربية أو الإسلامية على وجه العموم قد أضافت إلى فن الريازة « العمارة » العربية كثيراً من الغنى والجمال ، بما أبدعه فيها الفن الجميل من نقوش وزخارف وصور وتلوين زجاج وافتنان فى الأثاث والرياش ، فإن كثيراً من العادات والتقاليد قد نشأ حولها وقام بقيامها . . .

ولعل لصوص الحمامات كانوا طائفة من المجتمع العربى

لا يجوز إغفالها هنا ؛ فقد كانوا يلصون الثياب فى غفلة من قوام الحمام ، وكانت حوادث الزلق على أرض الحمام ، وحوادث السرقة من الكثرة بالحد الذى قيل فيه : « دعوتان مغفول عنهما عند دخول الحمام : سلمك الله من الزلق ، وحرس ثيابك من السَّرَق ! » ، ولعل أطرف ما ذكر من السرق حادثة محمد « ابن سكرة » الشاعر الظريف ، الذى دخل الحمام فسرق مداسه ، فخرج منه حافياً ، فصار أشبه بالمتصوف الزاهد « بشر الحافى » ، فقال فى ذلك :

إليك أذم حمام ابن موسى　　وإن فاق المنى طيبا وحرا
تكاثرت اللصوص عليه حتى　　ليحفى من يطيف به ويعرى
ولم أفقد به ثوبا... ولكن　　دخلت محمدا فخرجت «بشرا»

أى دخلت محمدا فخرجت حافياً مثل بشر الحافى...

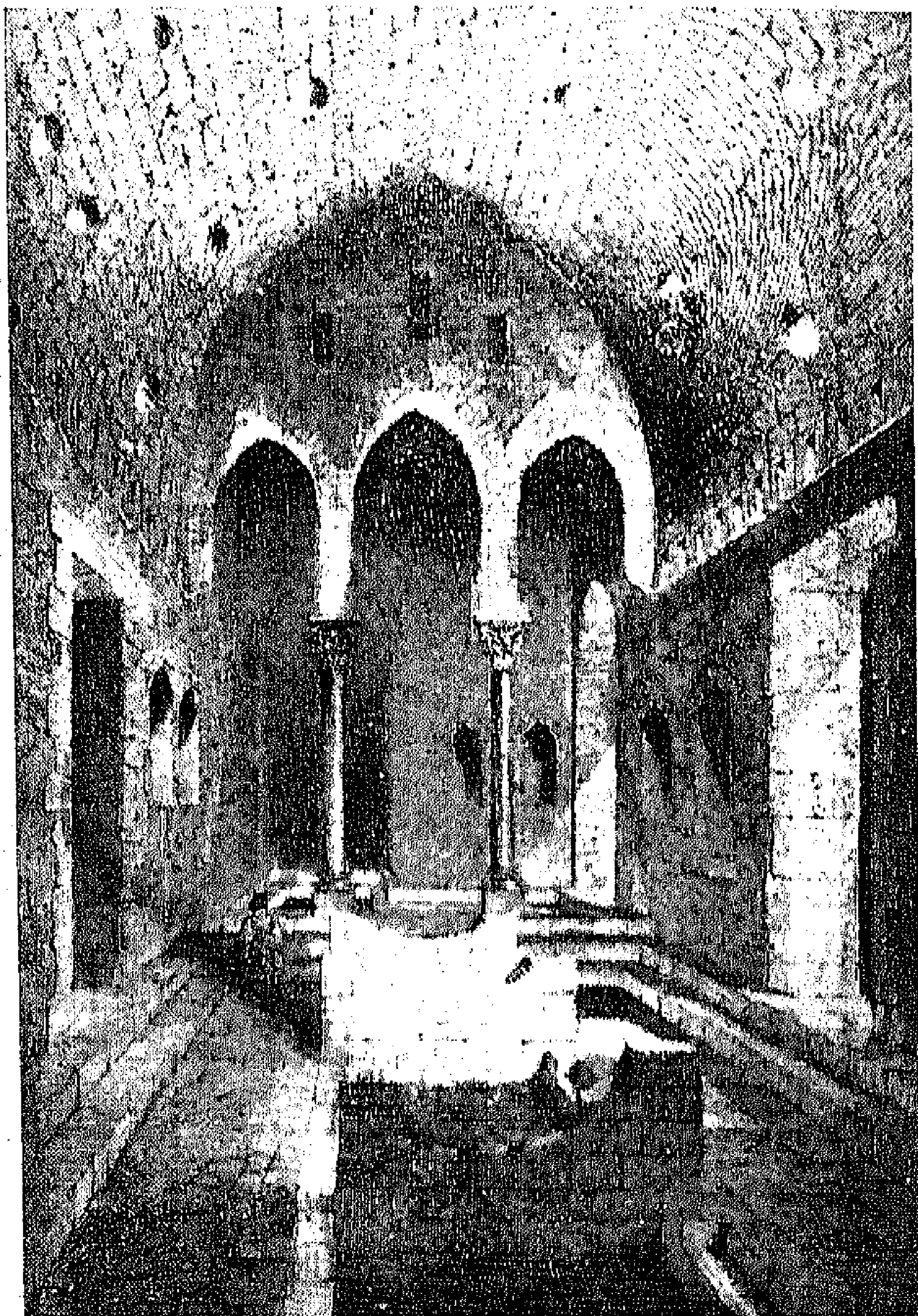
وكانت سرقة الملابس فى الحمامات موضوعاً لذيذاً للتندر والمداعبة بين الأدباء والشعراء ، فقد سرق شاش عمامة متولى دمشق وهو فى أحد حماماتها ، فكتب فى ذلك أديبنا وشاعرنا المصرى الظريف جمال الدين بن نباتة من رجال القرن الثامن الهجرى : « فما عبر المملوك فى عمره أحر من هذه الحمام ، ولا نكس فى رأسه العلية مثل هذه الأيام ! فيا للعواطف العربية ، ويا لمراحم النفوس الأبية ! فوالله لقد خف رأس المملوك من

الجهتين عقله وشاشه ، ولقد تعوض من تاج عمته العربية مخدة فراشه ! »

ولقد عرفت البلاد العربية الفنادق التى كان يأوى إليها المسافرون من بلد إلى بلد ، ولكنها لم تكن من العناية وتوفير أسباب الراحة على ما نعهده اليوم ، وكانت تسمى بأسماء أصحابها كفندق « أبى الثناء » الذى نزل فيه الرحالة الأندلسى ابن جبير فى زقاق القناديل ، على مقربة من جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة ، وقد وصف الرحالة الحجرة التى نزل فيها بالكبر ، وأنها كانت على باب الفندق المذكور ، يعنى أنها مشرفة على مدخل الفندق لا داخلة فى بنائه ، ولما غادر هذا الرحالة الدقيق الملاحظة مصر إلى بلاد العرب نزل بثغر « جدة » ورأى فنادقها المبنية بالحجارة والطين ، ولعلها لم تكن أسعد حالا من فنادق مصر ، فقد بلغ الأمر بكثير منها أن بضعة من النزلاء يبيتون فى الغرفة الواحدة ، وكانت مرابط الخيل ، ومواقف الحمير ، وأحواض الماء ومذاود العلف تقوم على كثب من هذه الفنادق يرتبط فيها النازلون خيلهم ، ويعلفون ويسقون دوابهم .

* * *

ولم تكن الفنادق تعرف وحدها بتميزها فى الشكل والمدخل ، بل كانت السجون من الأبنية التى تمتاز بطابع خاص فى



منظر داخلي لحمام عربي

المجتمع العربى على اختلاف الدهور . ولقد كان قيامها ضرورة اجتماعية منذ الأيام الأولى للفتوح العربية ، فى سنة ٢٣١ هـ نرى أن بغداد كان بها عدد من السجون امتلأت بقوم من النهابين الذين عدوا على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأمر الخليفة الواثق بأخذهم وإيداعهم السجون ، وجاء المعتضد بعد ذلك فخصص للسجون جزءاً من مال الدولة لنفقات السجون وأقوات المسجونين ؛ ونرى السجون فى مصر ترجع إلى أزمان متقدمة منذ الفتح العربى ، وفى أخبار مصر للقرن الرابع الهجرى نرى أن سيبويه المصرى يمضى به إلى « الصناعة » ويحبس فى « بيت الزفت » ثم ينقل من بيت الزفت إلى سرير نصب له على شاطئ النيل . ولعل بيت الزفت هذا كان مكان السجن فى مصر الإخشيدية . وفى خطط المقريزى أن السجن الذي هو حشد جماعة من المذنبين فى مكان واحد لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك أنه يجمع الجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم ، غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم ما لا يحل أن يري من بعض.

ولكن هذه السجون الجماعية قد انتشرت فى كل بلد عربى ، واشتهرت بجماعة من الحراس والسجان القساة القلوب الغلاظ الأكباد . ويظهر أن تكليف المسجونين بالأعمال والصناعات

كان شيئاً قديماً ؛ وتختلف هذه الأعمال سهولة وصعوبة باختلاف الحالات والأزمان . فما ينسب إلى الشاعر ابن المعتز قوله :

تعلمت فى السجن نسج التكك وكنت امرأ قبل حبسى ملك

ولكن تلك أهون الحرف فى ظلام السجن ووحدته ، بالقياس إلى ما ذكره « المقريزى » من أن المسجونين كانوا يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ؛ والأعوان — أى الحراس — تستحثهم ، فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئاً . . . ولكن يظهر أن الحرمان من الطعام لم يكن فى أغلب الأحوال ، فإن الأصل أن تجرى عليهم الأرزاق حتى لا يهلكوا جوعاً .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن أول دار اتخذت فى الإسلام سجناً هى دار صفوان بن أمية ، التى ابتاعها الخليفة المجتهد فى الدين — عمر بن الخطاب — من صفوان بن أمية بمكة بأربعة آلاف درهم ، وجعلها سجناً يحبس فيه . وقد تكلم فقهاء المسلمين فى هذه السجون العامة ، التى لم يثبت لها وجود فى عهد النبى عليه السلام وصاحبه أبى بكر ؛ ولكن يشاء الله أن تفتح هذه السجون أبوابها للعلماء والفقهاء الصريحين فى قولة الحق ، والذين لا تأخذهم فى الله ولا فى العقيدة لومة لائم . .

فنرى فى القرن الثالث الهجرى الإمام أحمد بن حنبل يؤخذ فى

فتنة خلق القرآن فيضرب ويسجن ، ثم نرى أحد أتباعه وأنصاره الأجلاء يوضع فى السجن ويثقل بالحديد ، كما ننقله هنا عن المؤرخ ابن كثير .

* * *

وإذا كانت الحكمة تقول : « افتح مدرسة تغلق سجناً » فما أحرانا أن ننتقل انتقالة سريعة من ذلك العالم المملوء بالغيابات والسدود والقيود إلى عالم المدرسة العربية ، لنطوف طوفة عجلة بأمكنتها ونظم التعليم فيها ، وما اشترطوه فى المعلمين حتى يكونوا أهلا للقيام بمهنتهم . وما بنا حاجة إلى أن نطيل الوقوف عند نشوء المكاتب والمدارس فى الإسلام ، فذلك قد يسوقنا إلى مبحث طويل فى تاريخ التربية والتعليم عند العرب ، ولكن إنشاء دور خاصة للتعليم ، وتخصيصها للطلبة ، ووقف الأموال عليها ، لم يعلم إلا فى عهد السلجوقيين ، حين بنى نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى المدرسة النظامية ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ؛ وإذا عددنا نيسابور بقعة من المملكة الإسلامية — ولو لم تكن عربية الصبغة — فإنها عرفت نظام المدارس المبنية فى الإسلام قبل عهد المدرسة النظامية .

أما التعليم ذاته قبل إنشاء المدارس فقد كان يقوم فى المساجد وكان العلماء والفقهاء يجمعون التلاميذ حولهم على شكل حلقة ،

وكان من الطبيعي أن يتسع المسجد لأكثر من حلقة واحدة . ولما كانت المساجد هي المدارس الأولى في العالم العربي ؛ وكان التلاميذ يحفظون فيها القرآن ويعلمون الخط فقد منع الفقهاء الصبيان من دخول المساجد وتعليمهم الخط فيها ، لأن النبي عليه السلام أمر بتنزيه المساجد منهم ومن المجانين ، خشية أن يسودوا حيطانها ، وينجسوا أرضها لعدم تحرزهم . ورأى الفقهاء أن تتخذ حوانيت للتعليم في الدروب وأطراف الأسواق. ولقد كان مؤدبو الصبيان لا يتحرجون من استخدامهم في قضاء حاجاتهم وأشغالهم ، وتسخيرهم حتى في أخس الأعمال التي لا تتفق مع تنشئة بيوتهم ، كنقل الزبل ، وحمل الحجارة ، ولهذا جعل « الشيزري » الحسبة على المؤدبين والمعلمين حتى لا يسيئوا استعمال مهنتهم . .

ويصف لنا الرحالة ابن جبير حلقات الدروس في الحرم المكي ، وقد رفعت فيه مصاطب يجلس عليها النساخون والمقرئون والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ؛ أما دمشق في عهد هذا الرحالة فقد كان فيها — على ما يذكر في رحلته — نحو عشرين مدرسة ، كما كان في بغداد في ذلك العصر ثلاثون من هذه المدارس . وكان نظام « الجراية » في المعاهد قائماً في دمشق ؛ وكان أصحاب الجدة والغنى من الآباء ينزهون

أبناءهم عن أخذ هذه الجراية ، أما الباقون فيأخذونها ، وقد عد « ابن جبير » ذلك من المفاخر الإسلامية .

وقد كثرت المدارس فى مصر على عهد الأيوبيين ، وجاء المماليك بعدهم فزادوا عددها حتى قارب المائة قبيل الفتح العثمانى .

ولا يزال « للكتّاب » أو « المكتب » كثير من الارتسامات اللطاف فى ذاكرة كثير منا ممن تعلموا فيها أو أدركوا أيامها ، أما البراعم المتفتحة من أبنائنا فقد أراحهم الله من كثير من ألوان العذاب التى كانت تموج بها هذه الكتاتيب . . .

* * *

وإذا انتقلنا من الصحة العقلية إلى الصحة الجسمية فى المجتمع العربى رأينا عند العرب نزوعاً منذ جاهليتهم إلى التداوى والتطبيب حتى ولو كان ذلك على يد العرافين . . . ولقد كان للدولة الأموية فضل إنشاء أول « مارستان » أو دار للشفاء والتمريض فى الإسلام ، وكانت دمشق أول مدينة عربية ظفرت بهذا الحظ الكبير . وفى الحق أن مارستان الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق كان معزلا للمجذومين أكثر منه داراً للعلاج ؛ وعلى كل حال فقد كانت هذه هى الخطوة الأولى التى سار عليها العباسيون ؛ فقد رأينا بغداد فى القرن الثانى من الهجرة يقوم فيها

« مارستان » فينجح ويتولاه كبار الأطباء من النصارى أولا ؛ ثم رأينا مصر فى العصر الطولونى يقوم فيها أكبر مارستان على يد « أحمد بن طولون » ، ثم يدار بحكمة وتنظم المعالجة فيه ، ويعين له أمين للقيام على ثياب المرضى وحاجاتهم حتى يبرءوا فترد إليهم أماناتهم .

ويصف لنا ابن جبير مارستان القاهرة فى العصر الأيوبى ، فنرى من الوصف أن فن المستشفيات والتمريض كان على حال متقدمة فى تلك الأزمان ، فهو يحتل قصراً من القصور الرائقة حسناً واتساعاً ، وقد بناه السلطان احتساباً ، وعين له قيما من أهل المعرفة بالطب ، ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، وكانت أسرة المرضى الموضوعة فى مقاصر القصر مضاجع كاملة الكسى ؛ وبين يدى ذلك القيم خدمة « ممرضون » يتفقدون أحوال المرضى بكرة وعشياً ، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم .

وبلغ من التخصيص فى فن المستشفيات أنه أقيم بجوار ذلك المارستان موضع مقتطع منه خاص بالنساء المريضات ، ولهن من يكفلهن . كما اتخذ بالقرب منه موضع آخر متسع الفناء لمقاصيره شبابيك من الحديد ليكون داراً للمصابين فى عقولهم . وكان السلطان نفسه يلاحظ هذه الدور ملاحظة دقيقة ،

ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد .

ويروى لنا الرحالة الطبيب الأندلسى أبو الصلت الذى زار مصر فى العصر الفاطمى حكاية رجل كان يعالج المرضى فى المارستان الفاطمى بغير عقار ولا دواء . . . بل كان يدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة ، وخرافات مسلية ويخرج له وجوهاً مضحكة ، وكان فيه قدرة على إضحاك المريض وله فى ذلك مسالك لطيفة ، فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه ليمضى فى طريق البرء . وكان أبو الصلت نفسه — وهو طبيب — يذهب مذهب ذلك الرجل فى التطبيب ويرى علاجه لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونفعه ظاهر بين — كما يقول فى « رسالته المصرية » .

أفراح وأتراح

الأعياد والمواسم — حفلات الزواج — حفلات الختان — حفلات الشفاء — حفلات المحمل — الموالد — الجنائز . . . الخ

لم يخل المجتمع العربي من ساعات السرور وأوقات الفرح التي لا تطاق بدونها حياة ، ولا يحتمل مع عدمها عيش . والتي احتال الناس فخلقوها خلقاً ليفيدوا طباعهم المكدودة راحة ، ونفوسهم المحزونة مسرة . بل ساعدت الأديان على إيجاد هذه المناسبات الفرحة السعيدة ليخلص الناس فيها بعض الوقت إلى جو من الفرحة لا يألفونه على مدار العام كله . ومن هنا كانت أعياد المسلمين وغير المسلمين فى أقطار العربية ، وهى تلك الأعياد والمواسم التى اتخذت فى كل أرض لوناً خاصاً بها ، وطبعت بطابع يميزها من غيرها . ولقد كان المسلمون فى أنحاء كثيرة من المملكة العربية لا يكتفون بأعيادهم وحدهم ، وإنما شاركوا غيرهم من أهل النحل الأخرى فى النواحى المرحة المسلية من أعيادهم . وكثيراً ما روى لنا المؤرخون والرحالون أوصاف ما شاهدوه من تعييد المسلمين فى أعياد إخوانهم غير

المسلمين ، فينتهزون ذلك الجانب البهيج من تلك الأعياد ، ويخرجون إلى المنازه والمقاصف والأديرة ويضربون السرادقات فى الخلاء ، ويستمعون إلى عزف القيان ، ويبيحون من وسائل اللهو والترفيه فى تلك الأيام ما لا يباح فى غيرها ؛ ويروى « المقدسى » عن عيد للنصارى بالعراق أنه من الأعياد التى يتعارفها المسلمون ويحسبون بها الأزمنة والفصول ؛ وقد شهد هو ذلك العيد فى بغداد فى خلال رحلته إليها .

وكان لعيد الغطاس فى مصر فرحة خاصة فى المجتمع كله — قبطيه ومسلمه — وكان أهل مصر يجدون فيه من الفرح ما لا يكون لغيره من أيام السنة . وقد شهد المؤرخ المسعودى هذا العيد فى مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ « وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إحضاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس

أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء » .

ولقد أضفى الفاطميون بمصر على الأعياد الإسلامية كثيراً من ألوان الفخامة والأبهة والمظاهر والمراسم ، وخاصة عيدى الفطر والأضحى وأول رمضان — أو عيد الرؤية — والجمع الثلاث من رمضان ، وأول العام الهجرى . وقد ترك لنا المؤرخون كثيراً من أوصاف هذه الاحتفالات . وكان الخليفة الفاطمى يخرج لصلاة العيد فى موكب حاشد ، وتزين المساجد ويفرش المسجد الذى يصلى فيه الخليفة بالطراحات فى المحاريب ، وتعلق الأستار ، وتركز الألوية ، ويخرج الخليفة راكباً ومعه المظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويلبس الثياب البيض الموشحة فهى أجل لباسه فى ذلك اليوم ، ويخرج الأمراء والأجناد والركبان والمشاة ، وينتظم القوم صفين على طول الطريق من باب القصر إلى المصلى . . . وكانت رسوم الصلاة والدعاء والخطبة والصعود على المنبر والهبوط منه مما يحرص أبلغ الحرص على تنفيذه .

وجاء المماليك فأبقوا الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى فى مصر ولكنهم غيروا من الرسوم بقدر مايلائم أحوالهم وظروفهم وتقاليدهم ، فقد كان السلطان المملوكى يخرج للصلاة يوم

العيد بمسجده الذى أنشأه أو بغيره من المساجد ، ثم يعود إلى قصره ليصعد إليه الوافدون عليه بالتهنئة . وكان يخلع فى هذا اليوم الخلع السنية ويقدم الجوائز الثمينة إلى الأمراء وكبار الوافدين عليه . وكان موكب الوزير للصلاة فى العيد رسماً متعالماً ؛ فيركب بغلته ، وعلى رأسه الطرحة البيضاء ، وتحت عمامته طاسة مذهبة ، وحول عنقه سبحة كبيرة الحبات من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية لابسين التتريات ، وهى ثياب من الحرير الأصفر ، وبين يديه ينطلق البخور من مبخرة كبيرة تسمى مبخرة السلطان .

وكان الناس يفرحون فى هذين العيدين ، فيلبسون أحسن ثيابهم ويتطيبون اقتداء بالرسول عليه السلام ، ويتزاورون بعد الصلاة وزيارة القبور . وكان لعيد الفطر تكاليفه الكثيرة من الكعك ، والخشكنان ، والبسندود ، والسمك المجفف ، والنقل التى تجد فى هذا العيد أعز مواسمها ، وتلقى أكثر الطلب عليها .

وقد بعد الناس مع الزمن عن فكرة الأعياد الدينية ووجوب مراعاة الفقير فيها ، ومقاسمته السرور فيها ؛ فأصبحت تقليداً ومظاهر ، للتباهى والتكاثر ، حتى أضحت مطالبها وتكاليفها إرهاقاً وتكليفاً بما لا يطاق ، وأصبح كثير من الناس يعملون

لها حسابها ويحرصون على أن لا يحرموا أسرهم منها . وإذا كان بعض غير الواجدين يحتفظون بآلام الحرمان فى الأعياد ومرارته فى نفوسهم فإننا نجد شاعراً مصريًّا مشهوراً هو الإمام محمد ابن سعيد البوصيرى صاحب البردة المعروفة يشكو إلى وزير من وزراء مصر فى العصر المملوكى من حلول عيد الفطر وما عنده ولا عند أولاده قمح ولا خبز ولا فطرة ، فيقول :

يا أيها المولى الوزير الذى　　أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العـــلا　　تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا　　حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا　　عائلة فى غاية الــكثره
أحدث المولى الحديث الذى　　جرى لهم بالخيط والإبره
صاموا مع الناس ولكنهم　　كانوا لمن أبصرهم عبره
إن شربوا فالبئر زير لهم　　ما برحت ، والشربة ابلجره
لهم من الخبيز مصلوقة　　فى كل يوم تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها　　تنزهوا فى الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم　　قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهمو إن عاينوا كعكة　　فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهمو نحوها　　بشهقة تتبعها زفره . . ! !

* * *

وكان لشهر رمضان من البهجة دائماً عند المسلمين خلال العصور ما لا يجمل بنـــا إغفاله هنا ، وإن كان انقلب الاحتفال به إلى كثير من المظاهر التى غالت المجتمعات العربية المتأخرة فيها ، وخاصة فى مصر الفاطمية التى استحلت من الأمور فى شهر الصيام ما لا عهد للمسلمين الأولين به ، فكان الخليفة الفاطمى يرسل فى أول يوم من رمضان إلى كل واحد من الأمراء وأرباب الرتب والخدم طبقاً ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبقاً فيه حلواء ، وفى وسطه صرة من ذهب ، فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، وكانت المساجد تعد فى أخريات شهر شعبان إعداداً خاصاً لاستقبال شهر الصوم ، فتجدد الحصر ، وتصلح القناديل ، وتصلح عمارتها ، ويزال شعثها . فإذا ما دخل رمضان مدت الأسمطة التى وصفها صاحب « الخطط » وصفاً دقيقاً ؛ وكان الخليفة يجلس إلى وقت السحور والمقرئون تحت الروشن يتلون عشراً من القرآن ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة ، ثم يأخذ المؤذنون فى التكبير وذكر فضائل السحور ، ويقوم المتصوفة بالرقص الصوفى أو رقص الدراويش إلى أن ينقضى من الليل أكثر من نصفه ، ثم يأخذ الفراشون وعلى رأسهم أستاذهم فى تقديم جفان القطائف وجرار الجلاب والسحورات المطيبات من اللبن الرطب والمخض وأنواع العصارات

والسويق الناعم والحريش ، وكل ذلك فى صحون من الصينى على صينيات من الذهب . . .

هذا ما كان فى مصر . . . أما فى مكة المكرمة فقد شهد ابن جبير الحفاوة برمضان فى القرن السادس ، وفيه وقع الاحتفال فى المسجد الحرام للشهر المبارك ، وجددت الحصر ، وكثرت الشموع والمشاعيل ، حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء ، وقد نصبت أمام المحراب شمعتان كبيرتان موقدتان زنتهما قنطار. وحف بهما شمعات – دونهما – صغار وكبار . وكان كل قارئ يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القراء من كل ناحية .

ولقد بقيت عندنا من عادات رمضان عند الفاطميين والمماليك أمور كثيرة . . حتى هذه القناديل أو المصابيح التى كانت تضاء ولا تزال تقد طول الليل حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفجر فتطفأ القناديل . وكان مؤذن السحور – أو المسحراتى – يتولى ذلك العمل من المسجد ؛ ولكن فى عصور متأخرة رأيناه يجوس خلال الدروب والحوارى والأزقة بقنديله أو فانوسه الضئيل وبطبلته التى تذكرنا بالطبول والدبادب التى كانت تضرب فى أول رمضان إيذاناً بالصيام .

* * *

ومما يتصل بالمواسم الدينية فى المجتمع العربى تلك الموالد التى يقيمها المسلمون وغير المسلمين احتفالا بميلاد رجال ينزلون من نفوس قومهم منازل التبجيل والتكريم ، فنرى مولد النبى عليه السلام عند المسلمين ، ونرى مولد المسيح عليه السلام عند النصارى — فى البلاد الإسلامية — الذين كانوا يحتفلون بهذا العيد بإيقاد النيران لعلة ذكرها أحد علماء الشيعة فى القرن الرابع. ونرى أقباط مصر يحتفلون بعيد ميلاد المسيح فى التاسع والعشرين من شهر كيهك القبطى — كما يقول المقريزى — « وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب ، وطيافير الزلابية والبورى » وهكذا كان مولد المسيح عليه السلام فى مصر الإسلامية فرصة لاحتفال الأقباط والمسلمين به على السواء . .

أما مولد النبى محمد عليه السلام الذى احتفى به الفاطميون على طريقة لم يعهدها السلف ، فقد كان مشهداً لا يفوتنا ذكره هنا ، وكان من عادة الفواطم فيه أن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف ، وتعبى فى ثلاثمائة صينية نحاس ، وتفرق ليلة المولد النبوى على أرباب الرسوم ، ويظهر أن أصحاب المراتب كانوا دائماً

يظفرون بالحظ الأوفر من هذه الحفلات ، أما أفراد الشعب فلم يكن لهم إلا التفرج على هذه المواكب من بعيد ، وقد يمنعون من المرور حتى تتم مراسم الاحتفال . ولا تزال أصناف الحلوى التي تعمل في مولد النبي في عصرنا هذا أثراً من آثار الفاطميين في مصر .

وكان للأولياء موالد تقام لهم ويحتفل بها الشعب احتفالات يجد فيها متنفساً لنفسه . فنجد مولد « الشيخ إسماعيل الأنبابي » يقام بأرض الجزيرة تجاه بولاق في عهد السلطان الغوري ، ونجد كثرة من الخيام تضرب في الأرض الفضاء هناك حتى يبلغ عددها خمسمائة خيمة ، ونرى المؤرخ ابن إياس يصف لنا في حوادث سنة ٩١٣ هـ كيف نصبت الأسواق على هيئة دكاكين في مولد ذلك الولي ، وكيف خرج الناس في الفرجة عن الحد ، وأقاموا هناك ليالي متوالية نائمين في الخيام بعيداً عن بيوتهم في القاهرة ، وكان أصحاب اليسار يقدمون الأطعمة وينصبون الموائد في تلك الموالد التي كانت تقوم كأسواق رائجة للبيع والشراء . ولم تسلم هذه الموالد من وقوع الحوادث التي قد تكدر صفوها ، كحادث الحريق الهائل الذي وقع في مولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن ببولاق في أخريات العصر المملوكي وقبيل العصر العثماني . . . فقد كانت امرأة

تطبخ على شاطئ النيل فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب يحمل كتاناً ، وكانت الريح ليلة المولد عاصفة فامتدت إلى معصرة هناك وسرت فى نواحيها . . حتى احترقت ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل . . .

ومن أطرف المواسم فى المجتمع العربى موسم الحج والتهيؤ للمحمل ، وهو ذلك الجمل الذى يكسى كسوة خاصة ويركب تركيبات ثمينة ليحمل كسوة الكعبة الشريفة كل عام ، وقد كان له مواكب خاصة فى كل من العراق والشام والمغرب ومصر ، ولهذا يذكر « السيوطى » أن عدة المحامل السلطانية أربعة ، ولم يبق الآن إلا المحمل المصرى الذى نشهده كل عام تحت سمعنا وبصرنا فلا حاجة بنا إلى وصفه . ومهما يكن من أمر بداية خروج محمل إلى الأراضى المقدسة فى العالم الإسلامى فإن السلطان الظاهر بيبرس المملوكى المصرى هو أول من أمر بطواف المحمل والكسوة بالقاهرة وكان ذلك فى شوال سنة ٦٧٥هـ وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً فى الديار المصرية . وكانت القاهرة تأخذ زينتها للاحتفال بخروج المحمل ، وتبالغ فى الحفاوة به مبالغة عظيمة ؛ وكثيراً ما تحمل الناس ضروباً من مكابدة النفقات لتزيين محالهم وبيوتهم وتجميلها بالأطلية والأدهنة والأقمشة الملونة والحرير المطرز ، وتعليق القناديل وإضاءة

الشموع ليلا ونهاراً ؛ وتنصب الأسواق في كل مكان وتنثر الكراسى والمقاعد ، ويخرج الناس على اختلاف ألوانهم فيختلفون إلى أماكن اللهو والتسلية ويسمعون وهم متحلقون إلى أناشيد الشعراء والقصاصين ، ولقد يستخف الطرب والنشوة كثيراً من أفراد المجتمع القاهرى بمن وفد عليه من الأقاليم فيرقصون ويسمرون ويغنون ، وتموج شوارع القاهرة بالناس رائحين غادين .

وقد شهد « ابن بطوطة » الرحالة المشهور يوم المحمل بمصر فى أول عهده بالرحلة فى القرن الثامن الهجرى ، فذكر كيف يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة – دار الملك الناصر – فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل ، بمدينتى القاهرة ومصر – يعنى الفسطاط أو مصر العتيقة – والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى شهر رجب – إيذاناً بقرب الحج – فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث .

وتلك صفة العرض الرجبى للمحمل الذى ظل قائماً

بمصر زمناً طويلا ؛ أما العرض الثانى ، وهو عرض خروج المحمل فيكون عادة فى شهر شوال — أى قبل الحج بشهرين— تقديراً للرحلة الطويلة فى تلك الأزمان .

* * *

وقد كان من مناسبات الأفراح فى المجتمع العربى تلك الحفلات التى كانت تقام للزواج فيجتمع فيها الناس ويسمرون ويلهون ويقصفون . وكانت تختلف باختلاف العصور من ناحية ، وعلى قدر أصحاب العرس من ناحية أخرى . والاحتفال بعقود النكاح قديم فى المجتمع العربى ، حتى ليرجع إلى ما قبل ظهور الإسلام ؛ ولقد شهد النبى عليه السلام قبل مبعثه — وكان غلاماً — حفلتين من حفلات الزواج فى المجتمع العربى الجاهلى ، ولا بأس أن نصفهما هنا تمهيداً للوصول إلى تطور الاحتفال بالزواج فى العصور التالية . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يفعلونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله عز وجل بينى وبين ما أريده من ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشىء حتى أكرمنى الله برسالته ، فإنى قلت لغلام من قريش ليلة وكان يرعى معى فى أعلى مكة : لو أنك أبصرت غنمى حتى أدخل مكة

فأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ قال : افعل ! فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوج فلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله عز وجل على أذنى ، فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ماذا فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ثم خبرته الخبر » . ويمضى الحديث فيصف النبي فى الحفلة الثانية مثل ما وصف فى الأولى .

وتصف لنا كتب التاريخ ما كان يجرى فى حفلات زواج الخلفاء والأمراء مما يعد أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة . . . وقد تأنق العباسيون فى ذلك وبالغوا فيه ، حتى كان زفاف « بوران » بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون مما لم يعهده المسلمون من قبل ، حتى لقد نثر والد العروس فى ذلك من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام — كما يقول المؤرخ المسعودى — فقد نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب وغير ذلك . . . فكانت البندقة إذا وقعت فى يد رجل فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر حظه وإقبال سعوده . كما نثر على سائر الناس

الدنانير من الذهب والدراهم من الفضة ، ونوافج المسك ، وبيض العنبر .

وكان المغنون والمطربون والراقصات يفرحون بهذه الأفراح ويعدونها من أسعد حظوظهم لما كان يعطى فيها من « النقطة » أو « النقوط » الذي كان بالدنانير والدراهم ، كل على قدره ؛ وكان هذا النقوط يسمى « الفرض » فى العصور الأولى كما جاء فى كتاب الأغانى ، أما المتأخرون فيسمونه « النقوط » وقد استعمله الشعراء فى مفاكهاتهم ، كقول ابن الوكيل المصرى :

أتاه النسيم الرطب رقص دوحه
فنقط وجه الماء بالذهب المصرى

والتورية هنا لطيفة ظاهرة . على أن العروس نفسها كانت « تنقط » كما يدل عليه قول الشاعر :

هذى عروس الزهر نقطها الندى
بالدر ، فابتسمت ونادت « معبدا »

وكانت المغالاة فى المهور وجهاز العروس مما لم يفت المؤرخين أن يذكروه فى حوادث السنين ويضربوا به الأمثال . فصاحب « السلوك » يذكر أنه عقد للأمير أبى بكر بن الأمير أرغون النائب على « خوند » بنت السلطان على أربعة آلاف

دينار ؛ وعمل لهم « مهما » — أى حفل زواج — عظيما مدة أربعة أيام ، ورمى الأمراء الذهب فى الطشت . . . إلا أن ذلك المهر ليس شيئاً بجانب ما دفعه الأمير آنوك على زوجته بنت بكتمر الساقى سنة ٧٣٢ ﻫ بمصر ، فقد بلغ الصداق اثنى عشر ألف دينار . .

أما المغالاة فى الجهاز فيكفى فيه ما ذكره المؤرخون فى جهاز « قطر الندى » بنت خمارويه حين زفت إلى الخليفة المعتضد العباسى ، فقد حملت العروس المصرية من مصر إلى بغداد مع عبدالله بن الجصاص ، وحمل معها ما لم ير مثله ولم يسمع به كما يقول صاحب « السلوك » و « الخطط » . وكان من جملة جهازها — كما يذكر صاحب « النجوم الزاهرة » — دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . . . ومائة هاون « هون » من الذهب . . . بل قال « الذهبى المؤرخ » إنها ألف هاون . . . وألف تكة للسراويل ثمنها عشرة آلاف دينار . . . أى أن ثمن التكة الواحدة عشرة دنانير .

ولم تكن أجهزة العرائس فى مصر الطولونية وحدها هى التى تبلغ هذا المبلغ من المغالاة ، ففى مصر المملوكية وفى

سنة ٧٢٣ هـ كان جهاز ابنة السلطان التى تزوجها ابن الأمير أرغون يحتوى على كلة واحدة للسرير « باشخاناه » وستارة ، ودايربيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار . . . وآلات ذهب وفضة بما ينيف على عشرة آلاف دينار . وقد سرت عدوى الكبار إلى الصغار فأرهق عامة الناس أنفسهم بمطالب الزفاف والمهور وجهاز العروس إلى حد لا يتفق ومواردهم ، فكانوا دائماً من الديون على هم مقعد مقيم . . .

ولعل من الطريف أن ننقل هنا وصفاً لموكب زواج مملوكى زفت فيه إلى الملك العادل طومان باى زوجته سنة ٩٠٦ هـ ، أى قبيل الفتح العثمانى ببضعة عشر عاماً . . . فقد خرجت العروس — كما يقول ابن إياس المؤرخ — من بيتها بقنطرة سنقر فى محفة زركشية ، وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ، وأمامها كذلك الوالى ونقيب الجيش والزمام عبد اللطيف ، وأعيان الأكابر والمباشرين والطواشية . . . وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء والعظماء ؛ فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لهـا الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير ، حتى جلست بقاعة العواميد ، والموسيقى تصدح فى خلال ذلك . . .

واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام ، ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق ومنديل من الزركش .

* * *

ولم يكن الزواج وحده مبعث أفراح فى المجتمع الإسلامى العربى وفرصة احتفال ، فقد رأينا على ممر العصور العربية ألواناً من الخلق — أغنياء وفقراء — يحتفلون بختان أولادهم أو «طهارتهم» أو «تطهيرهم» . وكان يقام لذلك من مراسم الأفراح ما يختلف تبعاً لطبقة الناس . وإذا كان العصر العباسى قد شهد ختان عشرات من أولاد الخلفاء والأمراء ، وشهد ما نثر فيها وما فرق من الذهب والفضة والكسوة ، وشهد الموائد والأطعمة الشهية وحلقات اللهو ، فإن المجتمع المصرى قد بالغ فى مراسم هذه الاحتفالات وخاصة فى العصور المملوكية والتركية . . . ففى سنة ٨٨٦ هـ كان ختان أولاد ابن مزهر ، وكان منزله ببركة الرطلى ، فأمّ منزله فى ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات ، وأوقد الناس منازلهم وحلوها بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهاراً لشدة الضوء ، وكانت الزينات المنتشرة هنا وهناك تجذب إليها الناس زمراً زمراً فيفدون للتفرج عليها والأئتناس والمشاركة فى الفرح واللهو ، وكانت المراكب المملوءة

بألوان من الخلق تروح وتغدو على سطح مياه بركة الرطلى ، وهم يسمرون ويلهون ؛ وانبعث المغنون والمغنيات فى أرجاء المكان الفسيح حول البركة يطربوّن الحضور بأعذب الأنغام ، وعلى رأسهم إمام الغناء فى القاهرة فى عصره : « ابن رباح » . وراجت الحلوى فى القاهرة بسبب التّهادى والبيع حتّى ربح البائعون أرباحاً طائلة . وبعث ابن مزهر القاضى — صاحب الحفل ووالد المختونين — إلى كل بيت فى بركة الرطلى عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . . .

ولم يألف المجتمع العربى مثل هذه المباهج إلا فى ختان الذكور من الأولاد ، أما ختان الإناث فكان يجرى على صمت وسكون دائماً ، لولا ما حدث فى مدينة « حمص » الشامية سنة ٥٠٣ هـ ، فقد طهر القاضى السديد أبو الحسن بن هندى ابنة له ، فصنع لها موكباً . . . وعبرت الفتاة فى سوق حمص راكبة على فرس ، ومستقرة على مخدة فوق السرج . . . ومن خلفها راكب يمسكها ، وأمامها البوقات والطبول تضرب وتدبدب ، وغير ذلك مما يكون عادة بين يدى المطهرين من الصبيان . . . وقد ذكر راوى هذه الحادثة ذلك على سبيل النكتة والعبرة مما يحصل فى بعض الأماكن وعند بعض الناس من الحماقات والسخافات . . .

* * *

ولم يكن شفاء الملوك والسلاطين وإبلالهم من أمراضهم يمر في المجتمعات العربية من غير احتفال به وتهليل له . وكان الشعب يشترك في أمثال هذه المناسبات اشتراكاً يدل على مبلغ تعلق الرعية برعاتها ، ولم يفت المؤرخين أن يدونوا أخبار هذه الاحتفالات والزينات وخاصة في العصور المتأخرة ؛ فنجد في حوادث مصر سنة ٧٣٠ هـ وفي عهد السلطان الناصر قلاون أنه خرج إلى نواحي « قليوب » للصيد ، فوقع من فوق فرسه ، وانكسرت يده ، وأغمى عليه ساعة وهو ملقى على الأرض ، واستدعى له المجبرون والمتطببون ؛ فلما عوفي بعد أكثر من شهر زينت القاهرة ومصر زينة لم يعهد الناس مثلها ، لكثرة ما تفاخروا وغالوا فيها ؛ وظلت الزينات مقامة لمدة أسبوع كامل افتن أهل البلدين فيه بأنواع الترف ، واجتمع أرباب الملاهي في عدة أماكن ومعهم آلات الغناء كاملة ، وقد ازينت القلعة ولبست أبهى أثوابها ؛ وظلت الكوسات بالبشائر تضرب ، والطبول تدق ، ولم يبق أمير إلا عمل في بيته فرحاً ، ولم يبق بيت إلا نصبت عليه معالم الزينة ، ومدت الأسمطة الجليلة ، ووزعت الأعطية على الأيتام ؛ ونزلت زوجة السلطان في عدة من الخدم والجواري لتشهد أفراح القاهرة ومصر بشفاء

زوجها . . . وكانت هذه الأيام – كما يقول صاحب السلوك – مما يندر وقوع مثله .

وفى عهد السلطان الغورى ، وبعد قرابة قرنين من الزمان من شفاء السلطان الناصر قلاون نرى القاهرة مرة أخرى تشهد مهرجانا رائعاً جليلا لشفاء الغورى من رمد بعينيه خيف عليه منه العمى . . . ففى شعبان سنة ٩١٩ هـ خرج محتسب القاهرة الأعظم ينادى فى الناس بإقامة الزينات ونصب معالم الأفراح فى بركة الرطلى حيث كانت تتخذ مجتمعاً للزينة فى ذلك الزمان . وهنا نرى القناديل والثريات معلقة على وجوه المحال وطاقات المنازل ، ونرى الأعلام الصفر والحمر وأقمشة الحرير ترفرف فى كل مكان ، ونرى المراكب والزوارق وقد ماجت بها البركة لتنقل المتفرجين من مكان إلى مكان ؛ ونسمع الموسيقى وهى تعزف ، والمغنيات وقد ترددت أصواتهن فى كل أفق ، نرى الألعاب النارية التى كانت تشعل بزيت النفط – بدلا من صواريخ زماننا هذا – ونرى الناس يتبادلون بحق آيات التهنئة والتبريك بشفاء هذا السلطان العظيم . ثم يتمادى الناس فى التعبير عن سرورهم وفرحهم ، فتظل القاهرة على هذا المنظر البهيج ثلاثة أسابيع . . .

* * *

وإذا كانت أعراس الحياة تقابلها المآتم ، كما قضت بذلك سنة الحياة ، فأولى بنا أن نجوس في خلال المجتمع العربى لنشاهده فى أحزانه ، كما شاهدناه قبل ذلك فى مظاهر سروره ، ومجامع حبوره . ولقد كانت الجنائز أول الأمر بسيطة لا تعقيد فيها ولا مظاهر ، إلا ما يكون من سير الرجال خلف الجنازة للعبرة وتذكر الموت فى جلاله ، وقد أفتى كثير من علماء المسلمين بأن الأولى أن لا يخرج النساء فى الجنائز ، والذين أباحوا خروجهن شرطوه بأن يمنعن من كشف الرءوس والوجوه خلف الميت . . . ولكننا سرعان ما وجدنا النساء في مصر الطولونية والإخشيدية يخرجن خلف الجنازة وقد شققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، وصبغن الوجوه بالسواد ؛ ولعل تلك الصبغة هى بقية مما كان يحدث فى مصر الفرعونية وخاصة فى العصور المتأخرة ؛ ونرى بعد ذلك مصر الفاطمية وقد خرج فيها النساء فى الجنازات ومعهن النوائح بالطبل والضوارب بالدف وهن يصرخن ويعولن . . . وقد نهاهن الحاكم بأمر الله عن ذلك . وليس لدينا شك فى أن نساء العراق كن أكثر استمساكاً بأدب الإسلام فى الجنائز من نساء غير العراق من الأمصار . . . ففى سنة ٢٤١ توفى الإمام أحمد بن حنبل ولم تشهد بغداد مثل جنازته ، بل لم يشهد ميت مثل غسله . . . فقد حضر غسله

نحو مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم. وخرج خلفه من الرجال والنساء ما لم يعلم عدده إلا الله حتى قدره بعض المؤرخين بما زاد على ألف ألف وخمسمائة ألف — أى مليون ونصف. ولكن النساء التزمن الحدود فلم يبد منهن ما يخالف شرعاً أو يناقض سنة.

ولقد أخذت الجنائز فى مصر المملوكية شكلا مظهريا فيه من الرسوم والتقاليد ما لا نزال إلى اليوم نعانى الكثير من آثاره ؛ فكان أهل الميت يؤجرون من ينادى على أبواب المساجد أو يؤذن فوق المآذن بأن فلاناً قد مات . . . ويودع النسوة جثة الميت عند خروجها من منزله بصيحات حارة منكرة تنخلع لها من الأسى أقسى القلوب ، ثم يخرجن خلف الجنازة حاسرات الرءوس سافرات الوجوه حافيات الأقدام ، وتذبح الذبائح عند خروج الجنازة وعند المقابر وتوزع الصدقات من خبز ونحوه خلال سير الموكب ، وهى محمولة فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون . . . ويتقدم محترفو القراءات موكب الجنازة وهم يرتلون كلمات وعبارات أو أبياتاً من « بردة » الإمام البوصيرى ، يلقونها جميعاً بصوت واحد وبنغمة واحدة معروفة . . . وتقام ليالى المآتم وتنصب السرادقات للعزاء ، حيث يقرأ القرآن إلى ساعات متأخرة من الليل ..

ويروى المؤرخ الجبرتى ما كان يحدث فى مصر أيام العثمانيين

من عمل الكعك المحشو بالسكر والعجمية ، وصنع « الشريك » وتفريقه على المدافن والترب فى أيام الجمع والمواسم صدقة على أرواح الأموات . ولا يزال ذلك كله باقياً إلى اليوم .

وأغرب ما صادفت من جنازات المجتمع الإسلامى ما ذكره ابن بطوطة المؤرخ المغربى فى القرن الثامن من أنه حضر جنازة لوالدة أحد الأمراء فى آسيا الصغرى ، فخرج ابنها الأمير على قدميه كاشفاً شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك ، وثيابهم مقلوبة . . . وأما القاضى والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رءوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود ، عوضاً عن العمائم ، ولعلهم لم يضعوا العمائم على رءوسهم لما فى لونها من البياض الذى يتنافى مع الحداد ، فاستبدلوا بها المناديل السود . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوماً ، وهى مدة العزاء عندهم . . .

وليس لبس السواد غريباً فى الأحزان ، ولا جديداً على المجتمع العربى ، فقد ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « الأوائل » للعسكرى أن العباسيين اتخذوا السواد شعاراً لهم حداداً على مقتل إبراهيم بن محمد العباسى أول القائمين بالدعوة منهم ، فلما أراد قتله مروان آخر خلفاء بنى أمية قال لشيعته : لا يهولنكم قتلى ، فإذا تمكنتم من أمركم

فاستخلفوا عليكم أبا العباس — يعنى السفاح — فلما قتله مروان ، لبس شيعته العباسيون السواد ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .

ويظهر أن اللون الأزرق كان شعار الحداد ولبس الأحزان فى العصر العباسى ، وقد اتخذ الشاعر « كشاجم » من ذلك اللون المستعمل للحزن موضوعاً لعتاب حبيبته الهاجرة بقوله :

جعلتْ تأمّلُ زرقةً فى خاتمى
وتقول فصُّك ذا لباس المأتم
فأجبتها مذ بان وصلك وانقضى
فبكيته بدم ودمع ساجم
ورغبت فى لبس الحداد . . . لأنه
لبس الحزينة والحزين الهائم
وخشيت إن أنا فى الثياب لبسته
أن يفطنوا ، فجعلته فى خاتمى

فهذا نص شعرى يبين لنا أن الثياب الزرق كانت ثياب الحداد ، وأن الشاعر المحزون لصد محبوبته جعل الزرقة فى خاتمه بدلا من ثيابه لئلا يفتضح أمره ، وينكشف سره . . .

على أن أهل الأندلس قد خالفوا أهل المشرق فى هذا ، فجعلوا البياض لون ثياب الحداد عندهم . .

بين الخوف والأمن

الأمن والخوف ، العيارون والشطار ، اللصوص والتوابون ، الطوفية والحراسة ، تعذيب المجرمين ، مواكب التشهير والعقاب

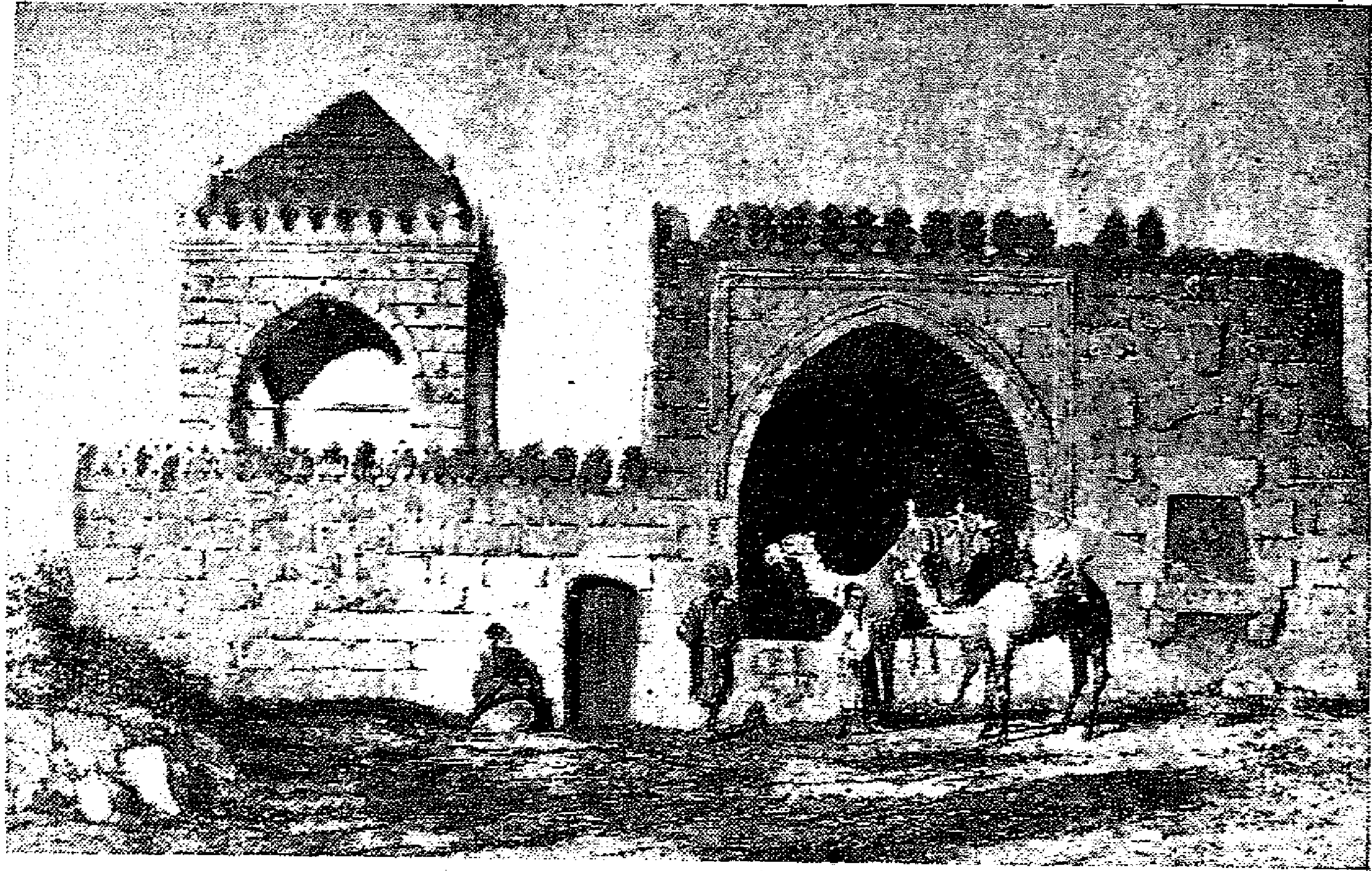
ما أحسن العيش فى ظلال الأمن حيث يطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم ، فتقر الجنوب فى المضاجع ، وتنام العيون وهى مطبقة الجفون لا تتقى الردى أو الأذى بإحدى المقلتين أو بهما معاً . . .

ولكن هل ظفر مجتمع بشرى بالأمان المطلق الذى لا يكدره مكدر ، ولا يعكر صفوه معكر ؟ وهل ظفر المجتمع العربى بمثل هذا السلام الذى ينشده الناس ليستريحوا ويريحوا ، ويعيشوا من الأمن على قرار مكين ، وأساس متين ، لا على مثل جناح الطائر حين يضرب فى الهواء . ويخفق فى الجواء ؟

لا شك أن السلطة الحازمة واليد الصارمة لا يجد القلق والاضطراب والفتنة سبيلا إليها ، فقد وضع زياد بن أبيه أوزار الفتنة فى البصرة حين حكمها حكما لا هوادة فيه ، حتى كان الرجل منهم يلقى أخاه فيقول له : انج سعد فقد هلك

سعيد ! . ونشر محمد الإخشيد ألوية الأمن فى مصر بجيش قوى كان يقف لكل ثائر بالمرصاد ، وتولى « ابن ممدود » ولاية مصر فى العصر العباسى سنة ١٦٣ هـ ، وكان أول وال تركى عليها ، فجعل الشدة والحزم شعار ولايته ، وضرب على اللصوص وقطاع الطرق بيد من حديد حتى أخافهم ، وآمن الناس شرهم ، فكانوا يتركون بيوتهم مفتوحة ، ولا يخشون عليها شر العابثين .

ولكن اللصوص والعيارين وقطاع الطرق لم يخل منهم زمان فى تاريخ العرب المسلمين ، ولم يخل منهم حتى ذلك البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . . . فهذا ابن جبير الرحالة فى القرن السادس يحدثنا عن الحرّابة المتلصصين فى مكة — تلك البلدة المكرمة — الذين كانوا يختلسون ما بأيدى الناس ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه ، بحيل عجيبة ولطافة غريبة . وقد وصفهم الرحالة بخفة اليد فى السرقة ، كما يفعل « النشالون » فى زماننا هذا ، ولكن الله كفى الحجاج شرهم فى العام الذى دخل ابن جبير فيه مكة بفضل ما أظهره أمير مكة من التشديد عليهم .



على طريق القافلة

وإذا كان بعض اللصوص يهاجمون فى زماننا بعض المصارف والخزائن الحكومية فقد حدث فى بغداد سنة ٢٣١ هـ أن جماعة من العامة هجموا على بيت المال وأخذوا شيئاً مما فيه من الذهب والفضة ، ولكن الخليفة الواثق أمر بالتشديد عليهم فأخذوا وسجنوا .

ولقد كان للشُّرط فضل كبير فى تعقب اللصوص وقطاع الطرق ، فكان طوفهم وعسهم بالليل وهم يحملون السلاح إلى صلاة الفجر مما يجعل العابثين بالأمن يحسبون لهم حسابهم ، وكان يعاونهم فى اقتفاء أثر المجرمين جماعة « التوابين » ، وهم شيوخ اللصوص الذين لحقتهم كبرة من السن فتابوا ، واتخذوا الاستدلال على اللصوص القائمين حرفة لهم ، فإذا جرت حادثة علموا من فعل مَن هى ، فدلوا عليه ؛ ولكنهم فى أحيان أخرى قد يقاسمون اللصوص ما سرقوه . . . وكان الخليفة المعتضد العباسى يستعين بهؤلاء التوابين. وقد أخفقوا مرة وأخفق الشُّرط . وأخفق الخليفة فوقهم فى أن يحملوا لصًّا على الإقرار بما سرق ؛ فما زال المعتضد بنفسه يحتال على المتهم ، وهو يجحد وينكر ، والخليفة يزيده حيلة مرة ، وشدة مرة أخرى ، حتى أقر اللص بعد أن أحضر المسروق أمامه فأسقط فى يده ولم يجد سبيلا إلى الإنكار .

وكان للصوص من الحيل ما لا يستغرب صدوره من طبائع النفوس البشرية مهما اختلف بها الزمان والمكان ؛ فقد سقط جسر فى بغداد سنة ٢٨٣ على زورق مملوء بالناس ، فغرق من النفوس نحو ألف نفس واستخرجت الجثث من نهر دجلة بالكلاليب والغواصين ، فمنها من عرف أصحابها ، ومنها من لم يتعرف عليها أحد بما شوه الغرق من معالمها . . . وارتفع الضجيج من جانبى النهر ، وكثر الصراخ من كل مكان ؛ فبينما الناس كذلك إذ أخرج بعض الغواصين صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر . . . فبصر به شيخ من النظارة ، وكان من جماعة الطرارين ، فجعل الشيخ يلطم وجهه حتى دمى أنفه ، ثم تمرغ فى التراب ، وأظهر أن هذا الغلام الغريق ولده . . . وجعل يندبه قائلا : يا سيدى : لم تمت إذ أخرجوك صحيحاً سوياً لم يأكلك السمك . . . ولم تمت يا حبيبى إلا وقد كحلت عينى بك مرة قبل الموت . . . وأخذه على حمار ثم مضى به . . . وجاء أبو الغلام الحقيقى ، وهو تاجر معروف مشهور باليسار فى بغداد باحثا عن الغلام مسترجعاً الله فيه ، راجياً أن يكفنه ويدفنه ؛ فخبره الناس الخبر ، وأبلغوه أن شيخاً حضر قبل هذا وأظهر من الندبة

للغلام والحسرة عليه ما لم يدع سبيلا إلى الشك فى أبوته له ، فبقى الأب الحقيقى ومن جاء معه من زملائه التجار مبهوتين لا يدرون ما يعملون ؛ ولكن جماعة « التوابين » فى منطقة الجسر عرفوا الشيخ المحتال من أوصافه ، فأيأسوا والد الطفل الغريق من العثور عليه ، وذكروا له أنه محتال كبير قد أعياهم أمره ، وحيرهم كيده . ثم قصوا عليه من حيل هذا المحتال ما نجد المؤرخ المسعودى يحكيه فى براعة وطرافة .

* * *

وإذا كنا نرى بعض الكبراء والأغنياء يأخذون بعض كبار اللصوص فى كنف حمايتهم ، ويؤوونهم اتقاء لشرهم ومداراة لهم ، واستعداء لهم على خصومهم فإن ذلك ليس من بدع هذا العصر ولا مستحدثاته ... فقد روى لنا صاحب « النجوم الزاهرة » كيف كان العيارون — وهم اللصوص والفتاك — فى مدينة بغداد ، وفى القرن الخامس الهجرى ، يلجأون إلى بيوت الأتراك والحواشى نهاراً ، ويخرجون إلى التلصص ليلا ، فيعملون العملات ، وقد أفسدوا وفعلوا أفعالا قبيحة ، وأضاعوا سلطان الخلافة ، حتى لم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة معهم حكم . ولولا مواطأة الأتراك لهؤلاء العيارين ما فعلوا فى عاصمة الرشيد فعلاتهم . . .

ولم يسلم بلد عربى من هؤلاء العيارين والشطار على ممر العصور ، فهذه مدينة « أنطاكية » فى سنة ٣٥٨ ﻫ يهاجمها جل من هؤلاء الشطـــار ، اسمه « الرعيلى » وينضم إليه جماعة من أتباعه فى هذه المهنة ، فيقوى أمره بهم . ونجد هؤلاء العابثين فى كتب التـــاريخ فى كل عصر بأسماء مختلفة ، ولكن الحرفة واحدة وهى النهب والسلب واللصوصية والفتك . . . ويسميهم المؤرخ « ابن بطوطة » الفتاك ؛ وكانت لهم ملابس خاصة بهم ، ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يسمى « إزرة الشطار » ؛ ويظهر أنهم كانوا يبيحون نهب أموال الأغنياء والتجار ، ولا يجدون فى ذلك مخالفة للشرع بحجة أنهم ينهبون زكاة الأموال التى لا يخرجها أصحابها . . . هذا منطق عجيب ، يلجأ إليه المغالطون ، حين يسوغون إثم ما يفعلون .

وليس عيّار مدينة أنطاكية فى القرن الرابع الهجرى إلا نموذجاً لعيارى بغداد فى القرن الخامس ، وليس « الرعيلى » فى أنطاكية ، إلا تقدمة « للبرجمى » عيار عاصمة الخلافة العباسية .

ولم تسلم مصر بدورها من هؤلاء العيارين الفتاك وقطاع الطرق ، ففى العصر العباسى الأول وفى خلافة الهادى العباسى ،

وفى ولاية الفضل بن صالح على مصر يروى اليعقوبى المؤرخ المعروف بابن واضح أن ابن الأصبغ بن عبد العزيز خرج بناحية «أهناس» من قرى صعيد مصر فى خلق عظيم ، فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، ولكن الفضل وجه إليه من يحاربه حتى أتى به إليه أسيراً ، فضرب الفضل عنقه ، وصلبه — ليكون عبرة لغيره — وبعث برأسه إلى الخليفة الهادى ببغداد .

وفى عهد السلطان الناصر قلاون ، وفى سنة ٦٩٨ ﻫ كثر فساد العربان ، وتعدى شرهم فى قطع الطريق ، إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض ، واستخفوا بالولاة ، وتسموا بأسماء الأمراء ، ولبسوا الأسلحة ، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ، فأمر السلطان بخروج تجريدة لقتالهم ، وسدت عليهم المنافذ والمسالك ، ومنع الناس من السفر إلى الصعيد حتى يفرغ المقاتلون من قتال العابثين وأخذ الطريق عليهم .

أما البلاد الحجازية فقد شاهدها ابن جبير فى القرن السادس وأول السابع الهجرى ، ولم يزعجه فيها مثل قطاع الطرق الذين يصفهم بفك عُرا الإسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم ، وقد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سبباً

إلى استلاب الأموال ونهبها . وقد ناشد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأعوانه على الحق أن ينقذ المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه من هؤلاء « الحرامية » الظالمين .

ولقد كان المجرمون يساقون إلى التعذيب والعقوبات الشديدة في مواكب للتشهير بهم ، حتى يكونوا موضع اعتبار لغيرهم ، ولم يكن نصيب اللصوص والفتاك وحدهم هذا التشهير ، بل نرى في سلطنة مصر المملوكية وفي عهد الناصر بالذات أن أميراً من أمراء حلب عرف عنه أنه انتمى إلى التتار حين غارتهم على البلاد الشامية وصار يدلهم على الطرقات ، فقبض عليه ، وسمر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها .

ونرى في بغداد قبل ذلك بكثير وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي سنة ٢٢٣ هـ أن بابك الخرمي الثائر الكبير يقبض عليه ، فيركب على فيل ليشهر أمره وليعرفه الناس الذين اصطفوا على طول الطرق سماطين ، وكان عليه قباء من الديباج وقلنسوة مدورة من السمور ؛ وقد هيئوا له الفيل وخضبوا أطرافه . . . وألبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، واشترك الشعراء في تسجيل هذا الموكب التشهيري الطريف فقال بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته   يحمـــل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب أعضاؤه إلا لذى شأن من الشان . . .

ولم ينج من مواكب التشهير بعض المنكودين من الوزراء ، ممن ساقهم سوء طالعهم إلى مثل هذا المصير الأليم . . . ففى القرن الخامس الهجرى وفى عهد الخليفة القائم العباسى ظفر البساسيرى بالوزير رئيس الرؤساء على بن المسلمة ، فأخرجه مقيدا ، وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر ، وفى رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ ، وأركب حماراً . . . وطيف به فى الحال ، ووراءه من يضربه بجلد وينادى عليه ؛ والرئيس صابر يقرأ قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ولم يكن ذلك العذاب آخر ما لقيه هذا الوزير الذى كان قبل الوزارة صاحب معرفة بالفقه ورواية الحديث . . .فإنه لما اجتاز بالكرخ على هذه الصورة المؤلمة رماه أهلها بالمداسات ، وبصقوا فى وجهه ، ثم نصبت له خشبة فى باب خراسان ، فأنزل عن الحمار ، وخيط عليه جلد ثور قد سلخ فى الحال ، ووضعت قرون الثور على رأسه . . . وعلق بكلاّب فى حلقه ، واستبقى فى الخشبة حياً إلى أن مات من يومه .

وسبحان الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء . . .

(انتهى)

مطبوعات حديثة

اقرأ

الدكتور أحمد أمين بك

المهدي والمهدوية

دار المعارف بمصر

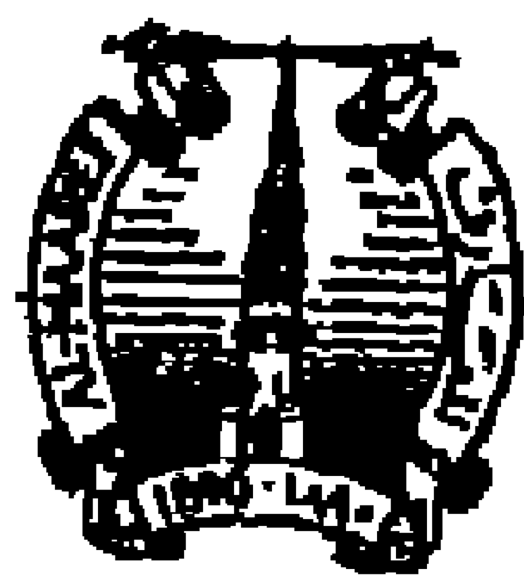
المهدي والمهدوية

الدكتور أحمد أمين بك

المَهْدِي والمَهْدَوِيَّة

اقرأ ١٠٣
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٣ — أغسطس سنة ١٩٥١



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فكرة المهدى والمهدوية لعبت دوراً كبيراً فى الإسلام من القرن الأول إلى اليوم . وسبب نجاحها يرجع إلى شيئين : الأول أن نفسية الناس تكره الظلم وتحب العدل ، سنتهم فى جميع الأزمنة والأمكنة ، فإذا لم يتحقق العدل فى زمنهم لأى سبب من الأسباب اشرأبت نفوسهم لحاكم عادل تتحقق فيه العدالة بجميع أشكالها ، فمن الناس من لجأ إلى الخيال يعيش فيه وألف فى ذلك اليوتوبيا أو المدن الفاضلة على حد تعبير الفارابى ، وخلق من خياله دنيا ونظاماً عادلا كل العدالة ، خالياً من الظلم كل الخلو ، وعاش فيه بخياله ينعم بالعدل الخيالى ، فقد روى لنا فى الشرق والغرب يوتوبيات كثيرة على نمط جمهورية أفلاطون ، ومنهم من نزع إلى الثورة يريد رفع هذه المظالم وتحقيق العدالة الاجتماعية فى الدنيا الواقعة ، فلما

عجزوا عن تحقيقها أمّلوها ، وإذا جاءت هذه الفكرة عن طريق الدين كان الناس لها أكثر حماسة وغيرة وأملا ، فوجدوا فى فكرة المهدى ما يحقق أملهم . ولذلك كثرت هذه الفكرة فى الأديان المختلفة من يهودية ونصرانية وإسلام ، فاعتقد اليهود رجوع إيليا واعتقد المسيحيون والمسلمون رجوع عيسى قبل يوم القيامة يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً . ولعلهم رمزوا إلى العدالة بالمسيح وإلى الظلم بالمسيح الدجال وسلطوا المسيح على المسيخ فقتله إيماء بأن العدل يسود والظلم يموت وفقاً للأمل .

والثانى أن الدنيا فى الشرق والغرب مملوءة ظلماً وذلك فى كل العصور ، وقد حاول الناس كثيراً أن يزيلوا الظلم عنهم ويعيشوا عيشة سعيدة فى جو ملىء بالعدل فلم يفلحوا ، فلما لم يفلحوا أملوا فكان من أملهم إمام عادل ، إن لم يأت اليوم فسيأتى غداً، وسيملأ الأرض عدلا ، وستتحقق على يديه جميع الآمال .

وكانت فكرة المهدية تحقق هذين الغرضين ، وقد سادت الشرق أكثر مما سادت الغرب لأن الشرقيين أكثر أملا ، وأكثر نظراً للماضى والمستقبل ، والغربيين أكثر عملا وأكثر نظراً إلى الواقع ، فهم واقعيون أكثر من الشرقيين ، ولأن الشرقيين

أميل إلى الدين ، وأكثر اعتقاداً بأن العدل لا يأتى إلا مع التدين . وفكرة المهدية فكرة دينية تتمشى مع هذه الأغراض .

أردت أن أشرح هذه الفكرة وأتتبع تاريخها من أول عهدنا بها فكان هذا الكتيب . والله نسأل أن يوفقنا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

القاهرة — يونيه سنة ١٩٥١ أحمد أمين

أول ظهور فكرة المهدية وتطورها

كلمة المهدى فى الأصل كلمة بسيطة ، وهى اسم مفعول من هدى يهدى فكل من هداه الله فهو مهدى . وقد استعملت فى هذا المعنى أيام النبى صلى الله عليه وسلم . فجاء بهذا المعنى الحديث : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . » وليس فى هذا المعنى إلا المعنى اللغوى للكلمة . وعلى هذا جاءت الكلمة فى شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول إذ يقول فى رثائه صلى الله عليه وسلم :

ما بال عينك لا تنـــام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدى أصبح ثاوياً ... ياخير من وطئ الحصى لاتبعد
بأبى وأمى من شهــــدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى

* * *

وقد مدح الفرزدق سليمان بن عبد الملك فقال :

سليمان المبارك قـــد علمـــتم ... هو المهدى قد وضح السبيل

وقال فى هشـــام بن عبد الملك :

فقلت له الخليفة غــير شك هو المهدى والحــكم الرشيد

وكذلك فى شعر جرير . ثم بدأت الكلمة تتحول شيئاً فشيئاً ، فخصوا اسم المهدى بعلى وحده ، وجاء فى كتاب « أسد الغابة » أنهم أطلقوا على علىّ « هادياً مهديًّا ». ثم أطلقوا الكلمة على الحسين بعد مقتله ، فقالوا المهدى ابن المهدى .

ولما قتل الحسين ومات الحسن رأت طائفة أنه من الطبيعى أن يرث عليًّا معنويًّا ابنه محمد بن الحنفية ، كما رأى غيرهم أن الوارث لعلى هما الحسن والحسين فقط ، لأنهما وحدهما أبناء علىّ من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم . أما ابن الحنفية فابن على لكن لا من فاطمة ، بل من امرأة من بنى حنيفة صليبة أو ولاء على اختلاف العلماء فى ذلك .

وكان محمد بن الحنفية هذا وهو ابن على كما ذكرنا عالماً كثير العلم روحانيًّا ، ورث الروحانية من أبيه . قوى الجسم . كان يبعث به أبوه إلى القتال نيابة عنه أكثر مما يبعث بالحسن والحسين ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الحسن والحسين عينا على وأنا يداه ، فهو إنما يتقى عينيه بيديه ، أو يحكون أن

ملك الروم فى عهد معاوية كتب إليه أن يختار أقوى من عنده ليصارع أقوى من عندهم ، وقال ملك الروم : « إن هذا جار بين ملوك الروم وملوك العرب من عهد بعيد » وكانت المسابقة تدور حول أطول رجل عربى وأطول رجل رومى ، ثم أقوى رجل عربى مع أقوى رجل رومى ، فاستشار معاوية عمرو ابن العاص فأشار عليه فى الطول بقيس بن سعد بن عبادة ، وفى القوة بأحد رجلين : إما عبد الله بن الزبير وإما محمد ابن الحنفية ، فاختار معاوية محمداً لأنه أقرب إلى نفسه وأكثر اطمئناناً له ، وذلك كالمسابقات التى تعمل اليوم فى الألعاب الأولمبية . وقد امتنع محمد بن الحنفية عن مبايعة عبد الله ابن الزبير وقال له : لا أبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس ، فأساء جواره وحصره وآذاه . فاضطر أن يهرب من مكة مع بعض أصحابه .

ونشأت فرقة تسمى الكيسانية نسبة إلى كيسان يتزعمها المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وزعم هو وفرقته أن محمد بن الحنفية هو الإمام وهو المهدى ، ولكنه نقل كلمة المهدى إلى معنى آخر لزمها إلى اليوم ، وهو أن هذا المهدى لم يمت ، وإنما

هو وأصحابه يقيمون فى جبل رضوى ، وهو فى الحجاز على سبع مراحل من المدينة ، وأنه وأصحابه أحياء يرزقون ، وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء ، لأنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا .

ومن هنا لبست الكلمة معانى أخرى ، فمن جهة التصقت بالشيعة وهم الذين استخدموها على هذا المعنى فى الأيام المقبلة ، ومن جهة أخرى أضيفت إلى كلمة المهدى كلمة المنتظر فلزمتها وأصبح يقال دائماً : « المهدى المنتظر » . وكان هذا سبباً فى أن الشيعة إذا أخفوا إمامهم عن عيون الأمويين والعباسيين خوفاً من قتله لم يقولوا بموته ولكنهم كانوا يقولون عليه : « مهدى منتظر ، يرجع إذا جاء ميعاد خروجه المقدر فيخرج الناس معه ويزيل المظالم ، ويحقق العدل » .

وكان كثير عزة الشاعر المشهور يعتقد هذه العقيدة . وليس هنا كبير رابطة بين شعره الجيد فى عزة وضعف عقله فى عقيدته . فقال :

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

* * *

وشاعت هذه العقيدة بين الشيعة فكانوا من حين لآخر يخرجون ثائرين يطالبون الملك باسم المهدى .

ولما تحالف العلويون والعباسيون أولا على قتال الأمويين ظهر السفاح بنظرية جديدة ، وهى أن محمد بن الحنفية بايع ابنه أبا هاشم ، وأن أبا هاشم هذا بايع السفاح ، ثم من بعده المنصور فلم يثر عليهم العلويون ، لأنهم اعتقدوا أن أمرهم هذا هين ، فإذا هم تغلبوا معهم على الأمويين ، فأمر هؤلاء العباسيين يسير ، ولكن خاب فألهم ، فما إن ولى السفاح حتى نكل بالأمويين والعلويين جميعاً ، وفاز بتأسيس الدولة العباسية ، فجاء من بعده المنصور ، واستغل شيوع كلمة المهدى عند الناس واعتقادهم فيها فلقب ابنه بالمهدى على أساس هذه الفكرة ، ودعا إليه على أنه المهدى المنتظر ليحيط الخلافة بالسلطان الدنيوى والتقديس الدينى ، وجعله ولى عهده .

وكان تأسيسه للدولة العباسية على أساس دينى بتلقيبه ابنه هذا بالمهدى وتسمية أم المهدى بأم الخلفاء ، تشبهاً باسم أم المؤمنين ، وتسميته بغداد بدار السلام تشبهاً باسم الجنة ،

وتسميته أحد قصوره بقصر الخلد ، تشبهاً باسم الجنة أيضاً ، وجعل باباً قصيراً لا يدخله إلا من انحنى كأنه راكع تعظيما له ، وتكليفه بعض الفقهاء أن يضعوا الأحاديث فى مدح العباسيين ومدح النبى ، ووصفه بصفات تنطبق على ابنه المهدى – وكان المهدى نفسه ذا « هلوسة » دينية يظهر ذلك فى كثير من تصرفاته ، وخصوصاً إمعانه الشديد فى محاربة من سماهم الزنادقة ، وتقصيهم وقتلهم وظهوره بمظهر حامى الدين والمدافع عنه ، وتسميته لولديه باسم الأنبياء موسى وهرون ، وتلقيبه موسى بالهادى ، ولما يئس من تسمية هرون بالمهدى لأنه لَقَبُه هو « المهدى » لقبه بالرشيد ، وهى كلمة مساوية للمهدى بمعناها الأول وهكذا . وتضخمت كلمة المهدي فى المغرب على يد البرابرة ، فقد ضاقوا ذرعاً بظلم الحكام وتعصبوا ضد عصبية غيرهم، وإن كانوا أيضاً قد تعصبوا للإسلام، وأذاقهم بنو الأغلب من العرب سوء العذاب، ففرضوا عليهم الضرائب الكثيرة التى لا قدرة لهم عليها ، حتى ضجوا بالشكوى فلم يسمع لهم فانتهز الشيعة هذا الوضع ، ودعوا للاستقلال عن الدولة العباسية ، وأذاع الشيعيون فيهم

فكرة المهدى ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر اسمه أبو عبد الله الشيعى . يدعو للمهدى المنتظر ويبث فيهم مذهب الإسماعيلية ، ويحمسهم للحرب ، فقاتلوا قتالا شديداً ، وأخيراً تغلبوا عل عمال العباسيين وطردوهم وأخضعوا أكثر بلاد المغرب لحكمهم وضربوا السكة باسمهم ، فجعلوا على أحد وجهى النقد « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » وعلى السلاح « عدة فى سبيل الله » . ووسموا الخيل بعبارة « الملك لله » .

الفاطميون

وظهر عبيد الله الملقب بالمهدى المنتظر ، ثم نكل بالداعى وهو أبو عبد الله الشيعى كما نكل المنصور بأبى مسلم الخراسانى وكما نكل الرشيد بالبرامكة .

ثم أسس المهدى بلدة تسمى المهدية نسبة إليه وادعى هو وأبناؤه أنهم الخلفاء الصحيحون دون العباسيين ، وقال شاعرهم :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقـــدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمى ومن به أمنت مغاربها من المقدور
يا من تخير من خيار دعاته أرجاهم للعســـر والميســـور

* * *

ومن نسل المهدى هذا كان المعز لدين الله الذى فتح مصر على يد جوهر الصقلى وأسس القاهرة وسماها المعزية .

وقد أقام هؤلاء الفاطميون فى مصر حضارة عظيمة ونشروا فيها التشيع وظلوا قروناً حتى أزال ملكهم صلاح الدين الأيوبى .

وانقسم المؤرخون من العرب والمستشرقين من الفرنج إلى قسمين قسم يصحح نسبتهم إلى فاطمة وعلى رأسهم ابن خلدون مدعياً أن الشكاك إنما نفوا صحة نسبتهم تملقاً للعباسيين ، وقسم يشك فى نسبهم هذا معتمداً على ما روى من بعض الأقوال.

وكانت الدولة الفاطمية مصطبغة بالصبغة اللاهوتية ، نقرأ فى ثنايا سيرة خلفائهم ما لا نجد مثله فى ثنايا سيرة الأمويين والعباسيين ، وربما كان هناك كتابان كبيران يمثلان هذه النزعة الإلهية ، الأول ديوان ابن هانئ الأندلسى ، فإنه أولاً مملوء بالمصطلحات الإسماعيلية كالدعوة والداعى كقوله :

أنت الورى فاعمر حياة الورى ... باسم من الدعوة مشـــتق

ومثل كلمة العهد والتأويل والوصى ونحو ذلك ، وفى الديوان نرى أصول الدعوة الشيعية مثل ، ضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، سواء كان ظاهراً أم مختفياً ، وأن هذا الإمام لا بد منه لحفظ الشريعة وتدبير مصالح الأمة كقوله :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها ... فلا بد فيها من دليل مقدم

إذا كان تفريق اللغات لعلة ... فلا بد فيها من وسيط مترجم

وآية هذا أن دحا الله أرضـــه ... ولكنها لم ترس من غير معلم

* * *

لولاك لم يكن التفكر واعظاً والعقل رشداً والقياس دليلا
لولم تكن سكن البلاد تضعضعت وتزايلت أركانها تزييــلا

* * *

ومثل الدعوة إلى أن الإمام علة وجود الدنيا ، كما يقول :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعـــلة ما كانت الأشياء

* * *

هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الإله وغيبها المكنون
من أجل هذا قدر المقدور فى أم الكتاب وكون التكوين

* * *

وهذا الإمام جامع لجميع الفضائل والخيرات ، جسده مبرأ من كل عيب وروحه سالم من كل نقصان ، كما يقول :

فرغ الإلــه له بكل فضيلة أيام آيات الكتاب تفصل

* * *

وروح هدى فى نور جسم يمده شعاع من الأعلى الذى لم يجسم

* * *

وهذا الإمام أمين الله وهادى الخلق ووارث الأرض وشفيع الناس ، وفى ذلك يقول :

هذا أمين الله بين عبـــاده وبلاده إن عـــددت الأمناء
هذا الشفيع لأمة نأتى بـــه وجدوده لجدودها شفعـــاء

* * *

وهذا الإمام معصوم كالنبى لا يتصور منه أذى ولا تبدو منه زلة لأنه ملهم من الله بأعظم درجات الإلهام :

من كان سيا القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يجهل

* * *

مؤيد باختيار الله يصحبـــه وليس فيما أراه الله من خلل

* * *

وتجب معرفة الناس للإمام ، فجهله جريمة لا تغتفر ويروون حديثاً : « من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية » ونفوسهم لا تنجو إلا بمعرفته :

ليعـــرفك من أنت منجاته إذا ما اتقى الله حق التقى

* * *

فرضان من صوم وشكر خليفة هـــذا بهـــذا عندنا مقرون

* * *

لولم تكن سبب النجاة لأهلها لم يغن إيمان العبـــاد فتيـــلا

* * *

وقد غلوا فى هذا الإمام غلواً كبيراً فقال ابن هانئ مثلا :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

* * *

ويقول :

لو كان علمك بالإله مقسما فى الناس ما بعث الإله رسولا

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـقرآن والتوراة والإنجيلا

وأما الكتاب الثانى فرسائل إخوان الصفا فقد بنيت على أساس نظرية الفيض الإلهى وأن الله يفيض من نوره على من يشاء من عباده وأن فيضه على الأئمة أقوى فيض ، وهى النظرية التى قال بها أفلاطون وحورتها الأفلاطونية الحديثة ، وقالوا إن لهذا الفيض مظاهر دورية ظهرت فى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد واختتمت بالإمام — ولهم فى عدد السبعة هيام وأوهام ، وتتجلى الروح الإلهية فى درجات مختلفة ومراحل متوالية ، وتظهر للإنسانية منذ بدء خلقها متدرجة نحو الكمال ، حتى جاءت إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى يأتى المهدى برسالة تفوق من قبله حتى رسالة محمد . ويجب أن

يفسر القرآن على أن له باطناً غير الظاهر ، والظاهر إنما يصلح لقوم لم يكتمل نضجهم بعد ، إنما الخاصة هم الذين يفهمون المعنى الباطن ، حتى إن الإمام إسماعيل كان يشرب الخمر فأنكر عليه ذلك بعض أصحابه وقالوا له إن القرآن يقول بتحريم الخمر ، ففسر آية الخمر تفسيراً مجازيًّا ، وكذلك فعل فى الفرائض الأخرى كالصوم والحج ، وبذلك تحللوا من الشرائع الإسلامية ، وغلا كذلك إخوان الصفاء فى الحروف فزعموا أن للحروف أسراراً دالة على معان ، وأن هذه الحروف يمكن أن يفهم منها ميعاد ظهور المهدى ، واستندوا فيها على قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ومع أن الآية تدل على عدم معرفة أحد للغيب فقد قالوا إن الله تجلى بعلمه على من يشاء من عباده ، وقد روى عن الكندى الفيلسوف رسالة تتضمن دلالة الحروف وأسرار الأعداد ، وذكروا فى إخوان الصفاء أن ظهور المهدى المنتظر يتوقف على حركات النجوم وقراناتها ، مقلدين فى ذلك اليهود فى قولهم إن موعد ظهور المسيح يتبع القيمة العددية لكلمتى « هستير استير » . وقد شاع بين الباطنية وغيرهم ارتباط حركات الأرض وأحداث الكون بحركات

النجوم حتى إنه لا يحدث حدث فى الأرض إلا بقرانات فى نجوم السماء ، ووضعوا فى ذلك علماً سموه علم اليازرجة ، فما يحدث للإنسان من سعادة وشقاء وغنى وفقر فإنما مرجعه إلى حركات النجوم والقرانات .

وقال قوم معتدلون إنه لا يخفى أن للنجوم والكواكب تأثيرات فى الأرض وفى الإنسان من طريق غير مباشر ، فالشمس مثلا تؤثر فى المواسم من صيف وربيع وخريف وشتاء ، والقمر مثلا يؤثر فى حركات المد والجزر ، وهذه كلها تؤثر فى مزاج الإنسان؛ ولكن إذا أسندت هذه الأمور وتعقدت إلى قرانات فقد يحدث أن عمر الإنسان ينتهى من غير أن يحصل قران للنجوم على شكل خاص ، فكيف يمكن بناء الأحداث على الاستقراء الناقص؛ ولا يزال الناس إلى اليوم يتعلقون بهذا النحو من النجوم وتأثيرها لمـــا ركب فى غريزتهم من حب الاستطلاع ، وهم يسندون الغنى والفقر أو السعادة والشقاء لولادة الشخص فى طالع من طوالع النجوم مع أنا نجد أشخاصاً كثيرين ولدوا فى وقت واحد وطالع واحد وبعضهم سعيد وبعضهم شقى وبعضهم فقير وبعضهم غنى ، ولكن مهما قامت

الأدلة فالنفوس البشرية هى هى ، تميل دائماً إلى حب الاستطلاع .

ومن مظاهر هذه النزعة الدينية فى الدولة الفاطمية تنظيمهم شأن الدعوة والدعاة وإعلاء شأن داعى الدعاة ، ويقول المقريزى إن الدعوة كانت مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة ، فالدعوة الأولى مبنية على إثارة المشكلات وتأويل الآيات وتعليمهم أن الدين مكتوم وأن الأكثر له منكرون وأن لا سبيل للنجاة إلا ما خص الله به الأئمة من العلم ، فإذا علم الداعى منه الإقبال والتشوق قرر له أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتّت كلمتهم وأورثتهم الأهواء المضلة هى إعراض الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حفاظاً على الشرائع ؛ ولما نظر الناس فى الأمور بعقولهم واتبعوا ما حسن فى ناظرهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا ضلوا السبيل إلى آخر هذه الدرجات . ومما أثاروا من المشكلات سؤالهم مثلا : ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء قليل ولا يغتسل من البول الكثير ، وما معنى الصراط والكتبة الحافظين ، وما لنا لا نراهم ، وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب

بجلد لم يذنب ، وما إبليس والشياطين ، وما يأجوج ومأجوج ، وما شجرة الزقوم ، وما دابة الأرض ، وما الخُنَّس الكُنَّس ، وما معنى فواتح السور مثل ألم ، المص ، إلخ ؟ . . فإذا اطمأن الداعى إلى المدعو قال له : لا تعجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ، وإن من هداه الله من اعتقد بالأئمة واستقى من علمهم ، ثم ينقله نقلة أخرى بقوله : « إن الله رتب الأئمة واحداً بعد واحد فأولهم على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين الملقب بزين العابدين ثم محمد بن على ثم جعفر الصادق » . ثم ينقله نقلة أخرى من ترتيب الأنبياء وترتيب الأئمة ورثة الأنبياء ، ثم نقلة إلى تقرير أنه لا بد لكل إمام من جماعة ينصرونه متفرقين فى جميع الأرض عددهم اثنا عشر رجلا ، ثم يتدرج بعد ذلك فى التعليم إلى الدرجة التاسعة وهى الأخيرة بأن يأخذ على الأتباع العهد بأداء الأمانة على ألا يظهروا شيئاً وأن يمنع الأئمة مما يمنع منه نفسه ، وإن خالف شيئاً من ذلك فهو برىء من الله . ويظهر أن هذه هى التعاليم الدينية ، أما التعاليم السياسية من العمل على قلب الدولة الزمنية وإقامة الثورات ووسائلها ، فقاصرة على خاصة الخاصة من الرؤساء ، وبذلك نظموا أنفسهم تنظيما

سرياً دقيقاً أشبه ما يكون بتنظيم الجمعيات السرية الخطيرة اليوم.

على كل حال كان إخوان الصفاء جمعية سرية تعمل لهدم الدولة العباسية فى الخفاء، ولهم ميول شيعية تظهر فى ثنايا الكتاب، ولهم فى ذلك أصول ومعتقدات دينية، واشترطوا شروطاً كثيرة دقيقة للانضمام إلى العضوية، وقد رتبت بشكل موسوعة، وعدد رسائلها اثنتان وخمسون رسالة تعالج أبحاثاً فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى وعلم الأخلاق والفلسفة، وآخر رسالة فيها تعتبر خلاصة هذه الرسائل وقد كتبت بأسلوب راق مما يدل على رقى اللغة فى ذلك العصر وقد طوعوها للتعبير عن الفكر العربى، وقد تأثر بها بعض التأثر الغزالى فى كتابه الإحياء، وذكر أن المعرى كان يحضر حلقات هؤلاء العلماء لما حضر بغداد فى أيام الجمعة، وقد ذكر أبو حيان التوحيدى أسماء واضعيها منهم أبو سليمان البستى والمقدسى وأبو الحسن على الزنجانى وزيد ابن رفاعة والعوفى؛ وكان التوحيدى هو المصدر الوحيد الذى ذكر أسماءهم فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ولذلك ظن بعضهم أنه عضو سرى معهم وقد تنكر تقية. وكان لرسائل إخوان الصفاء تأثيرات مختلفة فى القوة والضعف فى علماء الشرق والغرب على

مر الزمان ، وكل فلاسفة الإسلام الذين جاءوا بعدهم قد تأثروا بها وبنوا عليها ، وربما عد بعضهم أبا حيان التوحيدى والراوندى والمعرى من أكبر أتباعهم المتأثرين بعلمهم الناشرين لنظرياتهم حكى ذلك السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية » .

والدليل على أنها تشرح تعاليم الشيعة وعلى الأخص القرمطية أقوال كثيرة مبثوثة فى ثناياها منها ما جاء فى فصول رسائل إخوان الصفاء مثل الفصل الذى عنوانه فصل فى أن كل من أجاب الأنبياء والمرسلين والأئمة الهادين والخلفاء الراشدين الذين هم قوام الأمة منهم توابيت الحكمة ومعهم تابوت السكينة الذى تحمله الملائكة الموكلون بحفظه حتى يقوم مستحقه يتوارثه الخلف عن السلف فمن عرفهم واتبع سبيلهم فقد أخلص العبادة ونجا من الأبالسة الخ . . . ويقولون فى فصل آخر : فصل فى معرفة الولاية الروحانية التى يكون بها الوصول إلى دار البقاء ، وفصل آخر فى معرفة الآباء والأمهات فى الولادة الروحانية . وفى كل هذه الفصول وأمثالها تنبث تعاليم الدعوة الشيعية وتعاليم الأئمة . ويرمزون أحياناً رمزاً فيقولون مثلا هذا فصل لم نفصح القول به ولا أطلقنا الكلام فيه والدلالة عليه بالتصريح الشافى لكن

بالتلويح والرمز ، وهو فصل عميق فى الرمز غامض فى الدلالة .

وربما كان أقوى من نزع نزعة لاهوتية من الفاطميين الحاكم بأمر الله ، فقد بدأ حياته مصلحاً متواضعاً يشرع للناس تشريعات معقولة ، فمثلا منع النساء من الخروج لما رأى من الفساد ، ونظم مالية البلاد والضرائب تنظيما دقيقاً بمساعدة من فى بلاطه من اليهود والنصارى ، واستقدم من البصرة الحسن ابن الهيثم الذى نقض فى كتابه « المناظر » نظرية إقليدس القائلة بأن الإبصار يكون بخروج شىء من البصر إلى المبصر ، وقد تعهد ابن الهيثم للحاكم أن يعدل فيضان النيل ، ولكنه لما أخرج نظريته إلى العمل تبين عدم إمكان تطبيقها فاختفى فراراً من الحاكم .

ورأى الناس يكثرون من شرب الخمر فحرم زرع العنب وحرم الموائد والموسيقى بل حرم الشطرنج ومجرد المشى على النيل لما رأى إفراط الناس فى الملذات ، وحرم على الناس من يصنع الأحذية للنساء حتى لا يخرجن ، وأحيا الأنظمة القديمة التى توجب على أهل الذمة ألا يتزيوا بزى المسلمين . ولكن بعد ذلك غلا فى لاهوتيته فزعم أن الله تجسد فيه وأنه هو الإله وأتى فى ذلك بأعاجيب ، وكان يخرج إلى الصحراء يرصد

الكواكب ويسبح فى خيالاته اللاهوتية ، ولكنه لما اختفى فى سنة ١٠٢١ م – وربما مات مقتولا – ادعى أتباعه أنه لم يمت ولا قتل وإنما يعيش مختفياً عن الناس .

وعلى كل حال فإن الدولة الفاطمية خلفت لنا كثيراً من مظاهر الحضارة العظيمة يدل عليها الأزهر الذى لا يزال يدوى علمه إلى اليوم ، وفن العمارة ، بل صنع التماثيل وإن حرمها الإسلام ، والزخارف الكثيرة . وكانت الحقبة الفاطمية التى مرت بها مصر ذات ميول شيعية . ومع دعوتهم إلى الزهد والورع فقد ذكروا أن الخليفة المستنصر الفاطمى كان فى قصره ثلاثون ألف نفس منهم اثنا عشر ألف خادم وألف فارس وحارس ، وقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أنه رأى الخليفة على بغلة وهو فتى وسيم الطلعة حليق الوجه وقد وقف بجانبه حاجب يحمل مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة ، وذكر أن الخليفة كان يملك فى العاصمة عشرين ألف بيت أكثرها مبنى باللبن فى كل بيت خمسة طوابق أو ستة وفى أسفلها حوانيت يؤجر كل حانوت منها بما بين الدينارين والعشرة ، وكان من عادته أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى موضع نزهة أنشأه ، وربما

خرج كما يخرج أغنياء الحجاج فى يوم حجهم ، وربما خرج ومعه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء فى طريق مكة ، وذكر المقريزى فى خططه كشفاً بأسماء كنوز المستنصر تستدعى العجب ؛ وهكذا يفعل الأئمة المعصومون الزاهدون المتورعون الذين خلقت الناس لأجلهم ولا يهتدى هاد إلا بهداهم !!

وكان من نفحات الفاطميين سيف الدولة الحمدانى فقد كان أيضاً شيعياً ، وقد اشتهر بنصرته للعلم والأدب وكان فى بلاطه الفارابى الفيلسوف الكبير الذى اشتهر بالرياضيات والطب ولكن تآليفه فيهما تدل على أنه وصل فيهما إلى درجة متوسطة ، وإنما كان ممتازاً فى علمى التنجيم والموسيقى وقد ألف فى الموسيقى هذه كتابين من كتبه ، ثم كتب فيها أيضاً ثلاثة كتب أخرى أهمها كتاب الموسيقى الكبير ، وقد ذكر عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة فأخرج عيداناً وقع عليها فضحك كل من كان فى المجلس ثم وقع عليها لحناً آخر فبكى كل منهم ثم غير ترتيبها ووقع عليها لحناً ثالثاً فناموا كلهم حتى البواب ، ولا يزال بعض المولوية ينشدون بعض الألحان المنسوبة إليه ، ويرى ابن خلكان أنه أكبر فلاسفة المسلمين ولم

يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع وبهديه سار وصنف .

وكان خازن كتب سيف الدولة الخالديين وشاعره المتنبى ، ويظهر أن المتنبي أيضاً كان شيعيًّا بل كان قرمطيًّا كما سيأتى ، وكان نفوذ العلويين وتعاليمهم واسعاً كبيراً ومن أثر هذا النفوذ ما كان من المناقشة والجدل بين داعى الدعاة الفاطمى وأبى العلاء المعرى مما يطول شرحه ، وقد سمى الغزالى مذهبهم « التعليمى » وذكرهم عند ما اضطر إلى معرفة الحق هل هو عند الفقهاء أو الفلاسفة أو التعليميين ، ويقصد بالتعليميين هؤلاء الشيعة ، ثم لم يعجبه شيء من ذلك وأخيراً تصوف ورد على الشيعة ، ومعنى التعليمية الذين يعتمدون اعتماداً مطلقاً على سلطة الإمام وأنه مصدر التعليم والإرشاد وهو المهدي .

على كل حال تأسست هذه الدولة اعتماداً على فكرة المهدية وكانت بلادهم أقوى مركز للتشيع ، وقد كان تشيعهم هذا أمتن رباط بينهم وبين الفرس أيدوهم بحكم تشيعهم أيضاً ، وأيدوهم لأنهم ينتسبون إلى فاطمة وإلى على. فأما عطفهم على على فلأنه فيما يقول المؤرخون زوج ابنه الحسين من ابنة يزدجرد

ملك الفرس ، فبين أولاده وبينهم نسب مشيج فنصفهم فارسي — وأما رضاهم عن أولاد فاطمة فلأنهم تعودوا من زمن الأكاسرة أن يؤمنوا بنظرية التفويض الإلهي وأن الخلفاء فيهم قبس من الله ينتقل من أب إلى ابن . وهذا عكس الفكرة العربية التي تؤمن بالشورى وحكم أهل الحل والعقد فيمن يتولى الخلافة حسب المصالح ، لأنها فكرة تتفق وديموقراطية العرب .

ولم تقف فكرة المهدى عند هذا الحد ، بل لعبت بعد ذلك أدواراً كثيرة .

فإن نحن قلنا إن كل الحضارة الفاطمية والعلم الفاطمى والقاهرة الفاطمية نتاج غير مباشر لفكرة المهدى لم نبعد . وقد كان لنجاح الفاطميين تحقيق مادى لفكرة المهدى المعنوية أطمع غيرهم فيها وكان أكثر الناس طمعاً هم الشيعة . وقد انتشرت على مر الزمان الأحاديث التي تؤيد فكرة المهدى والتي تفيد أنه يملك الدنيا بأجمعها شرقها وغربها كما ملكها سليمان عليه السلام وذو القرنين وأنه ينزل عيسى عليه السلام فى مدة المهدى ويقتدى عيسى به فى صلاة واحدة وهي صلاة الصبح فى بيت المقدس .

وقد أنشأ الشيعيون القصائد فى مدح هذا المهدى وسموه صاحب الزمان وكان ممن مدحه بهاء الدين العاملى فقال فيه قصيدة مطلعها :

سرى البرق من نجد فجدد تذكارى
عهوداً بحزوى والعــذيب وذى قــار

ويقول فيها :

هو العروة الوثقى الذى من بذيله	تمسك لا يخشى عظائم أوزار
إمام هدى لاذ الزمان بظله	وألقى إليه الدهر مقود خوار
ومقتدر لو كلف الصم نطقها	بأجذارها فاهت إليه بأجذار
علوم الورى فى جنب أبحر علمه	كنقرة كف أو كغمسة منقار
فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه	ولم يعشه عنها سواطع أنوار
رأى حكمة قدسية لا يشوبها	شوائب أنظار وأدناس أفكار ..
بإشراقها كل العوالم أشرقت	لما لاح فى الكونين من نورها السارى

* * * ... ... إلخ

وقد شرح القصيدة فى آخر كتابه الكشكول .

وقد أحاطوا الفكرة بفكرة أخرى وهى فكرة قدرة المهدى على الإخبار بالغيب والتنبؤ بالأحداث ، وهذا باب عظيم من

أبواب الشيعة فهم يزعمون أن الإمام عليًّا ترك كتاباً صغيراً فيه ما كان وما يكون — وأن الأئمة من بعده اعتمدوا عليه وسموه «الجفر » والجفر« ما بلغ من الإبل أربعة أشهر، الذكر جفر والأنثى جفرة وهو الذى حرفناه إلى الشفرة ومعناه الجلد الصغير» وكانت العادة فى أيامهم أن يكتبوا على الجلد فسموا الكتاب جفراً — وأحياناً يسمونه « جفر المسك » والمسك هو الجلد . وللشيعة فى ذلك أخبار طوال فقد ادعوا أن فيه أسماء من يلى الأمور وما ينالهم من أحداث وأحياناً يذكرون ملحمة من الملاحم فيها أخبار الدنيا وأحياناً أخبار دولة من الدول يذكرون فيه ما حدث فى الماضى وهو صحيح عادة وما سيحدث فى المستقبل وهو غيب مجهول وسيأتى بعض أمثلة على استخدامهم هذا الجفر لإيهام الناس بغلبتهم حتى ينضموا إليهم.

فلما نجح الفاطميون فى تأسيس دولتهم شجع هذا النجاح غيرهم على أن يقلدوهم كلما أرادوا ثورة وأحسوا مظلمة . وكان انتشار المهدية فى بلاد المغرب أكثر منها فى بلاد الشرق لأسباب: منها أن المهرة المكرة أشاعوا حديثاً يومئ إلى أن المهدى المنتظر مراكشى، ومنها أن المغاربة معروفون من قديم من أيام

الكاهنة بالميل إلى الغيبيات والتأثر بها .

ومن فضل الشيعة أنهم كانوا فى بعض مواقفهم وفى اعتقادهم بالأئمة المهتدين يؤيدون الدين ويردون على الذين يعتقدون بسلطان العقل وحده ، ومن الأمثلة على ذلك ما كان من المناظرات بين أبي حاتم الرازى وأبي بكر الرازى ، فأبو حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٢ كان من كبار دعاة الإسماعيلية واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمى ولعب دوراً عظيما فى الشؤون السياسية وفى أذربيجان وفى الديلم حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة ، فقد رد على أبي بكر الرازى وكان ملحداً يؤمن بسلطان العقل وحده وينكر النبوة ، فردعليه أبو حاتم الرازى فى جملةمناظرات فى نقد كلامه وإثبات الأدلة على النبوة ، فالظاهر أنه كان هناك دعوة إلحادية تنكر النبوة ومن أتباعها الرازى هذا صاحب كتاب الطب الروحانى وغيره من رسائل ، وربما كان من معتنقى هذا المذهب أيضاً ابن الراوندى وغيره ، وقامت طائفة تؤلف كثيراً فى دلائل النبوة رداً عليه فكان الشيعيون من الذين يؤيدون نظرية الدين وقد يبالغون فيها بدعواهم الأئمة وعصمتهم ، وربما كان أيضاً جهر المعرى بسلطان العقل فى كثير من شعر

اللزوميات تبعاً لأمثال محمد بن زكريا الرازى دعاه إلى ذلك مغالاة الشيعة فى دعوة الأئمة فكان أمامه مناظرات أبى حاتم الرازى مع أبى بكر الرازى ، وهذه المناظرات منشورة فى الرسائل الفلسفية التى جمعها الأستاذ كراوس ومما ذكره أبو حاتم الرازى فى أول المناظرات قوله :

« فمما جرى بينى وبين الملحد أنه ناظرنى فى أمر النبوة فقال : « من أين أوجبتم أن الله اختص قوماً بالنبوة دون قوم وفضلهم على الناس وجعلهم أذلة لهم وأحوج الناس إليهم ، ومن أين أجزتم فى حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويؤكد بينهم العداوات ويكبر المحاربات ويهلك بذلك الناس ، فرد عليه بأن الحكيم فعل ذلك رحمة بالناس ، فالناس مع اختلاف عقولهم لا يمكن أن يستغنوا عمن يرشدهم ويهديهم من الأنبياء والأئمة والعلماء إلخ . . . » فنرى من هذا أنه كان هناك حركة عنيفة بين الملحدين الذين ينكرون النبوة ، والمؤمنين الذين يعتقدون بها ؛ ومن فضل الشيعة أنهم كانوا مؤمنين يدافعون عن الإسلام فى الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم وفى الداخل بصد من أنكروا الدين وجحدوا النبوة .

الموحدون

وكان من أكبر الدول التى نجحت باسم المهدى أيضاً فى المغرب دولة الموحدين وزعيمهم محمد بن تومرت وهو شيعى أيضاً من نسل على بن أبى طالب وقد رحل إلى المشرق وتلقى علومه بالعراق ولقى هناك الغزالى والكيا الهراسى والطرطوشى وغيرهم وأخذ عنهم الحديث وأصول الفقه والدين . والحق أنه كان ورعاً ناسكاً متمسكاً بالدين شديد الغيرة عليه منكراً للخارجين على الدين فى شدة وحماسة ، لذلك كان فى كل بلدة يحل بها تؤخذ عليه هذه الشدة ويتعرض للأذى ويتحمله فى صبر . كان ذلك فى مكة وفى مصر حتى طردوه منها فخرج إلى المغرب ولم يدع هذه الشدة حتى وهو فى السفينة فألزم أهلها بإقامة الصلاة فى أوقاتها وقراءة أحزاب من القرآن ثم نزل بلدة « المهدية » حيث يقيم حزبه الشيعى ونزل فى مسجد مغلق على الطريق فكان ينظر من النافذة فإذا رأى منكراً بين المارة

نى عنه . وادعى أن عنده نسخة من كتاب « الجفر » وأن رجلا سيظهر فى بلد حروفه « ت . ى ، ن . م . ل » (تينمل) وأن أكبر أصحابه رجل اسمه ع . ب . د . ا . ل . م . و . م . ن »(عبد المؤمن) وأن أوانه قد أزف وكان من مكره أنه لقى رجلا قديراً اسمه عبد الله الونشريشى وكان عالماً فصيحاً باللغة العربية والبربرية فصحبه وأوعز إليه ابن تومرت أن يتغابى ويتجاهل حتى إذا جاء الوقت أوعز إليه بالفصاحة والعلم وادعى شيخه أن هذه إحدى معجزاته . . . فكان ذلك . . .وصحبه . . . وذهب إلى أقصى المغرب وتحدث فى تغيير الدولة مع خاصته ، فنصح الملك وزيره بأن يحتاط للأمر قبل استفحاله وأن لا يستكثر اليوم ما ينفق لأنه إن أبطأ لم تقاومه الأموال كلها ، وأنكر ابن تومرت على الملك أن الخمرة تباع جهاراً وتمشى الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى فنصحه أصحابه بالالتجاء إلى جبل فى بلدة قريبة فسألهم عن اسمها فقالوا الاسم الذى رآه فى الجفر ؛ وما زال يبث فى أهل الجبل الخروج والتسلح حتى آمنوا به واستطاع أن يجهز جيشاً عدده عشرة آلاف رجل مزودين بالسلاح وقد

كسر أصحابه أول الأمر كسرة مشينة فطيب خاطرهم وقال لهم : إن الحرب سجال ورسول الله كان ينتصر وينهزم وأن العاقبة للمتقين ثم أعادوا الكرة فانتصروا .

وكان من ألاعيبه أن استنطق رجلا من أهل الجبل فسأله : عرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟ فقال له أما أنت فإنك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ، ثم عرض أصحابه على هذا الرجل وطلب إليه أن يميز أهل الجنة من أهل النار وكان قد اتفق معه على أن يجعل أعداءه من أهل النار فيتخلص منهم . . .

على كل حال مات هذا المهدى قبل أن ينتصر وخلفه عبد المؤمن وكان أحسن حظاً من شيخه ، فتح كثيراً من بلاد المغرب والأندلس ، وكان من نتيجة ذلك دولة الموحدين المشهورين فى تاريخ الأندلس ، فكانت هذه مملكة عظمى من بركات المهدى المنتظر ، تشمل المغرب كله إلى حدود مصر والأندلس ، وكانت أيضاً دولة شيعية عظيمة تستند على فكرة المهدى . . . ولكن والحق يقال إن التشيع دائماً ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون . ولعل ذلك لفكرة أن التشيع مبنى على تأويل

الظاهر إلى معان باطنة . وعلى إدراك معان عميقة بنيت عليها الدعوة الشيعية . فالفلسفة أنسب لها . فالحضارة العظيمة والفلسفة العميقة التى أينعت فى العهد الفاطمى والشيعى ومنها رسائل إخوان الصفاء ونحوها فى المشرق كانت نتاج التشيع .

وكذلك فى عهد الموحدين أينع الفيلسوفان العظيمان ابن طفيل وابن رشد . فقد حلت الفلسفة فى الأندلس . وكانت من قبل ذلك محرمة أما ابن طفيل فكان صبيًّا فى غرناطة . ثم عين سكرتيراً لعامل غرناطة قبل الموحدين ، وهو الذى أخرج القصة البديعة المشهورة المسماة « حى بن يقظان » وخلاصتها أن حيًّا هذا ولد يتيما فى جزيرة خالية من الناس ولكنه منح عقلا فاحصاً فاتصل بالطبيعة وأخذ يفهمها شيئاً فشيئاً من غير تعليم. وقد استطاع بعقله وحده أن يفهم من الطبيعة أسرارها وأنه لا يمكن أن تكون من غير صانع فلا بد أن يكون هناك إله ذو صفات خاصة ينظمها ويدبرها ثم التقى فى إحدى الجزر برجل مؤمن تعلم على أحد الصالحين علم الأنبياء فرأى حى أن تعاليمه التى اهتدى إليها بفكرته وطبيعته تتفق وتعاليم هذا الرجل الذى تعلم عن طريق الدين . وخلاصة ذلك أن

نتيجة كل من الشرع والعقل واحدة . وأن الشرع لا ينافى العقل . ويتخلل القصة نظرات كثيرة دقيقة صائبة . وقد نقل الكتاب إلى العبرية بعد مائتى عام من ظهوره ، ثم نقل إلى أكثر اللغات الغربية ، وخلفه بعد ذلك فى منصبه كطبيب ابن رشد الفيلسوف الشهير . ولكن قوله بقدم العالم كرأى أرسطو أقام عليه الفقهاء فحماه أمير المؤمنين بادئ الأمر ولكنه اضطر أن يتخلى عنه أخيراً إرضاء للرأى العام فنفاه بعد أن امتحنه محنة مؤلمة ، وأحرق مؤلفاته ما عدا كتبه الطبية والرياضية . ولكن ابن رشد سرعان ما توفى .

على كل حال كانت دولة الفاطميين ودولة الموحدين دولتين شيعيتين تدينان بفكرة المهدى ، وتعاقبت بعد ذلك على مدى الأزمان فكرة المهدى هذا تظهر من حين إلى حين .

ومن غريب الأمر أن المنصور بن أبى عامر الحاجب لما تغلب على الأمويين وحل محلهم حكم البلاد حكماً طيباً وقاتل أعداء الإسلام قتالا شديداً . . .

ولما مات خلفه ابناه أحدهما اسمه عبد الرحمن فتلقب بالمهدى ولكن خرج عليه محمد بن هشام الأموى وتلقب بالمهدى أيضاً

فكان مهدى يحارب مهدياً ، وقد أسرف محمد بن هشام هذا فى قتل الخصوم حتى اتخذ من رؤوسهم أصصاً يغرس فيها النباتات على اختلافها ، وكان يعتق النبيذ فى قصره ، ويشربه حتى سموه نباذاً .

ولما ذهب الموحدون والمرابطون وانتصر الأسبانيون على المسلمين ولم يبق للمسلمين إلا بقعة صغيرة فى الأندلس وكان ملوك بني الأحمر يتطلعون إلى مهدى منتظر يقويهم على الأسبان ويطردهم منها لما عجزوا أنفسهم عن طردهم .

وبتوالى الأزمان كثرت الأحاديث عن المهدية والمهدى . ومن قديم رأى الناس نجاح هذه الفكرة . فالأمويون اخترعوا مهدياً اسمه السفيانى ، وقال صاحب الأغانى « إن خالد بن يزيد بن معاوية زاد فى أخبار السفيانى وكبره » وكان فيه معنى المهدى المنتظر ، وبقيت هذه العقيدة فى السفيانى إلى الدولة العباسية . والعباسيون أحيوا فكرة المهدى أيضاً ولكن جعلوها فى البيت العباسى لا العلوى .

فتلقب الخليفة المهدى بهذا اللقب لهذا الغرض . أما الشيعة فقد اعتنقوا أيضاً هذه الفكرة وقصروها على البيت العلوى .

وكانت هذه العقيدة أساساً من أسس الشيعة لا يتم التشيع إلا بها . أما عند أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً ولكن لا بهذه القوة التي عند الشيعة . ووضع كل الأحاديث في تأييد المهدى المنتظر . ومما يشهد بالفخار للبخاري ومسلم أنهما لم تتسرب إليهما هذه الأحاديث . وإن تسربت إلى غيرهما من الكتب التي لم تبلغ صحتهما . وذلك مثل ما وضع تملقاً للدولة العباسية أن المهدى يخرج هو وأصحابه من خراسان حاملين الرايات السود وهذا ينطبق على العباسيين دون غيرهم ، وفي كل زمان يظهر مهدى تظهر أحاديث جديدة تنطبق على هؤلاء الثائرين . وقد أحصى ابن حجر الأحاديث المروية في المهدى فوجدها نحو الخمسين وقال إنها لم تثبت صحتها عنده .

* * *

وكما لعبت فكرة المهدى والتشيع في الغرب لعبت كذلك مثلها أو أكثر منها في الشرق . فكل حين نرى ثورة عظيمة شبت ودامت سنين : من ذلك ثورة الزنج في العراق . نشأت من ظلم الحكام والطموح إلى العدل . وقد ظهرت هذه الثورة على يد العبيد في البصرة وأصلهم من زنوج أفريقيا . كانوا

يعملون لمتعهد بالسباخ قرب البصرة وكان هذا السباخ أكواماً عظيمة . فظهر رجل فارسى اسمه على وقد نجح فى بيان الظلم الواقع على هؤلاء العمال ، وأبان لهم أن مصيبتهم ناشئة من الولاة العباسيين ، فوعدهم بأنهم إذا ثاروا أزالوا الظلم وتحقق العدل ووعدهم بتحسين حالهم وضمان حريتهم ، وترف عيشهم . فثاروا واستولوا على البصرة وضواحيها وبنى بلدة جديدة باللبن وسماها المختارة . . . ولعله اختار هذا الاسم إيماء إلى المختار الثقفى الذى اخترع فكرة المهدى الجديدة ، وانضم البدو الذين كانوا مجاورين للزنوج إليهم ، وقد نهبوا البصرة وهجموا على المسلمين أثناء صلاة الجمعة وقتلوا ممن فى المسجد ومن أهل البصرة نحو ثلاثمائة ألف ، وانتدب الخليفة العباسى أخاه الموفق لتهدئة هذه الثورة التى دامت سنين وجعلت البلاد فى خطر .

القرامطة

ولم تكن ثورة القرامطة بأقل من هذه شأناً . وهى أيضاً فتنة شيعية مهدوية . فقد رأينا على حين غفلة أن قد شاع فى الناس أن العالم الإسلامى غارق فى الجهل والظلم وأن لا سبيل إلى الخلاص من هذه المظالم إلا بمهدى يملأ الأرض عدلا ورحمة ، فظهرت فرقة القرامطة فى العراق وعلى رأسها رجل يسمى حمدان قرمط ، ويقال إن معنى قرمط باللسان الآرامى « المعلم السرى » والعرب يقولون إنها مشتقة من القرمط بمعنى القصير . وإليه تنسب الفرقة وقد ظهرت فى العراق أول الأمر . وبنى حمدان هذا داراً تسمى دار الهجرة تمثلا بالنبى صلى الله عليه وسلم . وكان يدعو إلى الاشتراكية أعنى المساواة فى الأموال ويقيم أصحابه بعضهم لبعض موائد تسمى « البلغة » ولذلك يطلق عليهم الفرنج شيوعيى العرب ، ووضعوا كتباً فى معتقدهم الدينى لتعليم المريد . وكان للقرامطة تعاليم دينية

مؤسسة على الاتصال بالله والوحى الخفى إلى زعمائهم، وكان من أفخمهم شخصيتان كبيرتان كان لهما أثر كبير فى الإسلام .

« الأول الحسين بن منصور الحلاج » وهو فارسى الأصل وقد نشأ بواسط وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره ، وقال بوحدة الوجود ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاح الصوفية وإشاراتهم .

أرسلت تسأل عنى كيف كنت ومـــا
لاقيت بعــدك من هم ومن حـــزن
لا كنت إن كنت أدرى كيف كنت ولا
كنت إن كنت أدرى كيف لم أكن

وهو من أصل مجوسى ، وقد جرى منه كلام نحو ذلك أنكره عليه الفقهاء فقال الحلاج « ظهرى حمى ودمى حرام وما يحل لكم أن تتأولوا على » وقد حرر الفقهاء محضراً وقعوا عليه بحل قتله ورفع إلى الخليفة المقتدر بالله ، فوقع عليه ، إذا القضاة كانوا قد أفتوا بقتله ، فليسلم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط فإن مات من الضرب وإلا ضرب ألف سوط أخرى ثم يضرب عنقه . وقال لصاحب الشرطة إن قال لك : أنا أجرى الفرات ودجلة ذهباً وفضة ، فلا تقبل ذلك منه

ولا ترفع العقوبة عنه ، فنفذوا فيه ذلك ونصبوا رأسه على الجسر ببغداد ، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً ، وقد اختلف فيه الناس فمنهم من يبالغ فى تعظيمه ومنهم من يكفره ، وقد دافع عنه الإمام الغزالى فى كتابه الأنوار وقال إنه قال ما قال من فرط محبته وشدة وجده ، ذكر بعضهم أنه هو والجنابى وابن المقفع تواصوا على قلب الدولة والتعرض لإفساد المملكة واستعطاف القلوب واستمالتها إليهم . وارتاد كل واحد منهم قطراً ، فأما الجنابى وهو داع من أكبر دعاة القرامطة فذهب إلى الأحساء وأما ابن المقفع فسار إلى تخوم الأتراك وأما الحلاج فذهب إلى بغداد ، وقد نقد ابن خلكان هذا الخبر لأن ابن المقفع لا يتفق تاريخه وتاريخهما ، ورجح أن يكون الرجل الثالث هو أبو جعفر محمد بن على الشلغمانى — مع فرق الكتابة بين اللفظين — فقد أحدث مذهباً غالياً فى التشيع والتناسخ وحلول الله فى الجسد على نحو ما فعل الحلاج ، وقد ذهب إلى بغداد وادعى فيها الربوبية فقبض عليه الوزير ابن مقلة وادعى عليه أنه يقول إنه « الباب إلى الإمام المنتظر وعرض أمره على الفقهاء فأفتوا بإباحة دمه فأحرق بالنار

سنة ٣٢٢ هـ. وشلمغان قرية بنواحى واسط ؛ ويلاحظ هنا أنه استعمل كلمة الباب يقصد بذلك المدخل إلى المهدى وهو اللفظ الذى استعمله البابية فيما بعد .

وعلى الجملة فقد قتل الحلاج بحكم الفقهاء، والذى يلاحظ فى هذا العصر والذى قبله الخلاف الشديد بين الفقهاء والمتصوفة فالمتصوفة يرمون الفقهاء بأنهم ظاهريون يتبعون الأشكال ويحافظون على الشعائر التى تقام بواسطة الجوارح من غير نظر إلى روحها ولذلك يفصلون القول فى كيفية الوضوء وكيفية الصلاة وما إلى ذلك ، والفقهاء يرمون المتصوفة بأنهم توسعوا فى أمور الدين وأفرطوا فى المعانى والشطحات وما إلى ذلك وجرت على ألسنتهم عبارات تناقض الدين . وربما كان أول من وفق بين الفقهاء والصوفية القشيرى فى رسالته ثم الغزالى لأنه كان فقيهاً كبيراً ومتصوفاً كبيراً معاً، وبعد ذلك سموا الفقه شريعة والتصوف حقيقة ومدحوا من جمع بين الشريعة والحقيقة ونقدوا من تمسك بالشريعة دون الحقيقة أو بالحقيقة دون الشريعة، وعلى الجملة فقد كان الحلاج أثراً من آثار القرامطة .

والاقتصاديون يعتبرون القرمطة حركة اقتصادية كبيرة

ثارت على الظلم الذى ساد المجتمع فى العصر العباسى فجعل بعض الناس يعيشون عيشة بذخ وترف ، وبعض الناس يعيشون عيشة بؤس وفقر ، وقد حكى أن قريباً لهارون الرشيد كان دخله اليومى مائة ألف درهم فتعلق به رجل فقير وقال : هل من العدل أن تغل مائة ألف درهم فى اليوم وأنا لا أستطيع أن أحصل على نصف درهم فى اليوم ،وقد حكى لنا الخطيب البغدادى ما خلفه بعض الأغنياء من ثروة فكان مبلغاً يعجز عنه الوصف كما يحكى غيره عن آخرين كانوا علماء فضلاء لا يجدون قوت يومهم كالذى يحكى عن الخطيب التبريزى أنه كان يرحل من بلدة إلى أخرى ماشياً يحمل على ظهره خرجاً فيه كتب حتى لتتلف بعض كتبه من العرق الذى يخرج منه وكالذى نقرؤه فى كتاب الفلاكة والمفلوكين من فقر مدقع مع علم واسع وأخلاق فاضلة .

وأيا ما كانت حركة القرامطة فقد كان مبعثها هذه الفروق بين الناس ، ولكنها لم تكن اشتراكية كالتى وضعها كارل ماركس لكنها كانت دعوة إلى الإصلاح المادى عن طريق روحانى من إيمان بالإمام وإيمان بالمهدى المنتظر لأن الناس إذ ذاك

كانوا لا يخلصون للثورة ولا يؤمنون بإصلاح إلا ما كان من قبل الدين ، والذين يدعون إلى الهدوء كانوا يدعون أيضاً من طريق الدين ، فالله قسّم الأرزاق وكتب فى الأزل على الغنى أنه غنى وعلى الفقير أنه فقير ، فكما أن نتيجة هذه التعاليم تدعو إلى الهدوء والطمأنينة وحمد الله على الفقر كحمده على الغنى والقناعة بما قسم الله والرضى بالقليل مع الشكر ، فكذلك الأخرى تدعو إلى الثورة وإصلاح الحال ؛ وهذه الثورات على الدولة العباسية لنظامها الفاسد وإنتاجه الغنى الكبير والفقر الكبير تدعو كلها إلى تحقيق العدالة عن طريق المهدى المنتظر ونجدها كلها تنتقد هذه الأحوال فنجدها فى ثورة الزنج وثورة القرامطة وثورة الحشاشين وما إلى ذلك .

ومن الغريب أننا لا نجد فى التاريخ الإسلامى قيام مصلح دنيوى يرجع إلى العقل فيطالب بإصلاح الفاسد والعدالة فى توزيع الثروة ، وذلك لأن الرأى العام فى تلك العصور كان متأثراً بالدين أثراً كبيراً فهو لا يخضع لدولة إلا إذا مزجت بالدين وهذا ما لاحظه ابن خلدون فى العرب إذ قال « إنهم لا يخضعون ولا يقادون إلا لرسالة دينية أو نحوها ، وكان

كالعرب الأمم الأخرى التى خضعت لحكمهم وآمنت بتقاليدهم وسارت على منوالهم .

والشخصية الثانية : من أثر القرامطة أبو الطيب المتنبى فقد كان متأثراً بآثارهم وولد فى ظلهم وتحت سلطانهم، وكان فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً يوم ثار القرامطة وقد اصطبغ بصبغتهم وتعلم علمهم . فقد حدثونا أنه تعلم أول أمره فى مكتب من مكاتب العلويين ولا شك أنه تلقى فى هذا المكتب تعاليم الشيعة أول ما تعلم ومن هؤلاء الشيعة كانت القرامطة ، ثم خرج إلى البادية . ونظن أنه اتصل بداع من دعاة العلويين وأكمل عليه تعاليمه وهذا كله يفسر النزعة السفاحة التى عند المتنبى حتى من صغره . فهو يقول فى مطلع شعره :

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة   يعلها من كل دافى السبال

ثم هو إذا شدا وقعت فى قصائده هذه النزعة الروحية التى كان يقول بها الشيعة فمثلا يقول :

يا أيها الملك المصفى جوهراً   من ذات الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوته   فتكاد تعلم علم ما لم تعلما

ويهم فيك إذا نطقت فصاحة   من كل عضو منك أن يتكلما
أنا مبصر وأظن أنى نـــائم   من كان يحلم بالإله فاحلما
كبر العيان على حتى إنـــه   صار اليقين من العيان توهما

فهى من نوع غير المعروف عند الشعراء الآخرين .

وهذا يفسر أيضاً هلوسة المتنبى فى دعواه النبوة ، ومن أجل ذلك سمى بالمتنبى ، وطموحه طول عمره إلى أن ينال ولاية أو ملكاً وغضبه على كافور إذ لم ينله ولاية ، ونظن أنه لو نالها لقرمطها وقلبها ولاية شيعية حسب تعاليمه ، ونرى ديوانه مملوءاً بالقوة والدعوة إلى الثورة والاعتداد بالشجاعة وهذا هو السبب فى أنه فضل سيف الدولة ابن حمدان على كافور الأخشيدى لأن الأول بطل فى الحروب الداخلية مع الأعراب والخارجية مع الصليبيين ، بل كان المتنبى نفسه يخرج مع سيف الدولة محارباً وأما كافور الأخشيدى فقد عرف بالسياسة والمكر والدهاء لا بالفتك فى الحروب ، ولذلك أيضاً كان أحب شخص إليه لما جاء مصر فاتكاً الرومى لشجاعته النادرة ، حتى سموه مجنوناً ، وقد بكى عليه كثيراً ورثاه فى ديوانه فى ثلاث قصائد مما لم يفعل مع غيره ، وقد أعلى شأنه بمقدار ما حط من شأن كافور .

ويستطيع القارئ الدقيق لديوانه بعد هذه النظرة أن يرى فيه تشيعاً كثيراً وقرمطة كثيرة مثل :

يا عاذل العاشقين دع فئة   أضلها الله كيف ترشدها
ليس يحيق الملام فى همم   أقربها منك عنك أبعدها

إلى غير ذلك ، كما يفسر أيضاً نقمته على العالم العربى وحكمه بغير عربى ولعل متمناه أن يكون عربيًّا شيعيًّا يطبق تعاليم القرامطة ، وأنه يبكى الشام ويبكى مصر ويبكى سوء النظام الاجتماعى الشامل ويطمح إلى تغييره ، إلى كثير من أمثال ذلك ، فكل هذا الاضطراب والحيرة والبكاء والعويل والنقمة من المتنبي على المعاصرين من غير الشيعية أثر قرمطى واضح ، وساعده على ذلك خدمته الطويلة لسيف الدولة الشيعى أيضاً المتصل اتصالا وثيقاً بالشيعيين ومذهبهم .

الحشاشون

ومن هذه الفرق التى كانت مؤسسة على التشيع والاعتقاد بالمهدية فرقة الحشاشين ويسمون أحياناً بالإسماعيلية وأحياناً بالديلمية وزعيمهم الحسن بن الصباح المشهور ، وسموا بالحشاشين لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش ، وقد شاع استعمال المكيفات لديهم ولدى الصوفية كما استعملوا القهوة للتنبه للعبادة كما يقولون ، وكان الحشيش يخدم أغراض هؤلاء الإسماعيلية لأنه يخدر أعصابهم ويزيد أحلامهم اللذيذة فيكونون أطوع فى تنفيذ الأوامر التى تصدر لهم ، وقد حكى الرحالة ماركوبولو — الذي رحل إلى بلادهم بعد مائتى سنة تقريباً — أنهم كانوا يستعملون الحشيش فى القلعة فإذا خدروا حملوا إلى بقعة فى فناء القلعة وكانت مملوءة بالغانيات الحسان ليتمتعوا باللذائذ فيها حتى يتمثلوا فى ذلك الجنة ونعيمها ، فإذا أمروا أمراً نفذوه ، فإن استطاعوا الهرب فيها وإلا فالجنة مأواهم .

وقد كان حصنهم الحصين قلعة «ألموت» الجبلية ومعناها ملجأ العقبان لحصانتها ووعورة مسلكها ، وهى قلعة على مسافة ستين فرسخاً إلى الشمال من قزوين ، وقد يسمى أصحابها بالفدائيين لأنهم رتبوا أنفسهم على الفداء ، وكانوا يعلمون الأطفال الاستهتار بالموت ، ومن أغراضهم أن لا يبقوا على وجه الأرض أحداً من خصومهم ، قال صاحب كتاب الفرق « إن ضرر الإسماعيلية على الإسلام أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من ضرر الدهرية ومن ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان » وكان من تعاليمهم على ما يروى خصومهم عدم التمسك بالشرائع والإباحية كالذى يقول :

خذى الدف يا هذه واضربى ... وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعة ... وهذى شريعة هذا النبى
إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوّموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب ..
ولا تمنعى النفس من المعرسين ... من الأقربين أو الأجنبى
فلم ذا حللت لهذا الغريب ... وصرت محرمة للأب

أليس الغــراس لمن ربّــه   وأسقاه فى الزمن المجــدب

* * *

وعلى الجملة فقد اشترطوا فى داعيهم أن يكون عارفاً بالوجوه التى تدعى بها الأصناف ، ثم يدعى كل صنف بما يناسبه ، فمن رآه الداعى مائلا إلى العبادات حمله على الزهد والعبادة ، ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له العبادة بله وحماقة إلى مثل ذلك . وزعيمهم الحسن بن الصباح هذا يروى بعض الرواة أنه كان صديقاً لعمر الخيام ونظام الملك وقد أخذ تشيعه عن مصر حين رحل إليها واعتنق المذهب الفاطمى وخصوصاً الفرع النزارى ثم رحل إلى فارس ، وقد وضع لأتباعه خطة لاغتيال العظماء البارزين من السنيين حتى يخلو الجو للتشيع ، وقد مهد لذلك بالتشنيع على الخلفاء والحكام السنيين وكبّر مظالمهم ، وتحدث بقرب ظهور المهدى الذى يملأ الأرض عدلا ، وقد استولى بقوة جيشه على بعض الأماكن بسوريا ، وكان يعلم أيضاً تعاليم إباحية تدعو إلى رفع التكاليف عمن تقدم فى المذهب اجتذاباً لقلوب العامة ، وقد أرهب الملوك والعظماء فى البلاد لكثرة ما كانوا يغتالون ، وكان أول من اغتالوه

الرجل العظيم « نظام الملك » الوزير السلجوقى المشهور ، والواقع أنهم لم يكونوا موفقين فى قتله لأنه من أحسن الرجال عدلا وعطفاً على العلماء وتشجيعاً للعلم ، وهو الذى أنشأ المدرسة النظامية فى نيسابور والمدرسة النظامية فى بغداد ، وهى التى درس فيها الجوينى والغزالى والكيّا الهراسى وأمثالهم ، واعتنق المذهب الأشعرى وساعد على نشره ، وهذا الوزير وضع رسالة بالفارسية فى نظام الملك تحتوى على آراء كثيرة صائبة مثل تحذيره السلطان من تدخل أصدقائه غير المسئولين فى شئون الدولة ومن تدخل بعض رجال البلاط للنظر فى الدعاوى وإصدار الأحكام واستغلال سلطتهم فى ابتزاز أموال الرعية ، وأخيراً حذر نظام الملك السلطان السلجوقى من الحشاشين ونصحه بقتالهم قبل أن يستفحل أمرهم ، ولكنهم تمكنوا من قتل نظام الملك قبل أن يقتلهم فقد كان قد خرج إلى رحلة فاعترضه شاب من هؤلاء الفدائيين متزيّياً بزى الصوفى وتظاهر بأنه يريد إحساناً ومد يده إليه فمد نظام الملك إليه يده فانتهز هذا الشاب هذه الفرصة وطعنه بخنجر مات منه .

وقد كان أمير هذه القلعة يسمى داعى الدعاة ومن تحته

الدعاة ، وكان إذا انتدب أحد أتباعه لعمل فدائى قال له : « قم إلى فلان فاقتله ومتى رجعت تحملك ملائكتى إلى جنة النعيم وإذا مت دون ذلك أرسل ملائكتى إليك يذهبون بك إلى جنة الخلد» . وقد روعت هذه الحادثة نفوس العظماء وخوفتهم منه، وقد أراد هؤلاء الحشاشون مرة أن يقتلوا صلاح الدين الأيوبى لأنه كبير من كبراء السنية ،ولأنه قضى على الدولة الفاطمية فى مصر، وذلك أن قائد حلب أغرى هؤلاء الحشاشين بقتل صلاح الدين حين حصرها لأول مرة وكان هذا الزعيم يسمى رشيد الدين ويعرف بشيخ الجبل ، ولكن صلاح الدين نجا من هذا الفدائى بأعجوبة .

وظلت هذه الفئة تروع البلاد بقتل العظماء وتصل إلى ذلك بمؤامرات سرية دقيقة وتنظم شئونها فى دقة وإحكام حتى علا شأنها وكثر تخريبها ، ولكن كان لهم موقف حميد وهو محاربتهم الصليبيين وإيقاع الرعب فى نفوسهم ، وأخيراً أوقع بهم هولاكو المغولى فاستولى على قلعة ألموت فى سنة ١٢٥٦م، ثم جاء بيبرس فقضى عليهم القضاء الأخير سنة ١٢٧٢ م، ومنذ ذلك الحين تفرق شملهم فى سوريا وفارس وعمان وزنجبار

والهند وكفى الله المؤمنين شرهم . ومن الأسف أن تعاليمهم كانت سرية وقد دمرت كل آثارهم فلم يبق لنا منها ما نستنتج منه تعاليمهم الصحيحة ولكنهم على كل حال يدينون بالمهدى وبالتشيع وينظمون أنفسهم تنظيما شيعياً ويستقون من نبع التعاليم الفاطمية، وقد أطلق الفرنج هذه الكلمة كلمة حشاشين « Assasins » على المغتالين أخذاً من اسم هذه الفئة ، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد فإن هذه الثورات التى ذكرناها وأمثالها كشفت للمسيحيين عن ضعف المسلمين فشجعت على الحروب الصليبية كما كشفت حملة مصر على العثمانيين وهزيمتهم عن ضعف العثمانيين فأطمعت الأوربيين فيهم .

نعم إن المؤرخين نسبوا الحروب الصليبية لجملة أسباب منها اضطهاد الحجاج المسيحيين للقدس وسوء معاملتهم ولكنى لا أنكر أن من أهم الأسباب فى الحروب الصليبية التقارير السرية التى كان يكتبها القسس المتزيون بزى الحجاج والتى تبين ضعف المسلمين وتحث الصليبيين على انتهاز الفرص والهجوم على المسلمين ، وأخذ البلاد منهم، ولولا أن قيض الله للإسلام محمود زنكى وصلاح الدين وبيبرس وأمثالهم لضاعت

البلاد الإسلامية كلها بسبب هذا الضعف الذى سببته الثورات : ثورة الفاطميين والموحدين والزنج والقرامطة والحشاشين

ثورة البساسيرى

هذه هى الثورات الكبرى المهدوية ، وهناك ثورات صغيرة أخمدت فى مهدها كثورة البساسيرى ، وهو رجل تركى كان مقدم الأتراك ببغداد ، وكان القائم بأمر الله الخليفة العباسى قدمه على جميع الأتراك وقلده الأمور بأسرها ، وخطب له على منابر العراق وخوزستان وهادنه الملوك فراسله المستنصر بالله الفاطمى وأسر إليه أن يدعو بالمذهب الفاطمى فى العراق وإذا هو فعل ذلك وأزال الخليفة العباسى وعد بأن يكون والى الفاطميين على العراق وأن يمنح جميع السلطان فقام البساسيرى على القائم بأمر الله العباسى وخطب للمستنصر بالله الفاطمى ، وظل على هذه الحال حتى جاء طغرلبك السلجوقى وقابل البساسيرى وقتله وأعاد القائم إلى بغداد ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ . وعلى كل حال كان الشيعة يؤلفون حكومة بجانب الحكومة الرسمية من عهد على ويتقنعون بالتقية وهو مبدأ

معناه التظاهر بعكس ما فى الضمير حتى يجد صاحبه الفرصة ، فكان رجال هذه الحكومة العلوية من عهد على يؤلفون حكومة داخل الحكومة على رأسها إمام يظهر إذا دعا الحال ويختفى إذا دعا الحال ، وإذا ظهر بشر بالمهدى وادعى أنه مبعوث لملء الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلماً . وكانت سلطة الخلفاء الرسميين وقوتهم موزعة بين إدارة شئون البلاد واتقاء العلويين ، شأنهم شأن الأحزاب اليوم نصف قوتهم تقريباً موجهة إلى إدارة مرافق الحياة والنصف الآخر موجه إلى اتقاء شر المعارضين ، ولو وجهت كل قوتهم لمصلحة البلاد لتغير وجه التاريخ .

وكل حادثة من الحوادث تكون شوكة فى جنب الدولة تهد من كيانها وتهز من عرشها سواء انتصر فيها الخلفاء الرسميون أم انهزموا ، وأخيراً وبعد طول الحوادث وكثرتها تنهدم الدولة هكذا كان شأن الدولة الأموية مع العلويين وخصوصاً بعد مقتل الحسين فقد كان مقتله سبباً لاستجلاب العطف على العلويين . ولما كبر أبناء الحسين عملوا على الأخذ بثأر أبيهم ، وظلت المجازر تنتشر على يد الخلفاء الأمويين ، وظل

العلويون يعملون فى الخفاء ضد الأمويين ويدبرون المؤامرات ويدسون الدسائس حتى سقطت الدولة الأموية ، فلما جات الدولة العباسية ابتدأت موقفها بسفك دماء العلويين والأمويين معاً فكرههم العلويون واستعملوا معهم مبدأ التقية هذا وبذلك ظل الحال كما كان فى العهد الأموى ، إمام يموت وإمام يقوم مقامه ، وإمام يختفى وتبث الدعوة له ويذاع بأنه سيخرج لينتقم من الظالمين ، وكلما انطفأت ثورة قامت مقامها ثورة ، وساعد على نجاحهم أن العباسيين كانوا ظلمة لا يتحرون عدلا ولا يقيمون للشعب وزناً فكان الشعب ناراً خامدة تنتظر من يشعلها ، حتى من اتصف بالعدالة منهم فإنما عدالته نسبية ، ولم يكن أحد منهم يعطف على العلويين ، والشعراء يقفون ببابهم يمدحونهم ويذمون العلويين ، والأئمة العلوية تزعم كل حين أنهم إذا ولوا أمور الرعية ساسوها بالعدل المطلق. وفرق كبير بين الدعوى والواقع ، وقد شكا المأمون من هذا ، فقد رأى أن الأئمة يختفون عن الأعين ويرتكبون ما يرتكبون من الإثم ولا من يراهم ويعرف قيمتهم ، فقال إن من الخير للناس أن تظهر هذه الأئمة حتى يعرفوا زلاتهم ،

ولا يقدسوهم هذا التقديس ، علماً بأنهم إذا ظهروا على مسرح الحياة وبان للناس كيف يحكمون وكيف يرتكبون ما حرم الله سقطوا من أعينهم ، ولكن ما داموا مضطهدين مختفين مكتفين بالدعوة بقى العطف عليهم فى الناس ولذلك اعتزم أن يولى بعده عليا الرضا ، كالذى حكى أن ملكاً كان يطلب منه وزيره كل يوم مطالب للشعب ، والملك يمانع فيها ، فلما مات الملك وخلفه ابنه ، وكان أعقل من أبيه ذهب إليه الوزير يطلب هذه المطالب ، فقال الملك « قد أجبتك إلى كل ما تطلب فصرخ الوزير من هذه الإجابة لأنه إنما علم أنه يعيش على الوهم والخداع ، فإذا حققت مطالب الشعب كلها ذهب وهمه وخداعه وعلمت حقيقته .

هذا كله فى العصور القديمة . . .

البابية

أما فى العصور الحديثة فليست فكرة المهدى فيها أقل شأناً مما كان فى العهود القديمة فمن حين إلى آخر كانت تظهر حركات ثورية يدعى القائم بأمرها أنه المهدى المنتظر . وسنذكر أهمها من غير استقصاء .

فى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت فرقة جديدة متطرفة تدين بالتشيع وبالإسماعيلية وبفكرة المهدية وهى فرقة البابية .

وهى عل النقيض من مذهب الوهابية . فلئن كانت الوهابية لا تعترف بالزمن وأثره ، ولا بما ظهر من تقاليد الإسلام الجديدة وأوضاعه ، فإن البابية ترمى إلى مسايرة الزمان والنظر إلى الظروف الحاضرة ، ولئن كانت الوهابية أيضاً لا تؤله أحداً إلا الله ولا تقول بعصمة أحد إلا الأنبياء ، فإن البابية ترى — تأثراً بالنظريات الأفلاطونية الحديثة — أن للأئمة والدعاة فيضاً إلهيًّا وقبساً من نور الله ، ومكاناً للوحى الإلهى وأن المهدى

والأئمة من بعده لهم عصمة الأنبياء . وأن الله يتجلى عليهم تجلياً تدريجاً يرتقى إلى أن يصل إلى العقل الكلى .

وعلى هذه العقائد ظهر ، فى البيئة الفارسية ، شاب ورع اسمه « ميرزا على محمد » الشيرازى ولد سنة ١٨٢٠م وكان تقياً حرفه معاصروه بالزهد والورع والتقوى وشهد له أصحابه بالمواهب الممتازة والحماسة القوية للعبادة وأجلّوه لذلك . فأثر هذا الإجلال فى عقل الشاب واعتقد أنه مبعوث من الله لأداء رسالة دينية عالية ، وأن العناية الإلهية اصطفته لتحقيقها ، وأن رسالته هذه حتمية لأن الزمان والبيئة يحتاجان إلى مبعوث جديد ، فأعلن أنه « الباب » الذى يدخل الناس منه إلى الإمام المستور الذى هو مصدر لكل خير فى العالم . ثم تطور الأمر عنده فاعتقد أنه فوق أن يكون مدخلا للإمام المستور بل هو نفسه الذى يهدى العالم للحق ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، وأعلن أنه المهدى الجديد المنتظر ، وأن المهدى المنتظر حل فيه حلولا مادياً جسمانياً، كما كان من أمر الحلاج فى اعتقاده أن الله حل فيه إذ كان يقول: « ما فى الجبة إلا الله » وكما كان يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن جسمان حللنا بدنـــا

وكان « الباب » هذا يقول : إن قبساً من الله حل فى الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد وأنه حل فيه أيضاً ، وكان يناهض فقهاء فارس — وكل فقيه منهم مجتهد يسمى الملا — فيذمهم ويرميهم بالنفاق والملق والجشع وحب الدنيا والبعد عن الآخرة ، وكان يفسر القرآن على عقيدة باطنية تفسيراً رمزياً ويتأول نصوصه . ولم يكن يؤمن بشعائر الإسلام كلها وتفاصيلها ويرى أنها مرهقة وأنها فوق طاقة البشر فى الوقت الحاضر وأنه ليس معنى البعث الحياة بعد الموت وإنما البعث يحصل مراراً بالتجدد الدورى ، وهى هى التى تسمى فى القرآن بالحياة الأخرى .

ولم يكتف بهذا الجانب الدينى بل دعا إلى أخلاق تعتمد على العقل والذوق فطالب مثلا بالمؤاخاة لا على أن المسلم أخو المسلم فقط بل على أن الإنسان أخو الإنسان من غير تفريق بين غنى وفقير ولا بين مسلم ونصرانى ويهودى ووثنى ودعا إلى المساواة بين الرجل والمرأة لأنها شريكة له فى الإنسانية ، نعم إن الرجل بحسب تكوينه له وظائف يستطيع أن يقوم بها . ولا تستطيع أن تقوم بها المرأة والعكس ، ولكن فيما عدا ذلك فالكل سواء فى الميراث وفى رفع الحجاب ، وأنكر الطريقة العرفية المتبعة فى الزواج ،

فوضع تعاليم أخرى تتعلق بالزواج والطلاق وبناء الأسرة وطرق التربية وبذلك أضاف إلى تعاليمه الدينية تعاليم اجتماعية أخرى، وأضاف إلى ذلك أيضاً تعاليم تتعلق بالحروف وبالأعداد، وجعل للحروف جملا لها دلالتها الرمزية وكان مما قدسه العدد (١٩) واستند فى ذلك على ما جاء فى القرآن « عليها تسعة عشر » واستند على هذا العدد فى تنبؤاته وفى أفكاره ، وقال إنه فى دعوته هذه يقوم مقام الأنبياء الأئمة وأنه موضع للتجلى الروحى الإلهى؛ وقد خلف كتاباً سماه « البيان » أودع فيه كل تعاليمه وآرائه ، وكان من أسباب نجاحه فتاة جميلة فصيحة اسمها « قرة العين » كانت تؤثر فى الناس بجمالها وفصاحتها وتطبق على نفسها تعاليم « الباب » ، ولكن تعاليمه هذه مست السياسة ولو من طريق غير مباشر ، فلئن كان « الباب » معصوماً متمتعاً بالتجلى الإلهى وحده فمعناه إذاً أن « الشاه » لم يتمتع بهذه الميزات وأنه أقل منه درجة ولذلك حاربه الشاه وحارب أتباعه. وقبل أن يموت الباب اختار اثنين عدّهما خير أتباعه هما « صبح أزل » و « بهاء الله » غير أنه كما رأينا دائماً لا يتسع العالم لزعيمين على شىء واحد كما حدث للأمين والمأمون وكما حدث لخلفاء الإسكندر وكما حدث

للسنيين والشيعيين أنفسهم ، فتفرق أتباع الباب بعد موته إلى فريقين فريق يتبع « صبح أزل » وفريق يتبع « بهاء الله » وكل فريق يرى الفريق الآخر خارجاً عن المذهب ويتبادلون المطاعن ، وكان التابعون لصبح أزل أقل من التابعين لبهاء الدين ولكن الشاه على العموم طاردهم ففر أتباع صبح أزل إلى العراق ثم ذهبوا إلى جزيرة قبرص ، وأما « بهاء الله » فقد نفى إلى « أدرنة » ؛ وكان طابع « صبح أزل » طابع المحافظين يرى التمسك بتعاليم الباب ، وطابع « بهاء الله » طابع الأحرار إذ يرى أن تعاليم الباب تتطور بتطور الزمان والمكان وأن الباب ليس إلا ممهداً لبهاء الله وأن بهاء الله هو الذى حل فيه النور الإلهى والقبس الإلهي . واعتمد البهاء على نص جاء فى كلام الباب وهو قوله « سيظهر فى يوم من الأيام من هو أعظم منى » وتلقب بهاءالله بـ « منظر الله » وقال إنه هو الذى تتجلى فى طلعته ذات الله كما تتجلى طلعة الإنسان فى المرآة ، واعتقد فيه أصحابه أنه فوق البشر ، ووُضع باللغة الفارسية كثير من الأناشيد فى مدحه ، وقد وضع بهاء الله كتباً باللغة العربية وباللغة الفارسية منها كتاب فارسى اسمه «الكتاب الأقدس» وهو يشير بهذا الاسم إلى

أن كتابه أقدس من التوراة والإنجيل اللذين أطلق عليهما الكتاب المقدس، ومن القرآن الذى يقدسه المسلمون، وزعم أنه قد بشر به الأنبياء من قبل كما بشر المسيح بمحمد وأنه له تعاليم خاصة لا يبوح بها إلا لمن قدر عليها من الخاصة كما كان للنبي محمد تعاليم خاصة لم يبح بها إلا لعلى، وباح على بها لخاصته حتى وصلت إلى الأئمة، وأن رسالته نسخت رسالة « الباب »، ولكنه اتفق معه على معنى الإنسانية والدعوة إليها، وقال أيضاً: إن خير الناس من جعل العالم كله وطناً له؛ ورمى العقائد القديمة بالضيق والجمود وبث فكرته فى العالم كله وأرسل الدعوة إلى الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات، وإلى الشعوب من طرق مختلفة وكان له تنبؤات صح بعضها، من ذلك ما تنبأ به من سقوط نابليون الثالث قبل سقوطه بأربع سنوات وكان يرمى إلى أن تكون ديانته كتعاليمه إنسانية عامة كما كان يرمى أيضاً إلى أن تكون للعالم كله لغة واحدة تكون إما من لغة عالمية موجودة أو من لغة كالإسبرنتو، وكان أيضاً يرى المساواة وأنه نزلت عليه سورة تسمى سورة الملوك، أنب فيها سلطان تركيا لأنه فرق بين حقوق شعبه وجعل لبعضهم على بعض امتيازات، وكان يرى

المثل الأعلى فى الزواج الزواج بزوجة واحدة ، ولكنه أباح فى حالات خاصه الزواج باثنتين ، وأباح الطلاق للضرورة ، وكان يرى أيضاً أن الشريعة الإسلامية إنما كانت صالحة لزمانها ولكن لا تصلح لزمانه ولذلك غير من شعائرها فلم يحتفظ بصلاة الجماعة إلا فى صلاة الجنائز واستنجس الحمامات الفارسية وحبذ الطهارة الجسمانية وأباح لأتباعه أن يعملوا كل شيء ما لم يخالف العقل البشرى وشنع على علماء وقته ووصفهم بالملق والنفاق وبتعويق الإرادة ونسخها ولم يؤمن بالحرية السياسية وقال إن الفرق بين الإنسان المتمدن والحيوان أن الإنسان المتمدن كبح جماح الحريات الحيوانية وليس للحريات نتيجة إلا الفوضى وخير للناس أن يعيشوا عيشة محكومة بالقيود المعقودة . ولما مات بهاء الله انتقلت زعامته سنة ١٨٩٢ إلى ابنه عباس أفندى وتسمى بعبد البهاء أو « غصن أعظم » وقد لقيته أثناء سفره إلى أمريكا فى فندق بالزيتون « ضاحية من ضواحى القاهرة » وكنت إذ ذاك طالباً فى مدرسة القضاء الشرعى حوالى سنة ١٩١٠ وسمعت حديثه وكان مما لفت نظرى خضوع أتباعه له خضوع الصالحين لله ، ودلنى حديثه على اطلاع واسع وعلم بالفلسفة الإسلامية

القديمة كفلسفة ابن سينا وابن رشد وعلم بالفلك والطبيعيات ، ولكن كنت كلما سألته عن مذهبه وأركانه حوّل الحديث إلى مسائل عامة وكره أن يتكلم فى هذا الموضوع ، وقد زاد فى تعاليم أبيه ونزع إلى التوفيق بينها وبين العقايات الغربية والأمريكية وكان يستشهد بالكتاب المقدس على بعض أشياء تؤيد ديانته ، وقام البهائيون فى العالم بحركة واسعة كبيرة حتى دخل كثير من الناس فيها ودخل فيها عدد كبير من النساء الأمريكيات اللائى ناصرنها وكان بعضهم وبعضهن يذهبون إلى جبل الكرمل فى فلسطين لرؤية الإله الجديد ؛ ومن أشهر الذاهبات الآنسة لورا التى كانت تصحب عبد البهاء وتكتب اختزال ما ينطق به وتنشره فى العالم ، ورأينا فى القاهرة عدداً غير قليل يتبعون مذهبه حتى إن اسم البابية اختفى وحل محله اسم البهائية . وقد أنشأوا على حدود روسيا بناء عاماً يعقدون فيه اجتماعاتهم كما اتخذوا مكاناً فسيحاً فى بغداد يجتمعون فيه ، ولما استولت الحكومة عليه رفعوا عليها دعوى ، وكانوا يؤثرون التقية كسائر الفرق الشيعية ويخفون دينهم عن غير أتباعهم ، ولهم أتباع كثيرون فى فارس يقدرون بثلاثة ملايين ، وأتباع كثيرون فى أوربا وأمريكا ،

ولهم مجلة فى أمريكا تصدر منذ سنة ١٩١٠ وهى تصدر تسع عشر عدداً فى السنة طبقاً لتصديق الباب دائماً لهذا العدد ومصدرها الرئيسى شيكاغو . وهم يبنون بناء يريدون أن يكون بناءهم المعتمد ويسموه «مشرق الأذكار» . ومن اعتنق البهائية من اليهود استخرج من التوراة مايؤيدها كالآية التى وردت فى سفر أشعياء وهى « يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبداً أبديا » وقد كتب الأستاذ براون فى كتاب دائرة المعارف فى الدين والأخلاق بالإنجليزية مقالا بديعاً فى البابية يدل على بعد النظر وسعة الاطلاع وعمق التفكير ، ومن أحسن ما فيه إظهار الأثر الاجتماعى للفرقة البابية والبهائية .

وإذ كان البابية والبهائية تدعوان إلى السلام وتبطلان الجهاد الذى جاء به الإسلام ، وتعدان الناس إخواناً لا فرق بين فارسى وإنجليزى ولا شرقى وأوربى ، كان من مصلحة الإنجليز أن يحتضنوها لأنهما تمكنانهم من الاستعمار من غير مقاومة ولا جهاد ؛ والدعوة إلى السلام إنما تكون صالحة يوم يتفق عليها الناس جميعاً أما إذا دعا إليها الضعفاء وبقى الأقوياء يتسلحون كانت صحبة كصحبة الحمل للذئب والأعزل للمسلح .

القاديانية

وأتى على أثرها فرقة القاديانية وزعيمها « غلام أحمد » ، وانتشرت فى الهند ، والقاديانية نسبة إلى قاديان ، وهى بلدة من أعمال البنجال . وقد زعم « غلام أحمد » هذا أن عيسى ابن مريم مدفون بموضع قريب من كشمير ، وهو قبر بوذى قديم . ويقول إن عيسى ذهب إلى هذا المكان فراراً من اليهود ببيت المقدس وأن الوفاة أدركته هناك ، وزعم أن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤيده ، كما زعم أنه المهدى المنتظر وأن الله حل فى جسده وأن له أيضاً رسالة عالمية لا للمسلمين وحدهم وكذلك مهديته من جنس سلمى كالباب لا من جنس عنيف كالفاطمية والحشاشين ، وأعلن عدم الجهاد وحبب إلى أتباعه السلم والتسامح وعدم التعصب ووجههم إلى العلم والثقافة ، واجتهد فى أن يكون ظاهره من المسلمين ، وقد بلغ أتباعه نحو مائة ألف والتف حوله بعض الهنود المثقفين ثقافة

أوربية ، وأنشأوا مجلة إسلامية فى لندن ، وتوفى غلام أحمد هذا سنة ١٩٠٨ فى لاهور وكتب على قبره ، « ميرزا غلام أحمد موعود » ومعنى موعود مهدى ، وأوصى بإنشاء مجلس ينتخب انتخاباً حراً ، ومن وظيفته أن ينتخب الرئيس الروحى للأحمدية ، وقد احتضنت هذا المذهب أيضاً الدولة البريطانية للأسباب التى ذكرناها من قبل ، وقد ترجموا القرآن إلى الإنجليزية وطبعوه طبعاً متقناً بالعربية والإنجليزية وعلقوا عليه بالإنجليزية بعض تعليقات غريبة كدعواهم أن الجن هم الغرباء وكتفسيرهم آية سليمان « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » بأن المعنى أن هؤلاء الغرباء كانوا يستولون شيئاً فشيئاً على بعض البلاد التى كان يمتلكها ، فلما مات سليمان ما دلهم على موته إلا انفتاح الباب أمامهم وعدم انتقام سليمان منهم وإخضاعهم ، وهكذا تدور التفاسير والتعليقات على تأويل كل شىء يدل ظاهره على مخالفة العقـــل .

وإذا كانت تعاليمهم وتعاليم الباب والبهاء غير واضحة تمام الوضوح وكان اضطهادهم سبباً فى ضياع كثير من مذهبهم

وروايتها عن طريق أعدائهم فربما نسب إليهم ما ليس من رأيهم والله أعلم .

وقد قال أحد الكتاب المحدثين عن فرقة القاديانية :

وسهلت الحكومة البريطانية لأتباع غلام أحمد التوظف بالمحلات الحكومية العالية وإدارة الشركات الكبيرة والمفوضيات فى الممالك الخارجية وجعلت منهم ضباطاً فى رتب كبيرة فى مخابراتها السرية ، وفوضت إليهم إمارة مدن كبيرة وجعلت البعض منهم وكلاء الإمارات وغير ذلك من أمور الدولة الهامة .

وحين تم تقسيم شبه الجزيرة الهندية إلى دولتين : باكستان وهندستان ، انحازت أكثرية هذه الفرقة إلى الباكستان وأخذ أفرادها يجدون ويجتهدون فى نشر مبادئهم الهدامة بطرق مختلفة وأسسوا فى معظم البلاد العربية وغيرها دون المملكة السعودية مراكز لتبليغ ونشر ادعاءاتهم الكاذبة بجد ونشاط غير عادى .

وأعلن غلام أحمد أن من لا يصدق بنبوته لا يدخل الجنة أبدا ، وأمر أتباعه بأن يصلوا مع بعضهم ولا يصلوا وراء إمام آخر مسلم لا يعتقد اعتقادهم ولا يصلوا على الجنائز سواء كانت

جنازة صغير أم كبير .

وجاء فى بعض كتبه :

« أنا أحمد الذى بشر به عيسى عليه السلام وجاء نصه فى القرآن ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد، هذه الآية فى حقى. وليست فى حق محمد حيث إنه محمد ، وأنا أحمد . وأنكر الاعتقاد بأن لا نبى بعد محمد بل إن ذلك قلة أدب فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وباب النبوة مفتوح ، والدين الذى يغلق باب النبوة دين ميت » .

« إن الله أخبر بأن قاديان هى أم القرى وهى الحقيقة والآن تحولت البركات التى كانت تنزل بمكة والمدينة إلى قاديان » .

« ولا شك أن ذكر قاديان فى كلام الله موجود حيث ورد :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والمسجد الأقصى الذى ورد ذكره فى القرآن هو الذى بناه غلام أحمد .

« ويعلن غلام أحمد بأن من لم يطعه ولم يبايعه فقد عصى الله وعصى رسوله وتعدى الطريق ومصيره إلى جهنم » .

ومن تعاليمهم أن الحج يحتاج إلى مال كثير يصرفه الحاج

فى سفره وقد يصل إلى حد الإسراف وأكثر هذا المال يذهب إلى صناديق الشركات الأجنبية التى لا تفيد المسلمين شيئاً ويقترحون عليهم أن المال الذى يصرف على الحج يجب أن تفتح به مدارس لتعليم القرآن الكريم حيث يستفيد الواحد منه إلى الأبد . . . . إلى أمثال هذه الدعاوى .

وهذه الفرقة تسمى أحياناً القاديانية ، وأحياناً تسمى الأحمدية نسبة إلى غلام أحمد ، وأكثر المسلمون ينفرون منهم ، ويعتقدون أنهم مارقون عن الإسلام خارجون على أهله ، وقد صرح مصطفى كمال باشا وشيخ الإسلام ومفتى الإسلام بخروج القاديانية عن الإسلام . ويزعم محمد على وأتباعه أنهم مسلمون ، وأن غلام أحمد ليس إلا مسلماً ومجدداً ، ولكن فى كتبهم الأساسية ما يثبت غير ذلك ، فقد نشر فى مجلة الديانات مجلد ٦ ص ٢٩٩ أن محمد على رئيس القاديانية كتب أن الصاحب ميرزا « نبى » آخر الزمان ، ويعنون بميرزا هذا غلام أحمد ، وجاء فى الخطبة الإلهامية لميرزا هذا قال : رأيت فى المنام أنى إله وأنا فى اعتقادى كذلك (ع كمالات ص ٥٦٥) ويقول إنى أعتقد أن الإيحاءات التى أتلقاها معصومة من الخطأ

كتبك التى كان ينزل بها القرآن « الدر الثمين » ، وقال : « إن إيمانى بما يوحى إلى ليس أقل على كل حال من إيمانى بالقرآن الكريم » . وجاء فى أخبار الأخبار « أن الله يقول له أى ميرزا : أخبر الناس كافة أنك الرسول المقدس إليهم جميعاً » وجاء فى كتاب آخر ، أن الله الحق هو الذى أرسل نبيه فى قاديان ، وأن مدينة قاديان ستظل فى مأمن من الوباء إذ كانت محل إقامته ، ثم تدلى فزعم أنه أعظم من الحسين ابن على وأنه المهدى المنتظر .

* * *

كما نشأ فى الهند زعماء كثيرون تسموا بالمهدى ولكن دعوتهم لم تلق النجاح الذى لقيته البابية والبهائية والقاديانية كدعوى السيد أحمد الذى ظهر فى أوائل القرن التاسع عشر فى جهات الهند وحارب الأشياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولكن لم تقم له قائمة .

السنوسية

وربما كان من أشهر دعاة المهدية في العصور الحديثة أيضاً السيد محمد المهدى السنوسى ابن الشيخ محمد السنوسى ظهر بالمغرب فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى ونزل جغبوب على مقربة من واحة سيوة ، وقد أنشأ زوايا كثيرة فى أماكن متعددة يبلغ عددها نحو ثلاثمائة زاوية ، وانتشرت طريقته انتشاراً عظيماً ، ولما توفى لمح قبل وفاته أن المهدى المنتظر سيظهر قريباً وأن ظهوره سيكون ختام القرن الثالث عشر الهجري وقد رأيت كتاباً عنوانه « الدرة الفردية فى بيان الطريقة السنوسية » مطبوعاً بمطبعة الجريدة بمصر وتدور مقدمته على إثبات أن السيد السنوسى هذا هو المهدى المبشر به ، ومما جاء فى تلك المقدمة قوله « اعلم أن أستاذنا السيد محمد المهدى رضى الله عنه كانت ولادته بماسة

من الجبل الأخضر سنة ١٢٦٠ أول ليلة من ذى القعدة عند الفجر وغيابه عن الأعيان لحكمة أرادها الواحد المنان ضحوة يوم الأحد ٢٤ صفر سنة ١٣٢٠ ...

مهدى السودان

وأخيراً كان المهدى فى السودان وقد كانت له حركة قوية شغلت الحكومات زمناً طويلا . وقد ولد المهدى هذا واسمه محمد بن عبد الله فى دنقلة وأسرته تقول إنها شريفة من نسل رسول الله ، وقد درس الفقه ثم تصوف علماً وعملا وقد خالف شيخه فى التصوف وتزهد وتقشف وكون لنفسه مريدين وأنصاراً على مذهبه الخاص وألف لهم الكتب الكثيرة يدعوهم فيها إلى طريقته وما زال يكبر فى نفسه حتى اعتقد أنه المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا وصلاحاً وقوى هذه العقيدة فى نفسه صديقه عبد الله وهو المعروف بالتعايشى الذى أصبح خليفة من بعده وأصله من دنقلة كذلك وقد حسن له عبد الله هذا الرحلة إلى كردفان وفى أثنائها اتصل بكثير من رؤساء القبائل وساعد على نجاح دعوته بغض الأهالى للحكومة المصرية لما كان يقوم به بعض

الولاة من فرض ضرائب ظالمة ومعاملة قاسية وما كان من إعلان الحكومة المصرية عزمها على إلغاء الرقيق وقد أثر ذلك أثراً سيئاً فى الحياة الاقتصادية فى البلاد فلما قويت حركته بعث رؤوف باشا حاكم السودان إلى المهدى يأمره بالمثول بين يديه فى الخرطوم لأنه كان يستهين بأمره فلم يأبه المهدى بأمره بل أجاب عن هذا بإعلانه أنه سيد البلاد الحقيقى وأعلن الجهاد ضد الكافرين وهو يقصد بالكافرين ما يشمل المسلمين المصريين الظالمين فأرسل رؤوف باشا حملة عليه مكونة من مائتى رجل ببنادقهم ومدافعهم ، وكان المهدى إذ ذاك يقيم فى جزيرة آبا فأمر رؤوف باشا جنوده بإطلاق النار على المهديين ، وكان ذلك نهاراً ولم يكن للمهدى بنادق ولا مدافع فأمر أصحابه بالسكوت وأن يكمنوا فى الأدغال حتى يجيء الليل ثم أمرهم بالخروج من الأدغال ليلا فهجموا على الجنود المصريين وأفنوهم واستولوا على ذخائرهم . . . ومن ذلك الوقت حاربهم المهدى بسلاحهم ثم انتقل إلى كردفان ليكون بعيداً عن مقر الحكومة المصرية فى الخرطوم . . . وسيرت الحكومة المصرية حملة أخرى قوية مؤلفة من نحو ستة آلاف رجل ولكنها لم

تتخذ وسائل الوقاية المعتادة ، وكان من العادات المتبعة فى السودان أن يحاط الجند ليلا بأسياج شائكة فلم يفعلوا ذلك هذه المرة فأتاهم المهدى ليلا بجنوده وأبادهم ، وإذ ذاك عظم شأنه واشتد أتباعه إيماناً به وكان له فى القاهرة أتباع يبشرون به وتقاطر الناس من جميع أنحاء السودان ليروا ولى الله ويقدموا له الهدايا وكان منظره إذ ذاك متصوفاً زاهداً يلبس جبة وسراويل من كتان ويتمنطق بحزام ، ولكنه فيما بعد قلد المسلمين الأولين فى احتياز خمس الغنائم ، وأضاف إلى ذلك مصادرته للسارقين والخمارين والمدخنين للتبغ فكثرت الأموال لديه وانقلب مترفاً وحرم على أتباعه دراسة علم الكلام والفقه وأحرق الكتب التى تعالج هذه الموضوعات ولكنه أوصى بالرجوع إلى أصول الإسلام الأولى من قرآن وحديث .

ولما احتلت الحكومة البريطانية مصر بعد ثورة عرابى أرادت أن تخضع السودان فبعثت بعشرة آلاف مصرى بقيادة هكس باشا ولكن من الأسف أن أعلنت ذلك وأبطأت فى إعداد عدة الحملة ، وذلك مكن المهدى من حسن الاستعداد فهجم المهدى على المصريين غير أن المصريين صدوا هجومه أول

الأمر ثم هزموا آخره وأبيدوا عن بكرة أبيهم فوقع السودان كله تحت سلطان المهدى وفر من كان فيه من الأوربيين إلى مصر واستسلم للمهدى سلاطين باشا وكان قبل ضابطاً نمسويا ثم حاكماً على دارفور ثم اعتزمت الحكومة المصرية مصالحة المهدى والتخلى عن السودان وأرسلت لهذه المهمة غوردون باشا فأرسل غوردون إلى المهدى يعترف به سلطاناً على كردفان ويعترف بإباحة تجارة الرقيق فأجابه المهدى طالباً إليه الاستسلام وعزم المهدى على محاصرة الخرطوم وفيها غوردون باشا فتقدم إليها وقد أخطأ غوردون فلم يعلن إخلاء المدينة من غير المحاربين فكانوا سبباً فى الاضطراب والحاجة الشديدة إلى الضرورى من الأقوات وأخيراً أمر أتباعه بالهجوم على المدينة ففتحوها وقتل غوردون وترك البريطانيون السودان مؤقتاً .

وأحاط المهدى السودان بسياج قوى حتى يتقى شر الدسائس واضطر أن يمنع السودانيين مؤقتاً من الحج ولكنه أصيب فى منتصف يونية سنة ١٨٨٥ بالتيفوس فمات بعد ذلك بأسبوع وأوصى بالخلافة من بعده لصديقه القديم عبدالله وكناه بأبى بكر وهو عبد الله التعايشى المشهور . وقد اغتر عبد الله هذا بقوته

وسلطانه فاعتزم غزو مصر وهو مشروع كان ينوى المهدى تحقيقه وخاف المصريون هذا العزم، فسير سنة ١٨٨٩ جيشاً إلى مصر على رأسه القائد عبد الرحمن النجومى وأمره باجتياز وادى حلفا فأنزلت حامية وادى حلفا بجيشه خسارة جسيمة فى أثناء زحفه وخرج أقرباء المهدى على التعايشى لما أحسوا بضعف سلطانه وكان من أقواهم السيدة زوجة المهدى، وفى خريف سنة ١٨٩٦ «قضى اللورد كتشنر — وكان سرداراً لمصر — على إمبراطورية المهدى» وختمت هذه المأساة .

ثم كان فى آخر القرن التاسع عشر حركة مهدية أخرى فى الصومال إذ ظهر فى الصومال محمد بن عبد الله حسن وقد حج إلى مكة سنة ١٨٩٥ وهناك تصوف واعتنق فكرة المهدية حتى إذا رجع إلى وطنه دعا إلى طريقته وسرعان ما اكتسب نفوذاً كبيراً فى قبيلته ولكن الحكومة البريطانية قضت عليه سريعاً باكتسابها له واستخدامها إياه فى تهدئة الثورات التى تقوم حولها — وأخيراً فى أثناء الحرب العالمية الأولى استطاع الإيطاليون هناك أن يقضوا على سلطته فى شمال الصومال ومات سنة ١٩٢٠ بعد أن بث فى أتباعه تعاليم على غرار تعاليم المهدى.

خاتمة

هذه صورة موجزة لما سببته مأساة فكرة المهدية، ومنها نفهم أن ثوراتها تكاد تكون متلاحقة منها ما كان يبلغ أقصى العنف كالحشاشين ومنها ما كان يسالم كالبابية . وأيا ما كان فقد أثرت هذه الحركة فى الدول الإسلامية المختلفة من أموية وعباسية وعثمانية ، كما شجعت الصليبيين على فهم ما عليه المسلمون من ضعف فهاجموهم واثقين من النصرة عليهم .

وبعد ، فمن المسئول عن ذلك ؟ . . . إن الشيعيين اضطهدوا من السنيين وكانوا يدعون أنهم إنما يفعلون ذلك دفاعاً عن أنفسهم ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية فى قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن إصلاحها فظلت تعمل عملها على طول الأزمان . ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبي يظهر ، ونحن إذا قرأنا كتاب «مقاتل الطالبيين»

لأبى الفرج الأصفهانى رعبنا من كثرة ما وقع على العلويين من قتل وتعذيب وتشريد ، وهذا القتل المتتابع حمل العلويين أن يختفوا وقام حول الاختفاء دعاو غير معقولة من عصمة الأئمة ونحو ذلك ، ولهذا التعذيب والقتل أيضاً اضطر الشيعيون أن يعتنقوا مبدأ التقية ، ومعناه أن لا يبيحوا بأسرارهم ومعتقداتهم إلا لمن يثقون بهم ، وأنشأوا لأنفسهم أدباً شيعيا لاينقطع وهو يقابل الأدب السنى ولئن كان كثير من الأدب السنى كان يقال فى مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنيين فإن الأدب الشيعى كان يقال فى مدح الأئمة والرثاء الحار فى قتلاهم .

وقد أثرت هذه الأحداث المتتابعة أحزاناً عميقة فى نفوس الشيعة وانقلبت أحياناً إلى ثورات مهدية نقلنا بعضها ، كما أثارت دموعاً غزيرة حارة حتى ضرب المثل برقة دمعة الشيعى وقال القـــائل :

أرق من دمعـــة شيعيـــة   تبكى على بن أبى طالب

وألف الشيعيون الاضطهاد والبؤس والشقاء حتى تمرسوا عليه ، وانقلبت بعد ذلك هذه الحالة إلى مؤامرات سرية وتدبيرات خفية حتى لو قلنا إنهم مهروا فى ذلك كمهارة الماسونية لم نبعد

عن الصواب وإلى الآن يجددون هذه الأحزان فى العشرة الأولى من المحرم وينشدون القصائد ويضربون أنفسهم بالجنازير ذكرى لمأساة كربلاء ويخصون بالسخط والكراهية يزيد وآله الأمويين ويقول بعضهم ما لحياتنا قيمة لو لم نحزن على مقتل الحسين ونبكى عليه . ويرى بعضهم أن الحزن على الحسين علامة الإيمان الصحيح .

ومما زاد فى العطف عليهم أنهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم معارضون للدولة الرسمية القائمة والمعارضون دائماً ينالون عطف الشعوب كالذى نراه بين أحزابنا اليوم ... يضاف إلى ذلك أنهم مضطهدون وكذلك المضطهد محل العطف وقد أنجح مواقفهم توالى الظلم من رجال الدولة الرسمية حتى لا يكاد ينجو من ذلك أحد منهم فإسراف فى الترف ومصادرات للأموال وضرائب قاسية ظالمة وعكوف على الشراب إلى غير ذلك .

نعم إنه كان من الجميل جداً كرههم لظلم الخلفاء الرسميين وإفهامهم الناس هذه المظالم التى ترتكب وحثهم على المطالبة بتحقيق العدل ورفع الظلم ولكن يؤخذ عليهم شيئان : الأول

أنهم مزجوا هذه الدعوة بالأساطير ولم يكتفوا بالرجوع إلى العقل ، والثانى أنهم لما ملكوا ونجحوا فعلوا فى حكمهم مثل ما فعل الأمويون والعباسيون من مظالم ونحوها ، فالفاطميون أسرفوا أيضاً فى الترف واستمتعوا فى مصر بكل أنواع النعيم كالذى روى عن هارون الرشيد .

وكانت ثروة الفاطميين تفوق القدر ويصعب تصديقها على العقل فيقول المقريزى مثلا إن رشيدة بنت المعز خلفت من العملة الذهبية نحو ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار عدا الجواهر والحلى ، وخلفت ابنته الأخرى واسمها عبدة نحو سبعمائة وخمسين ألفاً عدا الصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، كما أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بنحو اثنى عشر ألف دينار ، وأولعوا بالتصوير مع أنه محرم فى الإسلام فقالوا إن اثنين من المصورين كان ينافس أحدهما الآخر هما القصير وابن عزيز ، أحدهما صور الراقصة فى ثياب بيض فى قوس ملون بالسواد يحسبها الناظر داخلة فيه والآخر صور فتاة بثياب حمر فى قوس أصفر يحسبها الناظر بارزة منه ؛ والخليفة

الظاهر كان يعكف على اللذائذ واللهو من خمر ونساء ويترك أمور الدولة لوزرائه وقواده وهم يقابلونه كل عشرين يوماً مرة ثم يدعى هؤلاء النواب أنه أوعز إليهم بكل شيء وأنه إمام معصوم متفرغ للعبادة . وقد كان يحدث هذا من الظاهر أيام كان الناس فى مصر فى مجاعة كبرى لا يجدون الخبز الضرورى .

ولقد بدأت الدولة الفاطمية فى مصر ببذخ وترف وانتهت بما يدلنا على غاية البذخ والترف فبدأت بالهدايا التى قدمها جوهر للمعز وانتهت ببيع صلاح الدين ما وجده فى قصر المستنصر ، وكل هذا الترف والنعيم كان على حساب الشعب نفســه .

ولما حضر المعز أشار إلى طريقة حكمه إشارة مختصرة وهى سيفه وذهبه حتى ضرب المثل بسيف المعز وذهبه ؛ وليس حكم البلاد بواسطة السيف والذهب هو الحكم العادل الذى يطالب به المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا ، ونقرأ سيرتهم فى موائدهم واحتفالاتهم فنعجب من كثرة فخفختهم وعظمتهم وغناهم ، مع ما يحكى من فقر الشعب ، وكان للمعز مثلا يوم حج شمسية نصبت له مصنوعة من الذهب ، مزينة بالزمرد

الأخضر والياقوت وكتب عليها آيات الحج بزمرد أخضر وحشيت الكتابة بدر كبير لم ير مثله ، حتى إنها لما جرت نصبها عدة فراشين لكثرة ثقلها ، وصنع سرير الملك من الذهب واستعمل فيه مائة ألف مثقال ، وعشرة آلاف مثقال ، وكل الحياة من هذا القبيل . . . .

هذا من ناحية ترف الخلفاء الفاطميين وبؤس الشعب ،ومن ناحية أخرى كم قتل الحاكم بأمر الله . وكذا فعل غيره من الخلفاء، ولما تولى الظاهر الفاطمى عكف على اللهو والملذات بما لا يقل شأناً عن ترف المترفين المستهترين من الخلفاء العباسيين ، ولما أزال صلاح الدين ملكهم وكل بالمحافظة على قصورهم الطواشي قراقوش وتسلم القصور وفيها من خزائن ودواوين وأموال ونفائس ما عظم عن الوصف وقد قالوا إن صلاح الدين أمر ببيع ما فى القصور فاستمر البيع فيها نحو عشر سنين وكان من الموجود فيها مائة صندوق من الكسوة الفاخرة الموشحة المرصعة وعقود ثمينة وجواهر نفيسه وكان فيها آلاف من العبيد والخدم وآلاف من الجوارى ليس فيهن فحل إلا الخليفة وأولاده ، وليس هذا الغنى المفرط إلا من دماء الشعب

الفقير البائس . وكان حكم القرامطة والحشاشين لا يقل شأناً عن هذا ؛ نعم إنهم كادوا يسوون بين الناس فى الغنى والفقر وكانوا يضربون الضرائب على الأغنياء ويصرفونها على الفقراء ولكن لهم ناحية أخرى سيئة جداً فى حكمهم وهى القسوة والقتل والتخريب والهدم وهى أعظم فظاعة من الغنى والفقر .

قال شاهد عيان يوم دخل القرامطة الكعبة رأيت رجلا قد صعد البيت الحرام ليقلع الميزاب ، وكنت أطوف بالبيت وإذا بقرمطى سكران قد دخل المسجد بفرسه فصفر له حتى بال فى الطواف وجرد سيفه يضرب به من لحقه ، وانهالوا مرة على قوافل الحجاج يسلبون وينهبون ويفسقون ويقتلون ، وأتى القرامطة من الأفعال ما تقشعر منه الأبدان وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الحلى الثمينة والتحف القديمة التى كانت معلقة على جدران الكعبة أو محفوظة فى خزائنها حتى قالوا إنهم استخدموا نحو خمسين جملا لنقل ما نهبوه من الكعبة فقط ، ومائة ألف ألف لما غنموا من مدينة مكة وضواحيها ، وكان مما نهبه القرامطة الحجر الأسود كما ذكرنا من قبل وخرجوا من مكة ينشدون علناً :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهليـــة محللة لم تبق شرقاً ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغى سوى ربها ربا

والحشاشون نكلوا بالبلاد تنكيلا فظيعاً وخوفوا العظماء وأرهبوهم ، والموحدون اضطهدوا ابن رشد الفيلسوف وسجنوه بعد أن أكروه ، ومهدى السودان كان حاكماً مستبداً يقسو ولا يرحم وينكل بأعدائه وخصومه تنكيلا شديداً ، فحكوماتهم كانت تنعى على الظلم وتظلم ، وترتقب إماماً يملأ الأرض عدلا ثم هى تملأ الأرض ظلماً ، فلا رأينا عدلا من السنيين ولا من الشيعيين « وكلهم فى الهم شرق » . والعدل الذى كان يقول به دعاة المهدى المنتظر لم يتحقق فى كثير ولا قليل ، ولكن ظلماً يقابل بظالم ، وشعباً يطمح إلى العدل فيخيب أمله ، نعم إن عقائد هذه الشيعة وأسرارها وما قيل عن تعاليمهم متناقضة ، فبينما يقول مؤيدو الإسماعيلية إنهم منعوا السكر وحتموا الزواج بواحدة إذا بخصومهم يرمونهم بشرب الخمر والاعتداء على النساء ، وقد زاد فى بلبلة الأفكار والتناقض فى ذكر المعتقدات قلة ما أثر عنهم من كتب وتعاليم. ولكن مهما اختلف المختلفون فى المعتقدات

فأمامنا الأعمال الظاهرة التى لا تشرف والتى لا يستطيع أحد أن ينكرها ، سواء أكان من المعارضين أم المؤيدين ، ولو كانت هذه التعاليم قد دخلت قلوبهم وأنهم يستمدونها من مهدى منتظر ومن إمام حق مستتر لانعكست عقائدهم على أعمالهم ، أما والأعمال سيئة فما قيمة المعتقدات ولو صحيحة ، فحكومات الخلفاء الرسميين لم تكن ترضى عاقلا ، وحكومات الشيعيين كذلك لم تكن ترضى عاقلا أيضاً ، والناس إنما يطمحون بعد هذا الفشل إلى إمام عادل يتبع العقل لا المهدى المنتظر ، وربما كان الفرق بين ظلم خلفاء بنى أمية وبنى العباس من جهة والشيعيين من جهة أخرى أن الأولين كانوا يظلمون ويجهرون والآخرين كانوا يظلمون ويستترون .

على العموم كان الخلفاء الرسميون يظلمون الشيعة وينكلون بهم وكان الشيعة يثيرون الثورات ويدبرون الدسائس والمؤامرات والنتيجة ظلم من هذا وظلم من ذاك .

فى ضوء هذا لا نستطيع أن نحدد المسئولية هل هى على أهل السنة أو على الشيعة ، ونحار كما حار أبو العلاء فى قوله :

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها   واللوم يلحقنى وأهل نحاسى

عنب وخمر فى الإناء وشارب فمن الملوم أشارب أم حاسى

وربما كان الأصح أنهما مسؤولان معا: هذا السنى بجوره وظلمه وسفكه لدماء العلويين من غير حساب ، وهذا العاوى بالانتقام من غير وقوف عند حد ، وكلاهما لم ينظر فى المسألة إلى مصلحة المسلمين وإنما نظر فيه إلى نفسه وحزبه ، والله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون .

ونحن إذا حللنا فكرة المهدوية إلى عناصرها الأولية وجدناها ترتكز :

١ ـ على الاعتقاد بإمام من آل البيت وأن هذا الاعتراف أساس من أسس الإيمان كالاعتقاد بنبوة محمد . روى عن أبى حمزة قال: قال لى أبو جعفر إنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرفه فقد ضل ضلالا بعيداً . قلت جعلت فداك فما معرفة الله ، قال تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله ، وموالاة على ، والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم . وليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً ، وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله ، فالعقيدة فى الإمام ركن

سادس من أركان الإسلام .

٢ ـ عصمة الأئمة وعصمة المهدى المنتظر فالأئمة لايذنبون بطبيعتهم ولا يفكرون فى ذلك . وقد ثارت خلافات فى عصمة الأنبياء بالطبيعة ورووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة ، وقال : إنه ليغان على قلبى . فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة ، ولكن الشيعة لا يختلفون فى عصمة الأئمة .

٣ ـ علم الأئمة والمهدى بالمغيبات مع أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : مالى ولهم يسألوننى عما لا أرى ، وإنما أنا عبد لا علم لى إلا ما علمنى ربى . وفى القرآن الكريم « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

٤ ـ الاعتقاد بأن للأئمة نوراً إلهياً أو قبساً من نور الله على نحو يرفعهم فوق المستوى البشرى المألوف وغلا بعضهم فى ذلك فرأوا أن علياً والأئمة هم صور وأشكال يتمثل فيها الجوهر الإلهى وأن جثمانية هذا الجوهر ليست إلا حادثاً طارئاً .

٥ ـ أن هؤلاء الأئمة ومنهم المهدى إنما جاءوا ليواجهوا الدهر ويرفعوا الظلم ولذلك اقترنت دائما كلمة يملأ الأرض عدلا بكلمة

كما ملئت جوراً .

وقد كان لبعض الناس فى عقيدة المهدوية خرافات غريبة ، من ذلك أن بعضهم كان يخرج كل يوم إلى مكان معين قبل طلوع الشمس ينتظر مجيء المهدى لأن بعض الأساطير فيها تحديد مكان الخروج وزمانه فإذا لم يجدوا شيئاً عادوا منكسى الرؤوس .

ومنها ما حكاه ابن خلدون أنهم كانوا يحسبون خروج الإمام بحساب الجمل فيحددون زمان خروجه فإذا جاء هذا الوقت ولم يخرج ادعوا أن هذا التاريخ تاريخ ولادته لا تاريخ خروجه .

على كل حال فإن هذه العقيدة فى المهدوية وصفاتها لا تتفق وطبيعة الأشياء ، فأى خليفة معصوم وأى إنسان يعرف الغيب وأى إنسان يختفى ويبقى مختفياً مئات السنين من غير أن يجرى عليه الله حكم الموت ثم يكون عنده دائماً عينان نضاختان فيهما عسل وماء ؟ . . هذه الأشياء كلها لا تجوز إلا على السذج الذين فقدوا عقولهم . . . وأظن أن انتباه الرأى العام وتعقله يقللان فى المستقبل من تكرار مأساة المهدوية .

وقد نشأت عقائد ثانوية على هامش المهدوية من أهمها :

١ ــ أولا فكرة التجديد والمجددين وهى تلاقى ما عند المهدية من أن المهدى يخرج ليلاقى أحداث الزمان ويرفع الظلم ويحقق العــدل .

٢ ــ فكرة الصوفية فى القطب والغوث والأبدال ، فهى فكرة تلاقى ما يقوله أصحاب النظرية المهدوية فى أن المهدى أفاض عليه الله من نوره وأناله قبساً منه . وسنشرح كل نظرية من هذه النظريات بكلمة تبينها .

فأما التجديد والمجددون فستند إلى حديث رواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . والفكرة فى ذاتها وجيهة لأن التشريع دائماً يتغير بتغير الزمان والمكان ، وفى الفقه أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، فقد رووا أن أبا حنيفة كان يقول من غصب ثوباً وصبغه أسود فقد قلل من قيمته ، وكان أبو يوسف يقول من غصب ثوباً وصبغه أسود فقد زاد قيمته ، والسبب فى ذلك اختلاف الزمان والبيئة لأن الدولة العباسية اتخذت السواد شعاراً رسميا لها وكان من خالفها يبيض أى يلبس البياض فارتفع

بذلك سعر الملون باللون الأسود ، وقال الفقهاء أيضاً فى الأزمنة القديمة كان الرجل إذا رأى غرفة فى البيت سقط عنه خيار الرؤية لأن الغرف كلها متشابهة فى الشكل وبعد ذلك اختلفت البيوت فأصبح لا يسقط عن الرجل خيار الرؤية إلا إذا رأى الغرف كلها لاختلاف هندسة الغرف ، والإمام الشافعى نفسه له مذهب قديم لما كان فى العراق ، ومذهب جديد لما حضر إلى مصر لاختلاف البيئة ، بيئة العراق وبيئة مصر ، وهذه إحدى العلل الكبرى لمشروعية النسخ ، وهى أن الزمن يتغير فيقتضى ذلك تغير التشريع ، وقد أخذ الفقهاء والمؤرخون يبحثون فى كل مائة سنة عمن يصلح أن يكون مجدداً ، قالوا إنه على رأس المائة الأولى كان عمر بن عبد العزيز والثانية الشافعى والثالثة ابن سريج أو الأشعرى والرابعة أبو حامد الأسفرائينى والخامسة الغزالى والسادسة الفخر الرازى والسابعة ابن دقيق العيد وهكذا ، والحق أن هذا التحديد نسخ للفكرة الصحيحة ، تجديد التشريع كلما تغيرت الظروف ، وقد يكون ذلك فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل فليس من الضرورى تحديد المائة بالوزن أو بالمتر وإنما فائدة الحديث بيان الفكرة ، وذلك

لا يكون فى التشريع وحده بل يكون فى كل مرفق من مرافق الحياة الاجتماعيـــة .

وهذا التجديد معناه مرونة العقل لإحلال الأوضاع الجديدة محل الأوضاع القديمة أو تعديل الجديد ليتفق والقديم، وكانت تتوارد على الشيخ محمد عبده أسئلة جديدة لم يتعرض لها الفقهاء من قبل لأن البيئة خلقتها خلقاً جديداً مثل قراءة القرآن فى الراديو ولبس البرنيطة والتأمين على الحياة وإيداع المال فى صناديق التوفير وهكذا مما لم يكن معروفاً من قبل ، وقد عرف چان چاك روسو التجديد بأنه « الأخذ بالمبادئ الإنسانية والمبادئ العقلية والتسامح الفلسفى وإحلال ذلك محل الأوضاع القديمة ومحل تقديس السلطات ومحل التعصب الضيق النظر . » ويكون التجديد فى كل حالة بحسبها، وقد يجد دعاة التجديد أنفسهم أمام تيارين متناقضين فيضطرون إلى منازلتهما جميعاً كالذى حدث فى عصرنا فى مذهب الاشتراكية إذ رأى أصحابها أنهم مضطرون إلى منازلة فكرة الشيوعية المتطرفة وفكرة الرأسمالية الجامدة. ويساعد على فكرة التجديد شعور الشعوب بسوء الحال وطموحهم إلى حال خير من حالهم ونظام خير من نظامهم ،

وعدل يحل محل ظلمهم لتسرى الدعوة إلى التجديد وإلى التعمير سريان النار فى المشيم. ووصف سوء الحال وبث الطموح إلى خير منه هما أهم ما دعا إلى إثارة الشعوب لدعوة المهدية .

والناس فى قبول دعوة التجديد مختلفون فهناك جماعات أشد مقاومة للتجديد وجماعة أشد تلبية لها . ذلك أن الجماعات التى تكونت حديثاً ولم تتقيد بقيود ثقيلة من الأوضاع كأمريكا تكون أقرب إلى التجديد ، ومن كثرت أوضاعهم وقدمت كانوا أشد بطئاً فى قبول فكرة التجديد ، وما مظاهر القلق والاضطراب فى الأمة إلا مظاهر حرب بين جديد وقديم ، وبعبارة أخرى بين قديم ظهر فساده وجديد لم يرتكز بعد ، ومن المظاهر البينة أن مرافق الحياة جديدها وقديمها فى كل شعب تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية حتى يتم بينها الانسجام فإذا دخل التجديد فى مرفق فسرعان ما تنفعل لذلك سائر المرافق كحوض الماء يصب فيه ماء بارد وماء ساخن ، فسرعان ما يكتسب البارد السخونة والساخن البرودة حتى يتكون منهما ماء فى درجة حرارة واحدة ؛ والفرق بين الدعوة إلى التجديد والدعوة إلى المهدية أن الأولى ترتكز على العقل وعلى تجارب الحياة وعلى الواقع ، أما الدعوة

الثانية فترتكز على عقيدة دينية فقط بإمام منتظر ، وأن السلطة السماوية هى التى تقربه وهى التى تؤيده . . .

وأما فكرة الصوفية فى القطب والأبدال فهى أن الصوفية كما تأثرت بالإسلام تأثرت أيضاً بتعاليم الفلسفة وخصوصاً الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة وخلاصتها أنه فى القرن الثانى الهجرى حينما ترجمت كتب الفلسفة إلى اللغة العربية اندس من بعض الجهات أو تسربت فكرة من الأفلاطونية الحديثة من مثل نظرية الفيض الإلهى والفناء فى الله وتأويل آيات القرآن بالرموز المعنوية ، فهم إذا سمعوا قوله تعالى مثلا « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » أولوها بأن لها تفسيراً باطنيًّا هو أن المرسلين الثلاثة هم الروح والقلب والعقل ، وأن الاثنين الأولين هما الروح والقلب وهما اللذان كذبوهما وأن الثالث هو العقل — وكالاعتقاد فى نظرية الفناء فى الله وشرطهم أن الإنسان يجب أن تتلاشى شخصيته ، وينعدم شعوره بوجوده كالذى قال

« دعنى أفنى كما تفنى الأنغام فى العود فإننا إليه نعود » وهم يدعون إلى فناء الفرد فى الذات الكلية الإلهية ولا يستطيع المكان ولا الزمان أن يحد هذه الذات المتناهية، والمريد درجات فى الفناء يترقى إليها شيئاً فشيئاً ، ووسيلة ذلك عمق التأمل ، وبعبارة أخرى المراقبة الدقيقة لحالات النفس، وينتهى به ذلك إلى غاية هى أن يصبح المتأمِّل والمتأمَّل فيه شيئاً واحداً وهذا هو التوحيد الصحيح .

هذه النزعة وأمثالها هي بعض نزعات الصوفية وبعضهم يرى أنها لا تتنافى — بل يجب أن تكون — مع التزام الشعائر الظاهرة من صلاة وزكاة وصوم وحج ، وبعض الفرق يرى أن هذه الشعائر الظاهرة ليست إلا وسائل لغاية ، فمتى حصلت الغاية فلا لزوم لها وأن من حق الصوفى أن يتخطى كافة النواميس الخلقية ، وأن يخرج على العرف الاجتماعى .

على كل حال اندس إلى الشيعة والصوفية معاً بعض هذه التعاليم وتلاقيا فى بعض هذه المظاهر فكما اعتقد المهدية فى المهدى واختفائه وخروجه ليملأ الأرض عدلاً اعتقد الصوفيون أن هناك مملكة روحانية منظمة تنظيما دقيقاً وهى وراء

هذه المملكة الظاهرة، كما اعتقد الشيعة أن لهم أئمة غير الأئمة الرسميين من أمويين وعباسيين وغيرهم، وسمى الصوفية رؤساء هذه المملكة بأسماء خاصة كالقطب والغوث والأبدال، فالقطب يمثل الإمام أو الخليفة وهو على رأس المملكة الروحانية وأحياناً يسمونه قطباً وأحياناً يسمونه غوثاً فإذا سموه قطباً فباعتبار مركزه فى المملكة الروحانية وأنه على رأسهم ، وإذا سموه غوثاً فباعتباره ملجأ الملهوف ، وقد عرفوه بأنه موضع نظر الله فى كل زمان أعطاه الله الطلّسم الأعظم من لدنه وهو يسرى فى الكون سريان الروح فى الجسد وبيده قسطاس الفيض الأعم وهو يتبع علمه وعلمه يتبع الحق وهو يفيض روح الحياة على الكون ومرتبته تسمى القطبية وهو باطن روح النبوة ولا تكون القطبية بعده إلا لورثته وليسوا ورثته لصلبه ولكن ورثته ممن يستحقون هذه الولاية، وله فى المملكة الروحانية نواب يسمون الأبدال وكل إقليم له بدل خاص يشرف على شئونه وهكذا رسموا معالم هذه الولاية الروحانية وقسموا أعمالها وقالوا إنها لروحانيتها معصومة كعصمة الأنبياء والأئمة وهاموا فى ذلك ما شاء لهم الخيال فهم يضعون الخطط للعالم الظاهرى ليفعل ما يفعل ويترك ما يترك

فسموا كثيراً من كبار الصوفية بقطب الأقطاب والقطب الربانى ونحو ذلك ، وسموه أيضاً بمجمع البحرين لأنه يجتمع فيه بحر الوجوب والإمكان وتجتمع فيه الأسماء الإلهية والحقائق الكونية إلخ . . . فكم من القرب بين تعاليم الصوفيه وتعاليم الشيعة فى هذا الباب وكذلك بين تعاليم الصوفية وتعاليم المهدوية.

وقد عقد ابن خلدون فصلا قيما فى المهدى والمهدوية ، ذكر فيه الأحاديث التى وردت فى المهدى مثل ما رواه جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب » ومثل ما رواه الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا منى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » ، ومثل حديث عن على عن النبى قال : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى ، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً » ، ومثل ما رواه الحاكم عن أم سلمة قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدى ويقول : هو حق وهو من بنى فاطمة » ، وعن أبى سعيد الخدرى قال : « قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: المهدى منى ، أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً ، إلخ . . .» وقد ضعف ابن خلدون أسانيد هذه الأحاديث ، وروى حكايات عن جماعات كثيرة ، قالوا بدعوى المهدية وأن أكثرهم فشل فى دعوته فقتل أو هرب ، ثم ذكر علاقة فكرة المهدى بالمتصوفة فقال : «إن المتقدمين منهم لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا وإنما كان كلامهم فى المجاهدة بالأعمال ثم كان كلام الإمامية من الشيعة فى تفضيل على والقول بإمامته وادعاء الوصية له ، ثم حدث بعد ذلك القول بالإمام المعصوم ، وجاء آخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بواسطة التناسخ ، وآخرون يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول فتسرب هذا إلى الصوفيه فقالوا بالقطب وقالوا بالحلول كالذى كان من الحلاج وأشباهه ، ويقول إن المتصوفة الذين عاصروا ابن خلدون أكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره . . .

ومن رأى ابن خلدون أن من نجح من دعاة المهدية يرجع نجاحه لا إلى أسباب دينية وتنبؤات ونحو ذلك وإنما يرجع

إلى أن له عصبية قوية تحميه وتدافع عنه ، كالذى حدث للفاطميين والقرامطة وغيرهم ، وأما من فشل منهم ففشله يعود إلى ضعف عصبيته ، ولذلك كان منهم من قتل ومنهم من هرب وذلك وفاقاً لنظرية ابن خلدون التى أثبتها فى محل آخر وهو أن الملك لا يقوم إلا على أساس من العصبية وعلى هذا قامت دولة بنى أمية لتعصب الأمويين لها ، وقامت دولة بنى العباس لتعصب الخراسانيين لها ، وهذا هو السر فى الحديث المأثور « الأئمة من قريش » والسر فى ذلك عصبية القرشيين لهم ، ولذلك تدور العلة مع المعلول فإذا كانت هناك عصبية أقوى من عصبية قريش فصاحبها أولى كالجنود الأتراك الذين كانوا يتعصبون للمعتصم ، ونحو ذلك من الجنود المصطنعة ، فالمهدية أيضاً قامت على أساس هذه العصبية وقد قواها إلصاق المهدية بالدين ، والناس للدين أكثر انقياداً .

وقد قرأت رسالة للأستاذ أحمد بن محمد بن الصديق فى الرد على ابن خلدون سماها « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون » وقد فند كلام ابن خلدون فى طعنه على الأحاديث الواردة فى المهدى وأثبت صحة الأحاديث ، وقال إنها بلغت حد

التواتر ونقل أحاديث أخرى لم يذكرها ابن خلدون وكان من رده عليه ، أن ابن خلدون قال إنه لم يخلص من هذه الأحاديث التى وردت فى المهدى إلا القليل أو الأقل منه ، فسأله فى صراحة وماذا تصنع بذلك القليل ، هل لا يؤمن بالقليل إلا إذا شهر أو تواتر ؟ كلا لا يمكن ذلك لأنه لا يرى هذا الرأى ولا رآه أحد قبله ولا بعده ، ثم نقده أيضاً فى أنه احتج فى مواضع أخرى من تاريخه بأحاديث أفراد ليس لها إلا مخرج واحد وفى ذلك المخرج مقال ، أتراه إذا وافق الحديث هواه قبله ولو كان حديث آحاد ، وإذا لم يوافق هواه لم يقبله ولو كان صحيحاً ؟ ؟ ثم رد عليه فى دعواه نسبة رأى بعض الصوفية فى الحلول وأنه مستقاة من الشيعة بأن هذا غير صحيح وأن ابن خلدون لم يفهم معنى الحلول ، ثم قال إنه يؤمن بأحاديث المهدى لما ورد فيه من الأحاديث الصحيحة والحسنة وأن ابن خلدون مبتدع والمبتدعة أقسام ، منهم من كفر ببدعته كالمجسم ومنكر علم الله للجزئيات ، ومنهم من لا يكفر ببدعته وهو من ابتدع شيئاً دون ذلك وربما عد ابن خلدون من هذا القبيل . وقد أطال فى ذلك وخالف ابن خلدون فى دعواه الكذب أو الضعف

فى كل من روى عنه ابن خلدون ، وروى عن جماعة من أهل العلم ، قالوا شعراً فى المهدى يثبتون وجوده ، مثل :

وخبر المهدى أيضاً وردا ذا كثرة فى نقله فاعتضدا

ومثل قول السيوطى :

وما رواه عدد جم يجب إحالة اجتماعهم على الكذب

... إلخ إلخ

فلئن كان ابن خلدون قد قال بضعف الأحاديث الواردة فى المهدى إلا أقلها فإنه اعتمد فى رد هذا لا على السند وحده ولكن على مخالفة المتن لحكم العقل أيضاً ، والظاهر أن مذهب ابن خلدون قبول خبر الواحد إذا أيده حكم العقل ورفض الأحاديث الكثيرة إذا لم يؤيدها العقل وهذه بعينها كانت طريقة كبار المعتزلة كالنظام وأبى الهذيل العلاف ، فلهم فى الحديث طريقة خاصة غير طريقة المحدثين ، فالمحدثون يعتمدون فى النقد والإثبات على السند وحده ، أما المعتزلة وعلى رأيهم ابن خلدون فيعتمدون على نقد السند ويحكمون العقل فى المتن ، ولا سيما أن كل الحسابات التى بنيت على ظهور المهدى فى وقت معين وفى مكان معين استناداً على اليازرجات والملاحم والتنبؤات

وحساب الجمل ظهر كذبها ولم يصح منها شيء فكل حركة من حركات المهدية سواء منها ما نجحت وما لم تنجح قد قضى عليها إما فى مهدها أو بعد قرون قصيرة أو طويلة وما نجح منها كالفاطميين والقرامطة والحشاشين لم يملأوا الأرض عدلا كما ملئت ظلماً على حساب دعواهم ، بل كان مثلهم مثل غيرهم وكانوا فى مدة حكمهم محتاجين هم أنفسهم إلى مهدى آخر يذهب بظلمهم ، ونحن نعلم من التجارب أن الله جعل للعدل والظلم قوانين اجتماعية كالقوانين الطبيعية للأشياء، والقوانين الاجتماعية هذه ليس منها إمام مستتر يعيش مئات السنين وهو فى استتاره يحرك أتباعه ليزيلوا المظالم ، إنما الطريق الطبيعى هو ظهور مصلح اجتماعى يشعر الناس بالألم من الظلم والطموح إلى العدل فيضطهد ويعذب ولا يزال أتباعه يكثرون وكلما عذب أمام الناس ازدادت دعوته قبولا ، حتى يقوى فيزيل المظلمة أو المظالم التى دعا إلى إزالتها ويحل الصالح محل الفاسد .

وقد قرأت رسالة أخرى فى هذا الموضوع عنوانها « الإذاعة لما كان وما يكون بين يدى الساعة » لأبى الطيب بن أبى أحمد

ابن أبى الحسن الحسينى ذكر فيها أيضاً أقوال ابن خلدون ورد عليه وعد أقواله زلة زلها وليست من التحقيق فى شىء واستخلص أخيراً أن المهدى يظهر فى آخر الزمان وأن إنكار ذلك جرأة عظيمة وزلة كبيرة .

وأما السنيون فعقيدتهم فى المهدى أقل خطراً لأنهم يعتقدون أنه من أشراط الساعة كالمسيح والدجال وأنه لا بد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الإسلامية ويسمى المهدى ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة على أثره ، ثم ينزل عيسى فيقتل الدجال ثم يأتم عيسى بالمهدى إلى غير ذلك .

ولكن لما كانت الساعة أو آخر الزمان غير معلوم الوقت كان كل خارج يدعى أنه المهدى وأنه علامة آخر الزمان إلى غير ذلك — وقد كتب الإمام الشوكانى كتاباً فى صحة ذلك سماه التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر والدجال والمسيح .

وأنا ممن يرى رأى ابن خلدون فى ضعف هذه الأحاديث المهدوية وفى أن من نجح من المهديين ، إنما نجح لكثرة أتباعه

وقوتهم ، وفشل من فشل لقلة أتباعه وضعفهم ، ولسنا ننصر ابن خلدون لسنيته ولا نضعف خصومه لشيعتهم .

إنما نقبل ما نقبل ونرفض ما نرفض للحق وحده حسبما نعتقد وكلام ابن خلدون أقرب للعقل ، ولئن كانت الأحاديث المروية عن المهدى قد ضعفها ابن خلدون لسندها فهناك وجه آخر لتضعيفها ، وهو عدم ملاءمتها للعقل إذ كيف يعقل إمام معصوم يخرج فى زمان قد حدد وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً ، بل إن الواقع أيضاً ينافى ذلك ، حتى إن من نجح من دعاة المهدية وأسس دولة لم يحقق عدلا ولم يرفع ظلماً ، بل كان الثائرون والمثور عليهم على دين واحد وسياسة واحدة ، كما بينا ذلك .

وقد نظم الصوفية — كما قال ابن خلدون — مملكة باطنية على نظام المملكة الظاهرية ولقبوا أصحابها ألقاباً منهم الأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء وعلى رأسهم القطب ، وهم يرتقون فى المناصب كما يرتقى الموظفون ، وهذا القطب يعلم ما كان وما يكون وقد سئل أحمد بن تيمية : « هل فى الوجود طائفة من أولياء الله يقال لها الأوتاد وأخرى يقال لها الأبدال ، وغيرها يقال لها النقباء ، وخلافها يقال

لها النجباء ، ورئيس على الكل يقال له القطب الغوث الفرد الجامع ، فقال إن إطلاق هذه الأسماء من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان ، بل ذلك كله كذب وضلال لا أصل له فى كتاب الله ، ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم ، والله تعالى يقول : "قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله" ، ويقول : "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب" ، ويقول : "قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسنى السوء"... وقد قال الوهابيون بقول ابن تيمية هذا ، وقد أقام بعض الصوفية مراسيم كمراسيم الدولة الظاهرية وقالوا : إنه تجب لصحة القطب أن يبايع فى دولة الباطن ، كما يبايع الخليفة فى دولة الظاهر ، وقد قال ابن الجوزى إن أحاديث الأبدال كلها موضوعة ، وهؤلاء الأبدال الذين يزعمون أنهم أربعون كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وقد ربطوا هذه الأخبار عن الأقطاب والأبدال وغيرهم بأخبار الخضر إذ كان يعلم علم

الباطن على حين موسى عليه السلام كان يعلم علم الظاهر ، وزعموا أنه حى مستتر فى كل زمان !.

وأخيراً نقرأ فى الدولة العثمانية نظام الفتوة وتعاون بعضهم مع بعض وفرقة البكطاشية والنقشبندية ونحو ذلك من نظم سرية وتعاليم خفية فنسمع منها صدى لأنظمة الإسماعيلية ودعواتهم بل ربما كانت صدى لتأثير المبادئ الإسماعيلية فى أوربا فهناك ما يشبه تعاليمهم فى نظم الأديرة والجمعيات ، بل ربما كان للقرامطة تأثير بين فى نظم الرهبنة اليسوعية وربما تكشف الأيام عن ذلك ، وقد كان من مبادئ القرامطة فرض ضرائب على الفقراء لتوزع على المرضى والمحتاجين منهم عند الضرورة وهو شيء يشبه عمل النقابات الحديثة وكم نقل الصليبيون فى حروبهم مع المسلمين من أنظمة فلعل منها النظام الإسماعيلى والديموقراطى الذى ساد الجمعيات الأوربية .

من هذا نرى كيف لعبت المهدوية فى تاريخ الإسلام وإصابته مع الأسف بمصيبتين كبيرتين : إحداهما إضعاف شأن المسلمين إضعافاً كبيراً بهذه الثورات المتتالية ، وثانيتهما بنشر هذه الأساطير والأوهام بينهم مما أضعف عقولهم ،

وهما ضرران كبيران . وكثيراً ما يعتقد الناس الاتصال فعلا بالمهدى وتلقى تعاليمه كالذى رواه الشعرانى من أن هناك اجتماعات روحية صوفية وأنه كان أحد أفراد هذه الجمعية وهو صديق للشعرانى واسمه الشيخ حسن العراقى أفضى إليه بأنه وهو فى حداثته كان يقيم فى دمشق وأنه أضاف المهدى أسبوعاً عنده وأخذ عنه أساليب الذكر والزهادة وأنه يستفسر من المهدى عن كل ما أشكل عليه وأن هذا الاتصال سبب له طول العمر فقد كان سن العراقى عندما تحدث بهذا الحديث يبلغ من العمر ١٢٧ سنة .

وقد ساح بعد ذلك إلى الهند والصين ثم رجع إلى مصر ومنعوه من دخولها ، وهناك قصص كثيرة حول الاتصال بالمهدى والأئمة المختفين وقد كانت هذه الفكرة تملأ أذهان الناس حتى استفتى فيها ابن حجر الهيثمى وكان السؤال يدور على أنه سئل عن طائفة يعتقدون فى رجل مات منذ أربعين سنة أنه المهدى المنتظر الموعود بظهوره آخر الزمن ويعتقدون أن من أنكر مهديته فقد كفر فما قوله فى ذلك ، وقد سبب ذلك أنه وضع كتاباً فى أحاديث المهدى والمهدوية سماه « القول المختصر فى

علامات المهدى المنتظر » .

وقد كان من جراء ذلك أن ألقى درساً كبيراً فى هذا الموضوع فى مكة حين حج ، وقد ذكر بعض المستشرقين فى كتاب ألفه عن فرق الإسلام أن بعض رجال الهنود ظهروا فى الهند وادعوا المهدية بينهم رجل يدعى الشيخ محمد الجونبورى دعا هذه الدعوة ونفى من بلاد الهند وتوفى سنة ١٥٠٥ ، إلى كثير من أمثال ذلك وعلى الجملة فقد كانت هذه الحركة المهدوية حركة دائمة لا تنقطع فى إثارة الفتن والقلاقل ، ولو كان قد من الله على المسلمين بفنائها لتغير وجه تاريخهم ، ونرجو أن التنبه الحديث والوعى القومى الكبير يقضى على هذه الأساطير .

وربما كانت ثورة المعرى الفكرية سببها ما شاع فى أوساطه من الدعوة إلى الإمام والمهدى المنتظر وتلقى التعاليم عنه ، فثار أبو العلاء على ذلك وقال إنه لا يؤمن بإمام ولا مهدى وإنما يؤمن بالعقل ، ولذلك أكثر فى تقدير العقل وإحلاله أعلى مكان وقال فى ذلك أبياتاً كثيرة من أوضح ذلك قوله :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

فالإمام الذى يشير إليه هو ما كان يشاع فى محيطه من مهدى منتظر فقال كذب الناس إنما الإمام هو العقل وقوله :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندى من أخبارهم طرف
يخبر العقل أن القوم ما كرهوا   ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلا وماجوا فى ضلالتهم   ولا يفوزون إن جوزوا بما اقترفوا

وقولـــه :

خذوا فى سبيل العقل تهدوا بهديه   ولا يرجون غير المهيمين راج
ولا تطفئوا نور المليك فإنه   ممتع كل من حجى بسداد

وقولـــه :

ساس الأنام شياطين مسلطة   فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم   إن بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقـــال :

رويدك قد غررت وأنت حر   بصاحب حيلة يغظ النساء
يحرم فيـــكم الصهباء صبحاً   ويشربها على عمد مساء

. . . إلخ

فهو يصور قيام الدعاة إلى إمام مستتر وظلم الناس وفسادهم ويدعو إلى استعمال العقل كما أمر الله .

* * *

وأخيراً أطلقت فى مصر كلمة المهدى على من أسلم وكان هو أو أبوه نصرانياً ويسمونه فى سوريا المهتدى بدل المهدى وذلك كالشيخ المشهور بالشيخ محمد الحفنى المهدى وقد كان من قوم أقباط فأسلم وتعلم فى الأزهر وما زال يتفقه حتى ولى الجامع الأزهر ، وكان يتداخل فى الأمور واتصل بالفرنسيين عند دخولهم ، ولما رتبوا الديوان الذى يجرى الأحكام بين المسلمين جعلوه فى ديوانهم ، وكان هو المشار إليه وكان الناس يقصدونه فى الحوائج ويمشون حوله وأمامه وتقبل شفاعاته ويأتى إليه الفلاحون بالهدايا من أغنام وسمن ونحو ذلك وأثرى ثراء عظيماً واستمر فى مشيخة الأزهر والتدريس فيه واختاره محمد على باشا ليسافر مع ابنه طوسون إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين ، ولما رجع انتقض عليه الأزهر فعزل إلى آخر ما كان . وممن لقب بهذا اللقب شيخنا الأستاذ محمد المهدى وكان أستاذا لنا فى مدرسة القضاء وأحد تلاميذ الشيخ محمد عبده المقربين إليه وقد كان من أصل

نصرانى ولذلك كان يسمى الشيخ محمد المهدى زيكو .

هذه الثورات الذى ذكرناها هى النتائج المادية لفكرة التشيع وفكرة المهدية .

وهناك نتائج بعيدة المدى، فهناك أفكار شيعة ومهدوية تسربت إلى العلوم والفنون حتى يصعب على الباحث المدقق استخراجها، نجدها فى التفسير وخاصة التفسيرات الروزية لبعض الآيات القرآنية ، وفى الأحاديث التى وضعت بإحكام كبعض أحاديث رواها الحاكم وغيره فى أخبار المهدى وموعد ظهوره وكونه من أشراط الساعة وغير ذلك، وهناك الآراء المنسوبة إلى التصوف وتطبيقهم فكرة المهدى على فكرة الأقطاب، وكأفكار الحلاج فى الحلول تشبيهاً لما قاله المهديون فى الأئمة ، وهناك تعاليم القرامطة والفاطمية فى أشعار المتنبى وابن هانئ وغيرهما . وكلما جد الباحثون أمكنهم بعد التدقيق أن يربطوا بين أشعار للشعراء ومعان للتشيع قريبة الشبه . وإن الفنون فى بعض الأحيان تنزع فى بعض تصميماتها إلى فن فارسى شيعى كالمحاريب المقرنصة وكطابع الخشب المحفور ورسم النباتات والحيوانات التى تتعارك ، أما التاريخ فقد عبث به كل العبث فترى نزعة مهدوية شيعية

تلون الأحداث تلويناً زاهياً بديعاً، ومن سنى يلونها تلويناً أسود قاتماً كالذى رأينا فى نسب الفاطميين إلى فاطمة ، منهم من يؤمن بصحته كل الإيمان ومنهم من ينكره كل الإنكار، وكل .دم يستخرج الباحثون تسرب القضايا الشيعية إلى العلوم والفنون المختلفة وحتى النحو نرى فيه هذه النزعة أيضاً كنسبة وضعه إلى أبى الأسود الدؤلى عن على بن أبى طالب ومثل تمثيلهم بقولهم قضية ولا أبا حسن لها إلخ . . .

وعلى كل حال فلعل للمسلمين عبرة من هذا التاريخ الطويل المحزن — وتطور الأحوال يدلنا على أن الزمان قد تغير وتغيرت العقليات فأصبح لا يجوز على العقول أمام مختف أو مهدى منتظر وحل القادة والمصلحون والزعماء محل الأولياء وحل الإقناع بالحجج محل الإرهاصات والتخرصات . والدعوة إلى الإصلاحات محل التنبؤات والتكهنات والاعتماد على البازرجات والتنجيمات وكلما كبر العقل وزاد الوعى قلت الأوهام .

إن عقلية الجيل الحاضر التى تتحرى الأخبار وكشف الأستار والإصغاء إلى الرأى وما يؤيده وما يعارضه لا يمكن أن تؤمن بإمام معصوم يعيش فى الخفاء ويوحى من وراء ستار بالأوامر

والنواهى ولذلك كفر أبو العلاء الذى تقدم زمنه بالإمام المعصوم وقال "لا إمام إلا العقل ولا سلطان إلا سلطان العقل وأشاع فى لزومياته عدم تقديس الإمام وأفاض فى ذلك كما رأينا إذ رأى ما حوله من البلاد يخضع للحمدانيين التابعين للفاطميين ويخضع لداعى الدعاة وقول الدعاة بإمام معصوم فقابل الإلحاح بالإلحاح والدعوة إلى الخفاء بالدعوة إلى المكشوف .

والحق أنى لم أقصد ببحثى هذا إلا الحق لا تأييداً لسنيين ولا حطاً من شيعيين فكما نقدت الشيعيين فى دعوتهم وسلوكهم أيام مكن لهم فى الحكم نقدت الخلفاء السنيين فى اضطهادهم للعلويين والتنكيل بهم تنكيلا شديداً فلا فرق عندى بين مذهب ومذهب ، وإنما الحق أردت وبحثت بحثاً تاريخياً بقدر ما يمكننى من التحقيق وقد يكون هناك لوم علىّ فى أنى اعتمدت فى أكثر ما اعتمدت على الكتب السنية التى وصفت عقائد الشيعة . وعذرى فى ذلك أن المصادر الأصلية عن الإسماعيلية والقرامطة وتعاليم الفاطميين والموحدين قليلة بالنسبة لى . ومهما كانت عقيدتهم فلا ينكر منصف نقدهم فى سلوكهم خصوصاً وأنهم دعاة العدل المنفرون من الظلم .

وأحب أن أفرق بين باحث يبحث المسائل من حيث تاريخها وتأثيرها السياسي والاجتماعي وبين داع يخطب في تأييد مذهب أو نقده فالمؤرخ لا يهمه ماذا فعل أهل هذا المذهب وهل هم على حق أو باطل ، إنما يهمه البحث التاريخي مهما كانت النتائج سوداء أو بيضاء وإذا نقد فيجب أن ينقد إما لضعف سنده أو غلطة في الاستنتاج ولا ينقد على أساس العواطف التي تواضع أهل المذهب عليها . أما الداعي فإنما يدعو لغاية معينة ويحاول أن يفسر ما كان ضده على حسب مايهواه لا على حسب الحق ، لهذا أسف كل الأسف إذا كان في كلامي في هذه الرسالة أو في فجر الإسلام وضحاه وظهره مايغضب إخواننا الشيعيين ، وأقرر لهم أن هذه النتائج نتائج تاريخية لا نتائج دعاية فليتقبلوها على ما هي عليه وليس أحب إلى نفسي مع هذا من القضاء على العداوة بين السنيين والشيعيين . فما أحوجنا إلى الصداقة خصوصاً في هذا الزمان ومن أجل ذلك رحبت بالانضمام إلى جماعه التقريب لأنه غاية ما أتمنى ، ولست أريد إثارة فتن جديدة إلى الفتن القديمة ، وإنما أردت أن أبين وجه الحق للعلماء والباحثين .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

جدول تاريخى لأهم الأحداث المتصلة بفكرة المهدوية

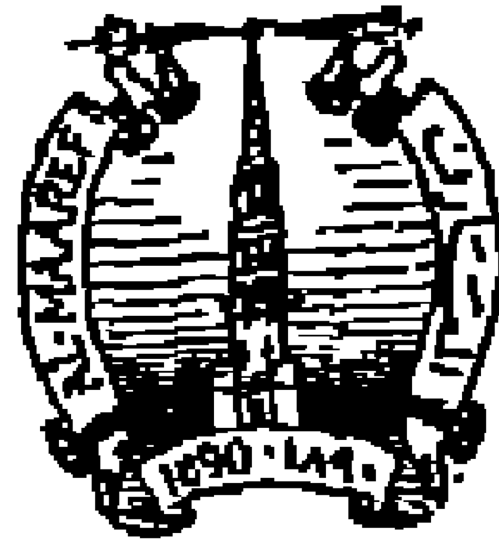
سنة بالتاريخ الميلادى	
٦٥٦ — ٦٦١	خلافة على
٦٨٠	مقتل الحسين فى كربلاء
٦٨٥ — ٦٨٧	ثورة المختار فى العراق
٧٦٢ — ٧٦٣	ثورات العلويين فى العراق والمدينة
٨٦٠	ظهور القرامطة
٩١٠	عبيد الله المهدى وبدء الدولة الفاطمية
٩٢٨	القرامطة يدخلون مكة ويحملون الحجر الأسو
٩٤٤ — ٩٦٧	سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب
٩٩٦ — ١٠٢١	خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى
١٠٧٢ — ١٠٩٢	وزارة نظام الملك

سنة	
١١٠٧ ـ ١١٣٠	دولة الموحدين
١١٧١	قضاء صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية .
١٢٥٨	هولاكو يستولى على بغداد ونهاية الدولة العباسية
١٧٥٧	استيلاء الوهابيين على الأحساء
١٨٠٣ ـ ١٨٠٤	استيلاء الوهابين على مكة والمدينة
١٨٤٣	تأسيس السنوسية فى طرابلس الغرب
١٨٤٤	ظهور البابيـــة
١٨٥٠	الفتك بأتباع الباب
١٨٧٠	ظهور المهدى فى السودان
١٨٨٨	المهديون يخضعون مقاطعة خط الاستواء
١٨٩٦	كتشنر يقضى على المهديين فى أم درمان

فهرس لأهم موضوعات الكتاب

صفحة

صفحة



دار المعارف بمصر

تقدم

لجمهور القراء ولجميع الأسر

مشروعاً حيوياً جديداً

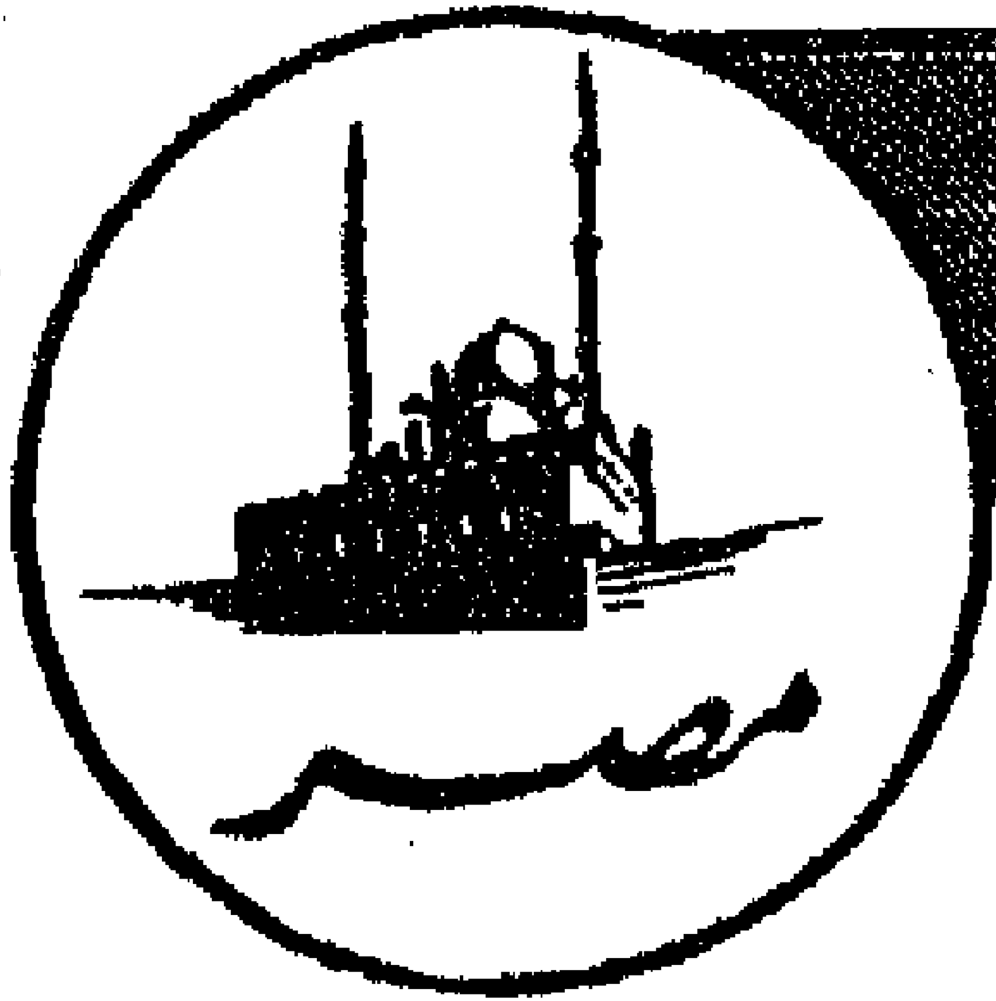
فيه نهضة فكرية وفيه حياة راقية

مكتبات المنازل

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

المركز الرئيسى بالقاهرة :	شارع مسبيرو رقم ٥	ت ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة :	شارع كامل باشا صدقى رقم ٩	ت ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية :	ميدان محمد على رقم ٢	ت ٢٣٥٨٨
مكتب السودان :	سودان بوكشوب بالخرطوم	ت ٢٠٨٩
مكتب سوريا ولبنان :	شارع السور بناية العسيلى ببيروت	ت ٦٧/٣٥



سفريات منتظمة
بين مصر والمانيا
بطائرات سعيده
ذات ٤ محركات





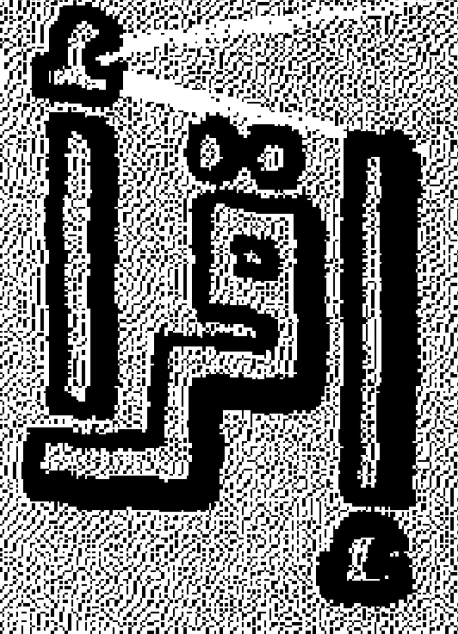
جنيها
القاهرة ميونخ ٥٤,٦٠٠
القاهرة فرانكفورت ٦١,٠٠

سعيده

٢٧ شارع عبد الخالق ثروت باشا بالقاهرة - تليفون ٤٢٤٤٦ ٥٨٥٨٥



لذيذة وفوارة



الدكتورة بنت الشاطئ

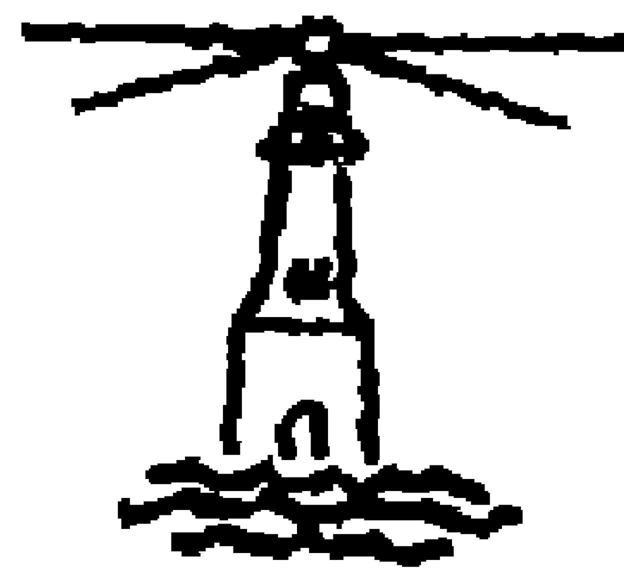
أرض المعجزات

دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



الدكتورة بنت الشاطئ

أرض المعجزات

الطبعة الخامسة

اقرأ ١٠٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٠٤ — الطبعة الخامسة

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

رحلة

فى مستهل عام ١٩٥١ : ١٣٧٠ هـ ، تلاقى جمع من أساتذة جامعة القاهرة وطلابها ، يتحادثون فى أمر عطلة نصف العام التى كانت تدنو حينذاك ، فاختار فريق أن يذهب إلى السودان ليتعرف إلى إخواننا أبناء الجنوب ، وآثر آخرون أن يحجوا إلى الحجاز معتمرين زائرين . وهى رحلة كانت جديرة بأن تستهوى كل المسلمين منا ، وتجذب إليها دارسى العربية وأدبها ، والإسلام وتاريخه . لكن قيمة الاشتراك فى الرحلة حددت بخمسة وأربعين جنيهاً ، فحال هذا المبلغ دون أكثر الراغبين ، ولم يبق منهم سوى عشرة : اثنان من أسرة كليـــة الآداب ، وخمسة من الطب ، واثنان من كلية التجارة ، وواحد من كلية الزراعة .

وضع برنامج الرحلة مقتصراً فى بادئ الأمر على الذهاب بالطائرة إلى « جدة » ومنها بالسيارة إلى «مكة» لقضاء سنةالعُمْرة ومشاهدة أرض المبعث ومهد الإسلام ، ثم الرحيل بالطائرة إلى

« المدينة المنورة » لزيارة قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والطواف بالمشاهد التاريخية الباقية فى دار الهجرة .

* * *

غير أن لفتة كريمة من حضرة صاحب السمو الملكى « الأمير فيصل آل سعود » — جلالة الملك فيصل — الذى كان يزور مصر آنذاك ، أفسحت الأفق المحدود أمام أعضاء البعثة ، ووعدتهم بجولة واسعة المدى ، يبلغون فيها نجداً والدهناء ، ويصلون إلى شرق الجزيرة حتى الأحساء والبحرين[1].

قبل موعد السفر بأيام تشرف ثلاثة من أعضاء البعثة : أستاذنا أمين الخولى ، والدكتور عبد السلام العيادى ، والدكتور محمود المنجورى ، بمقابلة سمو الأمير الجليل فى جناحه الخاص بفندق سميرامس ، فتفضل سموه وشمل البعثة برعايته السامية ، وأوفد السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، صباح الأحد الرابع من فبراير ١٩٥١ .

وأقلتنا طائرة سعودية من طراز داكوتا ، إلى الأرض المباركة ،

---

(١) لمعرفة هذه الأماكن وغيرها من أعلام البلدان فى الكتاب ، راجع المصور الجغرافى ، فى الصفحة الأخيرة .

عبر الصحراء الشرقية وقناة السويس وشبه جزيرة سينا ، فلما بلغنا مطار المدينة المنورة ، أذن لنا فى استراحة قصيرة ريثما أحرَمنا ، وتوجهنا من بعد ذاك إلى « جدة »، فما كدنا ننزل من الطائرة حتى رأينا حشداً كريماً فى استقبالنا ، يتقدمه مندوب سمو الأمير عبد الله الفيصل ، والأستاذ حسن شعيب القائم بأعمال المفوضية المصرية بجدة ، ومندوب عن وزارة الخارجية ، وآخر عن المعارف ، وعدد من مندوبى الصحف والإذاعة اللاسلكية .

وكانت مفاجأة سارة لنا ، أن أُبلغنا ساعةَ وصولنا ، أننا ضيوف صاحب الجلالة الملك عبد العزيز عاهل الجزيرة ، ما أقمنا بها .

وفى الفندق تناولنا غداءنا واسترحنا قليلا ، ثم استقبلنا وفود المرحبين من أهل جدة الكرام .

ولما حان الأصيل ، قصدنا إلى « مكة المكرمة » محرمين معتمرين ، فصلّيْنا العشاء فى المسجد الحرام وأتممنا الطواف والمسعى ، ثم أوينا بعد العمرة إلى دار الضيافة ، حيث تتابعت وفود العلماء والشعراء لتحيتنا والترحيب بنا .

وفى الصباح زرْنا معالم أم القرى ، ثم رجعنا إلى جدة فتناولنا

غداءنا فى القصر الملكى بدعوة من سمو «الأمير عبد الله الفيصل»

وكانت جلسة حافلة ممتعة مع الأمير الشاعر ، دار الحديث فيها عن العرب والإسلام ، وعن الاتجاهات الأدبية الحديثة ، والمعارك النقدية فى مصر اليوم ، والمرأة المسلمة بين ماض وحاضر.

وقال سموه مودعاً : « أنتم فى داركم وبين أهليكم ، لن نقيدكم ببرنامج للرحلة أو نوجه خط سيركم . لكم أن تعربوا عن رغباتكم ، وعلينا التنفيذ . . . » .

وبهذا أزيلت الحدود التى كانت تقيد مسيرنا ، فلا تأذن لنا بتجاوز منطقة « جدة — مكة — المدينة » ، ورنونا إلى بعيد .

وفى دار السيد « محمد سرور الصبان » ، رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نمضى إلى « الظهران » ، ومنها إلى « القطيف فالبحرين » ، ثم نعرج على « الرياض» فى طريقنا إلى « المدينة المنورة » .

* * *

رحلتنا إلى « الظهران » كانت حافلة مثيرة ، حيث أمضينا هنالك سبعة أيام ، نتجول فى المنطقة ، ونسمع قصة

البترول ونجتلى آية العلم الذى كشف عن سر الصحراء ، يرافقنا فى جولتنا السيدان « الشيخ عبد الرحمن الشيبانى سكرتير سمو أمير الظهران ، وعبد الله القريشى » .

وكان قائد قوات الشرق الأوسط يزور ميناء « راس تنُّورة » فى جولة له بالخليج ، فدعانا مع الأمير تركى — أمير راس تنورة — لتناول الشاى على البارجة الأمريكية « دوكسبرى باى » .

وأمضينا يوماً بأكمله فى جولة بحرية بالخليج على ظهر زورق بخارى أعدته لنا إمارة « الدمام » وزودته بالطعام وكل وسائل الراحة .

وقبيل رحيلنا عن « الظهران » ، أقام لنا « السيد الشيخ عبد الله السليمان : وزير المالية » وليمة غداء فى بستانه الشهير بالدمام ، ثم تناولنا العشاء فى دار الإمارة مع حضرة « صاحب السمو الأمير عبد المحسن بن جلوى » وشهدنا فى المساء حفلة سمر بدار السيد مدير مطار الظهران .

وتفضلت الأميرة الكريمة حرم الأمير الشيخ عبد المحسن ، فاستقبلتنى فى دارها لتحيي فى شخصى بنات

الكنانة ، وكان لقاؤنا رمزاً لما بين مصر والجزيرة من أواصر القربى والجوار والمودة .

وبلغنا « القطيف » على ساحل الخليج العربى من شرق نجد ، فرحب بنا علماؤها وأعيانها ، واحتفلوا احتفالا كريماً بأول بعثة مصرية تصل إلى تلك البلدة التاريخية النائية .

* * *

وفى « الرياض » ، كان لقاؤنا بجلالة الملك العاهل « عبد العزيز آل سعود » الذى استقبلنا مرحباً « بأبناء مصر العزيزة والوادى الطيب » وتحدث رحمه الله عن قضايا الإسلام والعرب حديثاً مثيراً ومؤثراً . وتهدج صوته وهو يذكر محنة الأمة بمأساة التقسيم ، ويلمح على البعد نذر النكبة ، ويوده لو يقدم بنيه جميعاً فدية لشرف الأمة .

وخصنى جلالته بعطف كريم ، إذ لقبنى : « بأميرة الصحراء » .

* * *

ونقلتنا الطائرة إلى جدة فالمدينة ، حيث لبثنا هناك ثلاثة أيام فى جوار الحبيب المصطفى ، نطوف بالمشاهد المجيدة الخالدة لدار

هجرته ، ونسير حيث سارت خُطاه .

* * *

ثم عدنا إلى مصر . . .

عدنا نحمل أطيب ذكرى لأكرم ضيافة وأطيب رحلة . .

ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة العربية تتراءى لى من بعيد، فأسترجع الذكريات المثيرة لرحلتى إلى « أرض المعجزات » : مهد العربية التى تجلت فيها آية إنسانيتنا الناطقة ، ومنزل الوحى الذى تجلت فيه آية الفجر الصادق من ليلة القدر التى غيرت بالإسلام تاريخ العالم ، وقررت مصاير دول وشعوب ، وعروش وتيجان ، وحضارات وديانات .

واليوم تتجلى فى صحرائها آية العلم ، تكشف عن سرها المطوى تحت كثبان الرمال وتدفع سيل الزيت دافقاً كالدم الحار فى شرايين الدنيا ، فتشارك فى تقرير المصير لعالم اليوم . . .

بنت الشاطئ

هليوبوليس { ١٣٧٠ هـ
١٩٥١ م

١

أرض المعجزات

- ليل الجزيرة ، وآية البيان
- الفجر الصادق ، ومعجزة الإسلام
- وراء الأسوار ، وآية العلم

— المعركة الكبرى

— وجهاً لوجه ، في قلب الصحراء

— ثورة في الصحراء

ليل الجزيرة ، وآية البيان

« خلق الإنسان . علمه البيان »

مرّت عليها القرون الطوال وهى قاحلة مجدبة ، رهيبة مرهوبة، يحوم حولها الخيال ثم يرتد عنها فزعاً مذعوراً ، لايكاد يميز بين صفير الريح فيها وعواء الوحش وعزيف الجان .

قال « ذو الرُّمّة »(1) :

ورملٍ لعزف الجنّ فى عقداته
هريرٌ كتضراب المغنّين بالطبل

وتتراءى الأشباح للسارين بليلٍ ، فيجسمها الوهمُ لا يكاد يفرق فى العتمة بين قطع الظلام وقطعان الغيلان التى تسرح طليقة الفلاة .

وإذ غابت عنهم أسباب ما يلقون فى ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغتات الأخطار ، ردّوها إلى هذه الكائنات الخفية التى تترصدهم وتباغتهم فى شخوصٍ شتى .

---

(1) ذو الرمة : غيلان بن عقبة ، الشاعر الإسلامى البدوى وأحد عشاق العرب المشهورين .

وعكف السُّمَّار فى بوادى الجزيرة ينسجون من تهاويل الخيال أساطير مروعة ، عن أفاعيل الجن وألاعيب الغيلان . كما راح الشعراء يهيمون وراء الرؤى العجيبة ، مع توابعَ زعموا أنها تلم بهم من وادى الجن فى مجاهل القفر ، فتأتيهم بروائع النغم وعبقرىّ القصيد .

قال شاعرهم :

إنى وإن كنت صغيرَ السن — وكان فى العين نُبُوٌّ عنى

فإن شيطانى أميـر الجن — يذهب بى فى الشعر كلّ فن

وقال « حسَّانُ بنُ ثابت » فى جاهليته[1] :

ولى صاحبٌ من بنى الشيصبا — ن فطوراً أقول وطوراً هوه

* * *

وكذلك مضوا يرهبون القفر ، ويتجنبون السير فى تلك الصحراء الموحشة ، إلا أن تدفعهم إليها ضرورات العيش ، حيث يتلمسون مواقع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر منْ فيها من الجن :

---

(١) حسان بن ثابت : الخزرجى الأنصارى المخضرم ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم .

قد استعذنا بعظيمِ الوادى من شرّ من فيه من العوادى

على أن منهم من تراءى له أن يستميل الجن إليه ثم يثوب إلى قومه يتحدث بالذى كان بينه وبينها من مواقف وصلات !

وللشاعر الصعلوك « تأبط شرًّا » مغامرات مع الجن معروفة [١]، صوّرها فى شعره من عطاء خياله. وقال شاعر منهم يصف جنًّا نزلوا به وهو يوقد لطعامه ، فدعاهم إلى الأكل فلم يلبوا الدعوة :

أتوا نارى فقلتُ : منون ؟ قالوا : سراة الجن ، قلت : عموا ظلاما
وقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسد الإنسَ الطعاما
لقد فُضلتم بالأكل عنّا ولكنْ ذاك يُعقبكم سقاما

بل إن منهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن :

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد
ألذ وأشهى من ركوب الأرانب !

وكذلك زعموا أن الجن ناحت على بعض موتاهم ، وتمثلت لهم الأحجار فى الفلاة صوراً وأشباحاً من الجان . نقل

---

(١) تأبط شراً : ثابت بن جابر ، شاعر جاهلى من الصعاليك انظر : (الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمفضليات للضبى) .

«أبو عبيدة ، معمر بن المثنى»[١] عن رجل من بنى طيئ أنه قال :

« رأيت قبر حاتم الطائى[٢] ببقة[٣] ، وهو جبل له واد يقال له : "الحابل" وإذا قدور عظيمة من أحجار مكفآت ناحية من القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها — يعنى الناس — وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة ، وعن يساره كذلك ، ولهن شعور منشورة كالنائحات عليه ، لم يُرَ مثلُ بياض أجسامهن وجمال وجوههن ! مثّلتْهن الجن على قبره ، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يسكُنّ . . . قال : وربما مرّ المار فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً » .

* * *

---

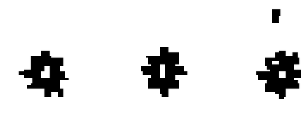
(١) أبو عبيدة : معمر بن المثنى التيمى ، من أئمة علماء اللغة فى القرن الثانى . (نزهة الألبا: ١٣٧ ، أخبار النحويين : ٥١ ، ٦٧) .

(٢) حاتم الطائى : ابن عبد الله بن سعد . الشاعر الجواد المشهور فى الجاهلية . راجع (الشعر والشعراء ١٢٣) .

(٣) بقة : موضع بديار بنى طيئ — وموضع آخر قرب الحيرة — انظره فى (معجم البلدان لياقوت) .

وقد بقيت هذه الرؤى والتصورات ، تشحن الوجدان العربى وتسيطر عليه دهراً طويلا ، فى القصص الشعبى ، وفى قصائد لشعراء إسلاميين .

وبقيت مغامرات الشعراء مع الجن فى مجاهل الفلاة ، تراثاً يتناقله الرواة من العصر الجاهلى ، حتى وصل إلى عصر التدوين الذى أبقى عليه ، لكونه من عصر أصالة الفصحى . وقد جمع « أبو عبيد الله المرزبانى » صاحب معجم الشعراء ، ما وصل منها إلى زمنه ، القرن الرابع للهجرة ، فى كتاب سماه (أشعار الجن) منه نسخة خطية بخزانة دار الكتب المصرية [١].



على أن الجزيرة فى ليل جاهليتها ، هى التى أعطت الدنيا اللغة العربية ذات الحيوية الفذة ، بعد أن هذبتها من قديمها الموغل فى أعماق الماضى ، ووصلت بها فى أواخر العصر الجاهلى إلى درجة نادرة باهرة ، من دقة الإحكام والصياغة وضبط الدلالات ، وعلو البيان . وجاء شعرها فى المرحلة المعروفة لنا ، قرنين قبل الإسلام ، متسق النغم مطرد الضوابط محكم البناء سخىّ الإلهام ، يمضى شاعرهم الجاهلى الأمى

فى قصيدته حتى يبلغ بها مائة بيت وأكثر ، دون أن يختل النسق أو يضطرب الإيقاع . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى تجلت آيتها الكبرى فكانت أهلاً لشرف نزول المعجزة القرآنية بها ، تجلوها فى ذروة نقائها وعز أصالتها ومعجز بيانها .

وسارت مع الإسلام ، تفرض وجودها على الدنيا ، لغة ختام الرسالات ، ولسان دولته . واستطاعت بحيوية فائقة أن تستجيب لحاجات الحياة اللغوية لشعوب أمته ما بين المشرق والمغرب ، وأن تلبى مطالب التعبير عن الوجود الفكرى والعلمى للحضارة الإسلامية القائدة الرائدة . . .

الفجر الصادق

« اقرأ باسم ربك الذى خلق »

شاء الله أن يجعل من بعض بقاع هذه الجزيرة مهداً لخاتم الأنبياء ومبعثاً لآخر رسالات الدين ، ومنزل الوحى لمعجزة خالدة على الزمان ، فإذا شعاع من النور ينبثق من بين شعاب « مكة » وأباطحها ، مبشراً بفجر صادق ينسخ ليل الجاهلية الذى امتد وطال ، وإذا صوت الرسول العربى يهتف عالياً من غرب الجزيرة : الله أكبر . . !

فتتداعى الأصنام ، وينتثر حطامها على أرض الحجاز تحت موطئ المصطفى الداعى إلى التوحيد . . .

وأبلغ الرسول عليه الصلاة والسلام رسالته . فكان أول ما أوحى إليه منها فى غار حراء :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم »

فأصغت الدنيا وقد بهرها أن تكون كلمة : « اقرأ » مستهل الرسالة التى بُعث بها النبى الأمى فى العرب الأميين .

وأن يكون بدء اليقظة من الجاهلية الجهلاء : آية الإنسان والعلم ، ينزل بها الوحى من الله : « الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

وتكون يقظة واعية ، تذهل الدنيا ، وتدفع بلواء الإسلام مع هذه القلة المؤمنة من العرب البداة الحفاة ، أبناء الجزيرة المجدبة الماحلة الأمية ، إلى آفاق العالم ، وتورثهم فى فترة قصيرة لا تكاد تبلغ عمر فرد واحد ، مُلك أباطرة اليونان ، وقياصرة الروم وأكاسرة الفرس وفراعنة النيل . . .

ولم تكد الدنيا تفيق من ذهولها ، حتّى كان أبناء الصحراء يطوون الممالك بلواء الإسلام من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، وحتّى كان الهتاف الذى انطلق من حنجرة « بلال بن رباح »[1] غداة الهجرة ، ترجّعه عشرات الألوف من المآذن فى شتّى أنحاء الأرض ، فيستجيب لدعائه الملايين من شتّى أجناس البشر !

---

(١) بلال بن رباح : صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم ومؤذنه . راجع ترجمته فى طبقات الصحابة .

وكُتبت للغة العرب حياة جديدة منذ نزل بها كتاب الإسلام الخالد ، معجزة النبي الأمى عليه الصلاة والسلام : فقد حملها ذلك الكتاب الكريم معه حيث سار ، ومكَّن لها فى مختلف الدُّنَى وبعيد الأقطار . فإذا قصائد البدو الرعاة ترددها الألسن جيلاً بعد جيل ، وإذا أحاديث الفتيان فى مسامر الجزيرة ودروب الصحراء ، تغدو تراثاً فنيًّا تعتز به دول وشعوب ، من مشرق ومغرب . .

ويظل القرآن الكريم يحمى وجود الأمة الإسلامية ويرهف وعيها ويضيء مسراها فى ظلمات المحن ، ويهدى خطاها على امتداد الزمان والمكان ، بنور الحق والخير والعلم والحكمة :

« هو الذى بعث فى الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة ، وإنْ كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

ومضت قرون قاربت أربعة عشر ، وملايين المسلمين يستقبلون المسجد الحرام فى « أم القرى » خمس مرات فى اليوم ، ومئات الألوف منهم يحجون إليها كل عام ، هاتفين من أعماق قلوبهم فى ضراعة وخشوع :

« لبيك اللهم لبيك . . .

« لا شريك لك لبيك » .

لكنهم ما كانوا يجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلاً عن أن يوغلوا فى أحشاء الدهناء والربع الخالى ....

وبقيت الصحراء خلال تلك القرون قائمة هناك ، بكل صمتها العميق وسرّها المرهوب ، تترامى وراء أسوار من جبال الحجاز الصخرية وتلال من كثبان الرمال ، وتمتد إلى سيف الخليج العربى فى عزلة موحشة ، لا تعرفها دنيانا وإن آمنت بدينها وبايعت نبيها ونطقت بلسانها واعتزت بلغتها . . .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى قبائل من البدو الرحل ، يهيمون فى أرجائها ملتمسين مواقع الغيث ومنازل

المطر ، وإن ظلت المدارس والجامعات فى أعرق عواصم العالم وحواضره الكبرى ، تدرس أدب الصحراء وتعلم طلابها قصائد الشعراء الجاهليين البداة ، وتقف بهم على ما وقفوا عليه من أطلال . . . وتحكى لهم مغامرات الصعاليك وملاهى الفتيان ، وتحدثهم عن نار حاتم[١] وناقتى طرفة والبسوس[٢] ، ووقائع مهلهل[٣] وعنترة[٤] ، وتكاد تسمعهم رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شد الرحال :

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من منادٍ ، ومن مجيب ، ومن تصـ
ـهال خيلٍ ، خلالَ ذاك رغاء .

(١) هى نار القرى التى كان حاتم يأمر غلامه بإيقادها فى ليل الفلاة .

(٢) طرفة بن العبد ، من شعراء المعلقات فى الجاهلية . وأكثر أبيات معلقته فى وصف ناقته .

والبسوس : خالة جساس بن مرة ، كانت لها ناقة مشئومة قتلها كليب سيد بنى بكر ، فقتله جساس التغلبى ، وشبت الحرب بين بكر وتغلب .

(٣) مهلهل بن ربيعة : أخو كليب وطالب ثأره .

(٤) عنترة بن شداد : العبسى ، من شعراء المعلقات . جاهلى فارس شجاع .

بقيت الجزيرة — فيما عدا أطرافها وقُراها — نائية مهجورة غامضة محجَّبة ، لا تريد أن تتصل بالدنيا أو تبيح حماها لغير أهلها من الأعراب البداة ، قد آثرت العزلة على الاتصال بالعالم خارجها ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالها التى لا يدركها الطرف ، أسواراً منيعة تحمى تقاليدها ، وأعرافها ، وأنماط حياتها ، غير مستجيبة لتطور الدنيا ولا مكترثة لسير الزمان .

وأستعير هنا كلمة « ر . ف . بودلى » فى كتابه[1] (الرسول) : « لو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقعة من الجزيرة لما وجد ما يثير دهشته : سيجد العرب فى خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون ، سيجد كل شىء فى مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ، ومظهرهم الجسمانى لم يتبدل » .

ولقد جدَّت على العالم من وراء أسوار الجزيرة ، أحداثٌ جسام غيرت وجه الحياة ، وتنقل الناس من عصر البخار ، إلى عصر الكهرباء ، ثم إلى عصر الذرة . . . من عصر الناقة ، إلى عصر القاطرة والباخرة ، ثم إلى الطائرة ، والجزيرة فى عزلتها الصامدة تتحدى كل تغيير ، وتمتنع على كل تطور ،

---

(١) ترجمه إلى العربية ، الأستاذان محمد محمد فرج ، وعبد الحميد السحار .

وتترامى صحاريها الثلاث : الدهناء والنفودُ والربعُ الخالى[1] ، حدًّا فاصلا بين عالم اليوم ، وتلك الصورةِ الباقيةِ من أقدم عصور التاريخ .

حياة فطرية ، ومشاهد لا تختلف فى شىء عن تلك التى عرفتها العرب البائدة منذ عهد موغل فى القدم ، ممتد إلى ما قبل التاريخ . . .

بحار من الرمال الناعمة ، تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحل الرعاة ، للمطر الشأنُ الأول فى حياتهم ، فهو حديث الناس ، أمرائهم وسوقتهم ، « وسؤال القادم يبدأ بالمطر والمرعى ، وكل من يعيش فى بلاد العرب يعرف الأثر العظيم الذى يحدثه المطر ، والتعاسة التى يسببها تأخره ، فأهل نجد لا يأبهون لشىء إذا رزقهم الله المطر تحيا به زروعهم وحيواناتهم ، وتشملهم السعادة بكل معانيها . . . »[2] .

« أما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة

---

(١) الدهناء صحراء شرق نجد ، والنفود شمالها ، والربع الخالى جنوبها .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب — ٥١ .

واحدة كل ثلاث سنوات أو أربع »[١] . .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لهم فرصة الحياة الناعمة فى حضر ، فأبوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة الكادحة المضنية ، الخشنة الجافية ، تلك التى تقصر الأجل لكنها تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . . .

وشهد الزمان عجباً من العجب : شهد المصريين فى وادى النيل غيرَ بعيد من الضفة الغربية للبحر الأحمر ، يشيدون المعابد الشامخة والأهرام والمقابر الصامدة ، منذ آلاف السنين ، وعلى الضفة الشرقية من هذا البحر ، بُداة رُحَّل ، لا يعرفون غير الخيام ، ولا يفهمون — فى القرن العشرين — فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية : «حتى إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين فى الثورة العربية ، إبان الحرب العظمى الأولى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف[٢] ،

---

(١) جزيرة العرب : ٦ .

(٢) الملك الحسين : الشريف الهاشمى ، كان ملك الحجاز حتى انتصر عليه النجديون بقيادة « عبد العزيز آل سعود » عام ١٩٢٥ .

والطائف : بلدة فى ثقيف ، على بعد ١٢ فرسخاً من مكة . طيبة الهواء عذبة المياه معشبة الرياض . انظرها فى : معجم البلدان لياقوت .

نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة السعودية بعض القبائل فى ثكنة جرول ، اكتشفت أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون مالا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب »[1] .

وحين كان المنطاد « جراف تسبلين » يحلق فى أفق الشرق الأوسط عام ١٩٣٠ ، والطائرات تغدو بعده فى سماء المنطقة وتروح ، كان عرب الجزيرة يرون التلغراف اللاسلكى من صنع الجن ، ويشفقون على عاهلهم الملك عبد العزيز من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان ، الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكى !

كتب « السيد حافظ وهبة : الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بلندن » : أن جلالة الملك أوفده للمدينة — عام ١٩٢٨ — مع عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإدارى

---

(١) جزيرة العرب : ١٦ .

والديني ، « فجرى ذكر التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات ، فقال الشيخ : لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقة أن التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ، ويذكر عليها اسم الشيطان ! ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان . ولقد كان شرحي لنظرية التلغراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ ، فلم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُّ على مضض . . .

« وفي يوم من الأيام ، دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة عم الرسول عند أُحُد[1] . . . وفي أثناء الطريق أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكي ، وهنا سأل الشيخ : لماذا أوقفت السيارة ؟ فأجبته : لنرى التلغراف اللاسلكي ، فإن كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإني سأحرقه مهما

(١) حمزة : ابن عبد المطلب بن هاشم ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، قتل شهيداً يوم أحد بين المسلمين والكفار من قريش ، بتحريض هند بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان وأم معاوية . راجع (السيرة لابن هشام ٣/١٦) و (طبقات الصحابة) .

وأحد : جبل قرب المدينة المنورة من الشمال ، وبه سميت معركة أحد . راجع (الطبري ، حوادث سنة ٣ هجرية) ، والجزء الثالث من (السيرة النبوية لابن هشام) . طبع الحلبي .

تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود ، وقد يكون الملك مخدوعاً فى أمر هذه التلغرافات ، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها . فقال الشيخ : بارك الله فيك .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها ، ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة ، وفى دقائق تبودلت المخابرات والتحيات بينه وبين جلالة الملك فى جدة[1] .

« كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاة للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات ، ولكنه ظن أنى ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك ، فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . . .

« وعندما وُضعت الآلةُ اللاسلكية فى الرياض[2] واستعملت ، كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو

---

(١) جدة : ميناء مكة على ساحل البحر الأحمر .

(٢) الرياض : كبرى حواضر نجد ، وعاصمة المملكة العربية السعودية .

الحد بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً .

« وقد أخبرنى عامل المحطة بأن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر ، لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل فى عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون هذا السر . . . »(١) .

ولم تكن السيارات ولا الدراجات ، أسعد حظًّا من اللاسلكى ، فركوب الدراجة — وتسمى بلغة نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس — كان حتّى عهد قريب ، إثماً ومعصية ، فهى بدعة ، تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان الإخوان يرون من حقهم — أو من واجبهم الدينى — منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث فى نجد ، منذ أقل من قرن ، أن أول ساعة دقاقة كُسرت ، وعُدّت من عمل الشيطان . ولما شاع

---

(١) جزيرة العرب : ٣٠٨ .

ظهورها قامت قيامة الإخوان من مشايخ نجد ، منكرين استعمالها ، معلنين « أن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » . حتى اضطر أحد المشايخ — الشيخ سعيد بن سحمان — أن يرد عليهم فى رسالة كتبها عام ١١٣٤ هـ — ١٩١٦ م وطبعت فى مصر عام ١٩٢٣ .

المعركة الكبرى

« من اليوم سنحيا حياة جديدة »
الملك عبد العزيز

فى مثل هذه العزلة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من سكان بادية الجزيرة يعيشون فى معقلهم وراء الأسوار ، يشهرون السلاح فى وجه كل تطور ، ويدفعون البدع العصرية بالسيف .

وكانت تلك هى المعركة التى خاضها المغفور له ، الملك عبد العزيز آل سعود . .

وأراها المعركة الكبرى ، وإنى لأذكر ما يملأ تاريخ العاهل الراحل من معارك جسام ، كتلك التى استرد فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « ابن الرشيد »[1] وكان جيش عبد العزيز

---

(١) محمد بن الرشيد ، كان شيخ قبائل شمر شمالى نجد ، ثم طمع فى « الرياض » عاصمة نجد أيام عبد الرحمن آل سعود وما زال حتى استولى عليها عنوة بعد معارك عدة ، وظلت خاضعة له إلى أن استردها المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

راجع كتاب (عاهل الجزيرة) للأستاذ عبد الرحمن نصر ، ١٢ وما بعدها .

الذى هاجم به معقل العدو واسترد عاصمة نجد ، قلة من الرجال عدتهم أربعون رجلا ، أبقى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم فى خمسة عشر رجلا من صحبه ، عاملَ «ابن الرشيد» فى حصنه ، وبين جنده وحرسه ، فما انتصف النهار حتى أذن المؤذن : أن الحكم لله ثم لعبد العزيز ، وأن عجلان — عامل ابن الرشيد — قد قتل . . .

والمعركة الأخرى التى لقى فيها عبد العزيز ، الشريفَ حسين ملك الحجاز ، عام ١٩٢٥ ، فهزم جنده فى الطائف ثم دخل مكة ظافراً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، فجدة : آخر معقل للأشراف . . .

أذكر هذه المعركة وتلك ، ومثلهما معهما ، لكنى مع هذا أسمى حركة تحضير البادية «المعركة الكبرى» ، لأن الملك عبد العزيز كان فيها يلقى إخوانه وعشيرته ، وحلفاءه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وحليف !

إنه يقف الآن وجهاً لوجه أمام «الإخوان» النجديين ، الذين انتصر بهم على أعدائه ، والذين قالوا له عندما تردد فى قتال الأشراف : «يا للعجب ! أليسوا محاربين لنا ؟

أليس كبيرهم يحول بيننا وبين أداء فريضة الحج ؟ فما بال ابن سعود يأمرنا بالكف عنهم ؟ وما له وما لنا ؟ إننا نقوم بفريضة الجهاد ، فمن عاش رجع غانماً ، ومن مات لقى ربه شهيداً وهو عنه راض » .

وهم هم الذين اندفعوا نحو الحجاز مستبسلين ، فما زالوا يحاربون حتى هزموا جنود الملك حسين هزيمة حاسمة . . .

والآن وقد دانت الجزيرة لعاهلها عبد العزيز ، يخوض معركته الجديدة أمام « الإخوان » وهم جنده وأنصاره وعشيرته . .

ومثل هذه المعركة لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هى أدوار تتعاقب ونضال يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن ينتفع بأحد المخترعات الجديدة ، أو يعترف بما استحدث العلم من أجهزة وآلات . .

وقد ظل العاهل فترة طويلة ، متردداً بين رغبته فى الإصلاح ومسايرته للإخوان ، وصابرهم أمداً وهم يتمادون فى إنكار كل إصلاح ، فيسايرهم حيناً ، ويحاول إقناعهم بالحجة حيناً آخر ، كاظماً غضبه .

أراد جلالته أن يمد سلكاً برقيًّا بين مكة ومعسكره فى

« جُنداء » — والمسافة بينهما تقطع فى ثمانى ساعات ذهاباً وإياباً على ظهور الخيل والإبل السريعة — لكنه اضطر إلى أن يرجئ المشروع ، كيلا يهيج ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك البرق « لأنه منكر تجب إزالته » .

ثم عمد إلى ملاينتهم ومحاولة إقناعهم بالحجة ، فدعا زعماءهم إلى مؤتمر « بالرياض» فى يناير ١٩٢٧ م ، فاستخلص من علماء نجد الفتوى المشهورة :

« أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزمُ بالإباحة أو التحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

لكن الإخوان تمادوا فى ثورتهم على الإصلاح ، إلى حد دفع الملك إلى اصطناع الحزم معهم . حدّث جلالته : « أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال

التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن "فلبي" (١) سيجر علينا المصائب . . . فقال لهم الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست ولله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع . . وما "فلبي" إلا تاجر وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . . . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعونى أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هنالك من دليل أو سنة يمنع من إحداث اللاسلكى والسيارات » .

غير أن هذا لم يحسم النزاع ، « فلقد نال بعضهم الإمامَ بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال إلى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل ما لا يتفق وهواهم . . . حتى كادت تقع

---

(١) فلبى : سانت جون ، كان ضابطاً سياسياً فى دار المندوب السامى ببغداد ، أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود عام ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرقى دائرة بين الترك والإنجليز . وقد أسلم فلبى وتسمى باسم عبد الله .

(انظر كتاب عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها) .

فتنة أهلية بين الإخوان من جهة ، والحكومة والحضر من جهة أخرى ، فجرد العاهل كتيبة من طلبة العلم المتفقهين فى دينهم ، وأرسلهم إلى الإخوان كى يصلحوا ماأفسد الجامدون » .

وبلغ الأمر مداه ، وعيل صبر الملك ، فأرسل جنده فى مستهل عام ١٩٣٠ ، لتأديب العصاة الذين طغوا وعاثوا فساداً باسم الدفاع عن الدين ، وجىء بزعيم العصاة ، "الدويش" ، بعد معركة « أم الرضمة » فى سيارة إلى خيمة الملك ، فكانت اللعنات من أتباعه الأسرى تُصب عليه بسبب ركوبه السيارة !(١) .

وكان مما قاله الأسير يومئذ :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلتَ كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار ، فحملونا إليك فى طيارة من طياراتهم ، ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعدما كنت عزيزاً محترماً » .

---

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على ابن سعود عام ١٩٢٩ وظل يقاتل مستبسلا ، حتى إذا حاقت به الهزيمة ، هرب إلى الكويت وسلم نفسه لدورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز . راجع كتاب (عاهل الجزيرة) ص ٢٢١ : ٢٢٨ ط مصر .

ولقد عدّ بعض الكتاب ، معركة « أم الرضمة » وما تلاها من استسلام الدويش للملك عبد العزيز ، « من المعارك الفاصلة بين الفوضى والنظام » ، كما عدّوا نصر الملك فيها على الإخوان : « نصراً للتقدم على الرجعية » .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها بعد النصر :

« من اليوم سنحيا حياة جديدة »

* * *

لكن الواقع أن تحضير البادية ، لم يكن ليتم باستسلام هذا الثائر أو النصر على ذاك المتمرد ، ولا كان بحيث يتقرر فى هذه المعركة أو تلك ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدد مع كل « بدعة» من مستحدثات العلم ، وقد يكمن فترة ، ليعود بعد حينٍ أعنفَ وأحدّ ضراما . . .

والذى حدث بعد هزيمة المتمردين ، أن حركة التعمير والإصلاح سارت بطيئة فى وجه مقاومة قوية من الأعراف والتقاليد ، والعادات والإلف ، والتشبث بموروث الأوضاع ، والتعصب لعزلة الجزيرة . ولقد أعلن الملك عبد العزيز بدء « الحياة الجديدة » فى يناير ١٩٣٠ ، ومع ذلك ظلت البادية تنظر فى ريبة وحذر إلى كل حركة من حركات التحضر ،

وتحاول أن تدفع منكرات « البدع » باللسان أو القلب ، بعد أن أعجزها دفعها باليد . . .

وبدا كأن الصحراء فى حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حدًّا لهذه الحرب الخفية المستمرة ضد العلم ، وتمكن لعاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته فى إصلاح حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذرة ، المهددة بهجوم مضاد من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجهدة مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت ضد المستحدثات من بدع الأجهزة والآلات ؟ إنى إذن لم أقل كل الحق ، فالواقع أن الصراع كان أعمق من هذا وأوسع مجالاً ، وقد تجاوزَ البدع المختَرعة إلى أساليب العيش ومواد التعليم ، ونفذ إلى الصميم ، فى كل كبيرة أو صغيرة من حياة الجزيرة . .

وقد ذكرت آنفاً ، كيف « نال بعضُهم الإمامَ بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال » ! ولنا أن نتصور مدى ما كان يحتاج إليه المصلح من جهد وجلد ووقت ، لكى يتغلب على

قوم ضجوا لأن المدارس تريد أن تفتن التلاميذ عن العلم ، وما العلم الحق فى رأيهم إلا « التفسير والحديث والفقه وعلم العربية والتاريخ الإسلامى » . وكان من مظاهر هذه الضجة ، أن « اجتمع علماء الدين من النجديين عام ١٩٣٠ ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم أصدروا قراراً يحتجون فيه على إدارة المعارف فى مكة لأنها قررت فى برنامج التعليم : الرسم ، واللغة الأجنبية ، والجغرافية » :

ولم ير جلالة العاهل من الحكمة أن يمضى فى سبيله غير مكترث لضجة العلماء ، بل بعث رسولا إلى « كبار المشايخ » ليجلو لهم الأمر ، ويبحث معهم فى شأن هذه المسائل التى طلبوا إلغاءها من برامج التعليم .

وقال قائلهم :

« لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً ؛ وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا ؛ وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض

ودورانها ، والكلام على النجوم والكواكب : مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » .

والذى يلفتنى من هذا ، هو أن الثورة على تدريس الرسم والجغرافية بمدارس الجزيرة ، حدثت بعد هزيمة « الإخوان » الرجعيين ، واستسلام « فيصل الدويش » ، فهل عَدَوْتُ الحقّ حين قدَّرتُ أن معركة « أم الرضمة » بين الملك عبد العزيز والإخوان ، لم تكن حاسمة ولا فاصلة ، بين الرجعية والتجديد ؟

لقد كان علماء نجد يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، « وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء أن يصرفوا أعمارهم فى الرد على مخالفيهم من الطوائف » .

من ثَمّ ، أرادوا لإمامهم عبد العزيز أن يشغل بالدفاع عن مذهب الوهابيين ، والجهاد فى سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب أهل البدع ، وحماية الجزيرة من كل عنصر دخيل . . .

* * *

هكذا مضت الأعوام ، والحجاز — فى طرف الجزيرة

الغربى — مقصد الحجاج من شتى بقاع الأرض ، ومهوى أفئدة المسلمين فى كل مكان ، والجزيرة من ورائه تناضل عن عزلتها ما استطاعت ، وتقاوم الجديد ما وجدت إلى المقاومة سبيلا . . .

ولم يكن أحد يتوقع أن سيجىء يوم يدوى فيه اسمها فيسمع له رنين أقوى من رنين الذهب ، وتنكشف الفلاة الموحشة المهجورة عن كنز ثمين مطمور تحت الحصا والرمال . . .

وجهاً لوجه
فى قلب الصحراء !

« علم الإنسان مالم يعلم »

كانوا أشبه بفريق من المغامرين ، نزحوا من العالم الجديد فى مستهل الثلث الثانى من القرن الحالى ، ونصبوا خيامهم بين « النهدين والظهران »[1] على حافة الربع الخالى .

هناك . . حيث لا ظل ولا ماء ، وإنما هو المهمه القفر يمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، رهيباً ، ماحلا ، موحشاً ، تتلوى خيوط الرمال فوق أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعالى قممه وكثبانه ، فتجاوبها من السفوح والقيعان شتى الأصداء كأنها عزيف الجان . .

نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة فى ليل الفلاة تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، ونبذوا ترف الدنيا

---

(١) جبال النهدين والظهران : مرتفعان فى الجنوب الشرقى من نجد ، قرب ساحل الخليج العربى ، على حافة الربع الخالى .

الجديدة وراء ظهورهم فى سبيل الكشف عن منابع للبترول قد تكون مطمورة فى بقعة ما من هذه الفلاة الموحشة . .

وكان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هنالك ، فى شتاء عام ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت فى الشمال الغربى من الجزيرة ثم مضوا عن الصحراء يائسين بعد أن أذابوا فى رمالها الملتهبة أكداساً من المال ، مختلطة بالعرق المتصبب والجهد الضائع . فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون التجربة الخاسرة بأمل جديد .

وكانت منطقة « الأحساء »[١] وجهتهم هذه المرة ، فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موفدين من قبل شركة « ستاندرد أويل كومبانى أوف كاليفورنيا » وهى الشركة الوحيدة التى قبلت أن تتبنى هذه المغامرة ، وأن تدفع ثمنها الباهظ ، فى سبيل « كنز » مجهول .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر عام ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى « الظهران » بعد توقيع اتفاقية الزيت مع مندوبى الحكومة السعودية ، وجاء معه بالآلات والرجال لمباشرة التنقيب ،

---

(١) الأحساء : منطقة منخفضة شرقى نجد والدهناء ، وفيها تقع منطقة البترول .

التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلا فى آخر أبريل ١٩٣٥ . . .

* * *

عكفوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، ينقبون ويبحثون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يجمد الدم ويثلج البدن ، منقطعين عن الدنيا بعيدين عن العمران ، يحيط بهم الخراب الموحش من كل جانب ، وترمقهم عن كثب عيون حديدة البصر ثاقبة النظرات ، تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتياب . . .

تلك هى عيون العرب الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح . .

* * *

خمس سنوات من الجهد المضنى والحياة الكادحة ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات قبل أن تبيح لهؤلاء المتعبين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم بلحظة من راحة واستقرار .

خمس سنوات قضاها المنقبون عن الكنز فى مجاهل الجزيرة يحفرون البئر بعد البئر ، وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء

ضنينة بسرها ، مناضلة عنه ، لا تقدم لضيوفها الغرباء إلا القيظ والزمهرير ، والصخور والرمال ، والوحشة والملال ، ولا تكف عنهم ملاحقة حرّاسها الغلاظ الأشداء ، الذين شق عليهم أن تطأ أرض الجزيرة قدم كافر ملعون . . .

لكن الباحثين عن البترول ، كانوا يدركون أن عدوهم الألد هو اليأس ، ومن ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . .

أما التعب ، وأما الملل ، وأما خشونة العيش وقسوة الحياة ، أما كل هذا فداخل فى الحساب .

وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا أنهم ملاقون هذا كله ومثله معه ؟

* * *

وأبى عليهم إصرارهم العنيد ، أن يستسلموا للهزيمة بعد فشل التجربة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة . . .

وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة . . .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جبروت العلم مع جبروت الصحراء ، فتم النصر للعلم . . .

هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كنزها لمن دأبوا على البحث عنه فى عناد وإصرار . .

وتمت المعجزة فى صحراء الجزيرة التى أصغت منذ نحو أربعة عشر قرناً إلى آية الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق »

فسبّحت باسم الله الذى « علم الإنسان مالم يعلم » . . .

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة ، فأذاع البرق فى اليوم الثانى عشر من مارس عام ١٩٣٨ ، نبأ حفر أول بئر منتجة للبترول فى «الظهران» ثم توالت الأنباء من بعد ذلك ، معلنة عن اكتشاف آبار أخرى فى « بقيق » على بعد ٣٧ ميلا جنوب غربى الظهران ، و « أبى حدرية » على بعد ٩٥ ميلا إلى الشمال ، و « القطيف » على ساحل الخليج .

وهذا بيان بالحقول المكتشفة فى الأعوام الأولى :

الدمام[1] ، الظهران : اكتشف فى عام ١٩٣٨ ، ومساحته تسعة آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم. وعدد آباره اثنتان وثلاثون .

أبو حدرية : اكتشف عام ١٩٤٠ وترك مغلقاً .

بقيق : اكتشف عام ١٩٤١ ومساحته ٧٧ ألف فدان ، وعمقه

---

(١) لمعرفة هذه الأماكن ، راجع الخريطة المرفقة .

١١ ألف قدم ، وعدد آباره ثمانى عشرة .

القطيف : اكتشف عام ١٩٤٥ ، وعمقه ٧٣٠٠ قدم ، وآباره اثنتان .

ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود ينبثق من جوف الرمال سخيًّا دافقاً لا ينضب .

وعلى هذه الرمال الملتهبة ، تحت شمس الصحراء المحرقة ، وفى قلب الفلاة المهجورة الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت فى أنابيب تمتد أميالا إلى موانى التفريغ فى الخليج العربى والبحر الأبيض المتوسط .

* * *

ولم يكن التفريغ أمراً هيناً . . .

أما فى الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول لتحمل هذا السيل الدافق ، عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم ، ولم تستطع أن تصل إلى الساحل عند فرضة « الدمام » — ميناء الظهران — لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور . . .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل تقدم فبنى ميناء ضخمة تمتد ثمانية أميال فى عرض الماء . .

وكذلك عزّ على العلم أن تقطع حاملات البترول نحو ثلاثة آلاف ميل ، كى تصل إلى البحر المتوسط عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس ، فى طريقها إلى أسواق الغرب ، على حين لا تزيد المسافة — عبر الصحراء — بين منابع الزيت فى الظهران ورأس تنورة ، وموانى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، على ألف وسبعين ميلا . . .

ومُدّ خط الأنابيب من شرق الجزيرة ، متجهاً شمالا بغرب إلى « تل الحبر » بالقرب من حدود الأردن ، ومواصلا سيره فى نفس الاتجاه عبر الأردن وسوريا ، إلى « ميناء صيدا » على ساحل لبنان !

ويبلغ قطر الأنابيب فى هذا الخط ثلاثين بوصة ، وقد صنعت بحيث تحتمل الامتداد والانكماش مع اختلاف درجات الحرارة . . .

ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء يوميا ثلثمائة ألف برميل ! [1] .

---

(١) من شاء أن يعرف مزيداً عن حركة البترول فى هذه المنطقة فليراجع كتاب (المملكة العربية السعودية : تأليف كارل تويتشل) ترجمه السيد شكيب الأموى ، وطبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم ، وسجلت الإحصاءات الرسمية وثبة الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل عام ١٩٣٩ إلى خمسة ملايين عام ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلثمائة ألف برميل عام ١٩٤٥ ، إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل عام ١٩٤٨ !

وما تزال هناك آبار مغلقة لم تستغل بعد . . .

وتدفقت الثروة مع الزيت ، فإذا بالصحراء المجدبة القاحلة الماحلة ، تجود بملايين الجنيهات كل عام ، يذهب نصفها — بمقتضى الاتفاقية الأولى — إلى المملكة السعودية مالكة الصحراء ، ويبقى النصف الآخر لشركة « أرامكو » صاحبة الامتياز .

وآن للمغتربين المتعبين أن يظفروا فى تلك الفلاة الكئيبة الموحشة بحياة لا تقل عن حياتهم الأولى فى أمريكا رغداً وترفاً ، ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة ، مزدهرة العمران .

* * *

لكن . . .

هل خف الصراع بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ؟ . . . كلا . . . إنه باق هناك محتدم ، وإن

لم يبد كذلك! ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم هناك . . .

فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الغرباء بنظرات مرتابة ملؤها الشك والحذر : نظرات ساهرة تحرس تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، وتحمى إيمان البدو من سحر الغزو . . .

ولا تكاد لحظة تمر ، دون أن تذكر الجزيرةُ هؤلاء الغرباءَ بأنهم أجانب دخلاء ، جاءت بهم ضرورة اقتصادية تقدر بقدرها ، ولا يجوز لهم أن يتخطوا الأسوار التى بناها عاهل الجزيرة لصد تيار الغزو ، وأقام عليها الحراس الأشداء . . .

وهى أسوار تسمح للمدنية الغربية أن تعمر الصحراء ، وتستجلب لها ما شاءت من مستحدثات الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل عنصر دخيل ، يفسد أصالة العربى ، أو يمسخ تقاليده ، أو يستعمر أرضه :

فلا بأس على الجزيرة مثلا ، إن هى استوردت أحدث الطائرات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن بإطلاقها فى سمائها إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومى :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . .

* * *

في حدود هذه الأسوار ، يعيش الأجانب فى شبه عزلة ، لهم أحياؤهم الخاصة بمدارسها وملاعبها ومطاعمها وأنديتها ومستشفياتها ، لا يكاد يسمح لهم بأن يندمجوا فى أهل البلاد خارج منطقة العمل . . . .

ويوم العطلة هناك هو يوم الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .

والتقويم الهجرى هو السائد فى مصانع « أرامكو » ومعاملها ومكاتبها بالصحراء ، مثلما هو سائد فى الحجاز ونجد . .

والتوقيت العربى هو التوقيت الرسمى ، أى أن الشمس تشرق فى الساعة الواحدة ، وتتوسط كبد السماء فى الساعة السادسة ، وتغرب فى الساعة الثانية عشرة !

ومحظور أن تقام الكنائس فى مهد الإسلام ، وأن تدق النواقيس والأجراس فى أفق الجزيرة ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام منذ نحو ألف وأربعمائة سنة قمرية .

ولا يؤذن لأى قسيس فى أن يطأ أرض الجزيرة ولو لضرورة مؤقتة كعقد زواج ، فمن شاء من المسيحيين أن يتزوج كان عليه أن يرحل إلى الخارج ليعقد إكليله — فى البحرين

مثلا — ثم يعود بعروسه إلى الجزيرة .

وغير مباح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمور أو لحم الخنزير ، كما لا يباح « للكانتين الأمريكانى » أن يعرض للبيع مثل هذه المحرمات .

والويل لرجل الشرطة الذى تقع فى منطقته أدنى مخالفة لهذه القوانين .

* * *

هكذا فُرض على الأمريكان أولَ عهدهم بالجزيرة ، أن يعيشوا هناك رسلَ عمرانٍ لا دعاة استعمار . . .

وبهذا استطاعت الجزيرة ، حتى الآن — وأنا أكتب هذا عام ١٩٥١ — أن تحمى نفسها من سيطرة الدخلاء ، وإن تركت المدنية الغربية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهربا . .

ومن المرحلة الأولى، تطلعت الجزيرة إلى يوم يستطيع أبناؤها أن يسيطروا فيه على الآلة ، فلم تنتظر حتى تستكمل عدتها للتعليم العالى؛ بل فرضت على شركة « أرامكو» أن تنشئ فى « الظهران » مدرسة لتخريج صناع سعوديين ، يدرسون فيها الميكانيكا والكهرباء وصناعات البترول ، ثم يوفدون فى بعثات فنية إلى أمريكا ، ليكون منهم المهندسون والطيارون والخبراء . . .

ترى هل يستطيع هؤلاء المبعوثون أن يقاوموا فتنة الغرب فى أمريكا ، كما استطاعوا أن يقاوموها فى الجزيرة ، حيث القوانين الصارمة والحراس الشداد ؟ !

الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى العرب بالأمريكان فى قلب العالم الجديد ، بعد أن التقوا هنا وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . . .

ثورة فى الصحراء

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

حملتنا الطائرة من « جدة » فى مشرق الصبح ، وحلقت بنا عالياً ثم مضت تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من كواها الصغيرة فى الصحراء الممتدة من تحتنا ، فلا نرى خلال أربع ساعات متتاليات ، غير التيه تتدافع فوقه أمواج الرمال ملتهبة فى وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب .

أربع ساعات طوال عبر المهمه القفر ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلماً من معالم الطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرات وهى تتعثر فى كهوف الهواء !

ونظرتُ إلى رفاق السفر فى الطائرة ، فإذا فيهم نفر من

البدو قد ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط من الريح ، وإن فيهم من أدرك عهد الناقة وشق أكباد الإبل فى مسيره عبر هذه الفيافى التى ظلت ، حتى أمس القريب ، مأوى للجن وملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش !

وانثنيت إلى بدوية كانت تجلس أمامى مختفية فى عباءتها السوداء ، أسألها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد من قبل ؟

فأجابت فى صوت هامس ، حرصتْ على ألا يبلغ مسامع الرجال الغرباء :

ــ بل هذى أول مرة أخرج فيها من نجد ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً .

قلت :

ــ فماذا ترين فى رحلة اليوم ؟

أجابت على الفور :

ــ عجب أى عجب ! إنها والله فعلة ساحر من مردة الجان ، أو معجزة وارثٍ لملك سليمان !

ولما سألتها : أين تحطّ رحالها ؟ أجابت بأنها لاحقة برجلها الذى يعمل فى « الكامب السعودى » بالظهران .

فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين كلمتى البدوية العريقة :

« تحط الرحال » ولفظها الغربى المستحدث : « الكامب » !

وحمل لنا مضيف الطائرة لحماً طرياً وخبزاً شهياً وشراب الكوكاكولا والأناناس ، فأخذت أرقب جارتى وهى لا تجرؤ على لمس الشراب ، ظناً منها أنه حرام ! وكنا فى هذه اللحظة قد دنونا من الخليج العربى ، فحدقنا فيه مأخوذين ، وحامت الطائرات حول مطار « الظهران » وقد تناثرت فيه الحظائر والمبانى كأنها أعشاش الطير ، وجثمت الطائرات على أرضه شبيهة بقطع من الصخور .

ولبثت الطائرة تدرج فوق ساحته بعض ساعة ، ونحن فى ذهول مستغرق ، لا نكاد نصدق أننا عبرنا الصحراء ما بين « جدة » على البحر الأحمر ، و « الظهران » قرب الخليج ، فى ساعات ما بين ضحا وأصيل .

وتمثل لى آنذاك شاعرنا الجاهلى الفتى « طرفة »[1] وهو يضرب بناقته فى « الدهناء » أياماً وليالى ، ومضيت أردد أبياتاً من قصيدته « المعلقة » فى وصف مطيته تلك الأمون الذلول !

هكذا من الناقة إلى الطائرة فى وثبة واحدة ؟

---

(١) طرفة : ابن العبد .

هكذا من الهودج إلى « صالون داكوتا وبريستول » ؟

هكذا من ماء الأمطار والعيون ، إلى شراب « الأناناس والكوكاكولا» ؟ !

يا لها من وثبة عاتية ، لم تمر بمراحل التطور التى مررنا بها فى مصر . فما عرفت الدهناء من قبل العربة أو السيارة ، ولا رأت — حتى اليوم — قطاراً يخترق أحشاءها ويمرق بين كثبانها ووهادها !

* * *

وكان مقامنا « بالظهران » فى غرفات فخمة ، مضاءة بالكهربا ، مزودة بالماء الساخن والبارد ، مكيفة الهواء لا نلقى فيها شمساً ولا زمهريراً ، وإنما هو الجو اللطيف المنعش ، قد كيفه القوم حسبما أرادوا ، فإذا بنا نعيش فى جنة ، وليس بيننا وبين الصحراء بقيظها وسمومها ، سوى جدار بسيط تسفعه السافيات وتلطمه الهبوب .

أية ثورة ؟ ! وأى انقلاب ؟ !

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد والأوتاد ، ولا ترى من الطعام والشراب سوى الخبز القديد والتمر ولحم الإبل ، واللبن ومياه الآبار والأمطار ،

أما الغرفات المبنية ، والنعم الطيبة ، فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون يومئذ « فى الغرفات آمنون » « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » « وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

إنها الثروة الطارئة ، بثت الحياة فى ذاك الخراب ، وحولت ذلك التيه المخوف إلى ما نرى . . .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعل حمراء ساطعة الذوائب تضىء هذا الظلام مؤذنة بانبثاق عهد جديد فى الدهناء التى طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القِرى التى كان « حاتم الطائى » يأمر غلامه أن يوقدها على جبال طيئ وهو يرتجز :

أوقد فإن الليل ليلٌ قرٌّ
والريح يا غلام ريح صرّ
علّ يرى نارَك من يمر
إن جلبتْ ضيفاً ، فأنت حر

وهذه أضواء الكهربا تنبث بين كثبان الرمال ، مبددةً ظلال الأشباح المرهوبة التى طالما تنقلت بين جبال الظهران

والنهدين وسرحتْ فى متاهة الدهناء والربع الخالى ، ومعلنةً أن العلم قد انتصر على الصحراء كما انتصر من قبل على البحر ، وأذل شوامخ الجبال ، وسخر السحاب !

وهذه أنابيب الزيت تعترض مسيرنا هنا وهناك وهنالك ، وهى تمتد شرقاً وغرباً ، من « الظهران وبقيق وراس تنورة والدمام » ، إلى « البحرين » على شط الخليج العربى ، وإلى « صيدا » على البحر المتوسط ، عبر المياه والرمال ، مسجلةً أن الإنسان قد عرف السر الخطير الذى أجنته أحشاء البيداء دهوراً ، وأزاح القِناع عن منجم الذهب الأسود ، المطمور تحت أديم الصحراء ! !

وسبحان الذى سخر لكم « ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » .

صدق الله العظيم

٢

صُوَرٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبي
- العابدة
- آمنة

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب الغالب ،
يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت
زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! »...

لقيتهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك القفر النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء السكن وأنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الشاق المرير بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة ليمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامة وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب وأطيافاً رقيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة تسرى أصداؤها فى الأفق ، لتروح عن الرجال الذين يعملون بين

ضجيج الآلات الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة . . .

* * *

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمهاجرين مساكن طيبة ، تحيط بها حدائق مزهرة تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على « شركة أرامكو » أن تضيء مساكن رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » لكنها لم تكن لتستطيع ، ولو أنفقت مال قارون وعثرت على كنوز سليمان ، أن تذود عن الرجال الضجر والملال ، أو أن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حيثما مست يداها ، أو تبث فى المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحا من الأنس واللطف والرقة والحنان ، لا تمنحها سوى الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المساكن بيوتاً ، ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات

إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب !

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد ، كما استجاب آخرون : من الهند وإيندونيسيا وإيران ، ولبنان وسورية وفلسطين ، وأقطارٍ من أوربا ، وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات — حتى عام رحلتى : ١٩٥١ — كن يأبين الهجرة إلى هذه المنطقة من قطر شقيق ،

ويرفضن أن يتبعن أزواجهن إلى نجد ، والأحساء ، مهما تكن المغريات !

هل من العجيب أن تعيش هناك غربيات لا يعرفن حرفاً من العربية ، فى ديار إسلامية محافظة ، تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان ، فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياةَ ، مصرياتٌ ينزلن هناك بين أهل وجيران ، وإخوان فى الجنس واللغة والدين ؟

أو من الغريب أن ترضى بالعيش فى « الظهران » غربية عصرية ، قدتكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى إحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد؟

كلا ، ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأىٌّ هكذا خُلقن ، والأمر لله ! .

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الفيوم ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى بنت المدينة ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف ، ولو كان من مُلاك الأراضى أو كبار الأعيان . .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء

العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدَّق ، عن طالبي النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر نساء بعض الموظفين فى مزرعة نموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة ، رفضن أن يعشن هناك فى (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . . .

وهناك فى المنطقة نفسها — وهى مكتظة بمصانع لأجانب ومتمصرين — تعيش سيدات أوربيات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويعين رسالتهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، يدين لهؤلاء المهاجرات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسي واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! !

الظهران : ١٩٥١/٢/١٠

جارة النبي . . .

«قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»

سعينا إلى «الحرم النبوى» فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الآفاق ، وترجعه الأطياف السارية على أجنحة من النور الرقيق ، وتتجاوب به القمم والسفوح والوديان فى رنين علوى النغم باهر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفا الحس وشف الشعور ورق القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبى ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

فلما قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين إلى أرزاقهم يبتغون من فضل الله . وبقيتْ قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا وآثروا جوار الحبيب المصطفى على كل متاع فيها ،

وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفَس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

* * *

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم ، أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذى وعيت من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى الرسول صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً لأجيال المسلمين من شتى أقطار الأرض .

ومرّ بى فى مجلسى عدد من النسوة يطفن بالروضة الشريفة ، فلم ألق إليهن بالاً ، حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غيرَ بعيد منى شاكياتٍ داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى ، لكنى ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختنق ، رددته جوانب الحرم فكان له صدى قوى ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو قرآن الفجر .

وأدرت رأسى ألتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة

نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تكتم أنفاسها اللاهثة المتلاحقة . . . .

وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى :

ـ ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

ـ الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى إذ ذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

ـ أغريبة أنت عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

ـ وى ! غفر الله لى ، أتكون غربة مع جوار النبى ؟ ولكن لى فى بلاد بعيدة فلذةَ كبدٍ غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفزع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين يا ستى كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

ـ أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت فى لهفة :

ـ تقرئين لى آية نار « إبراهيم » فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ما تعنى ، وتلوت من سورة الأنبياء :

« قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها ما لبثت أن انقبضت وهمست تسألنى فى خوف وشك :

ـ وهل يا ترى أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟

فرجوت لها ألاّ تيأس من روح الله ، ثم هممتُ بالقيام معتذرة بأنى من قومى على موعد ، كى نسعى إلى « أحد » ثم إلى « قباء »[1] قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إلىّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها علىّ :

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار الطريق إلى مكة . نزل بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام .

* * *

نشأت فى بوادى المغرب الأوسط[١]، بدوية حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى بعد صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهم واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشاراتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يند عنها من هذر الأحلام فى غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة ، وهكذا استقبلت ربيع العمر فى ظل رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى فى عرف البداة الجفاة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يرضيهم منها أى حال :

---

(١) فى كتب السلف ، يطلق المغرب على الشمال الإفريقى مما يلى ليبيا غرباً ، إلى مراكش والأندلس . وربما أطلقوا المغرب الأوسط على تونس .

إن وجمت ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمت قيل عاشقة لقيت الحبيب ! .

إن مرضت قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحّت قيل راضية صفا لها الحب . .

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى لقاء الطيف المحبوب ، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد .

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء ، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن يمسها خبال ، فدعوا لها ضاربى الرمل وقارئى الكف ، كى ينزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه ، وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وأينع . . .

وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . . .

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من وطأة الترصد ، وطاب لهم ولها أن يئدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تخمد جذوته المتقدة وتذهب بحيويته وشذاه . . .

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع غلاماً جميلا فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهتْ أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى

مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى هدوء وصمت . . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة وافد غريب جاء من أقصى الديار يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلت قدماه من طول السرى فنزل بالقوم يلتمس القِرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة ، حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه فى كل ليلة : وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحمالها ، فاستجابت للدعوة دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيأس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلبها زوجة

وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها صاحبة تهون عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . .

ثم انصرف بها يبغيان مكة المكرمة ، ومنها إلى المدينة المنورة . . .

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، أنْ كانت كلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، تسعفها بمدد من القوة والاحتمال .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى جدار الحرم المبارك ، فزُدّت إليها الروحُ ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية . . .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تئوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً ، لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى

مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام فى « المدينة المنورة » . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يؤذن لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تظل ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من شوق طاغ إلى ولدها :

أو لم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعدها بالسلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدلها بحياتها الحزينة حياةً أخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا يكاد بصرها يقع على صاحبها حتى يثور بها لاعج الحنين إلى ولدها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح

النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً منْ تحمله تبعةَ ما لقيتْ فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومن تأخذه بذنب أولئك الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

وأحسّت لذلك نوعاً من الرضى ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الضاغطة الباهظة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد وربيعها الموءود، وأمومتها المحرومة المعذبة!

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفّاً بها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها ،فكانت تهرب من الدار طول النهار مستجيرة بحمى الحرم الآمن ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوّها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . . .

* * *

تنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة

خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تراع !

المدينة المنورة : ١٩٥١/٢/١٥

العابدة

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى
زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ،
فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من
الثمرات لعلهم يشكرون »

كانت السيارة تمضى بنا من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام ، وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ صامد ، وأشعة الغروب تلقى ظلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تتم أربعين ميلا ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم والتلال المتراكبة والوديان الضيقة المفروشة بالحصا والرمال ، ثم لاحت « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهال :

« لبيك اللهم لبيك . . »

ورددت البطاح أصداء هتافنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بجحافل المسلمين الأولين ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل مكة ظافرة ملبية ، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يوم الفتح ، فى السنة الثامنة لهجرته . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ثم سِرْنا نسعى بين « الصفا » و « المروة » حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على درج « المروة » تجاه الوادى أشرف على البلد العتيق . . .

ولم أكن ، حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أمىٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج مع القوافل أجيراً أميناً لسيدة ثرية من قريش . ثم اصطفاه الله رسولا ، فما رحل عن الدنيا حتى طهر الكعبة من الأصنام ، وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسمع بأذنيه مؤذنه « بلال » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ،

أفكر فى شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذى صنعه أمى يتيم ، هاجر من بلده أم القرى ذات مساء مع صاحب له صديق ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتدك حصون الطغاة والجبابرة ، وتفتح ما عرفت الدنيا يومئذ من ممالك وإمبراطوريات . . .

غير أنى لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى تراءى لى من وراء تاريخنا الإسلامى ، طيفُ « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالى « إسماعيل ».

* * *

خرجت به من منزل أبيه « إبراهيمْ » — عليه السلام — طريدة منبوذة ، كل ذنبها أنها ولدتْ غلاماً لإبراهيم ، وامرأته السيدة « سارة » عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى « إبراهيم » لتهبه ولداً ، وإنما قدمتها إليه امرأته : سيدتها « سارة » فى لحظة يأس ، لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما سمحت لزوجها فى جاريتها المصرية ، إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويختنق فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تفشل ، وشاء الله أن تحمل هاجر فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخيل إليها أنها صغرت فى عينى جاريتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

ــ ظلمى عليك ! أنا دفعت جاريتى إليك فلما حملتْ صغرت فى عينها ! يقضى الرب بينى وبينك .

قال إبراهيم :

ــ هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد « سارة» تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال « هاجر» إلى أن هربت من وجهها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت فى حجر إبراهيم ولده « إسماعيل » .

ولم تطق « سارة» على ذلك صبراً ، فما زالت بإبراهيم تحضه على أن يطرد هذه الجارية وابنها وهو يتردد مشفقاً ، ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بأمَتِـها «هاجر» من منزله بأرض كنعان ، وراح يضرب فى الصحراء متجهاً إلى الجنوب وهى تسير من ورائه

صامتة مستسلمة ، متشبثة بصغيرها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

* * *

وأبعد « إبراهيم » في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمه القفر ، فوضع هناك « هاجر وإسماعيل » وترك لهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم انثنى ليعود من حيث جاء.

وتلفتت الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

— أين تمضي وتتركنا بهذا الوادي المقفر حيث لا ديار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين ، وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذلك إلا أن تتساءل :

— آلله أمرك بهذا ؟ !

وإذ ردّ إبراهيم : « نعم » ولم يزد ،

قالت هاجر :

ـ إذن فالله لا يضيعنا . . .

ورجعت إلى موضعها الأول بجانب الأطلال ، على حين مضى هو في طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيبته ثنيّة الوادى ، فاستقبل البيتَ العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربنا إنى أسكنت من ذريّتى بوادٍ غيرِ ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوِى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . واستأنف مسيره فى طريق الشمال ، عائداً إلى أرض كنعان .

* * *

وخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصياح رضيع جائع ، جف النبع الذى يغذوه ويرويه .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركته أمه وانطلقت تبحث عن قطرة ماء . .

وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعّدت فيه

لتشرف من علٍ على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة . فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً . ولا أحد . . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين « الصفا والمروة » : مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهالكت على الصخور منهوكة القوى دون أن تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تناهى إليها أنينُه ، غطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع ، فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر . ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! .

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين . وبدا كأن

شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الرهيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله . . وثم . . . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تنهل منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أقبلت على طفلها المشرف على الهلاك . . ترويه وتنعشه .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء « إبراهيم » فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى زرع ، وإذا النبع — بئر زمزم — يجذب القوافل فى آثار الرعاة .

وعاش « إسماعيل » ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا « بالبيت » ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة منذ عهد موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ما تزال فى مكانها قريباً من مقام إبراهيم ، يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى ردت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

يا له من تاريخ ! . .

إن جهاد أم فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية للأمومة ، سِفراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء « إبراهيم » آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعى « هاجر » وهرولتها بين « الصفا والمروة » سبعة أشواط ، شعيرة من شعائر حج العرب والمسلمين . .

وظل حديث آلامها ، وعذابها وهمومها ، قصة تروى وحديثاً يؤثر .

وما كانت « هاجر » سوى أمة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بواد غير ذى زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

إلى التى عجز الرق عن تعطيل
حسها وخنق عواطفها وإهدار آدميتها ،
وإقناعها بأن لاحق لها فى الحب ، أو
البغض : تحية ، ورثاء . . .

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب شرقى نجد ، وبدا لى أن أزور بعض النساء العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من موروث التقاليد ، فصحبتنى صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يفضى إلى فناء داخلى ، تطل عليه قاعة الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابة مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى ، فنهضت لتحيتنا ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل ابتسامة هزيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : « زوجة السيد » .

ثم التفتت إليها قائلة :

ـ ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنتِ لما لقيتك آخرَ مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه «آمنة» ما يشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتى :

ـ كذا ترينني يا ست؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

ـ ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » تقول وهى تتشبث بموضعها :

ـ ما أعرف لى داراً غير هذا المكان ، وليس لى فى سواه مأربٌ ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

صمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

ـ وزوجك يا آمنة ؟

قالت الشابة وفى نظراتها مزيج من الرعب والاحتقار :

ـ ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم

تقل صاحبتى إن « آمنة » زوجة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربتّه؟ وكيف يطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوج إن لم يكن السيد ؟

ولحظت صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

ـ لا يدهشك ما سمعتِ . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوّج « آمنة » من عبد صانع أجير ، ويبدو أن « آمنة » لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِوَلا .

رددت « آمنة » فى إصرار :

ـ هو ما سمعتِ : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى منها مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىَّ نَفس! أعرف أنى جارية ، أَمة مُستعبدَة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغَم عليه حية ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . .

وبترت حديثها بغتة، إذ جاءت « السيدة » فى تلك اللحظة وعندئذ انكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، دون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرت أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازينت كأنها تتهيأ لجلوة عُرس !

وجىء لنا بالقهوة والفاكهة فأصبنا منهما ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمت أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ؟ أجابت فى مرح :

— هبينى أشفقت ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من « المدينة » إلى « مكة » على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تخرج قط من المدينة ؟

فضحكنا جميعاً إلا « آمنة » ! قالت بصوت خافت وهى تعبث بخيوط لفاعها :

ـ أما أنا فما استطعت . سألنى سيدى أن أصحبه إلى « المدينة » يوم طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوب الريح ...

وصمتتْ بعد ذاك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت « آمنة » قائلة تنظر إلىّ :

ـ تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفت فكرهت أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتْها صاحبتى :

ـ وأى شىء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وَقدَرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟

أجابت فى بطء :

ـ أجل توقعت ذلك . . . وتوقعت أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويالى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لمثلى حق الرغبة والهوى !

لكنه الضعف ، فمعذرة . . .

قلت أواسيها :

– لا حاجة بك يا آمنة إلى الاعتذار ، فما أذنبتِ . إنى أفهمك يا أخت ، كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

– ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر ؟ أو لم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التى ينتمى إليها كل الناس ؟

فتهلل وجهها ، وامتلأت عيناها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

– لست واحسرتاه أذكر والدى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدة فى حضن أم ! وكلما رأيت طفلا يسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم أعود إلى واقعى فأرانى ولا أم لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شيء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت « السيدة » وأخذت

مكانها بيننا ، فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

ـ سمعتك يا ست ترغبين فى زيارة نواحى البلدة . لو شئت لأذنتِ لى فى أن أصحبك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .

فأدركت على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار ... ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجت مع « آمنة » .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة صغيرة لاهية ، ضلت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألفت نفسها بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلَّم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت

أسابيع قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلهم ، أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولا ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم فى اللعب ، أو يرون فى جاريتهم غير رفيقة صبا وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع فجأة من بينهم ، وتدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد القفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتهم أهلها ، وعبثاً حاول أترابها من صبية البيت ، أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الفتاة عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت الدموع بينها وبين ما تريد .

واندفع صبي من الأسرة يهتف بها ألا تحزن ، فإنه

ماض معها إلى حيث يُسار بها !

فأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبى يستأذن فى السفر خالتَه زوج أبيه ، إذ كانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة « الوليدة » حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليهما درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر من يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شىء ، أى شىء !

وأدركت أنها من هذا الصنف المنبوذ الذى لا أهل له ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها الطارئ من الشعور بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد عطل مثل هذا الشعور .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تُطلُّ على عالمها الماضي ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى ، غامضة كئيبة موحشة . . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة ، صوتُ حادى القافلة يَعد الإبل الرِّى والراحةَ بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى ، لكن نظرة صارمة من وجه « المشترى الغريب » أمسكت الدموع فى مقلتيها حبيسة مترنحة . . .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدوها فى رفق ويغنى لها فى حنان ، ويَعدها الراحةَ والظل والرى . . .

* * *

حين وصلت « آمنة » إلى هذا الفصل من قصتها ، خنقتها العبرات فتركتُها تبكى حتى أراحها البكاء ، فاستأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً وليالى حتى أشرفت على نجد ، وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، تفرّس فى وجهى مليًّا ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة بشئون الدار .

وبدأتُ عهداً جديداً شتان ما بينه وبين العهد الذى كان. بدت لى الدار موحشة خراباً برغم ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لقد افتقدتُ فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للموضع الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده

أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى دون الزميلات ، بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

وسكنتُ إلى حياتى الجديدة وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرتُ بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيد بين ذراعيه إلى فراشى ، وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىّ بادىَ اللهفة ، وملء يديه الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل ينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرت اللحظة الرهيبة التى ودعت فيها صباى الحلى ، ولقِّنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدت أنسى . . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بالنسيان :

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لهفته علىّ ، حين يئوب بهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمَةً جديدة أنزلها المنزلَ الأول الذى كان لى ، وحَوَّل إليها ما كان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار محاولة أن أستسلم ، فما كان من حقى أن أثور ، أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال « المحظية » الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حِسّى رحمة بى ! فما يجدى الألم فيما لا يد لنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره .

وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل إحساسى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حينما رأيت السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم عنيف : أصر على أن أبقى له حيث يشاء ، كما فعلت زميلات لى من قبل ، وأصررت على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى هذا الجحيم .

قال مهدداً :

— لو ظللتِ على عنادك ، بعتك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

— افعل ! افعل بالله ! إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مر بنا فى رحلة له بنجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة ، أهون من المرة التى سبقتها . ولذلك عجبت حين شعرت بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يد سيدى للمرة الأخيرة ، وحييت صديقتى الأمة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعات داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتنى صبية عذراء ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنوات ، امرأة قد

شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلمت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى من بادية نجد برحلتى الأولى إليها ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة . وكان سيدى الجديد رفيقاً بى طوال الطريق ، فلم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

وحططنا الرحال هنا ، فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سواى .

واتخذنى سيدى صاحبة له ، وزوجة ، وربة بيت ، فتفتح له قلبى المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانية فى السيد الحبيب مستغرقة ، وامتد بى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رجلى أن يقنع بأمة عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تنبت « البذرة » التى عجز كيانى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له « البذرة »

المشتهاة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير من طبقتى .

وحاولت هذه المرة أيضاً أن أستسلم لقدَرى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأبَ والأخ والزوج والرفيق الحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .

لكن الأيام مرّت ، والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق واشمئزازاً ، وبغضاً له ومقتاً .

وهربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلبَ الصبر ونفد الاحتمال ، فأبيت على الزوج الكريه أن يمسنى ، ولما حاول أن يخضعنى بالقوة ، عدوت هاربة فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى هنا ، ضارعة إلى « السيدة » أن تدعنى أعيش لها أمة خادمة ، أو فلتأمر السيد بانتزاع روحى من جسدى إذا شاءت ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

ورحمونى ، فكان الطلاق والخلاص ، وتُركت حيث أريد ، مكتفية بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبى من دنياى »

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :

ـ ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . .

فلم تدعنى أكمل كلمتى ، بل قاطعتنى فى مرارة :

ـ وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا لفظتنى الدار التى كانت لى يوماً جنة الحب؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفد بأغلال رقه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبتْ على يدى تقبلها وهى تهمس :

ـ شكراً يا ستى ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا ، معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق قلبها وإقناعها بأن لا حق لها فى الغيرة أو التألم أو الشكوى ، أو الحب ، أو البغض .

وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى هممت بمغادرة الدار بعد انتهاء الزيارة ، وإذا ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعية ، ثم تقف بباب العربة لتقول لنا مودعة :

— في أمان الله . . . .

الدمام : جزيرة العرب ١٠ / ٢ / ١٩٥١

٣

أصداء من الجزيرة

منْ بَعيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعي أصداء آتية من بعيد...
أصداء قوية لسمر أدبي حافل ، ملأ إحدى أمسياتنا في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » وأدبائها ، على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بخلدنا ونحن نتهيأ للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى شرقها ، في رحلة لا تتجاوز خمسة عشر يوماً ، لولا رعاية كريمة من جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا الأبعاد واستطعنا أن ننتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فساحل الخليج العربي .

هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم بمكان لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور هذه المنطقة التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس »

وفى ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم فى الأدب العربى مكان أى مكان ! ومن وراء مرتفع « الصمَّان » (١) الصخرى الذى يتوسط بينها وبين « الدهناء » فيعزلها عن « نجد » ، تسللتْ جموع « القرامطة » (٢) فى القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يلقون الرعب فى القلوب ويعيثون فى الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين فى القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى « هجر » (٣) . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابى القرمطى » (٤) يتسلق أسوار « البصرة » فى نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على « الكوفة » و« الأنبار » ويفتك بعسكرٍ للدولة العباسية ، عدته بضع عشرات من الألوف ! .

---

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥/٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة ثورية ، عاثت فى الشرق الإسلامى فساداً فى القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، وكانت مقر القرامطة الذين أرادوا أن يجعلوا منها المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠ ، وبلدان ياقوت ٨/٤٤٦) .

(٤) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبى سعيد . زعيم القرامطة مات بالجدرى فى هجرسنة ٣٣٢ ﻫ . راجع (تاريخ أبى الفدا : ٢/٩٠) .

أجل ، كان حقًّا علينا ونحن فى الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فمضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركْنَ « عنترَ » لا يقاتل بعدها
أهلَ « القطيف » قتالَ خيلٍ تنفع

وقول الآخر :

نصحتُ لعبد القيس يوم « قطيفاً »
فما خير نصح قيل لم يتقبلِ ؟
فقد كان فى أهل القطيف فوارس
حماة إذا ما الحرب ألقت بكلكل

* * *

اتجهت بنا السيارات إليها فى الطريق الصحراوى المعبد من ميناء « الدمام » ونحن نرنو فى تأمل صامت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة .

ولاحت لنا « القطيف » من بعيد : واحةً ناضرة على حدود الصحراء ، وجنة خضراء على حافة القفر المجدب ، ومراحاً عامراً شمالَ « الربع الخالى » . ثم بدأت السيارات تتعثر فى دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغدران فياضة بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخياً عليلا معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وانبثقت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين الفروع والأغصان ، واستلقت فى وهن وتراخ على صفحة الغدير المتألق وفوق العشب الندى ، غير مكترثة لصراخ « الكلاكسون » ولا عابئة بنباح الكلاب فى آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا فى خمول هنىء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .

وأبى الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال فى دار الأمير ، أو جولة عابرة فى المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعد لنا فى بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى

لم يبق فى « القطيف » من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب .

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبلة أنظار الشرق العربى ، ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من

طلبة العلم وراغبي الثقافة .

وأما العتاب فللأدباء مصر الذين نسوا أن فى شرقى جزيرة العرب واحة اسمها « القطيف » شاركت فى صنع تاريخنا الإسلامى وتركت فى تراثنا الأدبى أثرها الباقى .

إن « دارين » (١) ما تزال هناك ، ترجع صدى أغانى « النابغة الجعدى » (٢) و « الفرزدق » (٣) وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا مايشبهون به عرف الحبيبة أذكى من مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين فى الصحراء ، وتمدهم بالظل والتمر والماء ، كما كانت فى قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل فقالوا : « كحامل التمر إلى هجر » .

---

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٥٣٧/٢ ومعجم مااستعجم للبكرى ٣١٥/١) .

(٢) النابغة الجعدى : أبو ليلى ابن عبدالله — شاعر جاهلى مقدم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشده شعراً فدعا له ألا يفض الله فاه . راجع (طبقات الشعراء لابن سلام ٤٣ والأغانى ٥/١ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة فى العصر الأموى ، وأبرعهم فى الفخر . انظر (الأغانى ٣٢٤/٩ ط دار الكتب) ومعجم الشعراء للمرزبانى .

وهناك ، ما تزال آثار من « الكُعيْبة » تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذى راود « أبا طاهر القرمطى » وزين له أن يجعل من « هجر » وارثة لمكة ، فوافى البلدَ الحرام إبان موسم الحج عام ٣١٧ هـ ، ودخله فى تسعمائة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفتك بألوف من الحجيج فى المسجد الحرام وفى فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع « الحجر الأسود » ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير مَن سبى من نساء وغلمان ، وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد فى موكبه الحافل يحمل « الحجر الأسود » إلى « هجر » فبقى بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ . وهم يقولون :

ــ رددناه بأمر من أخذناه بأمره !

أما تستحق بلاد البحرين بعدَ هذا لفتة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى ؟

إنهم ليحجون إلى أم القرى ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس فى الحجاز واليمن

والكويت ، فما ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر !

وهى على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع أخبارها العلمية والأدبية . بل إنها فى معزلها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما يجهله المصريون أنفسهم ، غير قلة من المتعلمين .

كم تألمت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن معاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ !

كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟

كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا الشرق العربى :

هذى بلادى وهى ماض عامر
مجداً ، وآتٍ — بالمشيئة — أعمرُ

ألقى عصاه على فسيح ضفافها
وعلى الجزائر ، عالَمٌ متحضر

وأذلت التيار تحت شراعها
فلها عليه تحكم وتأمرُ

وترى السفائن بالتوابل والحلى
والعطر من بلد لآخر تحمل
شهدت موانى الهند خفق قلوعها
فكأنها فوق المياه الأنسرُ
ولها على وادى الفرات ودجلة
فضلُ المعلم وهو فضل يؤثر

* * *

وأتت « ربيعةُ » وهى غُرّة يَعرُب
وأذبها يوم الكفاح وأصبر
وأعزها جاراً وأكثرها قرى
إذ يمحل البلد الخصيب ويقفر
فرأت بها الوطنَ الخصيبةَ أرضُه
للماء فيه تدفق وتفجر
والنخل وارفة الظلال كأنها
جيش كثيف بالخليج معسكر
تهدى لها الصحراءُ فى السحَر الصَّبا
فتمرُّ كالحلم اللذيذ وتخطر

والبحر يهديها اللآلئَ زينةً
وتجارةً ، فيها الغنى يتوفر
وكصفحة المرآة جو مشرق
وكلوحة الفنان ريفٌ مزهر

* * *

ورأت بها لغة العروبة بيئة
شعرية توحي ، وجوًّا يَسحَر
فإذا الضفاف نشائد مسحورة
وكأنما في كل حلق مِزْهرُ
الملهَمون المبدِعون تسابقوا
فيها بمدرجة الخلود وشمروا
شعراء «عبدالقيس» تهزج بالهوى
فيجيبها من « بكر » رهطٌ أشعر
فيها جنى «ابن العبد» (١) حلو شبابه
راح ، وريحان ، ووجه أقمر

---

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلي المشهور .

وخيال « خولة »(١) يستثير غرامه
فيظل فى أطلالها يتحسر
و « بجعفر الخطىِّ » فن خالد
وروائع غنَّى بهن السُّمَّرُ

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر فى أمسيتنا تلك ببستان الأخ « السيد عبد الله إخوان » فى « القطيف » . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقًّا علىّ أن أنقل إلى قومى بعض أصداء ذاك المجلس الأدبى ، ليعلموا أن على ساحل الخليج فى أقصى الشرق من جزيرة العرب ، إخوة من كرام العلماء والأدباء ، يتطلعون إلى مصر ويهتفون باسمها ، ويعتزون — كما قال الأخ السيد حسن بن على أبو السعود — بما بيننا « من روابط القربى واللغة والعقيدة ، ويكنون لأبناء الكنانة كل تقدير ومودة ، ويرون فى الثقافة المصرية المورد العذب النمير ».

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها

(١) خولة : حبيبة طرفة ، ذكرها فى البيت الأول من معلقته :
لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فما كادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : « ليت هذه الزيارة التى طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمسّ حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح — نحن بنى الضاد — كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الخنيزى » :

« إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلا فى الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا بيداء وبحار :

إن « القطيف » و « مصر » شعب واحد
فى المبدأ السامى وفى الأفكار
فمتى نرى هذى الصفوف توحدت
ترمى العدو بمارج من نار ؟

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشى » :

هذى « القطيف » شيوخها وشبابها
هبت تحييكم بكل لسان

فلتخبروا « مصر » العزيزة أننا
إخوان فى الأوطان والأديان
هذى ربوع العرْب مهد واحد
لا فرق بين بعيدها والدانى
وشعوبها أمم موحدة الهوى
فى كل ما يرمى لرفع كيان .

* * *

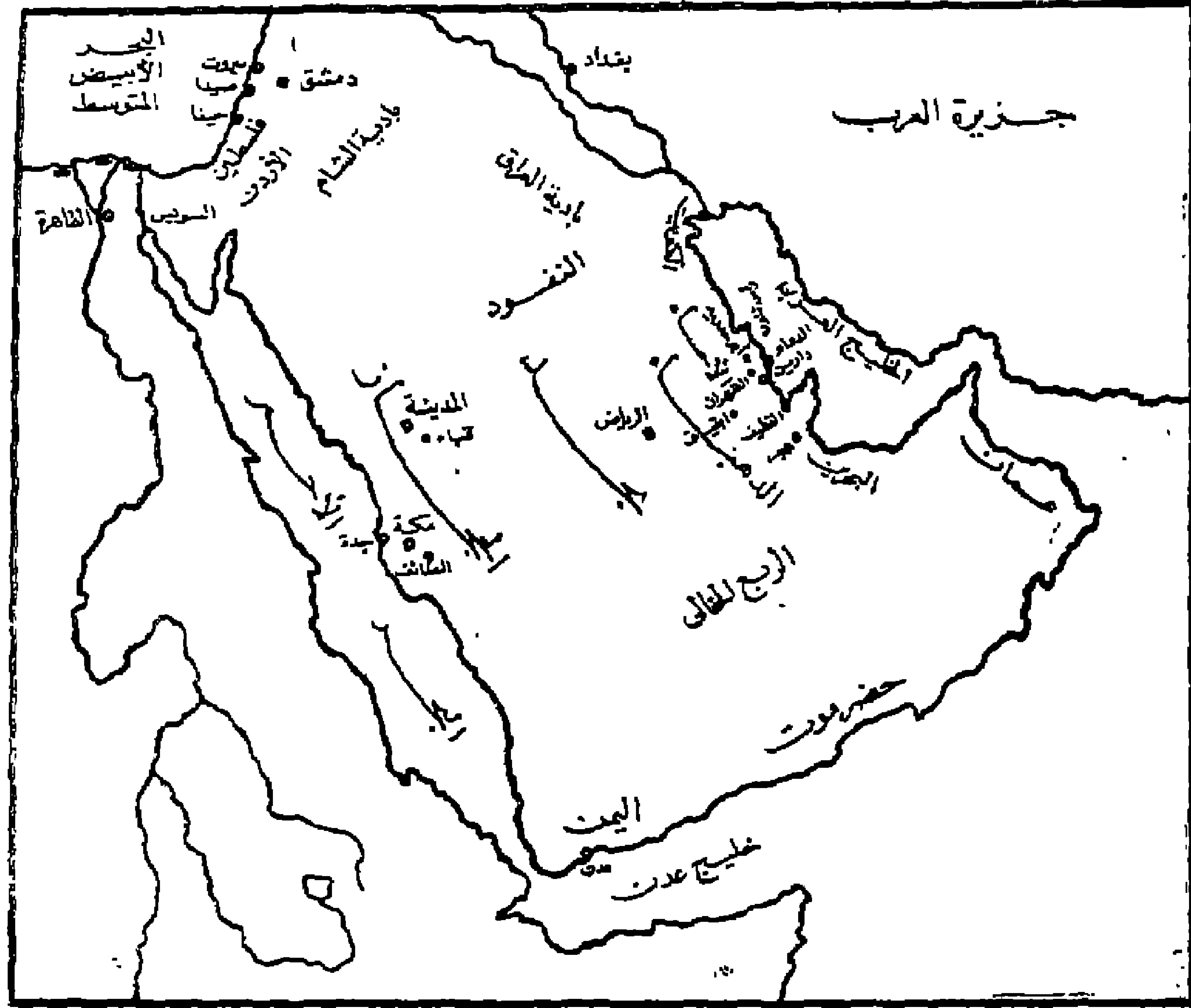
لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هأنذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتى مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟ !

أرجو ، وآمل . . .

وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . . .

من
بنت الشاطىء

هليوبوليس : ١٣٧٠ هـ
١٩٥١ م


جــزيرة العرب
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
دمشق
فلسطين
الأردن
بادية الشام
بادية العراق
بغداد
القاهرة
السويس
النفود
المدينة
قباء
مكة
جدة
الطائف
الرياض
الدهناء
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
عدن
خليج عدن

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٥٨٤ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

اقرأ

طه حسين

الحُبُّ الضَّائِع

دار المعارف بمصر

اجازات

١٩٥١

أثينا	أيام الاثنين والجمعة	٢١ جنيها
روما	أيام الاثنين والأربعاء والجمعة	٤١ جنيها
ميلان	أيام الأربعاء	٤٧ جنيها
ميونخ	أيام الأربعاء	٥٤,٦٠٠ جنيها
فرانكفورت	أيام الأربعاء	٦١,٠٠٠ جنيها
بنغازي	أيام الخميس	١٨,٥٠٠ جنيها
طرابلس	أيام الخميس	٣٠,٥٠٠ جنيها
تونس	أيام الخميس	٣٨,٥٠٠ جنيها

تخفيض ٢٠٪ على تذاكر الذهاب والإياب



سعيده

الخطوط المصرية للطيران الدولي

٣٧ عبد الخالق ثروت باشا بالقاهرة - تليفون ٩٢٤٤٦

SPMO

الحُبُّ الضَّائِع

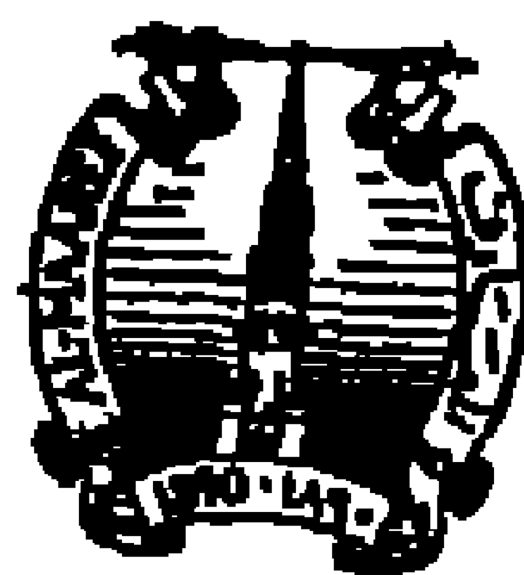
طه حسين

الحبُّ الضائِع

اقرأ ١٠٥

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٥ — أكتوبر سنة ١٩٥١



١

ما أكثر ما أعجب من نفسى ، وما أسرع ما يستحيل هذا العجب إلى سخرية منها أول الأمر ، ثم إلى رثاء لها وعطف عليها ؛ لا يعرض لى شيء غريب أو مألوف إلا حاولت أن أتبين أصله وأردّه إلى علته ، وقد أبلغ من ذلك ما أريد فأرضى ، وهذا نادر ؛ وقد أعجز عن التعليل والتأويل فأسخط ، وهذا كثير ؛ وأنا على كل حال ساخرة من نفسى لهذا المرض الذى لا أجد منه برءاً ، مرض التماس العلة والانتهاء إلى المصادر والأسباب .

والناس يقولون ، إننا ، نحن الفرنسيين ، أمة مريضة بالتعليل والتحليل ، وإن فيلسوفنا ديكارت قد أفسد علينا عقولنا لكثرة ما ألحّ علينا فى أن نحلل ونعلل ، ولشدة ما فتنا بتحليله وتعليله حتى أصبحنا جميعاً فلاسفة أو كالفلاسفة ، وحتى اتخذ العالم منا والجاهل ، والمثقف منا والساذج ، طور الفيلسوف الذى لا يرضى ولا يطمئن إلا إذا ردّ كل شيء إلى أصله ووجد له تفسيراً أو تأويلا .

وأكبر الظن أن هذا حق ؛ فإننا نحن الفرنسيين حين تعرض لنا المشكلات أو تلمّ بنا الأحداث لا نعنى بحل المشكلات ولا بالتخلص من الأحداث ، وإنما نعنى قبل كل شىء بتفسيرها وتأويلها ، فإذا وصلنا من ذلك إلى ما نريد رضينا واطمأنت قلوبنا وأذعنا للقضاء ، وقد يشغلنا هذا عن التماس المخرج مما يلمّ بنا من الخطوب أو يعرض لنا من الأزمات .

أنا إذن فرنسية من هؤلاء الفرنسيين ، لم أبرأ من هذا المرض الفرنسي العام ، مرض التأويل والتعليل ، وأنا جادة الآن فى البحث عن أصل هذا الخاطر الغريب الذى أجلسنى إلى هذه المائدة ومد يدى إلى هذا القلم ، ثم أخذ يجريها على القرطاس بهذا الكلام الذى أكتبه .

ذلك أنى لم أكتب قط إلا ما تعوّد أمثالى أن يكتبن من هذه الكتب اليسيرة القصيرة ، التى تتصل بين الصديقات حين يفترقن ويحرصن على أن تتصل بينهن المودة وتتصل بينهن المجاملة بنوع أخصّ هذه الثرثرة التى لا يستطعن أن يخلصن منها أو يعرضن عنها .

لم أكتب قط إلا هذه الكتب القصار إلى الصديقات حيناً ،

وإلى أبوىّ وإخوتى حين كنت بعيدة عن الأسرة ، رهينة لذلك السجن الذى اضطررت إليه ثمانية أعوام والذى نسميه المدرسة ؛ وأنا الآن جالسة إلى هذه المائدة ، مجرية قلمى على هذا القرطاس ، لا لأكتب كتاباً إلى صديقة ، ولا لأكتب كتاباً إلى أحد من أسرتى ، فإنى لا أفكر فى أحد غير نفسى ، ولا أحب أن يقرأ أحد شيئاً مما أكتبه الآن ومما سأكتبه فيما سيتصل من أيام ، فإنى لم أجلس للكتابة إلا وأنا مقدرة أنها ستتصل ، وأنا أبحث عن هذا الخاطر الغريب الذى دفعنى إلى هذا النحو من التفكير والكتابة فلا أكاد أهتدى إليه .

أنا أذكر أن ثلاثاً من أترابى قد زرننى منذ أيام فخضنا فى أحاديث مختلفة ، وذكرت كل واحدة منهن كثيراً من شؤونها الظاهرة والمستورة ، وتحدثت كل واحدة منهن بما تسر بين حين وحين إلى دفترها حين تخلو إلى نفسها وتأوى إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل ، وأذكر أنى سمعت أحاديثهن فعجبت لها وأعجبت بها ، ولم أستطع أن أشارك فيها لأنى لا أسرّ إلى دفترى شيئاً إذا أويت إلى غرفتى بعد أن يتقدم الليل ، بل لأنى لم أتخذ قط لنفسى دفتراً أسرّ إليه أحاديث نفسى وآمنه عليها وأستعين به

على ما قد يضيق به صدرى من الخواطر والهموم ، أو على ما تفيض به نفسى أحياناً من ألوان الغبطة والابتهاج ، بل لم أفكر قط فى شىء كهذا ، وإنما آمنت دائماً بأن سرّ النفس يفقد حرمته وطبيعته إذا تجاوز التفكير إلى طرف اللسان أو إلى طرف القلم ، وأبيتُ دائماً أن أشرك فى أحاديث نفسى أحداً غيرى ، ويجب أن أعترف بأن أحاديث نفسى لم تكن ذات خطر ، وبأنها لم تبلغ قط من القوة أن تشعرنى بالحاجة إلى من يشاركنى فيها أو يعيننى عليها ، ولكنى سمعت أحاديث الصديقات ، ولا أدرى لماذا أعجبتنى أنباء هذه الدفاتر التى تؤتمن على الأسرار وتتلقى الأحاديث حين تأوى كل واحدة منهن إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل .

وقد تفرّق عنى صديقاتى وشغلت عنهن وعن أحاديثهن بما يكون من حياة الأسرة ، حتى إذا تقدّم الليل وأويت إلى غرفتى وخلوت فيها إلى نفسى لم أجد ميلا إلى النوم ، وإنما أطلت الاضطراب فى الغرفة والتشاغل بالترتيب والتنسيق كأنى كنت أريد أن أمدّ الأسباب التى تصل بينى وبين النوم ، وأن أطيل السهر وأحتفظ باليقظة ، فلما لم يبق ترتيب ولا تنسيق ولم تنازعنى نفسى إلى النوم ، أردت أن أتشاغل بالقراءة وأستعين بها على ما

أريد من سهر ، فآخذ هذا الكتاب، ولكنى لا أكاد أنظر فيه حتى أصرف عنه، فآخذ كتاباً آخر فلا يكون حظه خيراً من الكتاب الأول ، فألبث جامدة شاردة النفس حيناً ، ثم تثوب إلى نفسى ، وإذا أنا راغبة عن النوم زاهدة فى القراءة ، منصرفة عن الحركة فى التنسيق والترتيب .

وماذا أنسق وماذا أرتب وقد بلغت من ذلك ما أريد وأكثر مما أريد ، حين أويت إلى هذه الغرفة منذ ساعة ؟ وهنا أشعر بالحاجة إلى أن أكتب ، ولكن ماذا أكتب ؟ ولمن أكتب؟

هنا يعاودنى ذلك الخاطر الذى عرض لى حين كنت أستمع إلى حديث الصديقات ، فأذكر ائتمان الدفاتر على الأسرار والتحدث إليها بنجوى الضمير ، ثم أذكر أنى لا أملك دفتراً آتمنه على أسرارى وأفضى إليه بأحاديث نفسى ؛ وليس من شك فى أنى قادرة على أن أمد يدى فآخذ ما أشاء من الورق وألقى إليه بما أحب من حديث ، ولكنى أنفر من ذلك نفوراً شديداً ، فلا بدّ من أن أختار الدفتر الذى أتحدث إليه ، كما أختار الصديق التى أوثرها بالمودة والإخاء ، ولا بدّ من أن تكون هنالك ملاءمة بين نفسى وبين هذا الدفتر . وإذا أنا أفكر فى شكل هذا الدفتر ،

وما ينبغى أن يكون عليه من الجودة والظرف ، ومن الشكل الأنيق المعجب ، ثم يجب أن يكون خليقاً بكتمان السر والضن به على الذين قد يتلطفون أو يتطلعون إلى القراءة واستباحة ما اؤتمن عليه.

وإذن فلن أكتب الليلة ولن أفضى بسرى إلى دفتر من هذه الدفاتر العادية أو ورقة من هذه الأوراق المنثورة ، ولا بدّ من أن أنتظر إلى غد ، حتى إذا اخترت الدفتر وأحسنت اختياره خلوت إليه خلوة الصديق إلى الصديق الذى يلائمه ويشاركه ، فتحدثت إليه أحاديث فيها الثقة والأمن ، وفيها اللذة والمتاع ، وفيها قبل كل شىء ارتفاعُ الكلفة وزوال الحرَج .

ولو أنى أخذت دفتراً من تلك الدفاتر العادية أو ورقة من تلك الأوراق المنثورة ، ثم حاولت أن ألقى إليها سراً أو أفضى إليها بحديث لما وجدت فى نفسى شيئاً ؛ فقد كنت أمس خالية النفس من كل سر وكل حديث ، لا يشغلنى التفكير فى أن يكون لى دفتر كغيرى من صديقاتى ، وفى أن ألقى إلى هذا الدفتر أسراراً كالتى يلقينها ، وأفضى إليه بأحاديث كالتى يفضين بها ؛ وليس أدلّ على ذلك من أنى قد أصبحت فغدوت على دار من تلك الدور التى تهيئ للناس أنفس ما يحتاجون إليه من أدوات

الكتابة والتحرير ، فلم أتخير دفتراً فحسب ، ولكني تخيرت معه قلماً رشيقاً جميلا غالى الثمن أيضاً ، ثم أخفيت ذلك فى غرفتى ، ثم جعلت أفكر فى ذلك اليومَ كله ، ثم جعلت كلما ألممت بغرفتى نظرت إلى القلم ومسست الدفتر بيدى مساً رفيقاً ، كأنما أريد أن ألاطفه وأبارك عليه ، ثم انقضى النهار وتقدّم الليل ، وجعلت آخذ نفسى بشىء من العنف حتى لا أتعجل الخلوة إلى نفسى والإيواء إلى غرفتى .

ثم هأنا هذه قد أويت إلى غرفتى ، وخلوت إلى نفسى ، وأخذت الدفتر الجميل فبسطته أمامى ، وجعلت أنظر فى صحفه النقية فأطيل النظر ، كأنما أريد أن أستنبئ نقاءها وصفاءها عما يمكن أن يكون لها من سر أو حديث ؛ وأىّ عجب فى ذلك ؟ فقد اتخذت هذا الدفتر صديقاً أميناً ، ولا بدّ بين الصديقين من تبادل الود والحديث والثقة والأسرار ، ولكن هذه الصحف النقية الصافية لم تنبئنى ولم تلق إلى نفسى شيئاً .

وإذا أنا آخذ القلم عازمة حازمة كأنما أريد أن أحطم ما بيننا من الثلج كما نقول فى أحاديثنا اليومية ، وأن أبدأ بالحديث تشجيعاً لهذه الصحف على أن تتحدث ؛ ولكنى لا أجد شيئاً

أقوله ولا حديثاً أكتبه ، وأكبر الظن أن نقاء هذه الصحف الخالية من كل سر لا يعدله إلا نقاء هذه النفس التي تريد أن تتحدث إليها والتي لا تجد ما تتحدث به فهي تتكلف وتتصنع وتخلق الحديث خلقاً .

وإني لأفكر في هذا فأذكر مواقف وقفتها في عهد الطفولة ، وما زلت أقفها إلى الآن وقد كدت أبلغ العشرين من العمر ، وهي مواقفي من القسيس ؛ فما أكثر ما أضعت وقته وأضعت وقتي بما كنت أحاول من الاعتراف ! فقد كنت أرى ذلك فرضاً على وأرى أن نفسي لن تستريح ، وأن ضميري لن يطمئن ، إلا إذا قمت من القسيس مقام المعترفة بالخطيئة ، ثم مقام النادمة على الخطيئة ، ثم انصرفت عنه وقد ظفرت منه بالمغفرة ؛ ثم أبحث في سيرتي فلا أنكر شيئاً ، وأبحث في دخيلة نفسي فلا أنكر شيئاً ، وألتمس مع ذلك شيئاً أنكره لأعترف به أمام القسيس فلا أجد ما أنكر ، فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية في التكلف ؛ فيقبل القسيس مني حيناً ويرفض حيناً آخر ، حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفني أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسي من هذه الأكاذيب والأباطيل ، ونبهني إلى أن


بيكار

الكذب عليه كذب على الله ، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة فى ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة ، لأنها تعودنى الكذب وتغرينى بالتكلف ، وتدفعنى إلى النفاق ، وتنشىء بينى وبين الآثام صلات قد تنتهى بى إلى الشر .

فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام للقسيس ، ولكننى ألاحظ الآن أنى قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل الأحاديث وأتكلف الأسرار ، وما فى نفسى من حديث وما لضميرى من سر ؛ وما أدرى أيهما خير ؟ أن تظل نفسى نقية كهذه الصحف النقية ، وأن أخلو إلى هذا الدفتر ساعة فى كل يوم فأنظر فى صحفه النقية الصافية لأرى فيها نفسى نقية صافية ، أم أن تزدحم نفسى بالأحاديث والأسرار فلا أخلو إلى هذه الصحف إلا ألقيت عليها من سواد نفسى ما يمحو صفاءها ، ويزيل نقاءها ، ويجعلها مرآة مظلمة لنفس مظلمة ؟

أما قبل أن أسمع حديث صديقاتى عن الدفاتر والأسرار فقد كنت أوثر الأولى ، وأما منذ سمعت أحاديثهن وكلفت بمثل ما كلفن به فإنى لا أدرى أىّ الأمرين أحبّ إلىّ ؟ بل أنا أدرى أيهما أحبّ إلىّ ! فهذه صحف من هذا الدفتر كانت نقية

١٦

سنذ حين ، قد جرى عليها هذا القلم فصَّيرها إلى هذا السواد الذى لا يغنى ، وجعلها مرآة سوداء لنفس يشوبها الاضطراب ، ويشيع فيها القلق ، فيخرجها عما ألفتْ من صفاء ونقاء .

٢

ويحك أيها الدفتر العزيز ! ويحى منك ! لقد شغلتنى يومى كله ، فلم أكد أفكر إلا فيك منذ أصبحتُ إلى أن أمسيتُ. ولقد كانت تشغلنى عنك الحوادث الطارئة والأحاديث العارضة ، بينى وبين أسرتى أو بينى وبين بعض أترابى ، ولكن لم أكن ألبث أن أعود إليك ، فأذكرك ثم أراك ، ثم أتمثلك مبسوطاً بين يدى ، ثم أسأل نفسى عما يمكن أن ألقى إليك من سر ، أو أفضى به إليك من حديث .

وما أكثر ما خطر لى من الخواطر ، وما أكثر ما عرض لى من المعانى ، وما أكثر ما ثار فى قلبى من العواطف ، وما أكثر ما استبان لنفسى من الرأى ! ولكنى ضقتُ بهذا كله آخر الأمر ، ورأيت أنك ستصبح لى شغلا شاغلا وعلة ملحة ، وأشفقت أن تفسد علىّ حياة صالحة جرت إلى الآن على خير ما تجرى عليه حياة أمثالى من الفتيات ، فأزمعت الإعراض عنك والتنكر لك والاشتغال بما كنت أشتغل به قبل أن أعرفك من عمل ورياضة فى النهار ، ومن حديث وقراءة فى الليل . ثم أخذت فى بعض ما

كنت آخذ فيه ، ولكنى رُددت إليك ردا ، وأكرهت على التفكير فيك ثم التحدث إليك إكراهاً ؛ وهأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كلّ شيء ، وثاب كلّ فرد من أفراد الأسرة إلى غرفته فخلت الدار منا ، ونحن مع ذلك نملؤها ونعمرُها ، ونشيع فيها حياة تسكن الآن لتنشط إذا أسفر الصبح .

هأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شيء ، ولعلى تعجلت هدا الهدوء فيما ظهر من أمرى ، وما أشك فى أنى تعجلته فيما كنت أخفى من حديث النفس ونجوى الضمير ؛ وأنا كما كنت أحدثك أمس ألتمس تعليل هذا وتأويله ، فيروعنى ما ينتهى إليه بحثى من التعليل والتأويل ، فقد يخيل إلىّ أن قلبى فارغٌ يريد أن يمتلىء ، وأن نفسى ساكنة كسلةٌ تريد أن تنشط وتعمل ، وأن ملكاتى كلها معطلة يؤذيها هذا التعطيل فهى تلتمس لنفسها منه مخرجاً ولا تجده إلا فى معرفة جديدة لصديق جديد .

وأنا أعلم أن أبواب النشاط أمامى مفتحة ، لو شئت ، فأنا أستطيع أن أشارك فى أعمال البيت ، وأنا أستطيع أن أشارك فى الرياضة ، وأنا أستطيع أن أقرأ وأن أزور وأستزير ، وآخذ فى ألوان مختلفة من الحديث ، ولكنى منصرفة عن هذا كله ،

وانصرافى عنه يشتدّ من حين إلى حين ، وأنا أحسّ شوقاً إلى شىء جديد ألمحه ، ولا أتبينه ، تحسه أعماقُ نفسى وضمير قلبى ولكنه لا يستبين لعقلى ولا ينجلى لرأيى ، فأنا حائرة دون أن أعرف مصدر هذه الحيرة ، هائمة دون أن أعرف موضوع هذا الهيام ، مشوقة دون أن أتبين غاية هذا الشوق ، وأنت تسلينى عن هذا كله ، وتقوم فى نفسى وقلبى مقامَ هذا كله ، فأنا أظهر لك نفسى كما هى ، وقلبى كما هو ، ولعلى أتبسط إلى أبعد من هذا فأجلس إليك فى لبسة المتفضّل ، لا متحرجة ولا متأنقة ، ولا متكلفة شيئاً يتصل بالزى أو بترتيب الهندام ، إنما هى الحرية المطلقة ، حرية النفس وحرية الجسم ، أصطنعها متى أغلقت الباب من ورائى وجلست إليك؛ وأنا أجد فى هذا راحة وطمأنينة ، ولكنى أجد فى هذا شيئاً يسيراً خفياً من قلق يتردّد فى ضميرى بين حين وحين . فماذا تقول أمى ؟ وماذا يقول أبى ؟ وفيم يفكران لو أنهما قرآ هذه الأحاديث التى أسرها إليك ؟ هذه مشكلة جديدة لا بدّ من أن أجتهد فى حلها ؛ فلم يكن لى على أبوىّ سرّ ، أو كنت أحتفظ بسرى وبما يخطر لى من السخف فى هذا الضمير الذى لا يظهر عليه الآباء والأمهات ،

ولكنى الآن أجهر بهذه السخافات وألقيها إليك ، وأنت تستطيع أن تضمن لها البقاء ما تركت آمناً محفوظاً من العاديات ، ولكنك لا تستطيع أن تؤمن نفسك من أن تمتد إليك الأيدى وتجرى على صفحاتك العيون . أنت حافظ للسر ولكنك لا تستطيع له كتماناً ؛ فلا بدّ من أن أعينك على هذا الكتمان ، ولا بدّ من أن أخفيك وأبالغ فى إخفائك على الناس جميعاً ، وعلى أبوىّ بنوع خاص ، وعلى أخى هذا العفريت المارد بنوع أخص ؛ وما كان أغنانى عن هذا الجهد الجديد ، ولكن لا بد مما ليس منه بد !

٣

ولكني أبثك هذه الأحاديث وأنت لا تعرف من أمري شيئاً؛ ألست ترى أن هذا غريب؟ إني لا أفضي بأيسر أمري إلى أحد حتى أعرفه وحتى يعرفني، فكيف بي أظهر لك نفسي كما هي ولم أعرفك إلا أمس، وأنت لا تعرف من أمري شيئاً؟ إني لغافلة ذاهلة حين أتصور فيك العقل والشعور والمعرفة، وحين أتحدث إليك كما أتحدث إلى الناس، ولكني مضطرة إلى ذلك مكرهة عليه، لا أستطيع أن أرى فيك إلاّ صديقاً يسمع لي ويفهم عني، لأني في حاجة إلى هذا الصديق، وإن كنت لا أدري مصدر هذه الحاجة، ولولا ذلك لما اشتريتك، ولما اتخذتك أميناً على السر وحفيظاً على نجوى الضمير.

ولست أرى بذلك بأساً، وقد قرأت في بعض الكتب أن بعض بلاد الشرق كانت تشتري الرقيق من الصبية فتنميهم وتربيهم وتؤدّبهم وتدربهم، ثم تتخذهم لها قادة وملوكاً! وما أنا في حاجة إلى أن أنميك أو أربيك أو أؤدّبك أو أدرّبك لأتخذك لي صديقاً

فأنت تكفينى كما أنت ، وأنت بعد هذا كله تُعيننى على أن أنمى نفسى وأربيها ، وعلى أن أؤدب نفسى وأدربها ، وعلى أن أعرف نفسى حين أعرّفها لك وأقدمها إليك ؛ فأنت صديقى وأنت نجيى ، ولا بد للصديق من أن يعرف صديقه ، ولا بدّ للنجى من أن يعرف نجيه ؛ فاعرفنى إذاً ، وإنى مقدمةٌ إليك نفسى كما عرفتها ، بل كما جهلتها ، لأنى سأظهرك عليها باحثة عنها ، ملتمسة تعليل كثير مما صدر عنها من عمل وتفكير لم أفهمه حين صدر عنها ، ولكنى أظن أنى سأفهمه الآن بعد التفكير والرويّة .

اعرفنى إذاً لأنى سأقص نفسى عليك ، ولأنك ستصاحبنى منذ اليوم وستتلقى أسرارى ، وستحاسبنى أو ستعيننى على أن أحاسب نفسى عن كل ما أعمل ، وعن كل ما أجد .

أليس من الغريب أنك لا تعرف اسمى إلى الآن ؟ فليكن هذا أوّل ما تعرف من أمرى ، فأنا فتاة سأبلغ العشرين بعد أيام ، تُسميها أسرتها : لين ، ويسميها الناس : مدلين مورل .

وما أنا متحدثة إليك بتاريخى البعيد ، فقد استعرضتُ ما أذكره منه فى أثناء النهار فلم أجد فيه غناء ، وأشفقتُ أن أقصه

عليك فتسخر مني وتضيق بي ، لأنه تاريخ الألوف من الفتيات الفرنسيات اللاتى ينشأن فى الطبقات الوسطى من أهل الريف الفرنسى ؛ ولكن يحسن أن تعلم أن الحرب الكبرى قد أدركتنى حين كدت أتم الرابعة عشرة من عمرى ، وقد كنت تلميذة تتهيأ للشهادة الثانوية ، جادة فى الدرس مشغوفة بالعلم دائبة على التحصيل ، أتمتْ عامها الدراسى وظفرتْ بجوائز كثيرة ممتازة ، وعادت إلى أهلها فى قريتهم هذه فى عطف من أعطاف الجبل فى السفوا ، سعيدة راضية عن عامها ، مستبشرة مغتبطة بما ستنعم به من الراحة والسياحة وألوان الرياضة مع إخوتها الثلاثة ، وأترابها الكثيرات أثناء الصيف .

وكنت أصغر إخوتى سناً ، وكان أكبرنا قد تخرج فى كلية الطب ليعمل مع أبينا فى صناعته ، ثم ليخلفه على عيادته بعد عمر طويل ، فكان قد أتمّ الرابعة والعشرين من عمره ، وكان ثانى إخوتى قد أتمّ الحادية والعشرين من عمره وظفر بإجازة الليسانس من كلية الحقوق ، وهو يتهيأ للعمل عند بعض الموثقين ولتحصيل إجازة الدكتوراه أثناء ذلك ، فأما الثالث من إخوتى فكان فى السابعة عشرة من عمره قد ظفر بالشهادة الثانوية ، ويريد أن

يذهب إلى باريس ، ليتهيأ فيها لدخول مدرسة المعلمين .

وكانت أسرتنا راضية موفورة ليست بذات ثروة ضخمة ، ولكنها ليست ضيقة اليد ولا سيئة الحال ولا عاجزة عن أن تعيش عيشة فيها كثير من رغد وخفض ، وآية ذلك أننا كنا نتهيأ فى ذلك الصيف لألوان من العيش لا يتهيأ لها الذين قتر عليهم الرزق فقد كان أخواى يريدان أن يتركا فرنسا ليذهب أحدهما إلى . إيطاليا ، والآخر إلى بلاد اليونان والترك . وكان أصغر إخوتى يريد أن يلحق برفاق له فى جبال الفوج ، وكنت أتهيأ لأذهب مع أبوى وبعض أترابى إلى ساحل المحيط فى بيارتز . ولكن جو أوربا يزدحم بالسحب، ثم تخفق فبه البروق ، وتقصف فيه الرعود ، ثم تثور العاطفة فتحطم كل أمل وتغير كل اتجاه ، ويذهب أخواى لا إلى ايطاليا ولا إلى اليونان، ولكن إلى حيث تريد توجيههما وزارة الحرب . ويذهب أبى متطوعاً للخدمة الطبية فى بعض المستشفيات قريباً من الحدود ، وأبقى مع أمى وأختى فى قريتنا هذه آمنين من غارات الحرب ، غير آمنين أنباءها المنكرة ومناظرها البشعة ، إذا انحدرنا إلى هذه المدينة أو تلك ، فرأينا هذا السيل الذى كان يتدفق بالجرحى على المستشفيات ، وذلك



السيل الذى كان يتدفق بالمحاربين على الحدود . ولكنى مع ذلك لم أذق الحرب ، ولم أبل مرارتها ، ولم أحسّ لذعها الذى يحرق القلب ويغرق العين ، إلاّ بعد أن تقدمت الحرب وبلغت من عمرها البشع ستة أشهر ، حين جاءنا النبأ بأن أكبر أخوى قد صرع فى أحد الميادين ؛ هنالك عرفت الحرب وأحسست آلامها ، ولكن أسابيع لم تمض على هذا النبأ حتى يلحقه نبأ آخر بأن ثانى أخوى جريح يمرض فى أحد المستشفيات ، ثم لا يتمّ العام حتى تظهر فى الأسرة ظاهرة من جنون لم ينكرها أبى حين استشير فيها بالكتب والرسائل ، وأنكرتها أمى ولكنها لم تجرأ على أن تظهر إنكارها إلاّ بالإذعان والبكاء المتصل ، وأنكرتها أنا أشدّ الإنكار وأعنفه ، ولكنّ أحداً لم يسمع لى ، وإنما كانت تلقانى الأسرة بالتلطف والتعطف والتسلية ، وهذه الظاهرة هى تطوع أخى الصغير للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سنّ الحرب . وكان يقول : قد صرع أحد أخوى ، وجرح الآخر ، وما ينبغى أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا !

ثم يسافر ذات يوم مع الصبح فنودعه ، ثم لا نراه إلى الآن !

٤

لم تكن ليلتى سعيدة أمس ، وإنما انقضت شاحبة يملؤها الحزن والبؤس والشقاء ؛ فقد انصرفت فجأة عنها أيها الدفتر العزيز وحيل بينى وبين المضى فيما كنت أقص عليك من أنباء نفسى وأحاديث أسرتى .

صرفنى عن ذلك ما أثارته هذه الأحاديث وتلك الأنباء من شجون وأحزان امتلأ بها قلبى وغرق فيها ضميرى والتبستْ لها الأمور على نفسى ، ثم لم تلبث أن استأثرت بحسى الظاهر فأجرت فى جسمى رعدة خفيفة أول الأمر ، ثم عنيفة بعد ذلك ، لم تهدئها عنى إلا هذه الدموع التى انحدرت من عينى غزاراً . لقد كنت أحسب أن قد هدأت اللوعة وسكت عنى وعن الأسرة هذا الجزع الذى ملكنا وأفسد علينا أمورنا كلها حين انتهى إلينا النبأ بمصرع أخى الصغير ؛ فإذا أنا لا أكاد أبدأ الحديث إليك حتى ينكأ الجرح وتثور العاصفة ، وحتى يضطرب من حولى كل شىء ، وحتى يفسد على كل شىء ، وحتى أغرق فى هذا

الحزن الشامل الذى يصرفنى عنك وعن نفسى ، والذى ينسينى مكانى منك ، ومكانى من كل شىء ، والذى يشغلنى ويشتمل علىّ اشتمالا تاماً ، فأنفق ليلة ما أدرى كيف أنفقتها ، ما أعرف إلى أى لحظة منها بقيت يَقظى ، وفى أى لحظة منها أدركنى النعاس ، وإنما أتنبه لنفسى حين يمسنى برد الصباح ، فإذا أنا كما كنت حين بدأت الحديث إليك ، لم أنتقل من مكانى ولم أتحول عن مجلسى ولم أدرِ كيف قضيت الليل .

هنالك أنهض فزعة مرتاعة ، متسائلة ماذا كان يمكن أن يكون لو أن البرد لم يوقظنى ، ولو أنى لبثت على هذه الحال حتى تستيقظ الأسرة وحتى تظهر علىّ فى هذا الوضع الذى كنت فيه ؟ هنالك أعمد إليك فأخفيك ، وأعمد إلى سريرى فأحدث فيه شيئاً من الاضطراب ، ثم آوى إليه كارهة متكلفة ، لتعلم الأسرة أنى قد قضيت ليلة عادية لم أخرج فيها على المألوف . ولكنى تبينت من هذا كله أنى كنت أكذب على نفسى ، أو أن نفسى كانت تكذب علىّ حين كنت أزعم أنى قد أخذت أتسلى عن الحزن وأتعزى عن كوارث الحرب . وما أشك الآن فى أن الأسرة كلها تكذب على نفسها فتتكلف السلو ، وتتصنع العزاء ،

وتُلقى حجاباً رقيقاً على أحزانها وآلامها ، تتخذه من مشاغل الحياة وأعراضها المتصلة لأنها لا تستطيع أن تمضى فى هذا الحزن العنيف جاهرة به مظهرة له ؛ لا تستطيع ذلك لأن للحياة ظروفها وبواعثها ودواعيها إلى العمل والجدّ ، ولا تستطيع ذلك لأنها تحسب لمراقبة الناس حساباً أعظم مما تُقدر وتظن . وما أشك الآن فى أننا جميعاً نلتقى بوجوه باسمة أو غير مكترثة ، ونمضى فى حياتنا بهذه الوجوه التى تبتسم وتظهر التجلد ، ولكنه ابتسام لا يدل على شىء إلاّ على التكلف والتصنع ، ولا يصدر عن شىء إلا الحزن المر واليأس الممزق للقلوب ، ولكنه تجلد يسير هين لا يكاد يثبت إلا متهالكاً متضائلا ، يكفى أن تعرض له الذكرى فإذا هو يتبدد ويزول ، كما يتبدّد سحاب الصيف ! وآية ذلك أنا نتجنب ، إذا التقينا وأخذنا فى الحديث ، ذكرَ الفقيدين الشهيدين ، والإشارة إليهما من قريب أو بعيد ، مخافةَ أن يخرج ذلك بنا عن طور التكلف هذا الذى أخذنا به أنفسنا ، وأجرينا بيننا عهداً صامتاً على أن نلزمه ونمعن فيه لتستقيم لنا الحياة كما تستطيع أن تستقيم لقوم لا يجدون ينبوعَ الحياة فى قلوبهم ، وإنما يستمدون حياتهم من الخارج ويستعيرونها من الحوادث والظروف ،

فهم يحيون متكلفين ، ولولا هذا التكلف لما ظفروا من الحياة إلا بأسباب واهية لا تُغني عنهم شيئاً !

وما أشك الآن فى أن أمر أبوىّ شرٌ من أمرى ، فإن لى من الشباب نشاطه وآماله ما يسليني ، رضيتُ ذلك أم كرهته ، وما يعينني على أن أتجنب الذكرى وأفرّ من الحزن ، فأما أبواى فليس لهما من هذا كله شىء ؛ فقد فقدا نصف آمالهما حين فقدا اثنين من أبنائهما الأربعة ، وبقى لهما نصفها الآخر كئيباً شاحباً لا يثير نشاطاً ، ولا يدعو إلى جدّ ، ولا يكاد يبعث فى النفوس فرحاً ولا ابتهاجاً ؛ وهما يتجنبان الحديث فى كل هذا بمحضر منا ، ولكنهما يضمران غير ما يظهران ، ويتحدّث كل منهما إلى صاحبه بما يُذكى النار فى قلبه ويضاعف الحزن على نفسه ، وكل منهما مع ذلك رفيق بصاحبه شفيق عليه يخفى عليه أكثر مما يظهر له .

لهما الله ! ما أشدّ ما يقاسيان وما أعظم ما يألم كل منهما إذا خلا إلى نفسه واستطاع أن يرفع هذا الحجاب الرقيق المتكلف وأن يلقى وجهاً لوجه هذه الصورة البشعة التى تركتها لنا الحرب والتى رأيتها أمس فأنفقت أشنع ليلة وأشقاها !

٥

ولم يكن النهار خيراً من الليل؛ وكأنما اصطلحت مظاهر الطبيعة وأسباب الحزن على نفوس هذه الأسرة البائسة، فاضطرتها إلى هذا السجن البغيض الذى هو أثقل شىء عليها ، لأنه يخلى بينها وبين حقائق الأشياء ، ويكرهها على أن تخلو إلى نفسها وتعكفَ على آلامها ، وتذعنَ لهذه الخواطر المحزنة المؤلمة التى تضطرب فى نفوس المحزونين والبائسين .

فقد أصبحنا وإن الشمس لتنشرُ على القرية وما حولها من هذه الآكام اليسيرة التى ترتفع وتتدرج فى لين ورفق ودعة، غشاء رقيقاً جداً من الضوء ، يسحر العين ولكنه يثير فى النفس شيئاً من الحزن والأسى لما ينقصه من القوة والثبات والاستقرار ، ويحمل النفس أن تتساءل : أقادرٌ هذا الضوء على أن يثبت ويقوى فيغمر الأرض بحرارته وجماله ويبعث فيها القوة والنشاط ، أم مُنهزم هو أمام السحب التى تسعى من بعيد سعياً رفيقاً ولكنه مُلح ؟ وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كان جواب هذا السؤال واضحاً ،

فقد انجاب عن الرّبى والآكام هذا الغشاء الرقيق المتهاهل من ضوء الشمس ، وامتلأ الجو بهذا السحاب الذى كان يسعى ثقيلاً يبطىء من ثقله لا من رفقه ولا من كسله ؛ وهذه الآكام تحجب عنا ، وهذه الرّبى تخفى علينا ، وهذه آفاقنا تحدّ من كل وجه، وهذا السحاب الثقيل البطىء يدنو من الأرض ويسعى فى السماء وكأنه يزحف على الأرض زحفاً ، وهذة ظلمة كثيفة تأخذنا من كل وجه ، وها نحن أولاء نتحدث فيما بيننا بأنّ يومنا لن يكون مضيئاً ولا مشرقاً ولن يكون يومَ عمل ونشاط .

وما نطيل الحديث فى ذلك، فقد أخذنا نسمع قصف الرعد بعيداً ولكنه يدنو ، وإنها لعاصفة عنيفة ، وقد ثارت فى السماء فوقفت الحركة وألجأت الناس إلى دورهم ؛ وهذا المطر ينهمر غزيراً عنيفاً ، وكل شىء يدل على أنه سيتصل وسيستغرق اليوم كله ، وها نحن أولاء قد لجأنا إلى دارنا كما لجأ الناس ، وخلونا إلى أنفسنا وأخذنا نشغلها بالحديث حيناً ، وبهذه الأعمال اليسيرة حيناً آخر ، ولكن الغريب فى أمرنا أن صبرنا على الحديث ضئيل ، ليس له حظ من ثبات أو استقرار ، كأنما يخاف بعضنا بعضاً ، وكأنما يشفق بعضنا من بعض ، وكأنما نحذر

إن اتصل الحديث أن ينتهى بنا إلى ما لا نحب ، فنحن نقتصد فيه اقتصاداً، وينتهى بنا إلى البخل والإغراق فى الصمت. وأى شىء أبغض من الصمت المتصل بين أسرة متحابة متعاطفة؟ لا تستطيع الحديث ، لأنه قد ينتهى بها إلى ما تكره ؛ ولا تستطيع الصمت، لأنه قد يكون أسرع بها من الحديث إلى ما لا تحبّ !

وإذاً فليفرّ بعضنا من بعض حتى لا يؤذى بعضنا بعضاً بالحديث ولا بالصمت، وقد فعلنا، فأما أنا فخلوت إلى الكتب، وأما أبواى وأخى فالله يعلم إلام خلوا وبماذا اشتغلوا ؟

وتجمعنا المائدة ، فيا له من اجتماع كئيب كله حيرة وكله ألم ، وكله تردّد بين هذا الحديث المتقطع الذى لا غناء فيه ، وهذا الصمت الكثيف الملح الذى يريد أن يتصل ، والذى يقول أكثر من كل حديث ؛ ومع ذلك فقد لاحظتُ غموضاً فى وجه أمى وشيئاً من الإلغاز فى وجه أبى ، ولاحظت فيما كانا يلقيان إلىّ من النظرات شيئاً من العناية لم أتعوده من قبل ، فيه إشفاق ظاهر وحنان قوىّ وحب لم يتعودا أن يظهراه على هذا النحو ؛ ولم يكن حديثهما إلىّ على تقطعه وندرته يخلو من بعض هذا ، فقد


بيكار

كان الصوت رقيقاً عذباً أرقّ وأعذب مما ألفت ، وكانت الجمل غامضة ملتوية بعض الشيء ، وكان فيها تلميح للمستقبل ولكنه تلميح حزين يريد أن يخفى حزنه وأن يظهر مسروراً مبتهجاً بعض السرور والابتهاج ؛ ولم يكن أخى بأوضح من أبوىّ وجهاً ولا نظراً ، ولكن غموض وجهه ونظراته لم يكن يشوبه الحنان والعطف ولا الإشفاق والحب ، وإنما كانت تشوبه هذه الدعابة الماكرة التى ألفتها منه ، والتى ضقت بها غير مرة لأنها لا تخلو من قسوة تبعث الحنق وتثير الغيظ ، وربما رأيت على وجهه بين حين وحين ابتسامة لا تخلو من سخرية ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تخلو من مودة ودعابة ومزاح . ليس من شك فى أن بينهم أمراً يخفونه ولا يريدون أن أظهر عليه إلا شيئاً فشيئاً ، كأنهم يهيئوننى له تهيئة ويعدوننى له إعداداً ؛ فما عسى أن يكون هذا الشيء ؟

لقد فكرت فيه ، وزعمت لنفسى أنى لا أعرفه ، وأنى حريصة على معرفته ، وأنى ضيقة بجهلى له وغموضه علىّ ، وما أرى إلا أنى كذبت على نفسى ، وما أرى إلا أنى تعمدت هذا الكذب ، فإن نفوسنا نحن الفتيات — حين نبلغ من حياتنا هذا الطور

الذى أنا فيه — معقدةٌ أشدَّ التعقيد ، ملتويةٌ أعظمَ الالتواء؛ والغريب أنّ آباءنا يظنون بنا السذاجة ويأخذوننا كما يروننا ، وينتهى إيمانهم بسذاجتنا إلى أن يقنعنا نحن بهذه السذاجة ، وإلى أن يخدعنا نحن عن أنفسنا ، وإلى أن يخيل إلينا ويُلقى فى روعنا أننا كما يظنون ، لا نفهم الحياة ولا نتعمقها ، ولا نكاد نعرف ما يهيأ لنا وما يراد بنا ! ونحن ننظم سيرتنا على هذا النحو من النفاق ، من النفاق الذى لا نكاد نحسه ولا نتبينه ، فضلا عن أن نعتمده أو نقصدَ إليه .

كذلك أرادت أوضاع الحياة الاجتماعية أن يُخدع الآباء عن أبنائهم ، وأن يُخدع الأبناء عن أنفسهم ، وأن تمثل فى كل دار بين الشباب والشيوخ ، أو بين الجيل الذى يستقبل الحياة والجيل الذى يستدبرها ، قصةٌ قوامها هذا النحو من الخداع ، تضحك أحياناً ، ولكنها تحزن وتسوء فى كثير من الأحيان !

زعمت لنفسى أصيل هذا اليوم أنى لم أفهم غموض أبوىّ وتلميحهما ، وأنى لم أفهم غموض أخى ودعابته ، ولكننى كنت كاذبة على نفسى ، ولن أكذب عليك أيها الدفتر العزيز ، فقد عاهدتك على أن تعرفنى كما أنا ، واستعنتك على أن أعرف

نفسى . لقد فهمت عن أبوىّ وعن أخى كلّ شىء . إنما كانوا يعرّضون بالمستقبل القريب ، ويشيرون إلى خطبة تضطرب أحاديثها فى الجو من حولى وتهيأ لها الأسباب نهئية ، وهم يخفون أمرَها علىّ حتى يتمّ الإعداد لها ، وحتى يصبح الحديث إلىّ فيها مجدياً لا ينتهى بى إلى خيبة أمل؛ وأنا أعرف هذا كله ، وأرقب هذا كله محبة لأبوى ، راحمة لسذاجتهما ، مكبرة لحنانهما ، ممزقة القلب من الحزن أن تتهيأ الحياة لتبتسم لى ، ومن حولى كلّ هذا الحزن العابس وكلّ هذا الألم العميق !

٦

ولكنى لا أعرف من أمر هذه الخطبة التى تهيأ ويتصل فيها حديثُ الأسرة أكثر مما ذكرت . وما أخفى عليك ولا على نفسى أيها الدفتر العزيز أنى قد ضقت بهذا الجهل ، وثقل علىّ هذا الغموض ، ووددتُ غيرَ مرة لو استطعت أن أنفذ إلى قلب من هذه القلوب الثلاثة الكريمة التى تحيط بى وتمتلىء بحبى ، لأرى ما يثور فيه من عاطفة ، وما يضطرب فيه من تفكير ؛ ولكنى لم أحاول قطّ أن أسترق السمع ، أو أختلس بعض ما يتصل من حديث ، لأنى أرى ذلك نكراً يأباه الخلق ، وتنكره سيرة الفتاة المهذبة التى نشئت تنشئة حسنة ورُبيت تربية صالحة . وأىّ شىء أبغض من التسمع على الآباء والاحتيال فى استراق الحديث ؟ وقد أنحدرُ فى التفكير إلى أعماق نفسى فأستكشف شيئاً لا أكاد أحققه ، ولكنى أضيق به ضيقاً شديداً ، فقد يخيل إلىّ أن الذى دفعنى إلى أن أتخذك لى صديقاً ، وأحاول أن أفضى إليك بأسرار نفسى ، إنما هو هذا الشعور الغامض الذى

وجدته منذ أيام حين أحسست الغموض الطارئ على ما بيني وبين الأسرة من صلة ، وحين تبينت أو خيل إلىّ أنى أتبينُ من هذا الغموض تفكيراً فى الخطبة وتهيئة للزواج . لم أكن أستطيع أن أبادى بهذا الحديث أخى ، أو أحدَ أبوىّ ، فضلا عن أن أبادى به إحدى صديقاتى ؛ وقد هممتُ أن أطيل الحديث فيه إلى نفسى مفكرة مقدرة ، ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزاً .

لم أكن أحاول التفكير فيه حتى أصرف عنه وتدفع نفسى إلى التفرّق وخواطرى إلى الشرود ، فلم أرَ بدا من الالتجاء إليك ، والاعتماد عليك ، لأجمع هذه النفس المتفرقة ، وأردّ هذه الخواطر الشاردة ؛ وما أرى أنى قد ألقيت إليك كل هذه الأحاديث إلا فراراً من هذه الحقيقة التى أواجهها الآن ، وتأخيراً لهذه الساعة التى لا أستطيع الآن لها تأخيراً . إنى لأجدُ مشقة شديدة فى تحليل هذا الشعور الذى يغمر نفسى ويملأ قلبى منذ استكشفت سرّ أبوىّ دون أن أصل إلى كنهه أو أتبين جليته ؛ فأنا سعيدة من غير شك وإن كنت أخفى هذه السعادة حتى على نفسى ، لأن الأوضاع الاجتماعية تريدنى على ذلك . أنا سعيدة

حين أفكر فى هذه الخطبة التى تهيأ، وفى هذا الزواج الذى يعدّ؛ وأىّ فتاة مثلى لا تسعد بالتفكير فى الخطبة والزواج ؟ وأنا ثائرة أشدّ الثورة ، بأن أبوىّ يفكران فى ذلك وحدهما ، ويستأثران به من دونى، ولا يشركاننى فيما يكون بينهما من تفكير أو حديث، كأنما الأمر يعنيهما أكثر مما يعنينى ، ويمسهما أكثرَ مما يمسنى . وأنا مشفقةٌ من عواقب استئثارهما بهذا الأمر ، وانفرادهما بالتفكير فيه ، أخشى أن يتقدّما فيه إلى أبعد مما ينبغى ، وأن أصبح أو أمسى ذات يوم وإذا أنا أمام أمر واقع لا أستطيع أن أتخلص منه إلا بالعنف الذى أكرهه ، وبالخلاف عن أمر أحبّ الناس إلىّ وآثرهم عندى وأكرمهم علىّ .

ثم أنا بعد هذا وذاك حائرة ، يكاد حبى للمعرفة يقهر كلّ عاطفة أخرى فى نفسى ، ويملك علىّ كلّ أمرى، ويصرفنى إلاّ عن البحث والتفكير فيمن عسى أن يكون هذا الشاب الذى يفكر أبواى فيه ويهيئان للصلة بينى وبينه .

يا للعجب ! متى يشعر الآباء بأن الزواج لا يهيأ على هذا النحو ، وبأن الخطبة لا تعدّ على هذا الأسلوب ، وبأنّ أمر الحب لا يدبر تدبيراً ؟ ومع ذلك فقد قلت ، وما زلت أقول :



إنى سعيدة بالتفكير فى الخطبة والزواج ؛ وآية ذلك هذا الذهول الذى يستغرق أكثر وقتى حين أخلو إلى نفسى ، والذى تملؤه أحلام غريبة ، منها الجميل الرائع ، ومنها المخيف البشع ، وكلها على ذلك يرضينى ويملأ نفسى سروراً وابتهاجاً . ومن يدرى ! لعل فى تكتم أبوىّ واستئثارهما بالأمر من دونى بعض الخير ، فهو الذى يتيح لى هذه الأحلام ، ويغمرنى بهذا الذهول ، ويدفع نفسى إلى هيام لا يخلو من لذة لعل الأخلاق تنكرها ، ولعل الحياء — حياء العذارى — يمنعنى أن أسطرها أو أصورها ، لولا أنى أفضى بذات نفسى إلى صديق مثلك أمين يتلقى الأسرار فيخفيها حتى على نفسه .

إنى لأستعرض عدداً غير قليل من الشباب الذين أظنّ بهم الكفاءة ، وأقدر أنهم خليقون أن يفكروا فىّ ، أو يسألوا عنى ، أو يطمعوا فى القرب من أسرتى ؛ أستعرضهم وأرى نفسى تتنقل بينهم كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر ، لا تكاد تلمّ بهذه الزهرة حتى تنتقل منها إلى زهرة أخرى ، ثم إلى زهرة ثالثة ، وعلى هذا النحو . وإنى لأستحيي من هذا الهيام الآثم الذى لا أرضاه من غيرى لو أقبل عليه غيرى ، ولكنى مع ذلك أعترف

بأنى غارقةٌ فيه ، مؤثرة له ، مستمتعة به ، معتذرةٌ مع ذلك عن نفسى ، لأنّ أبوىّ هما اللذان دفعانى إليه حين استأثرا من دونى بالتفكير فى أمر هذه الخطبة . ولو أنهما أظهرانى على ما يدبران من الأمر لاقتصرت هذه النحلةُ الهائمة المتنقلة على زهرة واحدة. فوقفتْ عندها ولم تعدُها إلى غيرها من الزهر ، ولم تضطر إلى الاستمتاع راغمة بهذا الهيام الحلو البغيض !

وكذلك أنفق ساعات طوالا مع هذا الشاب أو ذاك من شباب القرية ومن شباب القرى المجاورة ، فأسمع منه وأتحدّث إليه وأبلو أخلاقه وأمتحن سيرته ، وأنصرف عنه راضية حيناً ، وساخطة حيناً آخر ، حامدة مرة وناقدة مرة أخرى ؛ وأنا مع ذلك سجينةُ غرفتى ، أو مضطربةٌ فى البيت ، أو متنزهةٌ فى الحديقة ، خاليةٌ إلى نفسى على كل حال ، لا أرى من هؤلاء الشباب أحداً ولا ألقاه بحديث ، حتى طال علىّ هذا الأمرُ وثقل على نفسى هذا الهيام ، وأخذت أكره التفكير فى الخطبة والزواج ، وأتمنى أن ينجلى هذا الغموض ، وأن تتاح لنفسى هذه الهائمة غايةٌ واضحة تقف عندها مفكرة مقدّرة فتقبل عليها آخر الأمر أو تنصرف عنها .

٧

وهذا يوم من الأيام ينقضى كما انقضت هذه الأيام القليلة الماضية ، لا تنجلى فيه الحقيقة لهذه النفس الحائرة ، ولا تستطيع نفسى أن تبرأ من حيرتها وأن تفكر فى غير ما دفعت إلى التفكير فيه ؛ ومع ذلك فقد حاولت أن أشغلها عن ذلك بالقراءة وبالحديث ، فلما لم تغن القراءة ولا الحديث تكلفتُ شيئاً من النشاط ، فخرجت للتروض وأبعدت فى المشى ، ولكنى رجعت كما خرجت مُفرقة النفس شاردةَ الخواطر ، مضطربة بين الثورة والهيام ، فلم أكد أستقرّ وأستريح من جهد الرياضة حتى استأنفت النشاط وخرجت فزرت بعض الصديقات وأخذت معهن فى ألوان من الحديث مختلفة ، ولكنى كنت أحسّ دائماً أن لى نفسين : إحداهما تلقى الصديقات وتتحدّث إليهن وتسمع منهن ، والأخرى مقيمة فى أعماق الضمير ظاهرةٌ غير مستخفية ، ناطقةٌ غير صامتة ، تبحث وتستقصى ، وتسأل وتُلحّ فى السؤال ، وتهيم وتشقى بالهيام . وما أظنّ إن اتصل الأمر على هذا النحو

إلا أنه سيظهر لأسرتى ، وستنكر أمى بعض سيرتى ، وسأضيق بهذا الإنكار وبما سيتبعه من السؤال .

ما أشد حاجتى إلى رحلة قصيرة تخرجنى من هذه البيئة وتصرفنى عن هذه الخواطر ! ولكن هل إلى الرحلة من سبيل ؟ إنّ قوانين الأسرة صارمة صلبة لا مرونةَ فيها ولا لين . الرحلة ميسرة لنا فى الصيف ، نصعد فى الجبل إلى أرفع من هذه القرية التى نعيش فيها ، أو ننحدر إلى المدينة أو إلى ما يليها من شواطىء ، أو نبعد فى السفر فنهبط إلى ساحل البحر ، فنغير الجو والإقليم تغييراً تاماً . وقد كانت الأعوام التى سبقت الحرب تتيح لنا الإمعان فى السفر وتجاوزَ حدود فرنسا من هذه الناحية أو تلك ، وربما سمحت لنا بركوب البحر وعبوره أيضاً .

الرحلة ميسرة فى الصيف لأنها تتيح لنا الاستمتاع بحقنا من الراحة ، والرحلة ممكنة فى الشتاء على أن تكون قصيرة ، وعلى أن تكون قريبة ، وعلى أن تدعو إليها الظروف ، فقد نزور هذا الفرع أو ذاك من فروع الأسرة التى أراد حسنُ الحظ ألاّ تجتمع فى قرية واحدة أو فى إقليم واحد ، وإن تقاربت مواطنها وسهل تزاورها . الرحلة ميسرة فى الصيف ممكنة فى الشتاء ، ولكنها

محظورة فى غيرهما من فصول السنة إلا أن تدعو إليها ظروف قاهرة ؛ ومهما تكن رغبتى فى الرحلة فإنى أوثر البقاء على أن أرحل مستجيبة لبعض هذه الظروف ؛ وما أدرى بعد ذلك ، أواجدةٌ أنا فى نفسى الشجاعة على السفر إن تهيأت لى أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التى أستطيع احتمالها تركُ هذين الشيخين المحزونين ، وهذه الأمّ البائسة ذات القلب الكسير والبال الكاسف ، والحياة التى أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذى يأتى من أختى ومنى فيعينها ويُعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ! ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغى التفكير فيها فضلا عن التحدث بها ، وحسبى أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأنأى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أختى ، وأنّ أمر هذين الأبوين صائرٌ إلى هذه الوحدة المنكرة التى لا أفكر فيها إلا امتلأت نفسى حزناً ، وامتلأ منها قلبى رعباً ؛ وحسبى أنّ هذين الأبوين الكريمين يهيئان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدّان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهلٌ

له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدان ، هما الآن يفكران فى خطبتى وزواجى ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة ، والحياةُ القاتمة التى يحياها أصحابها وقد يئسوا من ماض لا سبيل إلى عودته ، وانتظروا مستقبلا أيسرُ ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ! ما ينبغى لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغى لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بدّ ، بل ما ينبغى لى أن أضيق بشىء أو أن أظهر لهما أنى ضيقة بشىء ، وإنما أيسرُ حقهما علىّ ألا يريا منى إلا وجهاً مشرقاً ، وثغراً باسماً ، ونفساً راضية ، وقلباً مطمئنا يملؤه الحبّ والوفاء ويفيض منه العطف والحنان .

وإنى لقادرةٌ على ذلك ، وإنى لراغبةٌ فيه حريصةٌ عليه ، لولا هذا الخاطر الثقيل الملحّ الغامض الذى أثاره فى نفسى أمرُ الخطبة وحديثُ الزواج .

أعنّى ، أيها الدفتر العزيز ، على أن أكون جلدة حازمة

ضابطة لأمرى، مالكة لنفسى، مسيطرة على عواطفى وخواطرى، محتملة لهذا الهيام الغريب الذى أحبه وأبغضه، والذى أقدم عليه وأحجم عنه.

أعنى، أيها الدفتر العزيز، فإنى فى حاجة إلى معونتك لأقف من نفسى ومن أبوىّ هذا الموقف الغريب، الذى لا أكاد أتصوره حتى أرتاع له، وأضحك منه؛ فهو مروّع حقاً ومضحك حقاً. أتريد أن أفضى إليك بخبيئة نفسى ودخيلة ضميرى؟ إذاً فأصغ إلىّ، واستمع لى، ولا تضحك منى ... إنى عاشقة قد تيمها العشق، ولكنى عاشقة لشخص مجهول لا أعرف من أمره شيئاً، هو هذا الذى يفكر أبواى فى أن يكون لى زوجاً!

٨

إنك تسرفين فى السهر يا ابنتى ، وأخشى أن يؤثر ذلك فى صحتك ، بل أكاد ألمح آثاره ، فإنى أرى لونك حائلا ووجهك شاحباً ، وأحس منك فتوراً لم أتعوده ولا أحب أن أحسه .

قالت لى أمى ذلك بعد أن منحتنى قبلة الصباح ، ثم وضعت يدها على كتفى ، وحدّقتْ فى وجهى فأطالت التحديق ، ثم ضمتنى إليها ووضعت على خدى قبلتين لم تكد تفرغ منهما حتى انحدرت من عينيها دموع غزار ، وحتى خنقت العبرة صوتها فولت منصرفة ومضت إلى غرفتها لا تلوى على شىء ؛ وكان هذا كله مفاجئاً لم أكن أتوقعه ، وكان هذا كله سريعاً لم يتح لى أن أفكر فيه ؛ دفعتها إليه الغريزة ، ودفعها إليه ما يملأ حياتها من حزن وإشفاق ؛ ولم أكن أقلّ منها تأثراً بالغريزة ، فمضيت فى أثرها مسرعة حتى انتهيت إلى غرفتها ، فإذا هى جاثية أمام الصليب صامتةً مغرقة فى الصمت ، لا ينطلق لسانها بالصلاة ولا يندفع صوتها بالبكاء ، والدموع تنحدر من عينيها

صامتة أيضاً ، وقد أظلها الحزن الهادىء الوديع بجناحيه ، فظهرت عليها سكينة مؤثرة تملأ القلب حزناً وأسى ، وتشيع فيه رهبة وجلالا . وقد قمت منها غيرَ بعيد ، ولبثتُ أرمقها بنظرات ما أرى إلا أنها كانت تحمل بعضَ ما كان يفيض به قلبي من حب وحنان ، وكأنها أحستْ وقعَ هذه النظرات على شخصها فتحولتْ عن الصليب فى أناة وهدوء ، ثم نهضت متثاقلة وهى تهدى إلىّ ابتسامة حلوة يبلها الدمع ، ثم سعت إلىّ حتى بلغت مكانى فضمتنى إليها مرة أخرى وقبلتنى متهالكة متماسكة ، ثم أخذت بيدى ومضت تسعى حتى انتهت إلى كرسى طويل فجلست وأجلستنى إلى جانبها ، وطوّقت عنقى بذراعها ، وجعلت تنظر إلىّ فتطيل النظر ولا تقول شيئاً . وما أشك فى أن نظرها هذا الصامت الطويل إنما كان صراعاً بين حبها لى وحزنها هذا المتصل ، وكانت تريد أن تردّ الحزن إلى مقره من أعماق نفسها ، وأن تقيم فى المكان الظاهر من قلبها حبها لى وبرّها بى وعطفا علىّ ، وقد أتيح لها ذلك بعد لحظة ، فجعلت تلاطفنى بيدها ، تمسح بها خدى مرة وتجرى أصابعها فى شعرى مرة أخرى ، وجعل نظرها إلىّ يتصل كما كان ولكنه يهدأ ويرق ويلين

حتى صار حناناً وعطفاً ، ولم يتح للسانها مع ذلك أن ينطلق بشىء ، ولم يتح لشفتيها مع ذلك أن تنفرجا عن شىء :

والغريب أن لسانى أنا أيضاً قد ظل معقوداً ، وأن شفتى أنا أيضاً قد ظلتا مقفلتين ، وقد كنت مع ذلك أدرت فى نفسى كلاماً أريد أن أقوله لها وقدرت فى خاطرى ألفاظاً حلوة أريد أن أرسلها إلى نفسها الثائرة وقلبها المكتئب ، ولكنى أنسيت كلّ شىء ولم أجد فى نفسى شيئاً ، ولم أستطع أن أدير لسانى بحرف ؛ وإذا أنا ألاطفها كما تلاطفنى ، وأداعب خدها وشعرها كما تداعب خدى وشعرى ، وأقبلها بين حين وحين .

وما أدرى أطال مجلسنا هذا أم قصر ، ولكنى أعلم أنى كنت أسرع منها إلى النشاط ، فقد نهضت خفيفة رشيقة فاستقبلتها ، ثم انحنيت عليها فأخذت كتفيها فهززتهما هزاً عنيفاً رفيقاً معاً ، وأنا أقول لها فى صوت حزين يتكلف الفرح ، وبوجه عابس يتصنع الابتسام : « هلمّ هلمّ يا أماه ! ما هذه القصة الصامتة التى أخذنا فى تمثيلها منذ اليوم ؟ أى شىء طرأ وأى حادث عرض ! ألم أنهك عن هذا البكاء ؟ ألم أحرم عليك هذا الإغراق فى الحزن ؟ ما أجمل هذه التحية التى استقبلتنى بها ! هكذا

تلقى الأمهات بناتهن حين يشرق لهن وجه النهار ؟ هلمّ هلمّ يا أماه ! إنك خليقة أن أغضب عليك وأن أعاقبك عقاباً شديداً فأعبس لك النهار كله وأعرض عن حديثك إلى الغد ! هلمّ هلمّ ! ما كنت أدرى أن السن تتقدم بك فتردك إلى سيرة الصبية والأطفال » .

أقول لها ذلك متكلفة أول الأمر ، ولكن التكلف يزول شيئاً فشيئاً ، وإذا أنا أرانى جادة ، ويخيل الىّ أنى قد صرت لها أماً وأنها قد صارت لى بنتاً ناشئة ، وأنى أؤدبها وأهذبها وآخذها فى سيرتها بالرشد والصواب ، وإذا أنا أنهضها فلا تمتنع علىّ ، وإنما تستجيب لى فتنهض غير متثاقلة ، وإذا أنا أطوق خصرها بذراعى وأسعى معها رفيقة ، فتسعى مطيعة مذعنة وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين ، حتى إذا خرجنا من غرفتها وأغلقت الباب من دوننا قلت لها فى لهجة العاتبة : لقد أخرت ساعة إفطارى ألا تستحين ؟ إنك قد أفطرت من غير شك فلا عليك ألا يفطر الناس ، ومع ذلك فإنى لن أفطر الآن عقاباً لك !

فتلتفت إلىّ وتهم أن تتكلم ، تريد من غير شك أن تحرّضنى على الإفطار ، ولكنى أريحها من الكلام قائلة : لقد صرفت

نفسى عن الرغبة فى الطعام والشراب ، ولا بد لى من لحظات قصار أتنسم فيها الهواء وأطوف فى أثنائها بالحديقة ، وأحس فى أثنائها ما يملأ الحديقة من زهر وشجر ، وأتلقى تحية الزهر والشجر أيضاً ، وستشهدين هذا كله ، وسترافقيننى فى هذه الرياضة ، فلعلها ترد إليك بعض الحكمة ، ولعلك تثوبين معها إلى الرشد ، ولعلها تهيئك لإفطار جديد فلن أفطر وحدى هذا اليوم ، ولا بد من أن تحتملى هذه الخطيئة التى لا أغتفرها !

أقول لها هذا كله فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء ، وبين التكلف والجد ، وهى تسمع لى مذعنة أول الأمر ، ثم مقبلة على مبتسمة لى ؛ وما هى إلا لحظات حتى نكون فى الحديقة مطوفتين ، أنا أقف بها من حين إلى حين عند هذه الجماعة أو تلك من النجوم والأزهار ، متحدثة إليها ألواناً من الحديث عن هذه النجوم والأزهار ، داعية البستانى بين وقت ووقت ، أستفسر منه مرة ، وألومه طوراً ، وأنهاه طوراً ، وما أزال على ذلك حتى أرد إلى قلبها بعض الأمن ، وإلى نفسها بعض الهدوء ، وإذا هى تشاركنى فى بعض الحديث ، وتوافقنى فى هذه الملاحظة وتخالفنى فى تلك ، حتى إذا بلغتُ من ذلك كله

مأربي رجعت بها إلى غرفة المائدة ، فاضطرّتْ متكلفة ، وأكرهتها على أن تشرب قدحاً من القهوة ، ثم أمضيت معها الضحا كله أجاذبها أطراف الحديث فى شئون مختلفة متباينة ، لا تتصل بى ولا بأخى ، ولا بالفقيدين الشهيدين ، وإنما تتصل بأهون الأشياء وأيسرها وأجدرها أن ينفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحزن والألم .

وكذلك أنفقنا صباح اليوم حليفتين على دفع هذا الضيف البغيض الذى أراد أن يغزو دارنا وأن يفسد أمرنا وأن يردّنا إلى شرّ ما كنا . ولم أفارق أمى إلا حين تقدّم المساء ، وبعد أن فرغنا من غدائنا ومن هذا الحديث الذى تعودنا أن نأخذ فيه بعد الغداء ، ولم أتركها وحيدة ، وإنما أوصيت بها إلى أبى ونبهته فى رفق إلى أنها لم تكن حكيمة ولا رشيدة صباح اليوم . ومن يدرى ! لعله هو أيضاً لم يكن حكيماً ولا رشيداً ، ولعله لم يكن أقلّ منها حزناً ، ولكن الرجال يحسنون الصبر ويتقنون التجلد ، ويبلغون من كظم الحزن وإخفاء العواطف ما لا يبلغ النساء .

وخلوت إلى نفسى بعد ذلك فجعلت أستعرض ما كان من الأمر وألتمس له كما تعودتُ العللَ والأسباب ، ولكنى لم أستطع

أن أردّ هذه الأزمة الطارئة المفاجئة إلى سبب معقول أستريح إليه؛ وكيف عرفت أمى أنى أسرف فى السهر ؟ إنها إذاً تلاحظنى أكثر مما كنت أظن ؛ لقد كنت أحسب أنى كنت آمنة على خلوتى إذا افترقنا حين يتقدم الليل ، وأن كلاّ منا يأوى إلى غرفته فيفرغ لنفسه من كل إنسان ومن كل شيء ، وتؤجل الصلات بينه وبين الناس والأشياء إلى غد ، ويستمتع بحريته الكاملة ساعة قبل أن يغلبه النوم . كنت أظن ذلك ، ولكنى كنت واهمة ، فهذه أمى تلحظنى بعد أن نفترق ، وتعرف أنى أسرف فى السهر ، وتلومنى فى ذلك لوماً رفيقاً .

وليس من شك فى أنها تلاحظنى منذ أيام ، فهى لم تقل لى لقد أسرفت فى السهر أمس ، أو أول من أمس ، وإنما قالت لى : إنك تسرفين فى السهر . إنها لا تتعمد هذه الملاحظة ، فليس هذا من خلقها ، ولكن المسكينة مؤرقة دائماً تسرف فى السهر اضطراراً لا عن عمد ، وما أكثر ما يضطرها الأرق إلى النهوض من سريرها والاضطراب فى غرفتها والوقوف إلى النافذة تستنشق الهواء وتنظر إلى السماء ، ولعلها تلتمس نفَسَ هذا أو ذاك من فقيديها الشهيدين ، متحيرة بين هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها النجوم إلى

الأرض ؛ وأكبر الظن أنها لاحظت الضوء ينبعث من نافذتى ، فصبرت على ذلك مرة ومرة ، فلما تكررت الملاحظة وطال الأمر لم تطق على ذلك صبراً ، فدفعها الإشفاق إلى هذا التنبيه. والغريب أن لنافذتى أبواباً ، وأن من دونها أستاراً ، وأن هذه الاستار إن أسدلت وتلك الأبواب إن أغلقت خليقة أن تحجب الضوء وتمنعه من النفوذ .

ولكنى لا أحسن إليك الحلوة أيها الدفتر العزيز ، ولا أحتاط حين أناجيك وأفضى إليك بأسرار الضمير ! على أنى لم أفهم كيف انتهى إشفاق أمى علىّ من الإسراف فى السهر بنفسها إلى هذه الأزمة الحادة ، فقد كان من أيسر الأشياء أن تدعونى إلى ما تحبُ ، وتنهانى عما تكره ، دون أن يضطرب قلبها هذا الاضطراب العنيف . أترى حزنها يعظم لها الهين من الأمر ، ويكبر لها الصغير من الشأن ، ويخيفها من أقل الأشياء دُعاء للخوف؟ أترى فقدها لابنيها يملأ قلبها حرصاً على استبقاء ابنيها الآخرين ، فهى تشفق عليهما من أيسر الأمر وأهونه ؟ أم ترى أن فى الأمر شيئاً آخر ، وأنها لم تكد تتحدث إلىّ وتضمنى إليها حتى ثارت فى نفسها عواطف ، وعرضت لها شؤون ، وتصوّرت المستقبل

القريب أو البعيد ، وأشفقت من فراق قريب أو بعيد ، فثارت العاصفة وكانت الأزمة ؟

وإذاً فما زلنا فى هذا السر الغامض والحديث الملتوى والتفكير الخفىّ فى الخطبة والزواج !

ولم تطل خلوتى إلى نفسى ، ولم يطل تفكيرى فى هذا الأمر ، فهذا أخى قد أقبل على غير عادة فجعل يخلط الهزل بالجد ، ثم أظهر الرغبة فى أن يخرج معى للتروض ؛ وقد أنكرت عليه ذلك فلم يحفل بالإنكار ، وامتنعت عليه فلم يأبه للامتناع ، وظفر فى آخر الأمر بما أراد فأخرجنى من الغرفة ثم من الدار ، وجعل يهيم بى فى الغابات هابطاً ومصعداً ومحدثاً أفانينَ من اللعب والمرح والجنون ، ولم يردّنى إلى الدار إلا حين آن وقت العشاء .

لقد سلاّنى حزن أمى عن نفسى صباح اليوم ، وسلاّنى مرحُ أخى عن نفسى مساء اليوم ، وكنت أظن أنى سأستقبل هذه الليلة بما كان من حديث الصباح والمساء ، ولكن أبى أراد أن يشغلنى بشىء غير هذا الحديث .

لقد أقبل علىّ قبل أن نفرغ من العشاء وقال فى صوت هادئ رزين حزين : «إن أمك تشفق من إسرافك فى القراءة ؛ فماذا

تقرئين إذاً ؟» قال أخي : « إنّ أمنا لتشفق من أيسر الأشياء، وما أرى إلا أن مادلين غارقة في قصصها السخيف تنصرف إليه عن عمل النهار وراحة الليل ، فلا تلمها ولمْ هؤلاء الكتاب الذين يفسدون على الناس حياتهم بما ينشرون من هذا القصص الذى لا رأس له ولا ذيل ! »

ولولا أنى ملكت نفسي لوثبت إلى أخي فقبلته ، فقد فتح لى باب المعاذير على غير علم منه ولا إرادة ، وأتاح لى أن أجيب بأن ما يقوله حق ، فأنا عاكفة هذه الأيام على قراءة الكاتب الإنجليزى ويلز . قال أخي : « وليتك تحسنين القراءة ، إنما تتبعين القصة وتعرضين عما فيها من وصف وفن». قلت : «ما أنت وذاك! إنك لاتعرف كيف أقرأ ، وأنا على كل حال خير منك ، فأنت لا تقرأ شيئاً » .

وكنت أريد أن يشتد الخصام بين أخي وبيني فأصرف أبي عن هذا الحديث الذى أخذ فيه ، ولكنه قال فى صوته الحزين الرزين : «ستختصمان حين تخلوان إلى أنفسكما ، فأما الآن فأنى أحبّ لك يا ابنتى أن تقرئي فى النهار وتستريحى فى الليل ، وإذا لم تحرصى على الراحة لنفسك فاحرصى عليها لتطمئن أمك

وتستريح » . وهممت أن أجيب ، ولكن أبى مضى فى الحديث قائلا : «ليس من الخير أن تغرقى فى القراءة على هذا النحو ، وما أشفق على الشباب من شىء كما أشفق عليه من هذا العكوف المتصل على الكتب ، فإن العقل ليس كلّ شىء ، وقد يكون للجسم بعض الحق فى أن يعيش . وأكبر الظن يا ابنتى أنك ضيّقة بالحياة فى هذه القرية ذات الآفاق المحدودة ، وفى أسرتنا هذه التى فقدت ما كانت تألف من فرح وبهجة ، وسنك فى حاجة إلى الفرح والابتهاج . » وأهمّ أن أجيب ولكنه يمضى فى الحديث قائلا : « ولعل من الخير أن تغيرى من حياتك بعض الشىء ، وأن تتركى هذه البيئة الشاحبة الحزينة وقتاً ما ، وتعيشى فى بيئة أخرى فيها ترفيه عن النفس ، وتسلية عن الهمّ ، وتحقيق لما ينبغى من نشاط . فكرى فى ذلك ، وسنفكر ، ولكن عدينى منذ الليلة بأنك ستقتصدين فى القراءة وستريحين أمك من هذا الخوف الجديد » . قلت وقد اضطربت نفسى أشدّ الاضطراب وظهرت آيات الارتباك فى وجهى وصوتى : « لك ما تشاء يا أبى ، ائذن لى ، ولتأذن لى أمى ، فى أن أمضى الليلة فى القراءة لأتم قصة بدأتها أمس ، وما أرانى أستطيع أن أصبر

عنها إلى غد »، قالت أمى : « الليلة فحسب؟ » قلت : « نعم » قال أخى : « الأمر أيسر من هذا ، إن عادت إلى السهر قطعنا عنها ضوء الكهرباء » . وتضاحكنا فى حزن !

ثم افترقنا حين تقدم الليل . وخلوت إليك أيها الدفتر العزيز ، فلم أتم قصة بدأتها، وإنما حدثتك بما كان من أمرى. وها أنا هذه حائرة ، لا أدرى كيف تكون خلوتى إليك منذ الغد ؛ وحائرة أيضاً، لا أدرى كيف خطر لأبى أن ينفينى عن هذه البيئة الحزينة الشاحبة إلى بيئة أخرى لها حظ من فرح وابتهاج ؛ وحائرة أيضاً، لا أدرى أأستجيب إلى ما أراد عليه من الرحيل أم أظهر الخلاف والامتناع ؟ ولكن الشىء الذى لا أتردد فيه، هو أنى سأخلو إليك ، وسأبثك حديثى فى النهار أو فى الليل ، وفى المقام أو فى الرحيل !

٩

نظرتُ إلى شخصه فامتلأ به قلبي ، وسمعت صوته ففتنت به نفسي ، وراقصته ساعة فصرفت عن كل شيء .

نعم عن كل شيء حتى عنك أنت أيها الدفتر العزيز ! فقد مضت أيام طوال لم أبثك فيها سري ولم أفض إليك فيها بحديث نفسي ، وكنتُ قد عاهدتك على أن أجدد الخلوة إلياك فى الليل أو فى النهار ، وفى المقام أو فى الرحيل ، ولكنى لم أفعل كما ترى ؛ وما أدرى أأنكرت غيبتى عنك وضقتَ بإبطائى عن لقائك ، ولكن الذى أعلمه أنى صرفتُ عنك كارهةً فى اليوم الذى تلا آخرَ ما أفضيتُ به إليك من حديث ..

شغلت بأمر هذه الرحلة التى أصبحت فرأيتها قد دبرت لى تدبيراً ، وفرضت علىّ فرضاً ، ولم يبق لى إلا أن أهيئ لها نفسى وآخذ فى أسبابها ، ولم يمد لى الوقت للتهيؤ والأخذ فى الأسباب ، وإنما دُعيت إلى ذلك أولَ النهار ، وانحدرتْ بى السيارة إلى المدينة فى آخره ، وقضيت ما بين ذلك فى إعداد ما لم يكن من

إعداده بدّ لغيبة قد تتصل أسابيع .

وانتهيت إلى المدينة حين تقدّم الليل شيئاً ، فكان لقاء عمّى وأبنائها ، وكان العشاء ، وكان السمر المتصل والأحاديث المختلفة ؛ ثم أويت إلى غرفتى متعبة منهالكة ، مؤثرة أن أسلم نفسى إلى النوم على أن أخلوَ إليك لأبثك السر وآمنك على نجوى الضمير . ثم أفيق من غد فإذا أبناء عمّى قد أقبلوا علىّ وكأنما كلفوا أنفسهم أو كلفهم غيرهم أن يحولوا بينى وبين الفراغ لنفسى والخلوة إليها ، فهم لا يفارقوننى وجه النهار ، وهم لا يكفون عن التحدّث إلى بألوان الحديث ، وإظهارى على ما تعوّد أمثالهم أن يظهروا عليه مثلى من شئون دارهم ومن شؤونهم الخاصة ، حتى إذا كان الغداء ، وخيل إلىّ أنى سأخلو بعده إلى نفسى لأستريح ولأتحدث إليك شيئاً ، حيل بينى وبين هذا أيضاً ، فقد هيأ هؤلاء الشياطين رياضةً تستغرق ما بقى من النهار ، رياضة فى البحيرة نطوف أثناءها بهذه الشواطىء الجميلة الهادئة المطمئنة التى تبعث فى النفوس هدوءاً واطمئناناً ، الباسمة الحزينة التى تبعث فى النفس حزناً وابتساماً ، والتى تدفع إلى كثير من التفكير الغريب المؤثر الذى لايستبد به العقل ، وإنما يشترك فيه

العقل والحس والشعور ، والذى ينتهى بصاحبه إلى أن يمتزج بهذه البيئة الحلوة الهادئة ، ويكاد يفنى فيها ، ويحيى فى نفسه رغبات هادئة ولكنها ملحة غامضة ، ولكنها مع ذلك تكاد تنم عن نفسها لثنايا القلب وأعماق الضمير !

رياضة فى هذه البحيرة ، وتطويف بهذه الشواطئ ، وإلمام ببعضها ، ثم تصعيد هادئ فى هذه الربى التى ترتفع فى رفق وكأنها مبسوطة ليس لها حظ من الارتفاع ، ثم انحدار مرة إلى هذه الغابة عن يمين ، وانحراف مرة أخرى إلى هذه الغابة عن شمال ، واضطجاع هنا على هذا العشب الكثيف ، وتنافس هناك فى اقتطاف هذه الأزهار الصغار الدقاق ، وإلى اجتناء هذه الأثمار الوحشية الحلوة التى تمتلئ بها الغابات . . . . ثم نداء فجائى إلى الإسراع بالعودة ، فقد أقبل الليل ، ولا بدّ من أن نتهيأ للعشاء ، فإنا لن نجلس إلى المائدة وحدنا ، ولكن أسرة فلان مدعوّة إلى العشاء هذا المساء . وما كنت أعرف من أمر هذه الدعوة شيئاً ، وما كنت أفكر إلاّ فى أننا سنقبل على طعامنا كما فعلنا أمس ، وسنسمر طرفاً من الليل نتجاذب فيه الحديث ، وقد نختلف فيه إلى البيانو ، وقد نستمع فيه لبعض الغناء تدعى إليه

هذه أو تلك من بنات عمّى ، فتقبل عليه كارهة أو متكلفة الكراهة . وكنت أفكر فيما بينى وبين نفسى أنّ القوم سيدعوننى إلى العزف ، وسيلحون علىّ فى الغناء ، وكنت أكره ذلك وأضيق به ، ولكننى كنت أذعن له كما أذعن للقضاء المحتوم ؛ فهذه قوانين الأسرة لا سبيل إلى الخلاف عنها أو الامتناع عليها .

وكنت أدير فى نفسى لحنين أو ثلاثةً من ألحان شوبان لأوقعها على البيانو ، وأغنيتين أو ثلاثاً من أغانى فوريه لأغنيها إن دُعيت إلى ذلك .

وكنت أستذكر هذا كله فى أثناء الرياضة والحديث ، وكنت حريصة أشد الحرص على ألاّ يظهر منى ضعف أو يبدو منى تقصير ، فقد لا ينبغى أن يتحدّث عنى بنات عمّى بأنى قد نسيتُ العزف أو قصرت فى الغناء . وإن أمى لحريصةٌ أشدّ الحرص على أن أكون سباقةً فى هذين اللونين من ألوان الفن ، وعلى أن يسجل السبقُ لى حين أكون فى هذا الفرع من فروع أسرتنا خاصة .

كنت أفكر فى هذا كله ، ولكن الأمور جرت على غير ما كنت أقدّر ؛ فقد علمتُ أن القوم يولمون ، وأنهم قد دعوا إلى وليمتهم منذ أيام ، وأنهم تعجلوا هبوطى إليهم من قريتى تلك

المرتفعة الشاهقة لأشهد وليمتهم هذه ، ثم علمتُ — فاشتد ضيقى بما علمت — أن الأمر لن يقتصر على العشاء والسمر ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى الرقص ، وإلى الرقص الذى لا يشترك فيه المدعوون إلى العشاء وحدهم ، وإنما سيشترك فيه معهم قومٌ آخرون دُعوا إلى السهرة .

وكان هذا كله قد دبرّ فأحكم تدبيره ، وقد أخفى علىّ وكتم عنى ، ولم يرفع لى عنه الحجاب إلا قبل العشاء بساعة وبعض ساعة . ولو قد علمت ذلك لما استجبت إلى الدعوة ، ولما انحدرت من القرية ، ولامتنعت على أبوىّ حين ألحا علىّ فى الرحلة ، فقد انقطع عهدى ، منذ الحرب وما تركتْ فينا من الأحزان ، بهذه الحياة الفرحة المرحة ، وبهذا اللون من ألوان العبث البرىء . وما كنت أشك فى أنى سأعود إلى ذاك يوماً ما ، فلا بد للأحياء من أن يحتماوا الحياة ويتلقوا ما فيها من الخير والشر ، ولكنى كنت أقدر أنى سأعود إلى هذا كله شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ، لا على هذا النحو المفاجىء الذى يأخذنى كأنه السيل الذى لا سبيل إلى التحوّل عنه او التخاص منه .

ومهما يكن من شىء فقد وجدتنى مكرهةً على ما لا أحبّ ،

وما أشد ما ضحك مني أبناء عمتي حين رأوا ما ظهر على وجهي من ضيق وسخط ، ومن اضطراب وارتباك ، وما أشدّ ما سخروا مني في أثناء العودة ، حتى إذا انتهينا إلى الدار تفرقوا عني ومضوا يصلحون من شؤونهم ويتهيأون لاستقبالهم. وخلوت أنا إلى نفسي في غرفتي لأصلح من شأني ، وأتهيأ للاستقبال ، ولكني رأيتني أغرق في بكاء عميق صامت لم أحاول تفسيره ولم أحاول الخروج منه ، وإنما وجدت فيه راحةً ووجدت فيه لذة وأحسست فيه وفاءً ، وكنت خليقة أن أمضي فيه لولا أن يطرق باب الغرفة طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح الباب قبل أن آذن بالدخول ، ثم تظهر عمتي هادئة رزينة ، وقد أغلقت الباب من دونها وسعت إليّ مطمئنة وهي تقول في صوت خافت كأنما تتحدث إلى نفسها : « لم أخطئ التقدير إذاً ! » ثم تدنو مني فتنحني إلى فتقبلني ، ثم تنهضني فتضمني إليها ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب ، وقد أخذت دموعها هي أيضاً تنحدر ، وقد رجعت تقول لي في صوت تخنقه العبرة : « لا بأس عليك يا ابنتي ! لقد كنتُ أقدّر أني سأراك في هذه الحال ، ولقد كنت أشفق أن تمضي في حزنك هذا حتى يصرفك عما لا بد لك منه . هلم يا ابنتي ، إن

الحياة لا بد من أن تحتمل ، وإن فيها الحزن وإن فيها الفرح ، إن فيها الوفاء للموتى ، وإن فيها الوفاء للأحياء ! لم يكن بد يا ابنتى من أن نخرجك من هذا الحزن المتصل الذى ألح عليك أعواماً إلى ما ينبغى لشبابك من الحياة الباسمة المبتهجة . إن اتصال الحزن قد يليق بالشيوخ الذين قضوا الآراب من حياتهم ، وقد ينبغى أن نهون عليهم الآلام ونعينهم على احتمال الخطوب حتى يخرجوا من هذه الحياة وقد ذاقوا من آلامها أقل ما يمكن أن يذاق ، ولكنا لا نطمع لهم فى السلو المطلق والعزاء الخالص ، فليس لهم إلى ذلك سبيل . فأما أنت وأترابك من الشباب فإن لكم على الحياة حقاً يجب أن يؤدى إليكم فى هذا الطور من أطوار شبابكم ، وللحياة عليكم حقوقاً ستؤدونها حين تتقدم بكم السن . انظرى إلى أبويك ! لقد نعما بالشباب وذاقا لذاته كلها واستمتعا بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة ، وإنى لأشاركهما يا ابنتى فى الحزن وأشفق عليهما منه ، وأود لو استطعت أن أحط بعض أثقاله ، ولكننى لم أطق ولن أطيق أن يتسلط الحزن على الشباب وتثقل عليهم وطأته ، فإن الشباب لم يخلقوا للحزن ، ومن الظلم أن يتعجلوا نصيبهم من مرارة الحياة .


بيكار

«هلمّ يا ابنتى خذى بحظك من النشاط لهذه الليلة التى لم تهيأ إلا لك، والتى يجب أن تظهرى فيها جميلة رائعة كأجمل ما كنت، وكأروع ما يمكن أن تكونى . يجب أن تكونى زينة المائدة ، وزينة المرقص ، ويجب أن يكون لك السبق والتفوق . هلمّ أصلحى من شأنك ، وسأرسل الخادم لتعينك على ما تحتاجين إلى المعونة فيه ، وسأعود لأراك قبل أن تهبطى إلى غرفة المائدة ، ويجب أن أرضى عن زينتك، وإلا فستستأنفين من أمرك كل شىء » .

ثم تقبلنى وتنصرف ، ثم تعود بعد ساعة فتنظر إلىّ مقبلة مدبرة مستعرضة ، وترضى عن كل شىء إلا عن وجهى هذا الذى ينقصه الابتسام والإشراق ، ولكنها مطمئنة إلى أن أبناء عمّى سيفيضون عليه من ذلك ما ينقصه . ثم يكون العشاء والسمر والرقص .

وقد كان بين المدعوين والسامرين والراقصين فتىً نظرتُ إلى شخصه فامتلأ بى قلبى ، وسمعت صوته ففتنتْ به نفسى ، وراقصته ساعةً فصرفتُ إليه عن كل شىء . يا للعجب ! أكنت مهيأة لهذا الفتى ؟ أكان هذا الفتى مهيأ لى ؟ أكانت خطبتى إلى

هذا الفتى موضوع الحديث الغامض بين أبوى وأخى ؟ ما أدرى ، ولكن الفتى تردد على دار عمتى أياماً ، ثم تسألنى عمتى ذات صباح : ما رأيك فى مكسيم جيرو ؟ فلا أدرى كيف أجيب ، وإنما أحس كأنما دمى كله قد صعد إلى وجهى ، وأرى ابتسامة حلوة على ثغر عمتى ، وأسمعها وهى تسعى إلى لتقبلنى : « إنه قد صعد مع أبويه إلى القرية ليزور أبويك . »

١٠

ما أشد حيائي منك ومن نفسي أيها الدفتر العزيز ! لست أدري أين وجدت القوة التي مددت بها إليك يدي لأستخرجك من مستقرك الذي وُجدت فيه وحيداً مهملاً منسيا أكثر من ثلاثة أعوام ! ولست أدري كيف فكرتُ فيك ، وأقبلت عليك بعد اطراحي لك وإعراضي عنك ! ولست أدري كيف أجد القدرة على التحدث إليك الآن بعد أن وجدت القدرة على أن أطوى عنك الأحاديث طولَ هذه الأوقات المتصلة ، التي لا أقدر طولها ولا اتصالها إلا الآن !

ما أشد حيائي منك ومن نفسي ! فإن إقبالي عليك الآن وإفضائي إليك ببعض الحديث لا يدلان إلا على أني امرأة كسائر النساء ، فيها ضعفهن وقصورهن وغرورهن ، وإلا على أني كائن من هذه الكائنات التي تزعم أنها مميزة بالثقافة والحضارة وما خصت به الحضارة من ترقية العقل وتصفية الطبع وتنقية الضمير ورفع النفوس عن الصغائر والدنيات ، وما هي في حقيقة الأمر إلا

كائناتٌ وضيعة قد اتخذت من الثقافة والحضارة طلاء يخدعها عن عيوبها الراسخة التي لا تكاد تفرق بينها وبين غيرها من أنواع الكائنات التي لاحظ لها من ثقافة أو حضارة أو تهذيب !

ما أشد حيائي منك ومن نفسي ، وما أشدّ اختلاط الأمر عليّ ! إني لأريد أن أستأنف الصلة بينك وبيني بعد أن انقطعت فطال انقطاعها ، فلا أجد السبيل إلى ذلك ميسرةً ولا ممهدة ، فأتردد وأضطرب ، وأقدم بين يدي ويديك مقدمات ومعاذير لا تغني عن الحق شيئاً ، ولا تزيد على أن تصور خجلي واستخذائي من هذه الحقيقة البشعة التي أواجهها فتنقبض لها نفسي أشد الانقباض ويشمئز منها قلبي أعظم الاشمئزاز ، وأنظر مع ذلك كارهةً فأطيل النظر ، وأفكر فيها مع ذلك راغمة فأطيل التفكير، كأني أجد فيما أحس من الألم لذة ، وفيما أشعرُ به من العذاب غبطةً وسروراً : وهي أني خائنة غادرة أثرةٌ عاجزة ، نسيتكَ حين كنتُ سعيدةً وذكرتك حين أخذتْ تتراءى لي أشباحُ الشقاء .

ليتكَ أنسيتَ كل ما أفضيتُ به إليك من الأحاديث ، فإني قد أنسيتها أو كدتُ أنساها ؛ ولكنك قويّ الذاكرة ، لا تنسى

شيئاً ، شديدُ الأمانة لا تضيع شيئاً ؛ ولقد نظرتُ فيك فرأيت صورة نفسى المضطربة التى ائتمنتك عليها منذ أعوام ، والتى لجأتُ بها إليك ألتمس لما عندك العزاء والمعونة والتسلية ، ورأيتُ ما قدمت إليك من العهود المؤكدة على أن أكون وفيةً لك مقيمةً على الوفاء لما أهديتُ إليك من مودة ولما بادلتك من ثقة ، وإذا أنا أستخذى ، وإذا أنا أضيق بنفسى حتى أزدريها أشد الازدراء ! لقد وفيت لك فأعرضت عنك أكثر من ثلاثة أعوام لا لشىء إلا لأنى كنتُ مشغولةً عنك بهذه السعادة التى غمرتنى فصرفتنى عن الحياة والأحياء ، وأنستنى الناس والأشياء ، ووقفت قلبى وعقلى وحسىّ وشعورى وعواطفى وأهوائى على نفسى وعلى هذا الفتى الذى اختطفنى من الحياة ذاتَ مساء وارتفع بى إلى جو بعيد فى السماء ، فعاش معى فيه تلك العيشة الراضية التى كانت خليقة أن تطهر نفسى من كل رجس وتبرئها من كل عيب ، وتنقيها من كل وضر ، وتسبغ عليها من الفضائل ومكارم الأخلاق ما ينزهها عن الشر والنقص تنزيهاً ؛ ولكنها لم تزد على أن نمت فيها هذه الغرائز البغيضة ، غرائز الأثرة والخيانة والغدر والجحود ! أليس صحيحاً إذاً ما كان يقال من أنّ السعادة

تطهر النفوس ، ومن أن الحب يزكى القلوب ؟ لقد كنتُ سعيدة ، فلم تثر فىّ السعادة إلا الرغبة فى الاستزادة منها ، ولقد كنت محبةً فلم يثر فىّ الحب إلا الرغبة فى الاستئثار بمن كنتُ أهوى !

هوّن عليك أيها الدفتر العزيز ! إنى لم أهملك وحدك ، ولم أختصلك بالإعراض والنسيان ، ولكنى أهملت معك قوماً ما كنت أقدر فى يوم من الأيام أنى سأهملهم أو أقصر فى ذاتهم أو أسوءهم بالجحود والعقوق . لقد احتفظتُ بمظاهر الحب والود بينى وبين أسرتى ، فزرتها واستزرتها ، وأقمتُ معها الأيام والليالى ، واضطربتُ معها فى الحياة ، وخضتُ معها فى ألوان الحديث ، ولكن الله وحده يعلم كم آلم الآن حين أذكر ما أثرتُ فى قلب أمى من ألم ، وما بعثتُ فى نفسها من حزن ، وما أفضتُ على قلب أبى من هذا الشعور الواضح الكئيب ، بأن الأثرةَ قوامُ الحياة ، وبأن الأبناء يحيون لأنفسهم قبل أن يحيوا لآبائهم ، وبأن السعادة تغرى بالقسوة وتدفع إلى الأثرة وتصرفُ القلوبَ فى أكثر الأحيان عن البر والرحمة والحنان !

لم أسىء إلى أسرتى باللفظ ، ولم أسىء إليها بالعمل ، وما

أراها تعتمد على بظاهر من التقصير أو الإهمال ، ولكنى مع ذلك أسأت إليها فأسرفت ، وآلمتها فغلوت ؛ انصرفت عنها بحياتى ، وأظهرتُ لها ذلك مئات من المرات فى نبرات الصوت ، وفى حركات الجسم ، وفى لحظات الطرف ، وفى الإبطاء حين كان يحسن الإسراع ، وفى الإسراع حين كان يحسن الإبطاء ، وفى الفتور حين كان يجب النشاط ، وفى النشاط حين كانت تستحب الأناة ؛ فى هذه الأشياء اليسيرة التى تحس وتلحظ ولكنها لا تكاد تثبت للتصوير والتعبير ، هى أيسر من ذلك وأدق ، هى تنفذ من أعماق النفوس ، لا تكاد تمر على الألسنة ولا تكاد تستقر فى العقول ، ولا فى مظاهر الحس والشعور ؛ وهى من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود ، وعلى ما بين الناس من صلات ؛ هى أشبه شىء بهذه الجراثيم التى كانت تفتك بحياة الناس ، وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً ، أو يستطيعوا منها احتياطاً ؛ ولكن العلم قد كشف هذه الجراثيم وأخذ يعلم الناس كيف يعرفونها ، وكيف يدرسونها ، وكيف يتقونها ؛ فمتى يستكشف العلم هذه الجراثيم المعنوية التى تفسد الود ، وتفتك بالحب ، وتقطع أمتن

ما يكون بين الناس من صلات ؟ لا يشتدّ وجدُك على ولومك لى ، أيها الصديق العزيز ، فإنى لم أختصك بالخيانة ، ولم أوثرك بالغدر ، وإنما أشركت معك فى الخيانة والغدر قوماً آخرين لهم على أكثرُ مما لك علىّ من الحق ، وهم بعد ذلك يشعرون أكثر مما تشعر ، ويألمون أكثر مما تألم ، ويشقون بعقوق الأبناء أكثر مما تشقى بتقصير الصديق .

لقد أحببت أبوىّ حبا ما كنت أعرف له حداً ولا أمداً ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أقصر فى ذاتهما ، ومن أن أوذيهما بالإهمال والإعراض حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحب ؛ ولقد عاهدتك على الود الدائم والوفاء المقيم ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أعرض عنك وأنساك حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحبّ . أو من الحق إذن أن الحبّ يقاس بالحاجة ، وأنى إنما أحببت أبوىّ لأنى كنت محتاجة إليهما ، متصلةً بهما ، مدينة لهما بكل شىء ؛ فلما جاءتنى السعادة من مصدر غير مصدرهما ، ولما أحسستُ الحاجة إلى شخص غيرهما ، تحوّل عنهما حبى وقصر فى ذاتهما قلبى ؟

أفكنت محبة لك لأنى كنت محتاجةً إليك ، أبثك همى وأتخفف

إليك مما كان يثقلني من الآلام والأحزان ، فلما صرفت عني الهموم ورفعت عني الآلام والأحزان لم أحتج إليك ، فلم أحفل بك ولم أفكر فيك ، وتركتك في مكانك هذا الذي استقررت فيه أكثر من ثلاثة أعوام ؟ يوشك أن يكون هذا حقا ، وهو مؤلم وهو مخجل ! ولكن ، مالي لا أتشجع ، ومالي لا أواجه الحق ، ومالي لا أسجل على نفسي هذا الاعتراف بالخزي ؟ ما الذي حماني على أن أفكر فيك وأخرجك من عزلتك الطويلة وأشقّ عليك بهذا الحديث الطويل الثقيل ؟ وما الذي حملني على أن أكتب إلى أبويّ منذ ساعة كتاباً طويلاً يفيض رقةً وحبا وحناناً ، ويطلب إليهما إما أن يزوراني وإما أن يأذنا بزيارتي لهما ؟ ما هذا الحنان المفاجئ الذي يدفع بي إلى أحضان أبويّ ؟ وما هذا الوفاء الذي يدفع بي إلى استئناف ما بينك وبيني من صلات الود ؟ هو الأثرة ، والأثرة وحدها . هو الأثرة التي تظهر في مظهر الضعف والعجز والحاجة إلى التسلية والعزاء . لقد صرفتني عنك وعن أبويّ الأثرة التي كانت تظهرها السعادة قوية طاغية باغيةً عنيفة ، ولقد ردتني إليك وإلى أبويّ الأثرة التي تظهرني ضعيفةً عاجزة يائسة أشدّ اليأس ، شقيةً أشدّ الشقاء !

لقد جرى القلم إذن بما لم أكن أحبّ أن يجرى به ، ولقد سجلتُ على نفسى إذن ما كنت أكره أن أسجله وما منعت نفسى من تسجيله منذ أسابيع ؛ لقد اعترفت بأنى ضعيفة ، وبأنى عاجزة ، وبأنى بائسة شقية .

ولقد آثرتك أنت بهذا الاعتراف ، ولم أوثر أبوىّ منه بشىء ، لأنك أقدر على احتمال الشكوى ، ولأنك أحفظ للسر وأملك للعزاء ، ولم أحتج إليك فى يوم من الأيام كما أحتاج إليك الآن أيها الصديق ! إليك وحدك أستطيع أن أشكو ، وعليك وحدك أستطيع أن أعول ، سأصدقك لأنك تحتمل الصدق ، وسأكذب على أبوىّ لأن الصدق يقتلهما لو سمعاه .

أترى إليهما وقد ضحيا فى تربيتى وتنشئتى بما ضحيا ، واحتملا فى سبيل سعادتى ما احتملا ، وسعدا حين ظنا أنهما قد أتاحا لى هذه السعادة وتعزّيا بذلك عن كثير من آلامهما ؛ بل تعزّيا بذلك عن هذه الآلام التى صبها عليهما ما كان من التفريق بيننا !

أترى إليهما وهما يألمان لهذا الفراق ويشقيان بعزلتهما ويستلذان الألم ويستعذبان الشقاء لأنهما يظنانني سعيدة ؟

أترى إليهما لو عرفا أنى شقية بائسة، وأنى قد استنفدت حظى من السعادة فى عام وبعض عام، ثم أخذت هذه السعادة تكدر شيئاً فشيئاً ويمازجها البؤس قليلا قليلاً، ثم أخذت تضؤل وتهون وتمحى، حتى صارت حياتى كلها ألماً وشقاء؟ أترى إليهما لو عرفا هذا كله، أيثبتان له؟ أيتعزيان عنه؟ أيصبران عليه؟ كلاهما أضعف من ذلك. لقد قسوت عليهما حين كنت سعيدة، فلأرقن لهما، ولأرفقن بهما حين استقبلتُ الشقاء.

أما أنت أيها الصديق العزيز فقد خلقت لغير هذا، خلقت لتحتمل قسوتى عليك بالشكاة والأنين، حين أشقى وأبتئس؛ وقد أخذتَ بحظك من قسوتى عليك أثناء السعادة والنعيم، فأما حظك من قسوتى عليك بالشكاة والأنين فسيتصل ما اتصلت بك وبى الحياة.

١١

الآن نستطيع أن نتحدث فى يسر وإسماح ، أيها الصديق العزيز ، فقد عدنا إلى البيئة الهادئة الحلوة التى نشأت فيها مودتنا هادئة منذ أعوام ، حين تحدثتُ إليك لأول مرة بما كان يساور نفسى من اضطراب غامض عميق ، فوجدت فى الحديث إليك لذةً وراحة وأمناً ودَعة .

عدنا إلى هذه الغرفة التى عرفتْ صباى ، وعرفت شبابى ، والتى رأتنى أنشأ وأتغير وأستقبل الحياة وما فيها من لذة وألم ، والتى رأيتها آناً ثابتةً باقية ، وإن تغير ما يختلف عليها من الصور ، وما ينتظم فيها من الأداة والأثاث ؛ عدنا إلى هذه الغرفة الصديقة التى نشأت بينها وبينى مودة قديمة ، لا أكاد أذكر متى ابتدأت ولا أكاد أعرف متى تنتهى ، ولا أشك فى أنى قد نسيت أشياء كثيرة أثناء الغيبة ، ولكنى لم أنسها ولم أنس مكانى أو أمكنتى منها ، وإنما كنت أرى نفسى فيها مضطربة وساكنة ، عاملةً ومطمئنة إلى الكسل ، مفكرة ومسترسلة فى الأحلام ، مستيقظةً

ونائمة ، آوية إليها بما كان يملأ نفسى من الابتهاج حيناً والابتئاس حيناً آخر ، مرسلة نفسى على سجيتها حين كانت تبتهج وتبتئس ، فمستمتعة بأقصى حظى من حريتى فى الفرح والحزن وفى الأمل والقنوط .

عدنا إلى هذه الغرفة التى تعارفنا فيها ، ولو أنك تمثلت لى الآن شخصاً لضممتك إلى ولمنحتك قبلة تصور فرحى بلقائك فى هذا المكان الأمين الوفى ، أشبه بهذه القبل التى أمنحها لأعضاء الأسرة حين ألقاهم فى هذه الدار ، بعد أن تطول الغيبة ويبعد الأمد ويشتد الشوق .

لست أدرى أتفهم عنى ؟ بل لست أدرى أيفهم الناس عنى إن تحدثت إليهم بأنى أجد فى القبلة التى أتلقاها من أمى وأبى ، وأضع فى القبلة التى أمنحها لأبى وأمى فى هذه الدار ، حرارة لا أجدها ولا أضعها فيما أتلقى منهما وما أمنحهما من القبل فى مكان آخر ؟ إن نفوسنا لغريبة الأطوار ، وإنها لشديدة التأثر بما يكتنفها من الظروف وما يحيط بها من الزمان والمكان !

لقد حاولت منذ أيام أن أتحدث إليك بدخيلة نفسى ، وأن أفضى إليك بهذه الآلام التى أخذت أحسها منذ حين ، وبهذا

الشقاء الذى أخذ يسعى إلى شيئاً فشيئاً ، فلم أجد من نفسى نشاطاً لذلك ، ولا قدرة عليه ، وإنما جعلت أدور حوله ولا أتعمقه ، كأن شيئاً كان يصدنى عنه صدا ويصرفنى عنه صرفاً ، وكأن هذا الشىء لم يكن إلا تلك البيئة التى كنا فيها ، فإنها لم تكن بيئة شكاة وتبسط فى الإفضاء بالسر والتخفف من الحياء. كنت أنظر إلى غرفتى تلك فأشعر أنى طارئة عليها لا ناشئة فيها ، فأستحى منها وأستحى مما فيها من الأدوات والأثاث أن تظهر على مكنون سرى أو دخيلة أمرى ، لأنى كنت أراها غريبة لم تظفر منى بعد بهذه الثقة التى تبيح إذاعة السر والإفضاء بدخائل النفوس . ومع ذلك فقد ظهرت تلك الغرفة على كثير من أسرار نفسى ودخائل أمرى ، حين كنت أسعد بالحب ، وأنعم بتلك الحياة الرائعة فى غير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط ؛ لقد ائتمنتها على حبى وسعادتى ، وأظهرتها على فرحى ومرحى واغتباطى بالحياة ؛ ولكنى لا أخفى عليك : كنت أحس شيئاً من الحياء دائماً ، مهما خرجت بى السعادة عن طور الوقار والأناة ، ولا أخفى عليك أنى لم أنس بعد ما أحسست من الألم اللاذع حين تمنيت شيئاً فلم أظفر به ولم أقدر عليه : فقد كنت أحب أن أعرف

زوجى وأواجه حبى فى هذه الغرفة التى عرفتْ صباى وشبابى ، والتى ألفتنى وألفتها ، لا فى تلك الغرفة الغريبة من ذلك الفندق الغريب فى مدينة البندقية ، ولا فى تلك الغرفة الغريبة من تلك الدار الغريبة التى أقمت فيها مع زوجى فى المدينة ؛ ولكن ذاك لم يتح لى ، لأن تقاليد الناس وأوضاعهم تريد أن يتعارف الزوجان فى الغربة ، وأن تبتدئ سعادة الحياة الزوجية فى أماكن ليست بينها وبينهما صلات أو عهود ؛ ولست أخفى عليك أيضاً أنى لم أستطع أن أبثك حزنى وألمى فى تلك الغرفة من دار زوجى ، لأنها قد عرفتنى سعيدة مغتبطة فلم تعرف من نفسى إلا هذه الناحية ، ووجدت المشقة كل المشقة والجهد كل الجهد فى أن أظهرها من نفسى على الناحية الحزينة المبتئسة ؛ بخلت بها على ذلك ، وبخلت بذلك عليها ؛ آثرتها بمظاهر السعادة والغبطة ، وآثرت نفسى بحقائق الحزن والشقاء .

ما أشدّ ما أخدع نفسى وأعبث بها ! وهل حياتنا إلا خداع وعبث ؟ لقد رأتنى تلك الغرفة سعيدةً ناعمة البال ، ولكنها رأتنى مؤرقة مفرّقة النفس ؛ رأتنى كئيباً ورأت دموعى تنهلّ ، وسمعتنى أمانع صوتى أن يجهش بالبكاء ، ورأتنى أكظم الغيظ

وأحبس الغضب فى نفسى أن ينفجر ، وأردّ نفسى بالعنف عن الثورة العنيفة ، وأكرهها على الصبر والاحتمال ، وأكلف ثغرى الابتسام ووجهى الإشراق ، وإن قلبى ليدمى وإنّ فى نفسى لكلوماً لا تؤسى ؛ وأرفع رأسى عزيزاً أبيّا ، وإن فى نفسى لذلة وانكساراً ؛ وأنا مع ذلك أزعم أنى قد أخفيت على تلك الغرفة أسرار حزنى وشقائى ، لا لشىء إلا لأنى لم أتحدث بهذه الأسرار جهرة ، ولم أصورها فى الألفاظ والجمل ، كأن تلك الغرفة فى حاجة إلى الألفاظ والجمل لتعرف هذا الشقاء الذى نشأ فيها منذ حين يسيراً ضئيلا ، ثم أخذ ينمو ويتسع حتى كاد يستأثر بها استئثاراً .

إنّ نفسى لغريبة الأطوار ، وإنى لأجد بينها وبين نفوس الأطفال شبهاً قويّا ؛ فأنا كالأطفال أفيض الحياة على الأشياء الجامدة من حولى ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ، ويخيل إلى أنها ترانى وتلحظنى وتسمع منى وتفهم عنى ؛ ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجعَ الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك أيها الدفتر العزيز حياة ،

وأشيعُ فيك حسّاً وعقلا وشعوراً ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء ، لا أتكلف ذلك تكلفَ الأديب ، ولكنى أجدُ فى ذلك جد الطفل ؛ ذلك لأنى ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدّث إلى الناس بما أتحدث به إليك ؛ لأن الذين انتظر منهم المعونة والعزاء لا يحتملون هذا الحديث ، ولا يقدرون لى على شىء ، بل لا يقدرون لأنفسهم على شىء ؛ ولأنى فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدتُ الخيانة من القريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحاً أو إخلاصاً وقد التمست النصح والإخلاص عند أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ ، وعند أشدّ الناس لى حبّا وأعظمهم لى إيثاراً ، فلم أجد منه إلا خيانة وغدراً ؟

لك الله أيها الزوج العزيز التعس ، لو تعلم إلى أى حد انتهى بك الإثم ، وإلى أى طور أخرجك النزق ! لو تعلم أنك قتلت نفساً وسحقت قلباً ومزقت ضميراً ! لو ينفذ هذا الشعور إلى نفسك ، لو يستقر هذا الخاطر فى عقلك ، إذن لكنت أشقى الناس ، وأضيقهم بالحياة ، وأزهدهم فيما تضطرب فيه من لذة

وما تتهالك عليه من نعيم ! لقد وثقتُ بك ثقةَ الطفل بأمّه ، ولقد أمنتُ إليك كما يأمن الطفل إلى أمّه ، فأضعت تلك الثقة وأزلت هذا الأمن ، ووطئت بقدميك نفساً أنت تحبها وتؤثرها ، وعرضت للشقاء والبؤس شخصاً هو أكرم عليك من نفسك ، وسعادته آثر عندك من سعادتك ؛ ولكنك غافل لا تدرى ! لقد هممت منذ أيام أن أرد عنك هذه الغفلة ، وأذودَ عنك هذا الجهل ، وأزيل عن بصيرتك الغطاء ، وأظهرك على هذا القلب الذى تدميه ، وعلى هذا الضمير الذى تؤذيه ، وعلى هذه النفس التى تمزقها تمزيقاً ؛ ولكنى لم أجرؤ لأنى أحبك وأعلم أنك تحبنى ، وأخشىَ أن تكون المصارحة بما بينك وبينى من هذا السوء خطراً على هذا الحب الذى أريد أن أحوطه وأصونه وأحميه من الموت ! لقد هممت بهذه المصارحة فى تلك الليلة التى جعلتَ تناقش فيها صديقك فيليب فيما ينبغى من احترام الأوضاع الاجتماعية . لقد كنت لبقاً قوىّ الحجة فى ذلك الجدال ، ولكن صديقك قد أفحمك واضطرك إلى الصمت ، واضطرنى أنا إلى أن أترك غرفة الاستقبال حيناً لأكظم حزناً كاد ينفجر ، وأكفكف دموعاً كادت تنهل ، وأستعير من الصبر والجلد وقوة الإرادة وجهاً مشرقاً

يمكن إظهاره لأضيافنا . كنت تقول لصديقك إن الخير فى ألا يستطيع أحد أن يباديك من أمرك بما يخجلك . فأجابك : خير من ذلك ألاّ تبادى أنت نفسك بما يخجلها ! فصدمتك هذه الجملة واضطرب لها لسانك ، واحمرّ لها وجهك شيئاً ، واضطررت أنا إلى أن أتحوّل عنكما حتى لا يظهر من أمرى مثل ما ظهر من أمرك .

أنت إذن عاجز عن أن تبلغ بنفسك هذا الطور ، وأنت إذن تعرف من أمر نفسك ما لا تستطيع أن تباديها به لأنه يخجلها ؛ فلو عرفتَ أنّ غيرك يستطيع أن يباديها بهذا المخجل ، ولو عرفت أنى أستطيع أن أقصّ عليك قصتك كلها مع صديقتنا لورنس ، فماذا أنت صانع ؟

١٢

ربما كان ابننا هذا العزيز البرىء مصدر هذه الآلام التى تملأ قلبى ، وهذا الشقاء الذى يغمر نفسى ، وهذا اليأس الذى أحاول أن أخفيه فلا أكاد أظفر من ذلك بما أريد إلاّ مع الجهد العنيف الذى احتملته إلى الآن ، والذى لا أدرى أأستطيع أن أمضى فى احتماله والصبر عليه . وكم يؤذينى ويضنينى ويمزق نفسى البائسة أن أقرنَ ابنى هذا العزيز البرىء إلى ما أحسّ من ألم ، وما أجدُ من شقاء ، وما أتعرض له من يأس ، على حين أنه قرة عينى ، ونعمة بالى ، ومصدر سعادتى ، والقيمةُ لحياتى منذ عرفت نفسى إلى أن عرفته ، والغايةُ الصحيحة لحياتى منذ عرفته إلى الوقت الذى لا أقدر له فيه على شىء ؛ ولكن الشجاعة إنما هى مواجهة الحق كما هو ، والاعتراف بالواقع كما وقع ؛ وأمورُ الحياة كلها متناقضة على هذا النحو : فيها الخير والشر ، وفيها النعيم والبؤس ، وعنها تصدر السعادة ويصدر الشقاء ؛ فلو أنى خيرتُ بين ابنى هذا العزيز البرىء وبين أى لون من ألوان

السعادة لما ترددت فى الاختيار ؛ فهو حياتى ، بل هو آثر إلىّ من حياتى ، ولكنه مع هذا كله كان مصدر ما أحسّ من ألم وما أجد من شقاء !

كنت قبل مقدمه فارغةً لزوجى مشغولة به مصروفة إليه ، موقوفة الجهد على حبه وإمتاعه بهذا الحب ؛ وكان هو قبل مقدم الصبى يحبنى كما تعود الأزواج العشاق أن يحبوا نساءهم ، يمنحنى خلاصة نفسه وصفوة ضميره ، ولكنه لا يمنحنى نفسه كلها ولا ضميره كله كما كنت أمنحه نفسى كلها وضميرى كله ؛ كان يصرف عنى بين حين وحين إلى أعمال الحياة وأعراضها ، وإلى أسباب العيش وشواغله . ومن الحق أنه كان يضطرب فى هذا كله مفكراً فىّ ، محبا لى ، مؤثراً لى بخير ما يستطيع أن يؤثرنى به من الحب والإخلاص ، ولكنه كان على كل حال يضطرب فى الحياة ويعنى بأعراضها وأسبابها ويصرف عنى بعض الشىء فى أثناء ذلك . ولم أكن أفكر إلا فيه ، ولم أكن أعيش إلا له ، بل لم أكن أعيش إلا به ، فكان حبى يحوطه ، وكان حبى يغمره ، وكان حبى يأخذ عليه كل سبيل ، وكان حبى يشتد حتى يثقل عليه أحياناً ؛ وكنت أحسّ هذا

وآلم له وألوم نفسى عليه ، وأرفه على صديقى فأعفيه من بعض ما كان يدفعنى إليه الحب الجامح من الكلف والهيام، ومن البر والحنان ؛ ولكن ابننا ، هذا العزيز البرىء ، أقبل ذات يوم فسعدنا بمقدمه وما زلناسعيدين ، ونعمنا بتنشئته وما زلنا ناعمين ؛ ونشأتْ بيننا صلة جديدة هو قوامها ، وشغلت أنا بهذا الصبى شيئاً ، وأصبحتْ لى فى الحياة غاية جديدة لم تكن لى من قبل . والله يشهد ما أضعفتْ هذه الغايةُ من حبى ، ولا خففت من وجدى ، ولا صرفت قلبى عن زوجى قليلا ولا كثيراً ؛ فإن لقلوب النساء سعةً لا تعرفها قلوب الرجال ؛ فهى تستطيع أن تحب الولد إلى أقصى غاية الحب ، وأن تحب الزوج إلى أقصى غاية الحب ؛ وهى تستطيع أن تجمع بين هذين النوعين من الحب ، وأن تلائم بينهما ، وأن تخلص فيهما دون تهاون أو تقصير .

هى أوسع من الزمان ، وهى أوسع من المكان ، وهى أوسع من هذه الجهود المادية التى يبذلها الناس فى الزمان والمكان ، هى تسع حب الزوج وحب الولد ، ولكن الزمان لا يستطيع أن يسعهما فى حيز واحد ، أو نحن لا نستطيع أن نؤدى حقوق

الزوج ولا حقوق الولد معاً ، فى لحظة واحدة ، وفى حيز واحد ، وفى جهد واحد .

فنحن إذا فرغنا للصبى وعنينا به صرفنا عن الزوج ، ونحن إذا فرغنا للزوج وعنينا به صرفنا عن الولد ؛ والرجال أثرون لا يحتملون التقصير ، ولا يصبرون على التفريط ؛ وهم بعد هذا قلقون لا يرضون عن شىء ، ولا يطمئنون إلى شىء ؛ وهم بعد هذا وذاك جشعون ليس لهم حظ من قناعة ، فهما نعطهم فنحن دون ما يطلبون . وكذلك أخذتُ من الوقت الذى كنت أفرغ فيه لزجى ما منحته للصبى ، ولم يضق زوجى بذلك فى ظاهر الأمر ولا خفيه ، وإنما رآه حقا وملائماً لطبيعة الأشياء ، وملائماً كذلك لما كان يملأ قلبه من حب للصبى ، ولكنه على كل حال قد وجد من الوقت فراغاً لم أكن أشغله ، ووجد حرية لم يكن يجدها ، واستطاع أن يخلو إلى نفسه وأن يتصرّف فى وقته ، وأن يشغل بغيرى حين كنت أنا أشغل بالصبى . وكذلك هيئت له أسباب لم تكن مهيأة له من قبل ، وكذلك أحسّ فراغاً فأراد أن يملأه ، وكذلك انتهت به الحياة شيئاً فشيئاً إلى ما لم يكن يريد ، وإلى ما لم أكن أقدّر أنه سينتهى إليه .

وكانت لورنس إلفاً لنا، قد رُفع بينها وبيننا الحجاب ، وزالت بينها وبيننا الكلفة ، تزورنا فى كل وقت ونزورها فى كل لحظة ، ونلتقى على العلاّت لا نضرب للقاء موعداً ولا نهيئ له أسبابا ؛ كانت فارغة ً مثرية ، وكانت جميلة ً رائعة الجمال ، ردّت الحربُ إليها زوجها مريضاً قد أثقلته العلة ، وقامت على تمريضه والعناية به جادة ً فى ذلك كلّ الجد، مخلصة ً له كل الإخلاص ، ولكن العلة كانت أقوى من جدها ، وأنفذ من إخلاصها ، فقضى ذلك الشاب المسكين شهيداً من شهداء الحرب ، وما أكثر هؤلاء الشهداء الذين عادوا إلى أوطانهم يحملون الموت فى ناحية من حياتهم ، يجاهدونه ويجاهدهم ، فقليلٌ منهم يطول به الجهاد فيحيا حياة ً قد استأثر الموتُ بأعظمها ، وكثيرٌ منهم يصرعون فيفارقون هذه الدنيا وفى نفوسهم من الآلام والحسرات ما لا سبيل إلى وصفه ، آلام الأمل الذى ينقطع وقد كان خليقاً أن يتصل، وآلام الرجاء الذى ينبتّ وقد كان حريّا أن يدوم ، وحسرات الشهيد الذى كان خليقاً أن يتجرع لذة الشهادة وشرفها فى ميدان القتال فإذا هو يموت فى فراشه حزيناً كئيباً بعد أن صارع الموت ألف مرة ومرة .

احتملتْ لورنس خطبها جَلَدَةً، وصبرت عليه عزيزة النفس عميقة الحزن ، وصرفت عن الحياة ولذاتها أعواماً ، ولكن فى شيء مؤثر حقا من الاحتفاظ بالكرامة ، والاعتداد بالنفس، وادخار الحزن لخلوتها حين لا ترى أحداً ولا يراها أحد ؛ وكنا نجد ذلك منها فنعجب به ونعجب له ، ونرفق بها أشد الرفق ، ونكبرها أعظم الإكبار ، ونصرف ما نبذل من جهد لنصرفها عن هذه الخلوة التى كان الحزن ينتظرها فيها ؛ ومن هنا كثر اتصالنا بها واشتد اتصالها بنا ، فقلما كان يمضى يوم لا أراها فيه مصبحةً وممسية ، وقلما كنا نخرج لرياضة لا تشاركنا فيها ؛ كانت ثالثتنا إن خرجنا منفردين ، وكانت واحدةً منا إن خرجنا فى جمع من الأصحاب والأصدقاء .

وما خطرَ لى قط وما خطرَ لها وما خطرَ لمكسيم أن هذا الصفو الجميل يمكن أن تشوبه شائبة ، أو تعدوَ عليه عادة ، أو يكدره خاطر سوء ؛ ومع ذلك فقد كان جمالها خليقاً أن يفتن ويروع ، ولكنها كانت واثقة بنفسها ؛ مشغولة بحزنها لا تتعزى عنه إلا فى ظاهر الأمر ؛ وكان مكسيم واثقاً بنفسه مشغولا بحبه وأعماله، منصرفاً إليهما عن كل شيء وعن كل إنسان ؛ وكنت أنا

مطمئنة إلى الصداقة والحب ، حتى تكشفتْ لى الأيام عما تكشفت عنه ، وإذا الحياة كلها غرور ، وإذا الضعف الإنسانى أقوى من كل عاطفة — إن صح أن يُوصف الضعف بالقوة — فهو الذى يسيطر على حياتنا ويدبر أمورنا ويسخرنا لغرائزنا ويصرفنا كما يريد لا كما نريد .

ولا بد من أن أصدقك الحديث ، أيها الصديق العزيز ، ومن أن أصور لك الأمر كما كان ، ومن أن أشهد بين يديك بأن صديقنا لورنس قد وفتْ لنفسها ووفتْ لزوجها الشهيد ، ووفتْ لحزنها المتصل ولصديقها الوفيّة ، فلم تشارك فى إثم ولم تغر به ولم تدعُ إليه ، وإنما اضطرت إلى المقاومة ، وإلى المقاومة الطويلة المتصلة ؛ وكانت البائسة تجاهد الحزن والثكل ، فاضطرت إلى أن تجاهد هذا الحب الذى طرأ عليها فأفسد أمرها ونغّص حياتها تنغيصاً . لا ألوم أحداً ولا أتجنى على أحد ، فإن أمور الحب لا تخضع للإرادة ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها ، وإنما هى خطوب تطرأ فيستجيب لها من يستجيب ، ويعنو لها من يعنو ، ويمتنع عليها من يمتنع ؛ ويختلف ذلك باختلاف طبائع الناس وحظوظهم من القوة والضعف ، ومن الشدة على نفوسهم واللين لها .

وما أرتاب فى أن مكسيم قد كان طاهر القلب صافى النفس فيما كان بينه وبين صديقتنا من صلة أول الأمر، ولكن إعجابنا وعطفنا عليها قد أخذا فيما أظن يتحولان قليلاً قليلاً فى نفسه إلى شيء من الحنان كان يجد راحة إليه وكان يمعن فيه شيئاً فشيئاً ؛ وقد كان ارتفاع الحجاب وزوال الكلفة وما كنا فيه من حياة بسيطة يسيرة طلقة ، خليقاً أن يضاعف هذا الحنان ، وأن ينحرف به شيئاً عن طريقه الأولى إلى طريق أخرى . وما أرتاب من أن مكسيم قد أنكر ذلك حين أحسه ، وقد جد فى مقاومته ، ولكن غرائز نفسه كانت أقوى من عقله ، وظروف الحياة كانت أدعى له إلى الضعف وأحرى أن تورطه فيه .

فهأنا هذه أصرف عن زوجى بعض الشيء بالحمل وأعراضه ، ثم بمقدم الصبى وتنشئته ؛ والزيارات بيننا وبين لورنس متصلة ، تسعى إلينا إذا لم نسع إليها ؛ وما أكثر ما حال ثقل الحمل وعنايتى بالصبى بينى وبين الخروج للرياضة ، وما أكثر ما كنت ألح على زوجى وصديقتى فى أن يخرجا منفردين ، ومع الأصحاب والأصدقاء ؛ وما أكثر ما كانت تزورنا لورنس فأصرف عنها إلى بعض شأنى ، أو يضطرنى المرض إلى الانفراد فى غرفتى ، ويتاح

لها من لقاء مكسيم والحديث إليه منفرداً ما لم يكن يتاح لها من قبل ؛ وما خطر لى قط أنّ ذلك قد يتعرض لريبة ، أو يدعو إلى شبهة ، أو يثير بين الصديقين عاطفة سوء ؛ وما لاحظتُ قط فى حياة مكسيم أو حياة لورنس شيئاً جديداً يدعو إلى التفكير ، أو يثير فى نفسى من سوء الظن قليلا أو كثيراً ، ولكنى صُدمت ، بذلك فجأةً وعلى غير تقدير ، وما أدرى كيف احتملت الصدمة ، وما أدرى كيف ثبت لها ، وما أدرى كيف أخفيت آثارها فى نفسى على الناس جميعاً وعلى مكسيم قبل الناس جميعاً ؟

لا تسخر منى ، أيها الدفتر العزيز ، حين أثنى على نفسى ، وحين أحمدُ هذه الشجاعةَ النادرة التى تلقيتُ بها هذا الخطب العظيم ؛ فقد تلقيت النبأ فانحطم له قلبى ، واندكت له آمالى كلها ، ومع ذلك لم أظهر من هذا شيئاً ؛ تلقيت النبأ وكان ابنى هذا العزيز البرىء ، هو الذى حمله إلىّ فى بعض عبثه ؛ ولست أدرى كيف انسل إلى مكتب أبيه ، ولست أدرى كيف خلص إلى بعض ما كان فيه من أوراق ، ولست أدرى كيف استخلص منها هذا الكتاب الذى حمله إلى فرحاً مبتهجاً ، وظافراً منتصراً ، كأنه الجندى يحمل بعض الأسلاب إلى قائده مبتهجاً فخوراً !


بيكار

١٣

تلقيتُ الكتاب من يد بيير مبتسمةً مشفقة ، مبتسمةً لعبث الصبي ومرحه ودُعابته ، ومشفقةً أن يكون لهذه الصحف التي يحملها إليّ بعضُ الخطر ، وأن يكون قد أفسد النظام في مكتب أبيه ، وهو حريص أشد الحرص على أن يكون النظام في مكتبه دقيقاً ، وعلى أن تترك الأشياء فيه كما وضعها هو ، لا يحول منها شيء عن موضعه ، يغلو في هذا الحرص حتى يوشك أن يكون علة من علل نفسه ، وحتى يؤذيه أن يدخل أحد مكتبه في غيبته أو يمس منه شيئاً ؛ ولقد هممت غيرَ مرة أن أرتب له مكتبه على نحو كنت أراه ملائماً جميلا ، فردني عن ذلك رداً لم يخلُ من عنف ، ولعله ترك في نفسي آثاراً لم أكن أحبها ، حتى انتهى الأمر بيننا إلى اتفاق صامت على أن كل ما في البيت طوعُ يدي ورهن أمري ، أناله بما شئت من تغيير وتبديل ، إلاّ هذه الغرفة ، فإنها حرام ما ينبغي لي أن أمسها أو أن أغير من نظامها شيئاً ؛ فلما وقعت في يدي هذه الصحف تلقيتها مشفقةً مذعورة ، ثم

نظرتُ فيها فرأيت ، ويا هولَ ما رأيت ؛ وكنت خايقة أن أفقد الصواب ، وأن أخرج عن طور الرشد ؛ وكنت خليقة أن أجد الدوار وأن أسفح الدمع ، وكنت خليقة أن أتعرض لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التي تتعرض لها المرأة حين تهان في حبها ، وحين تخيب آمالها ، وحين تظهر لها الخيانة ماثلة وقد كانت ترى نفسها بمأمن من الشك والريب ، ولكني رأيت بعض جمل الكتاب فقرأته مستقصية ، ونهضت بعد قراءته هادئة النفس مستقرة القلب ، فسعيت إلى مكتب زوجي ، ورأيت درجاً من أدراجه قد فتح شيئاً ، فعرفت أن يد الصبي قد امتدت إليه ؛ فأخرجت ما كان فيه من أوراق ونثرتها في أرض الغرفة نثراً ، ثم صنعتُ بغيره هذا الصنع ، ثم ألقيتُ الكتاب الذي حمله الصبي إليّ بين هذه الأوراق المنثورة ، ثم خرجت فأغلقت الغرفة وأخذت مفتاحها ، ثم أويت إلى غرفتي وأغلقت بابها من دوني ، ثم انتظرت الأزمة ولكنها لم تأت ، ثم دعوت الأزمة ولكنها لم تستجب ، وإنما انحدرت من عيني دموع يسيرة جدا لم ألبث أن جففتها ، وظللتُ في غرفتي هادئةً واجمةً بعضَ الشيء، محزونةً أشدَّ الحزن وأمضّه ، عاجزةً كل العجز عن

أن أجد من هياج الأعصاب أو انهمال الدمع ما يخفف وطأة هذا الحزن على هذا القلب الكسير ؛ فلما استيأست من ذلك نهضت متثاقلة ، وخرجت من الغرفة فلقيت الصبيّ فى بعض عبثه ، فأخذت بيده وهبطت به إلى الحديقة ، وجعلت ألاعبه وأداعبه ؛ وأقبل مكسيم بعد ساعة ، فتلقيته ساخطة صاخبة ألومه أعنف اللوم ، لأنه يحرص على النظام فى مكتبه ، ثم لا يحتاط لهذا النظام فيترك بابه مفتوحاً ، ويعرّض مكتبه بذلك لعبث الخادم ، ولعبث هذا الصبى العفريت خاصة .

ثم أزعمُ له أنّ الصبى قد انسل إلى مكتبه ، فأحدث فيه فساداً عظيما ، وأنه سيجد مشقة فى رده إلى ما يحب ويألف من النظام ، وهو خليق بهذه المشقة ، فلعلها تعلمه أن يأخذ مفتاح مكتبه معه منذ اليوم ؛ ثم أدفع إليه مفتاحه ، فيتلقاه هادئاً مبتسما ، ويرفع الصبيّ بين ذراعيه مبتهجاً ، فيقبله ويهنئه ، أو يهنىء نفسه بهذا الطور الجديد من حياة ابنه الذى أصبح قادراً على أن ينسل إلى الغرف ويفسد ما فيها من نظام ؛ ثم يصعد متثاقلا إلى مكتبه فيلقى عليه نظرة ، ثم يعود مغرقاً فى ضحك

متصل وهو يقول : إن إصلاح هذا الفساد أطولُ من أن آخذَ فيه قبل الغداء .

ثم تمضى أمور الدار على ما تعودتْ أن تمضى عليه ، كأن لم يحدث شيء ؛ ولكنّ فى الدار قلباً محطماً قد ذاق خيبة الأمل وعرف مرارة اليأس ، ولن يبرأ من هذه العلة التى مزقته تمزيقاً !

١٤

ولكنى لم أحدثك بشيء من هذا الكتاب ، أيها الدفتر العزيز. وما أشد أسفى لأنى لم أحفظه عن ظهر قلب ، أو لم أتخذ منه نسخة أعاود النظر فيها بين حين وحين ؛ فهو خليق أن يحفظ وأن يسجل ، لأنه يصوّر الضعف والقوة معا ، كأقصى ما يكون الضعف وكأقصى ما تكون القوة ؛ ولأنه يصور الوفاء للصديق والاستسلامَ للحب ، والصراعَ العنيف بين هذا الاستسلام وذلك الوفاء ، والانتهاء إلى اليأس من المقاومة ، والفرارَ آخر الأمر إلى حيث يمكن الانفرادُ مع الحزن اللاذع والألم الممض ، وإلى حيث يمكن الانتظار لروح الله الذى قد يريح من آلام الحياة بما يفيض من السلوى والعزاء ، وقد يريح من الحياة نفسها إذا لم تكن سبيلٌ إلى السلوى والعزاء !

كل هذا كان مصوراً فى ذلك الكتاب تصويراً يسيراً ساذجاً لا تصنعَ فيه ولا تكلف ، حتى لقد كان يخيل إلىّ أنّ هذه الصديق المسكينةَ إنما أفاضت فيه نفسها البائسة ، وأودعته قلبها

الكئيب ؛ وكانت لورنس قد ودّعتنا منذ أيام وزعمتْ لنا أنها مسافرة إلى باريس لتنفق فيها أسابيع ، ثم عائدةٌ إلينا بعد ذلك وقد جددت العهدَ بالعاصمة وما فيها ومن فيها ، مما تحبّ من المعالم ، ومن تألف من الأصدقاء ؛ وكنت قد أنكرتُ هذا السفر وضقت به ، ورأيت أنها تقدمُ عليه فى غير إبانه ، ولكنى رأيت منها إلحاحاً فيه وتصميما عليه ، ولم أجد إلى صرفها عنه سبيلاً ، فودّعتها كارهة ، واستكتبتها وجعلت أنتظر كتبها دون أن أتلقى منها شيئاً ، حتى قرأت هذا الكتاب فعرفت منه أنها لم ترحل إلى باريس ، وإنما خدعتنا عن نفسها وعبرتْ البحر إلى حيث لا ندرى من الشرق الأدنى ، أو من الشرق البعيد ، وأنها لن تعود إلاّ حين تستيقن بقدرتها على العودة ، وعلى أن تعيش معنا كما كانت تعيش منذ حين ، نقيةَ القلب والنفس والضمير ، قادرةً على الوفاء لصديقها بما ينبغى من الود الخالص الذى لا إثم فيه ولا ريب .

وجدتُ فى هذا الكتاب قصة نفسين قد لقيتا من قوة الإرادة وضعف الغريزة أشد العذاب . وكانت نفس لورنس أقواهما وأمضاهما وأشدهما احتمالا وأقدرَهما على المقاومة ؛ فهى قد

أحستْ عطف مكسيم عليها ورعايته لها ، ثم أحست تحول هذا العطف والرعاية إلى شيء من الحب والحنان ، ثم أحست قوة هذا الحب وشدة هذا الحنان ؛ فتلقتْ هذا كله لقاء حسناً نقياً . ولكن حب مكسيم ألح عليها وجعل يتتبعها ويقفو آثارها ، ثم جعل يمسها مساً رفيقاً ، ثم جعل يحيط بها ويغمرها ، وهي تقاومه وتدافعه وتحاول النجاة منه كما يحاول الغريق أن ينجوَ من الماء الذي يطغى عليه ؛ وقد نجحت مقاومتها مرة ومرة ، وأفلتت من شباك الحب تلك التي كان ينصبها لها مكسيم ، وكانت تنصبها هي لنفسها ؛ ولكن مكسيم غلا في الإلحاح ، وأسرف في التتبع ، وظهر من أمرها على ما كانت تخفي ، واستيقن أنها تلقى حبه بحب مثله ، وأنّ نقاء الضمير وحده هو الذي يحول بينها وبين الاستجابة له والانقياد لهواه ، فاضطهدها مصبحاً ، واضطهدها ممسياً ، واضطهدها حين كانت تزورنا ، وجعل يزورها حين كانت تقعد عن زيارتنا وتنتحل لذلك ما كانت تنتحل من معاذير ؛ وكانت المسكينة ترى هذا الإلحاح العنيف وتجد في نفسها إلحاحاً مثله ، وكانت ترى مكسيم يدفع إليها دفعاً وترى نفسها تدفع إليه دفعاً ؛ ولكنّ صورتين اثنتين كانتا

تنتظرانها دائماً عند الهوة فتردانها عنها وتعصمانها من السقوط .

فأما إحدى هاتين الصورتين فكانت مخيفة منذرة ، تبعث الخوف وترسل النذير فى صمت مزعج رهيب ، وهى صورة زوجها الفقيد الشهيد الذى وفى لها فى حياته ، وشقى بالدفاع عنها أثناء الحرب ومات فى سبيل هذا الدفاع ؛ وأما الصورة الأخرى فكانت مشجعة فى حزن ، ومتوسلة فى ابتسام ، وهى صورة صديقها مدلين ، تحمل بين يديها ابنها بيير ، تبسم له ويبسم لها ، وتنظر إلى مكسيم نظرة فيها تساؤل واستغراب !

كانت المسكينة كلما بلغت الهوة وأوشكت أن تسقط بين ذراعى مكسيم رأت هاتين الصورتين تكتنفانها فارتدت فزعة مذعورة ، ثم كانت المسكينة تخلو إلى نفسها بعد ذلك فتلقى من الحب العنيف ومن الوفاء العنيف ، تلقى من الغرائز الضعيفة والإرادة القوية ، عذاباً ينغص عليها الحياة تنغيصاً ، حتى أنكرت نفسها وأشفقت أن يلم بها طارق من جنون .

هنالك لم تر المسكينة بداً من أن تفر منا جميعاً إلى حيث لا ترى هذا الحب الآثم الذى لا تكاد تفلت منه ، وإلى حيث لا ترى هذا الزوج الشهيد مخوفاً منذراً ، وإلى حيث لا ترى هذه

الصديق الوفية باسمة منكرة متسائلة ، وبين ذراعيها طفلها هذا الوادع البرىء .

«إن فى الرحلة إلى الشرق، والنظر إلى ما فيه ومن فيه لعزاء عن مثل هذا الحزن الملح والألم المقيم والعذاب المتصل ، إن كانت إلى العزاء عن ذلك سبيل . فإن لم أجد العزاء فسأجد من بعد الشقة بينك وبينى أيها الحبيب البغيض ، ما يعصمك ويعصمنى من هذا الخزى الذى إن كنت تطيقه الآن فستضيق به غداً ، والذى لا أستطيع أن أرى نفسى متورطةً فيه !

« وداعاً أيها الحبيب إلىّ وإن كنت أبغض حبك وأضيق به !

« وداعاً أيتها الصديق البائسة الأمينة ؛ لن أراكماً ولن أرى طفلكما حتى استيقن بأنى أصبحت لرؤيتكم أهلاً !

« وداعاً ! إن كان فى الحياة ما يعزينى ويسلينى فهو أنى هممت بالإثم ولم أتورط فيه ، وكدتُ أخونك يا مدلين ولكنى آثرت اتصال العذاب والحرمان والغربة على أن أنظر إليك فأستحى منك ، وعلى أن يكون فى قلبى شىء لا تستطيعين أن تظهرى عليه ! »

بذلك ختمت المسكينة كتابها ، وقد استقرتْ كلماتها هذه فى

نفسي كأنما نقشت في قلبي نقشاً :

أين أنت الآن يا لورنس ؟ كم أحب أن ألقاك وأن أضمك إليّ ، وأن نمزج دموعنا التي تصور ما يملأ نفسينا من اليأس والحب والوفاء معاً !

١٥

أقبل الصبي فرحاً كالمرتاع ، يكلف ساقيه الضعيفتين من العدو فوق ما تطيقان ، ويدير في فمه الصغير لساناً لا يكاد ينطق بهذه الألفاظ : «أماه أماه ! انظري هذه السيارة . » ولم أستطع أن أقاومه ولا أن أمتنع عليه ، حين أخذت يده الصغيرة بيدي الكبيرة تجرني إلى حيث أرى ما كان يريد أن يظهرني عليه . ولو استطعت لأعرضت عنه وعن سيارته التي كان يريد أن يظهرني عليها ، ولمضيتُ فيما كنت فيه من القراءة ، لأني كنت مشغوفة بما كنت أقرأ ، ولأن ألفاظه وقعت من نفسي موقع النذير ؛ فقد عرفت السيارة حين ذكرها وعرفت من فيها ، فلما رأيتها ورأيت من كان فيها لم أزدد علماً ، ولم أعرف جديداً .

وما من شك في أن قلبي قد خفق لألفاظ الصبي ، ولكن الشيء الذي هو موضع الشك والريب والتردد الشديد ، هو تفسير هذه الخفقات التي اضطرب بها قلبي ، أكانت خفقات بالرضا والغبطة ، أم كانت خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كانت

السيارة سيارتنا ، وكان الذى يقودها مكسيم ، وكان فراقنا قد طال أمده شيئاً ، وإن لم تنقطع بيننا الرسائل ، ولم يعرف منى حين ودعته ولا حين كنت أكتب إليه أنى كنت مغاضبةً له أو واجدةً عليه ؛ ولكنى فى حقيقة الأمر كنت غاضبة بل أكثر من غاضبة ، وكنت واجدة بل أكثر من واجدة ؛ كنت محطمة القلب خائبة الأمل ، ملتاعة النفس محزونة الضمير ؛ وكنت أدافع نفسى أشد الدفاع عن مصارحة زوجى بهذا كله أو بعضه ؛ أريد أن أثأر للكرامة التى أهينت ، والحرمة التى انتهكت ، والحب الذى أضيع ؛ وأخشى إن فعلت أن يكون الفساد الذى لا سبيل إلى إصلاحه ، والصدع الذى لا سبيل إلى رأبه . ثم طال هذا التردد ، وطال حتى تغلب العقل ، أو تغلبت العاطفة ، أو اتفق العقل والعاطفة ، فأغمضت عينى على القذى ، وطويت قلبى على ألمه ، واحتفظت لنفسى ولك أيها الدفتر العزيز بهذا السر الأليم ، فلم يعلم زوجى أنى قد ظهرتُ على أمره وأنى تأثرت منه بقليل أو كثير . وفى سبيل الحب ما تكلفت فى ذلك من عناء ، وفى سبيل الحب أيضاً ما أرقت فى ذلك من ليل طويل ، أعنف نفسى أشد التعنيف وأصفها بالجبن مرة

وبالضعة والذلة مرة أخرى .

فى سبيل الحب هذا كله ، فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لى إلا عن شيء واحد، وهو أنى أحب مكسيم إلى أبعد ما يمكن أن ينتهى إليه الحب ، وأحتمل فى سبيله أقسى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية؛ ظهرت على خيانته فلم أحس ثورة جامحة وإنما أحسست ألماً لاذعاً ، وتبينت إثمه فلم تتحدث إلىّ نفسى بالقطيعة وإنما تحدثت إلىّ بالفرار إلى حيث أستريح واستجم، ثم أستأنف الجهاد لاكتساب هذا القلب الذى أخذ يفلت منى ويهيم بغيرى .

وكنت أثناء هذه الأسابيع التى خلوت فيها إلى أبوى ، وإليك أيها الدفتر العزيز ، أغالب الشوق إلى مكسيم فأغلبه حيناً ، ويغلبنى حيناً ؛ وأغالب الغضب على مكسيم فيقهرنى حيناً وأقهره حيناً . ولولا أنى وجدت منهما ، ومنك ، ومن القراءة، ومن هذه الطبيعة المشرقة الباسمة المتألقة ، ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى من العواطف والأهواء — لانتهى بى الأمر إلى ما لا أحب ؛ ولكنى تمالكت حتى كان هذا اليوم الذى أقبل فيه الصبى ينبئنى بمقدم السيارة ، فأحسست

هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضا والسخط ؛ ثم نهضت مع الصبي فماشيته إلى حيث أراد ، وإلى حيث ألقى نفسه بين ذراعي أبيه وقد أخرجه الفرح عن طوره ، وإلى حيث استقبلتُ أنا مكسيم بابتسام فاتر ، ونشاط متكلف . وشهد الله لقد تصنعتُ هذا الفتور وتعلمت هذا التكلف ، ولو أرسلت نفسي على سجيتها وأطعت غريزتي لألقيت نفسي بين ذراعي زوجي ضاحكة باكية ، ومغرقة في الحزن والفرح معاً ؛ ولكني تكلفتُ الأناةَ والوقار ونجحت فيما تكلفت ، فأرسلتُ إلى نفس مكسيم شيئاً من الفتور وخيبة الأمل .

قبلته متثاقلة فقبلني متثاقلا ، واتصلتْ بيننا لحظات صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج مضطرب وهو يقول في ألفاظ متقطعة شيئاً : لقد كنت أظن أن مقدمي سيشيع في نفسك من السرور أكثرَ مما رأيت !

فلم أعرف كيف أجيبه ، ولكنني انحنيت إليه فقبلته في رفق وقلت له في حنان : هلمّ نسلمْ على أبويّ فإنهما من غير شك قد أحسا مقدمك ؟

١٦

ولم يطل مقام مكسيم فى بيت أبوىّ ، ولم أستطع أن أتخلف عنه ؛ لأنى خشيت إن فعلتُ أن يظهر أبواى على أنّ بيننا شيئاً ؛ وكنت أكره ما أكون لإظهارهما على هذه الكارثة . ولعلى لا أصدق إن زعمت أن هذا وحده هو الذى منعنى من التخلف عن مكسيم ؛ وما تعودت أن أكذبك أيها الدفتر العزيز ؛ ولا أن أستحى منك ، فلأقلْ الحق ، ولأسجلْ مستخذيةً منك ، ومن نفسى ، أنى رجعت مع مكسيم ، مستسلمة لحبه مذعنةً لسلطانه ، عائدةً إلى طاعته متجافيةً عن خيانته ، وإن كنتُ لم أنسها ولم أعفُ عنها فى قرارة نفسى ، ولكنى اتخذت لها من قلبى زاوية أقررتها فيها ، وألقيت بينى وبينها ستاراً ، واستجبتُ لدُعاء الحب ، فألقيت نفسى فى ناره المضطربة ، ووجدت فى الاحتراق بهذا الجحيم نعيما أى نعيم ! وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى عودتنا إلى المدينة ، فى ضحى ذلك اليوم الذى أشرقت فيه الشمس ، وصفت فيه السماء ، ورقّ فيه الجو ، وخفّ

فيه الهواء ، وظهرت فيه الطبيعة هادئةً باسمة ، تستقبل حياةً هادئة باسمة ، وتغرى الناس بأن يأخذوا بحظوظهم من الهدوء والابتسام ؛ وقد استجبنا لهذا الدعاء ، وخضعنا لهذا الإغراء ، وظهر على وجهينا هدوء مطمئن ، وابتسام يصوّر الرضاً ، وميل إلى الدعة ، واستسلام إلى الأمن ، وانصراف عن الجهد ؛ وقد أسلم مكسيم قياد السيارة إلى السائق ، وآثر السكون والهدوء ، وجلس إلى جانبي ينظر إلىّ فى وداعة وحنان ، وأنظر إليه فى رفق وعطف ، والصبي أمامنا منطلق فى أحاديث لا نفهم إلاّ أقلها ، قد انصرفنا عنه إلى أنفسنا ، وقد ألقيتُ رأسى على كتف مكسيم وجعلت أنعم بهذه الساعة الحلوة ، وإذا دموع تنحدر من عينىّ لا أدرى لماذا انحدرت ، فلم أكن فى حاجة إلى البكاء ، ولم أشعر بدافع إليه ، ولكن هذه الدموع انحدرت فى صمت ، ولم يسألنى عنها مكسيم ، وإنما مسحها فى رفق ، وضمنى إليه ضما خفيفاً ، ثم مال إلىّ فقبلنى فى هدوء ودعة ! لم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وإنما لبثت كما كنت ، وظلّ كما كان ، حتى أشرفت بنا السيارة على المدينة ، ونبهنا الصبي إلى مكاننا منها بما كان يدلنا عليه من المعالم والعمارات ، فاعتدلت فى مجلسى

واستقبلت المدينة والحياة فيها استقبال الجد والطمأنينة والإذعان.

ولقد استأنفتُ حياةً جديدة فيها حب شديد النشاط ، وكلفٌ بعيد الأثر فى النفس يوشك أن يكون هياماً ، وفيها ترقبٌ لكل ما يصدر عن مكسيم من لفظ وحركة ، وما يضطرب على وجهه من المظاهر ؛ وفيها تفهمٌ لنبرات الصوت وخلجات العين . وما أكثر ما كنت ألوم نفسى على ذلك ، وأحذّرها الإسراف فى تتبع مكسيم ، ومضايقته بهذا الحب الملحّ ، وإغراقه بهذا السيل الجارف من العواطف ؛ فقد يؤذيه ذلك ، وقد يحرجه ، وقد يغيظه ، وقد يخرجه عن طوره ؛ وكنت أنجح أحياناً فأخفف من هذا الإلحاح ، وأقلل من هذا التتبع ، وأظهر كأنى معرضةً عنه بعض الإعراض ؛ ولكنه كان يلحظ ذلك فى سرعة وينبهنى إليه فى خفة ، ويظهر الألم لإعراضى عنه والتبرم بتقصيرى فى ذاته ، فأعود إلى أكثر مما كنت فيه من عناية ورعاية ، ومن ترقب وتتبع ؛ وينعم هو بهذا الحب الملحّ وبهذا السيل الجارف الذي يندفع ؛ فلا يكاد يبقى على شىء ؛ وكان يقول له إنه يجد اللذة كلّ اللذة والنعيم كل النعيم فى أن يغمره هذا الحب حتى يغرقه ، وأحب شىء إليه أن يؤذيه الحب ، وأن يشقّ عليه ، وأن يعذبه فى

جسمه ونفسه . وكنت أسأل نفسى عن مصدر هذا الهيام الطارئ والشغف الجديد ، فلا أجد لسؤالى جواباً ؛ وربما عللتُ ذاك بما كان من افتراقنا أسابيع ، وربما أعدت على نفسى ما قرأت فى غير كتاب : إنّ من الخير للعاشقين أن يفترقا بين حين وحين ، ذلك أجدى على حبهما وأحرى أن يجدّد منه ما بلىَ ويُقوى منه ما ضعف . ولكننا لم نفترق لأول مرة ، وقد افترقنا فى العام الماضى والعام الذى قبله ، فلم نجد من الحب والكلف والهيام مثل ما نجد الآن .

أفّ للشيطان ! إنه لقريبٌ من الإنسان دائماً ، وإنه لنافذ البصيرة قوى الحجة بالغ الأثر فى النفوس ؛ ها هو ذا يدنو منى خفيفاً متلطفاً ، قبيحَ المنظر مع ذلك سمجَ المحضر ، ويقول فى غير صوت مسموع ، ولا لفظ مبين : « لا تعجلى بالرضا ، ولا تسرعى إلى الأمن ، ولا تنسىْ أنك مدينة بهذه النعمة لصديق غائبة تطوف فى الشرق القريب أو الشرق البعيد . اذكرى لورنس فهى التى سافرت فأخلت لك قلبَ زوجك الضعيف ، ولو أنها بقيت ، ولو أنها عادت ، لكان لك شأن غير هذا الشأن ، ولاضطربت فى قلبك عواطف غير العواطف التى تضطرب فيه ! »

ثم ينصرف الشيطان خفيفاً متلطفاً وقد ترك أمامى فى الهواء صورة لورنس يشيع فى وجهها ابتسامٌ غريب !

واحسرتاه ! أحقٌّ هذا ؟ أحق أنى مدينة بهذه السعادة الطارئة لهذه الصديق الشقية ، التى تطوف فى الشرق القريب أو البعيد ؟

ليتنى أعرف أين هى ، ليتنى أستطيع أن أكتب إليها ، إذاً لتحدّيت هذا الشيطان ، ولدعوتها وألححت فى دعائها لأعلم أعاد مكسيم إلى حبى لأنه ما زال يحبنى ، أم عاد مكسيم إلى حبى ليتسلى به عن غيبة لورنس !

١٧

كذبَ الشيطانُ ، وصدقَ وحيُ الضمير . لستُ مدينة بهذا الحب المجدد لغيبة لورنس ، وإنما هن عواطف فترت وقتاً ثم استأنفت النشاط ، وإنما هو حبنا القديم قد عاد سيرته الأولى بعد أن اعترضته مصاعبُ لم تلبث أن أزيلت ، وعقابٌ لم تلبث أن ذللت ؛ وقد كانت لورنس إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد ذهبت لورنس وخلا لى بذهابها وجه مكسيم ؛ وكانت طفولة الصبى إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد نما الصبى وربا وأصبح يستطيع أن يشغل نفسه من جهة ، وأصبحت أستطيع أن آمن عليه المربية والخادم من جهة أخرى ، واستردت كثيراً من الوقت والجهد اللذين كنت أنفقهما فى تنشئته والقيام عليه ، ورددتُ هذا الوقت والجهد إلى مكسيم صاحب الحق الطبيعى فيهما .

فرغتُ له وفرغ لى فاستأنفنا حياتنا كما كنا نحياها فى أول عهدنا بالزواج . ومالى أسأل نفسى عما عسى أن يكون لو عادت

لورنس ولا أسألها عما عسى أن يكون لو أتيح لى طفل آخر ؟ لقد كنتُ غافلةً ثم تنبهت ، وكنت جاهلةً ثم علمت ؛ فتستطيع لورنس أن تعود أو لا تعود ، فقد عرفت كيف أحوط زوجى وأحمى قلبه ، وأردّ عنه عاديات الحب من لورنس أو من غيرها . وما أشك فى أن نفسى راغبة أشد الرغبة فى ألاّ نقف عند هذا الصبىّ الوحيد ، وفى أن نمنحه أخاً أو أختاً ، ولكنى لست متعجلة ، وقد أستطيع أن أنعم بالفراغ لزوجى عاماً أو عامين وقد أتيح لنا من حسن الحال وسعة العيش ما يمكننا من أن نربى طفلنا الجديد ، إنِ أقبل ، على غير ما ربينا عليه أخاه ، فلا أمنحه وقتى كله وجهدى كله ، ولا أنصرف إليه عن زوجى ، ولا أنصرف إليه عن حقى فى الحياة . فلأردّ عن نفسى كلّ هذه الخواطر المظلمة ، ولأستقبل الحياة راضيةً باسمة ، ولأنعمْ بما تحمل إلىّ من أسباب الأمن والنعيم ، ولأغلقْ دونَ الشيطان بابَ قلبى وسمعى ، فإنه لا يوسوس إلا بالشر ولا يلقى فى النفوس إلا اليأسَ والقنوط .

وقد فعلت ، فمضت أمورنا على خير ما كنت أحب وعلى أحسن ما كنت أتمنى وقتاً ما أدرى أطال أم قصر ، لولا أنى

أرجع إلى الذاكرة فأحصيه فإذا هو أشهر ، وأرجع إليك أنت أيها الدفتر العزيز ، فأرى آخرَ عهدى بالتحدث إليك ، فيصدق الإحصاء وأتبينُ أنى قد أعرضت عنك ستة أشهر كاملة ، لأنى لم أكن فيها محتاجة إليك ؛ وما حاجتى إليك وقد استأثر مكسيم بكل وقتى ، وكل نفسى ، وشغلنى عن كل شىء وعن كل إنسان ، ومنعنى حتى من أن أخلوَ إلى نفسى خلوةً متصلة فأفكر فيما أستقبل من الحياة . يا لله ! أيمكن أن ينحط الناس من هذه السعادة التى لا توصف إلى هذا الشقاء الذى لا يطاق ؟

ألم تحدث نفسك ، أيها الدفتر العزيز ، حين أحسست يدى وهى تأخذك وتقلب صفحاتك بأنى شقية بائسة ، وأن الشقاء والبؤس هما اللذان ألجآنى إليك وذكرانى بمكانك من غرفتى ؟ كلا لم تحدث نفسك بشىء ، لأنك لم تحس شيئاً ، وأين أنت من النفس والحس ؟ وإنما أنا التى تحدث نفسها بهذا كله ، ولا تستطيع أن تخلو بهذا كله إلى نفسها ، ولا أن تبثه أحداً غيرها ، فهى تلقيه إليك بعد أن تفيض عليك من الحياة ما يخيل إليها أنك شخص مثلها ، تسمع وتعقل ،

وتستطيع أن تمنحها السلو والعزاء ؛ وأىّ سلوّ وأىّ عزاء ؟ وعمّ أريد أن أسلوَ وعمّ أريد أن أتعزى ؟ وهل لا يزال لى فى شيء من ذلك أمل ؟ ما أدرى ؛ لقد وقفتُ عن الكتابة حين بلغت هذه الجملة من الحديث ، لأنى وقفت عن التفكير ، بل وقفت عن الشعور ، وأحسست كأن عارضاً من الذهول قد عرض لى ، وكأنّ كل شيء من حولى يضطرب أشد الاضطراب ، وكأن أصواتاً من حولى ترتفع فتملأ الجو وتفعم الفضاء . وما أدرى أبقيت على هذه الحال ساعةً أو دقائق ؟ ولكنى رجعت إلى نفسى متعبةً مكدودة ، لا أكاد أتمالك ، ثم أخذ الهدوء يثوب إلىّ شيئاً فشيئاً ، والقوةُ تعود إلىّ قليلاً قليلا ، وإذا أنا جالسة حيث كنت أنظر إليك ولا أكاد أراك . ثم أسأل نفسى عما أنا فيه ، أسألها عما كنت أفعل ، وعما عرض لى ، وعما أريد أن أفعل ، فلاأجد من نفسى إلا جواباً واحداً ، وهو أنى مقبلة على أشياء خطيرة وأمور ذات بال . . .

١٨

أتصدّقنى أيها الدفتر العزيز ؟ أما أنا فلا أكاد أصدّق نفسى ، بل أنا لا أصدّقها ؟ وإنما أنا فى ريب من أمرى واختلاط ، لا أدرى أعاقلةٌ أنا أم مجنونة ، أمحتفظةٌ أنا بملكاتى كلها كما عهدتها ثابتةً هادئةً منظمةً ، لا تقدمُ إلا على بصيرة ولا تدبر إلاّ عن رويّةٍ وتفكير ، بعيدة كل البعد عن هذه الأوهام التى تعبث بعقول الدهماء وتؤثر فى نفوس الشذاذ من الناس ، ما أدرى ، ولكنى أنكر نفسى أشدّ الإنكار : منذ أيام تخطر لى الخواطر الغريبة فأذودها هازئة بها ، فتعاودنى فأعاود ذيادَها ، ثم يتصل الليل بالنهار فإذا الخواطر التى كانت تعرض لى أثناء اليقظة تلحّ علىّ أثناء النوم ، وإذا أنا أفيق مذعورةً مرةً ومرتابةً مرة أخرى ؛ كل ذلك وأنا أتهم نفسى وأنكرها ، وألوم نفسى وأعنفها ، وأزعم أنّ الحب قد أخرجنى عن طورى ، وأنّ الغيرة قد أفقدتنى رشدى وأذهلتنى عن صوابى . وربما تساءلت : أليس من الخير أن أعود إلى أبوىّ

أقيم معهما أسابيع لأستريح من الحب كما عدتُ إليهما فأقمت معهما أسابيع لأستريح من الهجر ؟ وأكاد أرجح هذا الميل ، وأكاد أعزم على الرحلة ، وأكاد أفرّ من نفسى ، ولكنّ النذرَ تبلغنى فأقيم .

قلت لك إنك لن تصدقنى ، وإنى لا أصدق نفسى ولكنى لم أنبئك بهذه الأنباء التى أعتقد أنك سترفضها وتأبى أن تؤمن لها . لم أنبئك بهذه الأنباء لأنى أكبرها وأنكرها ، وأستحى أن أقصّها عليك ، ولأنى أجدُ كثيراً من المشقة والجهد فى جمع نفسى هذه المشردة وتأليف خواطرى هذه المتفرقة ، وصوْغ هذه الأنباء الغريبة فى جمل قريبة أستطيع أن ألقيها إليك ؛ ومع ذلك فلأجتهدْ ولأجاهدْ ، فما ينبغى أن أخفى عليك سرا ، وما ينبغى أن نفترق ولما أظهركَ على هذه الأحداث الجسام .

ما كنت أظن أن حرصى على حب مكسيم سينتهى بى إلى هذا الطور الذى انتهيت إليه منذ شهرين من الإشفاق والخوف ، ومن التطير والخضوع للأوهام .

ولكنى قد انتهيتُ إلى هذا الطور سواء أردتُ ذلك أم لم أرده ، وقد جعلت ألتمسُ التأويل والتعليل لكل كلمة من كلمات

زوجى ، ولكل نبرة من نبرات صوته ، ولكل حركة من حركاته ، ولكل هذه المظاهر التى تختلف على وجوه الناس حين يبتسمون ويعبسون ، وحين يهدأون ويضطربون ؛ وأسرفتُ فى ذلك حتى ضقتُ به ، وحتى جعلتُ أروض نفسى على أن أنفق الأوقات القصيرة غيرَ مفكرة فى مكسيم ولا حافلةً به ، فلا أبلغ من ذلك شيئاً ؛ وقد ألقى الشيطان فى روعى أنى مدينة لغيبةِ لورنس بنشاط حبنا بعد فتوره ، فأحاول أن أدفع وسوسة الشيطان هذه عن نفسى ، فأوفق حيناً ثم يعود إلىّ هذا الوسواس ملحا مسرفاً فى الإلحاح ، وإذا أنا أفكر فى لورنس كلما فكرت فى زوجى ؛ وأكاد أسأل نفسى ، كلما وقعتْ من نفسى أحاديثُ مكسيم وأعماله موقع الإعجاب والحب : ما عسى أن يكون موقع هذه الأحاديث والأعمال من نفس لورنس لو أنها شهدتها أو ظهرت عليها ؟ وإنى لضيقة باقتحام لورنس علينا حياتنا وقيامها بين زوجى وبينى فى كل لحظة ، وإذا صورة أخرى تقتحم علينا هذه الحياة وتقوم بيننا مع صورة لورنس ، وهى صورة زوجها الفقيد الشهيد ؛ فقد أخذت هذه الصورة تتراءى لى بين حين وحين ، وأخذتُ أنكر إلمامها بى وظهورها لى ، ولكنها أخذت

تكثر من الزيارة وتطيل المقام ، وأكبر الظن أنى أنا التى دعتْ هذه الصورة لكثرة ما فكرتُ فى لورنس ، ولكثرة ما أعجبت بوفائها لزوجها ، ولكثرة ما أعدتُ على نفسى كتابها الذى أنبأتْ فيه مكسيم بعزمها على الاغتراب .

ولكنى أفيق ذات ليلة مذعورةً أشدّ الذعر ، قد ملئ قلبى روعاً ، واستأثر الهلع بنفسى حتى تصبّبَ جسمى كله عرقاً . . . وقد كان أول خاطر خطرَ لى حين انجلتْ عنى سحائب هذا الذعر أنها خواطر اليقظة قد ألحت علىّ فى النوم ؛ وقد جعلت أردّ الأمن إلى نفسى قليلا قليلا ، ولكنه لا يعود إلاّ ليزول ؛ فقد رأيت فيما يرى النائم صورة ذلك الزوج الفقيد تدعونى بالإشارة فأمتنع عليها ، فتلحّ فى الإشارة وألحّ فى الامتناع ، فتضيفُ الصوتَ إلى الإشارة ، فأسمع زوج لورنس يدعونى بصوت هادئ ولفظ واضح صريح : إلىّ ، إلىّ ، فإن مكانك ليس بين هذين الآثمين ولكنه إلى جانبى أنا المظلوم .

وأفيق مذعورةً لا أدرى أأيقظنى الذعر أم أيقظنى الصوت الذى سمعته ؟ وأحاول أن أخلص من هذه الصورة ، ولكنها تملأ عينى والغرفةُ مظلمة ؛ وأحاول أن أخلص من هذا الصوت ،

ولكنه يملأ أذنى والليلُ من حولى شديد الهدوء ؛ فأعمد إلى النور فأذود به الصورة ، ثم أنهض من سريرى ، وأضطرب فى غرفتى ، وأحدث من الحركات ما أذود به الصوت عن أذنى ، ولكنى لا أعود إلى الظلمة إلاّ عادت الصورة إلى عينى ، ولا أعود إلى السكون إلا عاد الصوت إلى أذنى ، حتى ظننتُ بنفسى الظنون وأشفقت على عقلى من أعراض الخبال ، ولم ينقذنى من هذه الآلام المتصلة والأخطار المحدقة إلاّ ضوء الصبح حين أقبل بعد انتظار طويل.

قلْ ، أيها الدفتر العزيز ، ما قلته لنفسى من أنّ هذا عرَض من أعراض المرض ، ومظهر من مظاهر ضعف الأعصاب واضطراب المزاج ، ونتيجة من نتائج التفكير المتصل فى حب مكسيم والإشفاق من لورنس . فقد قلتُ هذا كله لنفسى واستيقنته ، وفكرت فى أن أطبّ له بالرحلة إلى أبوىّ أو بالإبعاد فى السفر ؛ وما يمنعنى أن ألم بباريس فألهو بحياتها الصاخبة المتنوعة عن هذه الحياة الهادئة المتشابهة فى الأقاليم ؟

ولكن ما رأيك فى أنى لست مريضة ولا ضعيفة الأعصاب ولا مضطربة المزاج ؟ ما رأيك فى أن هذه الصورة لم تخدعنى ، وفى أن هذا الصوت لم يكذبنى ، وفى أن زوج لورنس قد أنبأنى

بالحق الذى لا شك فيه ؟ فقد عادت لورنس من سفرها البعيد، وتورطت فى الإثم الذى فرّت منه ولم تستطع أن تمضى فى المقاومة.

عادت لورنس، لا إلى هذه المدينة التى نقيم فيها ، ولكن إلى مدينة أخرى ليس بيننا وبينها إلا ساعتان فى القطار ؛ عادت لورنس واتصلت بمكسيم ، واتصلت الزيارات بينهما ، وكان ما خفتُ أن يكون .

أتصدّقنى أيها الدفتر العزيز ؟ إنى لا أصدّق نفسى ، وما تعودت من قبل أن أصدّق أحلام الليل ؛ ولكن لورنس قد عادت، ومكسيم قدعاد إليها ، ولكن قلب زوجى لم يعد خالصاً لى ، ولكن الأمر بين زوجى وبينى لم يقف عند هذا الحد ، فقد عرف الناس من أمره ما كنت أجهل ، ولم أعرف حقيقة هذا الأمر إلا بعد أن عرفه الناس ، وقد عرّضنى ما ظهر من أمره إلى أكثر من ألم المرأة التى يخونها زوجها : عرّضنى لطمع الطامعين ، وأغرى بى الذين ينتهزون الفرص من الأصدقاء الأوفياء؛ عرّضنى لألم المرأة التى تهان فى حبها ، ولخزى المرأة التى تهان فى كرامتها ؛ أأصدّق أحلام الليل أم أكذبها ؟ أأستجيب لهذه الدعوة التى وجهها إلىّ زوج لورنس أم أمتنع عليها ؟

١٩

« ما أشدَّ شوقى أيتها الصديق العزيزة لورنس ، وددتُ لو استطعتُ أن أطير إليك لأضمك بين ذراعىَّ ، ولأقبلك قبلات تنقل إلى قلبك بعض ما فى قلبى من حبٍّ ووفاء ، ومن إكبار وإجلال ، ومن شكر للصنيعة واعتراف بالجميل ، ولأذرفَ على كتفك دموعاً تصوِّر الحزن لفراقك ، والفرحَ بلقائك ، والإكبار لتضحيتك ، والشكر لبعض فضلك ، والأسى لما احتملت من حرمان ، والإعجاب بما أظهرت من شجاعة وحسن احتمال ، وكنت خليقةً أن أفعل هذا كله لو أن نبأ عودتك إلى الوطن قد ألقى إلىَّ ساذجاً يسيراً كما تلقى الأنباء ؛ فقد كنت مدينةً لك بحبى ، وكنت مدينة لك بسعادتى ، وكنت مدينة لك بحياتى ؛ وما أدرى أفهمتنى كما أنا أم لم تفهمينى ، ولكن المحقق أنى بعد أن أحببت مكسيم وبلوت السعادة بحبه ، لا أتصور الحياة بدون هذا الحب ولا أطيق لها احتمالا .

« ألعلك عرفت هذا كله وقدرته حين هاجرت من أرض

الوطن، وضحيت بلذّاتك وآمالك ، و بعواطفك وشعورك؛ ضناً بي على اليأس ، وحرصاً على أن أتجنب آثاره الوبيلة وعواقبه المهلكة ؛ أم لعلك إنما هاجرت من أرض الوطن ضناً بنفسك على الإثم، وارتفاعاً بها عن النقيصة، وفراراً من الخيانة للأحياء والأموات ؛ هذه الخيانة التي لا تليق بالنفس الكريمة ، ولا تلائم القلبَ الذكيّ النقيّ ؛ أم لعلك قدّرت الأمرين جميعاً فنصحت لى ونصحت لنفسك ، وأبقيت على حياتى وأبقيت على كرامتك حين أزمعت ذلك الرحيل ! مهما يكن من شيء فإنك قد منحتنى الحياة مرةً ثانية حين تركت لى قلب مكسيم وحبه ، فأنا مدينة لك بهذه الحياة ، ولو قد اطلعت على قلبى من مهجرك ذلك البعيد لرأيت أنى كنت قد اتخذت لك فيه معبداً خاصاً أسميته معبد الوفاء ، ولعلمت أنى كلما أحسستُ لذّةً وغبطة أو سعادة أو ألماً أو حسرة — وما أكثرَ ما كنتُ أحسّ هذا كله — قدّمتُ إليك بعض ما كنت أجد قرباناً لوفائك وعرفاناً لجميلك وإيماناً بما لك عليّ من فضل ليس إلى وصفه ولا إلى تقديره من سبيل . ليت النبأ الذى حمل إلىّ عودتك إلى أرض الوطن ألقى إلى سمحاً سهلاً نقياً ، إذن لأسرعت إليك ولأدّيت بين يديك

بعض ما كان ينبغي أن أؤدى من الشكر والوفاء . ولكنى عرفت عودتك مصادفة ؛ وأى مصادفة ؟ إنى لأذكرها فتقف نفسى عن التفكير ، ويقف قلبي عن الشعور ، ويقف قلمى عن الكتابة ، وتنحدر من عينى دموع غزيرة حارّة ، ولكنها لا تخفف هذه النار المضطرمة بين جوانحى ، نارَ اليأس والحسرة وخيبة الأمل وكذب الظنون !

« هذا المعبد الذى كنت أقمته فى قلبي قد تهدّم ، وهذه الصورة الجميلة التى رسمتها لنفسك فى أعماق ضميرى قد درسها المسخ والتشويه واستحالت إلى صورة مخيفة بشعة تروعنى وتملأ نفسى هلعاً وجزعاً .

« ماذا ؟ أيستطيع الناس أن يرتفعوا من البر والطهر والنقاء إلى حيث ارتفعت يا لورنس ، ثم يهبطوا من الخزى والإثم والعقوق إلى حيث هبطت يا لورنس ؟ أشهد أن الإنسان مستقرُّ المتناقضات ، وأنّ الشهوة أقوى من العقل ، وأن الشر أعظم على نفوس الناس سلطاناً من الخير ؛ أتعرفين كيف انتهى إلىّ نبأ عودتك ؟ فى حديث من هذه الأحاديث المألوفة التى تجرى بين الأصدقاء فى غير تكلف لها ولا احتفال بها . . .

« كنا نسمر فى بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء الذين تعرفينهم ، وكنا نتجاذب الحوار فى موضوعات مختلفة كما تعودنا أن نفعل، فانتهينا إلى الحب، وانتهينا إلى الوفاء ، وأفضنا فى ذلك حتى عرض مكسيم لعادة تقرها بعضُ الجماعات المتحضرة ، عادة تعدد الزوجات .

« وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعاً حاراً، ويذود عنها ذياداً عنيفاً ، ويزعم أن قلب الإنسان أوسعُ من أن يضيق بحب شخصين ، أو حب أشخاص . والأصدقاء من حولنا يجادلونه فى ذلك جدالاً عنيفاً، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر ، ثم منكرة للغلو فيه ، ثم دهشة لهذه الحماسة التى يظهرها مكسيم ، ثم متنبهة لما كان يردد به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض .

« ثم نتفرق ، وقد وقر فى نفسى من هذا الحوار شىء لم يخل من تنغيص لما كان بينى وبين مكسيم من صفو ؛ وأكاد أنسى هذا الحوار وأعرض عنه بعد أيام، ولكن فيليب الذى يتردد علينا ويكثر التردد ، والذى يتودد إلى ويسرف فى التودد ، يزورنى ذات يوم ، وقد عرف أن مكسيم غائب فى بعض أسفاره

القصيرة التى كثرت واتصلت فى هذه الأيام ، فنأخذ فى أطراف من الحديث ، وما أسرع ما يبلغ بحديثه نجوى الحبّ التى أرده عنها كلما ألم بها ، ساخرة منه فى رفق ومودة ، ولكنه فى هذه المرة لم يرتد ، ولم يثب إلى وقاره ورعاية ما كان يرعى من الحق ، وإنما تمرد واحتد وثار ثائره ، واندفع فى ألفاظ مختلطة عرفتُ منها بعد دقائق كل شىء .

« عرفتُ منها أن الرسائل اتصلت بينك وبين مكسيم بعد أن عجزت عن احتمال الفراق الطويل ، وعرفتُ منها عودتك إلى فرنسا واستمرارك فى جرينوبل ، واستئناف الأمر بينك وبين زوجى ، وعرفتُ منها أمر هذه الأسفار القصيرة المتصلة التى كانت تدعو إليها الأعمال فيما كان ينبئنى ، والتى إنما كان يدعو إليها الحب وما استتبع من لهفة بعد طول الفراق ، ومن ظمأ بعد طول الحرمان !

« ولله قلبُ فيليب ، هذا الفتى البائس المسكين ، الذى ثاب إلى رشده بعد أن فضح السر وخان الأمانة وأظهرنى على ما كنت أجهل ؛ فقد تولى كئيباً يائساً مستخذياً ، ثم انقطعت عنى أخباره ، أما أنا فقد ثبت لهذه الصدمة كما ثبت لصدمة أخرى

تعرفينها ؛ فلم أثر ولم أجزع ، ولم أصل إلى الأزمة كما لم أصل إليها من قبل ، ولكنى لم أقاوم حب الاستطلاع ، بل لم أفكر فى المقاومة ، وإنما وازنتُ بين خيانة مكسيم لحبنا وبين ما سأقدم عليه حين أخونه فيما يحفظ من الرسائل، وما هى إلا أن أقتنعَ بأن هذه الرسائل من حقى .

« ويقبل الليل، وتهدأ الحركة، وتستقر الأشياء ، وأذهب أنا إلى مكتب مكسيم ، فأنفق الليلَ فيه مع رسائلك يا لورنس ، على حين كان ينفق مكسيم ليله فى حبك فى غرفة من الغرفات فى مدينة جرينوبل ؛ ولست أدرى كيف أصف ما كنت أجد من شعور حين كنت أقرأ رسائلك الرائعة ، وحين كنت أتصور الخاتمة التى انتهى إليها هذا الجهاد المجيد ؛ ولكنه لم يكن شعور ثورة ولا غضب ، ولم يكن شعور سخط عليك أو لوم لك ، وإنما كان شعوراً حزيناً هادئاً مطمئناً ، وكان شعوراً حزيناً يائساً مصمماً مع ذلك ، وكان فيه كثير من الرحمة لك ، والاعتذار عنك، والإشفاق على طفلنا هذا البائس التعس الذى لن يستقبل الحياة كما كنت أتمنى أن يستقبلها سعيداً بين أبوين سعيدين ؛ وأنا أكتب إليك الآن ، ولست أدرى لماذا أكتب

إليك ؛ ولكني دُفعت إلى ذلك دفعاً .

« أكتب إليك وقد ارتفع الضحى ، وأظن مكسيم يوشك أن يودّعك ، فقد ينبغي أن يبلغنا نحو الساعة الثانية . وقد يصل إليك هذا الكتاب مساء اليوم ، أو صباح الغد ؛ فاقرئيه واذكرى كاتبته ؛ واعلمي أنها لا تضمر لك بغضاً ولا تحفظ لك موْجدة ، وإنما تسدى إليك الشكر ، وتهدى إليك التحية ، وتتمنى لك ما لم يتح لها من السعادة وما لم يقدرلها من النعيم ! »

٢٠

كلا ؛ لم أكن صادقة أيها الدفتر العزيز حين زعمت للورنس أنى لست ثائرة ولا محنقة ؛ ففيم كتبت إليها هذا الكتاب ؟ ولم أرسلته فى غير تردد ودون أن أسأل نفسى عما يمكن أن يكون له من عاقبة ، وعما يمكن أن يحدث من أثر فى نفس هذه الصديق البائسة ، وفى نفس مكسيم الذى سيظهر على كل شىء ؟

لم أكن صادقة فيما زعمت ، وإن كنت صادقة فيما عملت ؛ فقد استجبت لغريزتى ، وأذعنتُ لعواطفى ، ولم أفكر ولم أرو ، ولو استطعت الآن لاسترجعتُ هذا الكتاب ، ولتركت هذين الآثمين البائسين ينعمان أو يشقيان بما قضى عليهما من إثم وبؤس ؛ وما عسى أن ينفعنى هذا الكتاب ؟ أتراه يرد إلى هذا الحب الضائع الذى لا سبيل إلى أن يعود ؟ واحسرتاه ! إنى لأفكر وأقدر كما يفكر الناس ويقدرون برغم ما أشعر به فى أعماق نفسى من انقطاع الصلة بينى وبين الناس ، ومن أنى قد انتقلتُ إلى

عالم آخر يجب أن أفكر فيه على نحو جديد ، بل يجب أن أستريح فيه من التفكير . . .

ما أشدّ شوقى إليك أيتها الأم العزيزة ! ما أشدّ شوقى إليك أيها الأبُ الرحيم ! ما أشدّ شوقى إليك أيها الأخُ الكريم ! لقد كنتم أجدر الناس بلقائى وشفائى من هذا الذى أشقى به ولا أعرف كيف أسميه ، ولكنى لا أستطيع أن أسعى إليكم ، ولا أن أبلغكم ، ولا أن أحملكم من أثقالى أكثر مما احتملتم إلى الآن . . .

وأنت أيها الدفتر العزيز ، ما أشد صبرك علىّ ، واحتمالك لى ، ومواساتك لهذا القلب الكسير ؛ أترانى سأعرض عنك كما عودتُ الإعراضَ عنك ، ثم أعود إليك كما تعودّتُ العودة إليك ، مشغوفةً بك لاجئةً إليك مستخذيةً منك . . ؟ .

وداعاً على كل حال ! ومكسيم . . ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فى مكسيم . . . وأنت أيها الطفل العزيز ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فيك الآن ، وإن كنت لا أجد إلى الانصراف عنك سبيلا . . .

وأصبح الناس ذات يوم وقد قرأوا فى صُحف الإقليم نعى سيدتين أهدَتْ كل واحدة منهما إلى نفسها الموت ، أو أهدت نفسها إلى الموت ، وجعل الناسُ فى المدينة إذا لقى بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ويقول بعضهم لبعض : يا عجباً !... كأنما كانتا على ميعاد !

من مؤلفات الدكتور طه حسين باشا

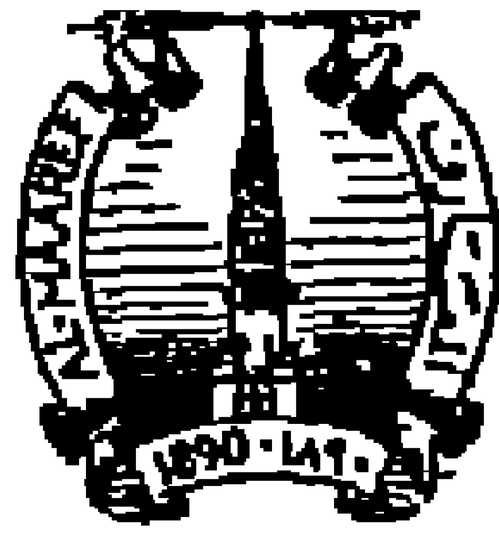
ص	
٢٥	الأيام أول
٢٥	« ثان
٢٠	دعاء الكروان
٢٥	على هامش السيرة أول
٢٥	« « « ثان
٢٥	« « « ثالث
٢٠	الوعد الحق
٤٠	مستقبل الثقافة فى مصر
٣٠	فى الأدب الجاهلى
٢٠	مع أبى العلاء فى سجنه
٢٥	من حديث الشعر والنثر
١٨	صوت باريس ثان
٣٥	فصول فى الأدب والنقد
٤٠	حديث الأربعاء أول

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

من مؤلفات الدكتور طه حسين باشا

ص		
٤٠	حديث الأربعاء ثان	
٤٠	« « ثالث	
٢٥	شجرة البؤس	
٤٠	مع المتنبي	
٣٠	الأيام فرنسي	
٣٠	« إنجليزي	
٥	الحب الضائع	(اقرأ)
٥	أحلام شهرزاد	(«)
٥	صوت أبي العلا	(«)
٥	رحلة الربيع	(«)
٠٠	أديب	تحت الطبع
٠٠	قادة الفكر	تحت الطبع
٠٠	تجديد ذكرى أبي العلاء	تحت الطبع
٠٠	عثمان	تحت الطبع

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



دار المعارف بمصر

تقدم

لجمهور القراء ولجميع الأسر

مشروعاً حيوياً جديداً

فيه نهضة فكرية وفيه حياة راقية

مكتبات المنازل


S.P.M.O.
بيبسي كولا
PEPSI-COLA
QUALITY
Pepsi-Cola
QUANTITY
مشروب الضيافة